الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة منتوري، قسنطينة
كلية العلوم الإجتماعية والعلوم الإنسانية
قسم التاريخ والآثار

رقم التسجيل : ....

الرقم التسلسلي: ....

الإغريق واليهود والألمان في فلسفة نيتشه

(دراسة في فلسفة التاريخ والحضارة)

بحث مقدم لنيل شهادة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر

إعداد الباحث : **أمزيان حسين**

إشراف الأستاذين : **أ.د./ حداد مصطفى** **أ.د./ زروخي اسماعيل**

أعضاء لجنة المناقشة :

أ.د./ **دحو فغرور،** قسم التاريخ بجامعة وهران
أ.د./ **سكفالي عبد الرحيم،** قسم التاريخ بجامعة منتوري قسنطينة
د./ **يمينة عرفة،** قسم علم الإجتماع بجامعة منتوري قسنطينة
د./ **دهوم عبد المجيد،** قسم الفلسفة بجامعة الجزائر

السنة الجامعية : 2007\2006

قائمة المختصرات :

PE : Premiers écrits (le monde te prend tel que tu te lui donne) -1
EJ: Ecrits de jeunesse (fatum et histoire) -2
PHP : Les philosophes préplatoniciens -3
SDG: Le service divin des Grecs (Antiquité du culte religieux des Grecs) -4
Wph : We philologists -5
Hcph : Homer and classical philology -6
Philo.ETG : la philosophie à l'époque tragique des Grecs -7
Sur ANEE: Sur l'avenir de nos établissements d'enseignement -8
CP : Cinq préfaces à cinq livres qui n'ont pas été écrits -9
VMSEM : Introduction théorétique sur la vérité et le mensonge au sens extra-moral -10
LP: Le livre du philosophe -11
NT : La naissance de la tragédie ou hellénisme et pessimisme -12
CI : Considérations inactuelles -13
DS : David STRAUSS l'apôtre et l'écrivain -14
UIHV: De l'utilité et des inconvénients de l'histoire pour la vie -15
SE: Schopenhauer éducateur -16
RWB: Richard WAGNER à Bayreuth -17
HTH: Humain, trop humain -18
OSM:Opinions et sentences mêlées -19
VO: Le voyageur et son ombre -20
A: Aurore -21
GS: Le gai savoir -22
APZ: Ainsi parlait Zarathoustra -23
Pbm: Par-delà bien et mal -24
GM: La généalogie de la morale -25
Cré. id: Crépuscule des idoles -26
CW : Le cas Wagner -27
NCW : Nietzsche contre Wagner -28
Anté. : L'Antéchrist -29
EH : Ecce homo -30
Ess.d'auto. : essais d'autocritique -31
FP: Fragments posthumes -32
VP,I,L1&2 : La volonté de puissance, vol.1, livre 1 et 2 -33
VP,II,L3&4 : La volonté de puissance, vol.2, livre 3 et 4 -34

شكر وتقدير

أتقدم بخالص الشكر وعظيم التقدير لأساتذتي:

أ.د./ **مصطفى حـــداد**

أ.د./ **زروخي اسماعيل**

أ.د./ **فرانسيس ڤولف *Francis WOLFF***

على ما منحوني من علمهم وتوجيهاتهم ووقتهم، وعلى تحملهم عناء الإشراف.

كما أتقدم بالشكر الجزيل لأعضاء لجنة المناقشة، الآتية أسماؤهم، على قبولهم مناقشة هذا البحث وعلى تحملهم عناء قراءته وتصويبه:

د./ **يمينة عرفة**، قسم علم الإجتماع بجامعة منتوري قسنطينة؛

أ.د./ **سكفالي عبد الرحيم**، قسم التاريخ بجامعة منتوري قسنطينة؛

أ.د./ **دحو فغرور**، قسم التاريخ بجامعة وهران؛

د./ **دهوم عبد المجيد**، قسم الفلسفة بجامعة الجزائر.

كما أشكر الأستاذان الكبيران: **مارك كريپون *Marc CREPON* ومارك دو لوناي *Marc De LAUNAY*** على سماحهم لي بحضور محاضراتهما في جامعة الصربون والمشاركة في منتدياتهما حول نيتشه بالمدرسة العليا للأساتذة في باريس طوال سنة جامعية كاملة تقريبا؛

أشكر أيضا كل من ساعدني من قريب أو من بعيد في إنجاز هذا البحث، وأخص بالذكر:

ـ الأستاذ **روبرت دوران *Robert DORAN*** من ميدلبيري كوليج *Middlebury College*، الذي لم يتوانى في إرساله لي بمقالته فور إتصالي به، وكذا كاتبته **ميشال توماينتس *Michelle TOUMAYANTS*** على حسها الأكاديمي؛

ـ صديقي العزيز الأستاذ **مراجي رابح**، الذي ذَلَّلَ لي الكثير الصعوبات؛

ـ **أسرة المدرسة العليا للأساتذة بقسنطينة**، مسؤولين وأساتذة وإداريين وعمال، والذين ساهموا كلهم في إيجاد جو عمل أسري وأخوي ساعدني كثيرا.

ـ **وزارة التعليم العالي والبحث العلمي**، على منحة التربص في الخارج.

أمزيـــان حســـين

فهرس مفصل جزئيا:

الفصل الرابع: نماذج ثقافية لمستقبل أورپا والعالم

مقدمة:

أن نبحث عن إمكانية الوقوف على فلسفة تاريخ وحضارة، من خلال دراسة نماذج ثقافية، لدى فيلسوف يرفض التاريخية وجميع الكيفيات التي كُتب بها النص التاريخي، يعتبر نفسه "لاآنيا"* inactuel ، "يؤمن" بغربته عن عصره وبكونه فاصلا في تاريخ البشرية، فتلك محاولة محفوفة بشتى أصناف الصعاب وفي جميع عناصرها، تثير من الأسئلة أكثر مما يمكننا أن ندرجه منها على الأقل ضمن أرضية ما يدعوها صاحبها "طريقةً". من هذه النقطة بالذات، من كون هذا الفيلسوف مُجْبَرٌ على التعامل أولا مع معطيات تاريخية أو موجودة في واقع عصره، ينشأ التساؤل عما إذا لم يكن كل ذلك محاولة إنفلاتٍ من الواقع الذي تُوصِلُهُ إليه ثقته في "القوة التي لا تحتاج إلى أي مبرر" أو "الشجاعة في غياب الشهود". تتوالى الأسئلة، الواحدة بعد الأخرى، إلى أن نبلغ السؤال الذي يعيدنا في كل مرة إلى نقطة البداية: ألا تكون روح المغامرة، التجربة الأولى، البحث المستمر، معالجة الموضوعات بمنظور فني، نية التشريع للآتي...إلخ، دليلا على الوقوع في "شباك قواعد اللغة"؟ لأنه ليس من السهل علينا فهم المسائل المرتبطة بالثقافة والحضارة وبمستقبلهما من خلال إيجاد المعبر المؤدي من الفيلولوجيا إلى الأنتروپولوجيا، ومن ثمة فهم طريقة هذا الفيلسوف.

الفيلسوف هو نيتشه، فيلولوجي مدرسة پفورتا Pforta الشهيرة، الذي تمكَّن من وضع الفلسفة أمام تساؤلات عميقة، ومن ثمة من تمكينها من الإنتقال إلى مرحلة جديدة، ومن إرساء ما يمكننا أن نسميه **فلسفة الحياة الصاعدة**، المبنية على الدفع بالتفكير إلى حدوده القصوى، بكل ما تنطوي عليه التسمية من معاني، وكذا من نقد التاريخية historisme وتقديم تفسيرات جديدة لموضوعات تاريخية عدة: كظاهرتي الحالة الديونيزية والمدينة polis الإغريقيتين، ومن وضع أسس علم النفس الحديث ثم التأثير لاحقا في تيارات فكرية وأدبية وفنية شتى.

بالنظر إلى عمقها وثرائها وما تثيره من قضايا أساسية، فإن هذه الفلسفة التي أنجزها نيتشه من مختصرات raccourcis بمحاولته تفكير المصير، بمقابلته الحاضر ــ المبني على الماضي ــ بالآتي، لا تُعْرِضُ نقدا متميزا لطرق البحث الماضية فحسب، بل "فلسفة جديدة"، والتي نظرا

* بالنظر إلى كون الحاضر موضوع التخطي النيتشي، مثلما تدل على ذلك عبارة: "بمعزل عن خير وشر"، وعلاقة ذلك بما يفهمه نيتشه من كلمة "زمن" وفكرة "العودة الأبدية"، فإننا لم نترجم كلمة inactuel أو intempestif بـــ:"لاراهن".

لارتباطها بالآتي، الذي تأخذ منه "مهمة الفيلسوف الجديد" معناها، يشغل الإبداع حيزا أساسيا منها، أيضا، وذلك ما يعني:

1 ـ أن أرضية البحث لديه تاريخية وثقافية برمتها، وسوف نلاحظ مثلا كم هو دائمٌ حضورُ الإغريقي فيها ؛

2 ـ ضرورة تكوين الباحث لنفسه في هذه "الفلسفة الجديدة" قبل الشروع في أي بحث فيها، لأن الإعجاب وحده لا يكفي للإلمام بها أو إخضاعها لشروط البحث الجامعي، ومن ثمة الإنتهاء منها إلى نتائج تخدم فلسفة التاريخ والحضارة لدى جيلنا.

من البداية، ومع أولى قراءاتي لأولى فقرات نيتشه، إثراءً لما يمكنه أن يكشف لي عن روابط خفية بين الإغريق واليهود والألمان، أدركت أن البحث في فيلسوف، أُعطيت حتى لكتابات طفولته ورسائل جنونه مكانتها الأولى ضمن جميع أعماله في أبحاث فلاسفة كبار، هو في حد ذاته موعد مع العظمة والتميز من ثلاثة جوانب أساسية:

1 ـ تحول نيتشه نفسه إلى عامل حاسم في تطور الفكر الغربي، بالنظر إلى ما أثاره من قضايا وعرضه من أفكار وكذا حجم تأثر الكثير من الفلاسفة به بما في ذلك الكثير من "أعدائه". المهم بالنسبة لنا في هذه النقطة يكمن في أن موضوع بحثنا لم يعد يتحدد بالنماذج الثلاثة (الإغريق واليهود والألمان) فقط بل إن نيتشه نفسه، وبفضل كونه صاحب "فلسفة جديدة"، صار يشكل عنصرا أساسيا فيه بالنظر إلى مدى تأثره بالإغريق وعلاقته المباشرة باليهود والألمان، وإلى شتى التأويلات التي أُخضعت لها فلسفته، وخاصة إبان السنوات القليلة التي سبقت وأعقبت الحربين العالميتين؛

2 ـ لا يمثل الإغريق واليهود والألمان نماذج ثقافية متميزة فحسب بل سوف تشكل فرادى ومجتمعة عوامل يتحدد بها مستقبل أوربا؛

3 ـ لا يتعامل الباحث في فلسفة نيتشه مع مئات البحوث والكتب، التي أُلِّفت عنه في شتى اللغات*، فحسب بل أيضا مع فلاسفة كبار أمثال ياسبرز، هيدغر، كوفمان، لوفيث وغيرهم، وذلك ما يزيد في صعوبة البحث ويجعل من نيتشه "شيئا" شبيها بالواقعة التاريخية التي يتفق الجميع بشأن حدوثها ويختلفون بشأن تفسيرها. ثم علينا ألا نغفل مراحل تطور فلسفة نيتشه وما تثيره من

* بلغت الأعمال التي أُنجزت حول نيتشه عام 1968 أكثر من 4500عنوانا (M. de Launay : Nietzsche, sine die., Magazine littéraire (hors-série)., 4° trimestre 2001., p.7) ؛ إطلعنا مؤخرا على تُرْجِمةَ لنيتشه إلى الأمازيغية في المغرب Nietzsche : Ghikad a s isawal Zarathoustra., Tarurt Mohammed Lârbi. (ex. Afgan amattuy., in : Amadal amazigh, n°65., octobre 2955/octobre 2005).

تساؤلات، رغم وحدتها، أي ما جعلنا نركز على كتابة نص إيجابي، نستبعد فيه الإفراط في الحديث عن تناقضات الفيلسوف.

بمعزل عن ظروف "إلتقائي" بنيتشه، وهي الظروف ذاتها تقريبا التي جعلت لكل باحث في فلسفته قصة معه، ورغم ذلك الحلم الرائع الذي كان وراء ميلاد "إلياذة الجزائر"، فإن غربتنا عن الثقافة الإغريقية الرائعة_ التي لم نكن نملك متخصصا واحدا فيها، في الوقت الذي كانت تُقَدَّمُ لنا فيه دروس مستفيضة عن أمجاد زائفة_ هي التي قادتني إلى نيتشه، بعد قراءة "ميلاد المأساة" وعدم فهمي لجدوى التاريخ ككثير من التفاصيل، التي يرغم الحاضر أبناءه على إجترارها بغض النظر عما إذا كان له الحق في ذلك أم لا. وقد كان من السهل عليّ تكسير حاجز الخوف من اليهود، الذي ربتنا فيه "ثقافتنا الشعبية" أكثر مما أرادته لنا "الصهيونية السياسية" حالة دائمة، وتجاوز ذلك الإعجاب الشديد والعقيم بالألمان، أي، باختصار، محاولة النظر إلى نماذج ثقافية بمنظور إيجابي، ومن ثمة إخضاع أثر الشعبي في المعرفة للمناقشة الموضوعية.

ثمة نقطة أساسية لفتت إنتباهي في مشواري، وتتمثل في كوني عاصرت تحقق بعض من نبوءات نيتشه وخاصة تلك المتعلقة بالوحدة الأوربية وانهيار الإشتراكية وانكشاف زيف الديمقراطية...إلخ، مما دفعني إلى البحث عن كيفية توصل نيتشه إلى تنبؤاته تلك بالرغم من رفضه للتاريخية.

بكثير من القراءة المتأنية، إكتشفت أن مقابلة نيتشه للمثل الأعلى القديم بالمثل الأعلى الجديد غير كافية لوحدها لتقديم شرح واف للموضوع، لأن ذلك يجعل منه مجرد فيلسوف ينجز فلسفة من ردود أفعال ضد ماضٍ يرفضه، وفي ذلك إغفال لكل جديد أتى به. وكان علي، في مرحلة تالية، أن أفهم ما يعنيه نيتشه بمقابلته تطابقية conformism سابقيه بتأكيديته affirmism، أي الوجود بالمصير، الثبات بالتغير، العقل والأخلاق بالطبيعة والجسد، التاريخ بما قبله، آسيا بأوربا، المصلوب بديونيزوس...إلخ، حيث كان ذلك إنتقال إلى مستوى آخر في كيفية معالجته لموضوعاته، أين تكاد كلمة قيمة تكون مرادفة لكلمة حياة وكلمة تقدير تكون مرادفة لاسم نيتشه نفسه، الذي جعل أيضا، بمحاولته تفكير المصير، مفهوم نسق system يلامس معنى كلمة تشاؤم، أي ما نجم، حسب إعتقاد نيتشه، من إفتراض الإنسان لوجود شيئين متطابقين، وهي الفكرة الأساسية في كل لغة وكل منطق وسببية...، والتي تكشف عن إمكانية التوفيق بين المعرفة والمصير وعن مدى تأثر نيتشه بهيراقليط Héraclite.

سمح لنا ما سلف بفهم أهمية الحدس في كل معرفة وكذا عدم وجود أي نوع من المعرفة المستقلة عن صاحبها، وذلك ما يعني إرتباط الموضوعية بمثالية الإنسان وعدم وجود مشكلة معرفة، لأن كل ما نسميه معرفة هي سلسلة التفسيرات البشرية المتتالية في الزمان والمكان؛ وباختصار، فإنه ليست الحادثة التاريخية وحدها تتميز بكونها فريدة من نوعها بل كل سلوك ثقافي بشري أيضا، وذلك ما أضفى على كلمة Versuch (محاولة) الألمانية معنى عميقا في فلسفة نيتشه وأعطى تبريرا لحديثه عن التجارب الفريدة وإخضاع دراسة الماضي لتجاربه الشخصية، وتلك واحدة من إضافاته الكثيرة إلى فلسفة التاريخ، أي معرفة الذات كشرط لمعرفة العالم.

واضح أن لتجربة نيتشه، في فترته الأولى وخاصة مع "ميلاد المأساة من روح الموسيقى"، أثر على فلسفته اللاحقة، التي حين نضيف إليها عنصر القوة، فإنها تجعلنا نفهم أن الحقيقة تجاوز وبحث مستمر، وأن هذا الأخير مرتبط بشخص الباحث بالمعنى البيولوجي، مثلما يقتضي ذلك البحث الفيلولوجي والجينيالوجي أو الحس التاريخي Historischer Sinn، مما يجعل كل معرفة منظورية perspectiviste. كانت تلك نقطة إرتكاز نيتشه برمتها، حيث تلتقي مفاهيم كالطبيعي والبيولوجي وما قبل التاريخي واللاشعور...إلخ عند مفهوم الحياة الصاعدة ليقدم نيتشه بواسطتها تاريخا للبشرية بنظرة جديدة وانطلاقا من النموذج الإغريقي ما قبل سقراط، باعتباره أرضية تاريخية توفر للإنسان فكرةً عن الممكن وتجيب عن التساؤل بشأن كيفية تمكن الإغريق من التغلب على فوضاهم وانتصارهم على التشاؤم. النموذج الألماني كان محور فلسفة نيتشه إبان المرحلة الأولى وأمله في تحقيق جسرٍ موصلٍ بين ڤاغنر Wagner وإيشيل Eschyle ويجعل من الثقافة الألمانية تكملة لنظيرتها الإغريقية، غير أن الحرب البروسية–الفرنسية وقطيعته مع ڤاغنر وظروف كثيرة أخرى جعلته يُعَدِّلُ ظاهريا عن فكرته ويستبدل ألمانيا بأوربا دون نسيان الأولى، مع إعطاء مكانة متميزة ليهود الشتات، باعتبارهم شعبا خرج من تلك العبقرية التي جعلت أكثر من نصف العالم يركع لأربعة يهود، واكتسب أطول خبرة في "مدرسة الويل"، وانتهى به المطاف إلى أن يأخذ في التحول تدريجيا إلى دليل لأوربا في مسيرتها.

كما نلاحظ فإن ما يسميه نيتشه حوار ذرى البشرية، يجد تعبيره في النماذج الثلاثة وكأنها روافد تصب في نهر واحد لتجعل من أوربا، القارة الوحيدة التي تشرح لنفسها ما قامت وتقوم به، هوية تقف في وجه آسيا وتسعى للهيمنة على العالم بقيمها الرفيعة و"بِنِيَّتِهَا" في إنتاج الإنسان المتفوق، وبهذا المعنى تأخذ فلسفة نيتشه معنى: مهمة الفلاسفة الجدد وتضحى بذلك فلسفة عملية.

كان البحث في ارتباط الفردي بظاهرة المدينة polis في الحضارة الإغريقية آخر نقطة تسمح لي بجمع العناصر الكافية لشرح إرتباط النماذج الثلاث في المشروع النيتشي، لأنه، ومثلما يبدو لي، فإن مشروع نيتشه يستند في سيكولوجيته إلى ذلك الإرتباط نفسه بالرغم من أن نيتشه لم يفصح عنه.

إلى جانب السهولة النسبية في الوقوف على العلاقة القائمة بين معرفة نيتشه الكبيرة باللغة وإمكانية فهم فلسفته إنطلاقا من أي جانب فيها، توفر لنا هذه الفلسفة أيضا مداخل ومخارج لا حصر لها تسمح لنا ــ رغم ما ينجم عن ذلك من إستعمال الفقرة الواحدة في أكثر من موقع ــ بجعلها مفهومة في كل عنصر من بحثنا، الذي تناولناه بكيفيتين متقاربتين في طرح الأسئلة ومعالجة الموضوعات، أي ما يوافق تقسيم البحث إلى قسمين رئيسيين، كل واحد منهما من فصلين، أحدهما عام لنيتشه والآخر عملي لي:

القسم الأول، محاولةٌ لشرح الأسس التي إستند إليها نيتشه في نقده لما أسماه "تاريخ أطول خطأ" بغرض الخروج بطريقة تُمَكِّنُنَا من شرح فلسفته في التاريخ والحضارة وتقديمها بكيفية مبسطة. ومن بين النقاط الملفتة للإنتباه في هذين الفصلين الأوليين :

ــ ذلك التحليل العميق للغة الذي سمح له، بفضل مجهوده الفيلولوجي والجينيالوجي، بأن يعيد ربط الفيلولوجيا بالحضارة ومن ثمة إنجاز فلسفة تستند إلى الفيزيولوجيا وعلم النفس والتاريخ؛

ــ لشدة إرتباط فلسفته باللغة، فإن نيتشه لم يكن يخش أية مغامرة بأية كلمة أو أي مفهوم؛ وأعتقد أن جزءً لا يُستهان به من جرأته على "مجابهة خوف ألفياتٍ" وتحطيمه لما يسمى طابوهات، من قدرته على صياغة مصطلحات جديدة وأحيانا أخرى لغة خاصة به، لا يُنِمُّ عن كونه عقلا متحررا فحسب بل تأتَّى له من ذلك الأمر نفسه ومن كونه منفذا إلى ميدان البحث بكل حرية، دون نسيان إستقامته الفكرية التي تستوجب عليه أن يسعى لرؤية الأشياء كما هي؛

ــ لنيتشه حاسة شم حاذقة للغاية، فقد سمح له تعامله مع ذرى الثقافات، ومن ثمة إدراكه بأن العقول الحرة هي التي تصنع التاريخ، بأن يقف دائما تقريبا على ما يربط بين سلوكات ثقافية لدى شعوب متنوعة وفي عصور متباعدة، فكانت مثلا عبارات من نوع "الأمر النهائي" الكانطية كافية لكي يتخذ موقفا محددا، أو يجد ما يدعم به مواقفه السابقة، من ثقافة بأكملها؛

ــ الطابع الإنساني في فلسفته: لا يدل إهتمام نيتشه المفرط بالإغريق، واتخاذه منهم "شعبه المختار" ومعيارا يقيس بواسطته النماذج الأخرى، سوى على أنه لديهم تعرَّفَ على الممكن وعلى حجم الخطوات التي يمكن للإنسان أن يبلغها، وأعتقد أن أصل بيولوجيته وفيزيولوجيته يعود إلى

محاولته الإجابة عن السؤال: كيف تمكَّن الإغريق من الخروج من فوضاهم ثم التفوق على غيرهم؟ ولذلك سنجد فيلسوف الحضارة "الكامن فيه" ينظر إلى الإنسان على أنه ظل مريضا وقَلَّمَا تمكن من إدراك الأشياء بكيفية سوية؛ يُلقي بنظرة من علٍ إلى التاريخ فَيُدْرِكُ أن جميع "النجاحات" التي تُنسب إلى البشرية ليست سوى صُدَفًا، لأن البشرية لم يحدث وأن شكَّلت كُلاًّ أو أعرضت قليلا عن النظر إلى السماء لكي تتمكن بإرادتها من إعطاء معنى أرضي لوجودها ومن الإستعمال الأقصى لإمكانياتها، مثلما تدل على ذلك عبارة "إنساني للغاية"، التي تعني وثني، طبيعي، مرتبط بالغريزة الطافحة والقوة الكامنة في الإنسان. وحتى لو نالت أوربا نصيبا زائدا من الإهتمام في الجانب السياسي للفلسفة، فإن مقابلة الإنسان الأخير بالإنسان المتفوق لا تجعل من ذلك يُغيِّرُ شيئا من ذلك الطابع. ثم لابد لنا من الإشارة في هذا السياق إلى تقدير نيتشه الكبير للمسلمين وخاصة لـــ"الحضارة المورية الرائعة في الأندلس"؛

ـ إختبار نيتشه لشتى القضايا والموضوعات بكيفية غير مألوفة والتي، رغم ذلك، تستند في عمقها إلى ما سميناه المنهج البصري، أي تفسير الأفكار بطريقة معكوسة؛ ومن ذلك كان حديثه عن "فضائل" من نوع: "معرفة المناقضة" و"السيادة" و"حِكَّةُ اللامنتهى واللامحدود "...إلخ، أي ما يعكس إحدى العناصر الرئيسية في ثقافة الألمان، ونعني بها فكرة المصير.

إلى جانب الصعوبة التي يوفرها العدد الهائل للفقرات، التي كتب فيها نيتشه مؤلفاته، فإن هذه الطريقة أيضا تزيد من صعوبة البحث وفي إمكانية الإستقرار على رأي محدد له؛

ـ طريقة نيتشه في رد أفكارٍ، وحتى فلسفات كاملة، إلى نقاط أساسية: كأن يتوصل بنقده للماضي إلى الصيغة القائلة بتماهي الحقيقة مع الله ومن ثمة فكل حقيقة إلهية، أو أن يوجد في قوله "لا تُسَوُّوا أبدا بين غير المتساوين" ما لا ينطبق في العمق على البشر فحسب، بل على حقيقة الأشياء كلها في فلسفته أيضا، التي هي علاقة التفسير بالمصير. وإذا ربطنا هذه النقطة بالسابقة فإننا نفهم لماذا قالت عنه لو سالومي Lou von Salomé بأنه "لا يسعى لـــ**تعليم** الناس بل إلى **هَدْيِـــ**هِمْ"[1]؛

ـ إستند نيتشه في تحليله لأطول خطأ إلى فكرة المساواة تلك، التي أدت إلى سيادة قيم الضعفاء المُسَوِّيَة والتي جعلت بدورها من الإمتياز حقا للجميع، لتقود بذلك الجميع إلى القيم العدمية؛ ومن هذه الفكرة أيضا كان إهتمام نيتشه بشعوب صغيرة (الإغريق واليهود مثلا) تمكنت من جعل العالم يدور في فلك أفكارها وقيمها، وظهرت فلسفته على أنها إنتقائيةـ أنجزها من أفكار إنتقائية

[1] Friedrich Nietzsche- Paul Rée- Lou Von Salomé : Correspondance., édition établie à partir d'un travail effectué par K. Schlechta et E. Thierbach., trad. de l'allemand par Ole Hansen-Love et Jean Lacoste., Quadrige & PUF., 1979., p.158

كالذاكرة والنسيان وإرادة القوة والعودة الأبدية...إلخ ــ تستبعد كل ما يبجله الضعفاء أو عصره لتختار ما يخالفه.

القسم الثاني، من فصلين أيضا، وفيه أعدت لأول مرة بناء فلسفة تاريخ وحضارة جديدة إنطلاقا من المصادر ودون الإعتماد على أي فيلسوف. وفي هذا القسم، إتبعت طريقة طرح الأسئلة باستمرار وإخضاع فقرات نيتشه للنقد، حيث برهنت مثلا على وجود تطورية وتدجينية لديه، بالرغم من تنصله منهما؛ على كون فلسفته نسقية وعلى حديثه بلغة منطقية وإتباعه نظام السببية رغم كل ادعاءاته النافية. وفي الفصل الأخير، شرحت أهمية النموذج الثقافي كأرضية في فلسفة التاريخ والحضارة، علاقة الفرد بالثقافة التي يعيش فيها وتلك التي يساهم في إنتاجها، أهمية ما سماه نيتشه أكبر "المُكَمِّلات" *continuums*، التي تستمر وتنتقل بواسطتها الثقافة، وحاولت الحديث عن اليهود بالإعتماد على مصادر لفلاسفة وباحثين يهود، معظمهم من المتخصصين في فلسفة نيتشه، كي أحرر رؤية نيتشه من معيار "معاداة السامية"، الذي حاول الكثيرون جعله منظورا وحيدا يدرس على ضوئه موقفه من اليهود. وفي هذا الفصل أيضا، أكدت الفكرة التي أشرت إليها في الفصل الأول، بأن نيتشه بلغ مداه وأنه بالرغم من الهزة الهائلة التي أحدثها في الفلسفة، إلا أنه ظل دائما إبنا لبيئته وعصره وأن حديثه عن التجاوز توقف عند جملة نقاط ومنها مع اليهود ــ الذين رغم أن إعجابه بهم، الذي لا يجد تبريره سوى في قوة تأثيرهم الأخلاقية، في عبقريتهم الأخلاقية وطرقهم في إقناع غيرهم...وليس في ما أقنعوهم به ــ فإنه جعل منهم عاملا حاسما في تاريخ مستقبل العالم.

في هذا القسم أيضا، الذي يمثل جديدنا في هذا البحث، عَرَضْنَا العديد من النقاط وناقشنا الكثير منها لأول مرة، ومنها : معالجة نيتشه الفلسفية للزمن وإدخال عنصر المستقبل في نظام السببية؛ الموضوعية في التاريخ؛ أشكال التاريخ المتفائلة والمتشائمة أو الوعاء الذي يلتقي فيه التاريخ–العلم بالعلم والأخلاق والديانات... وما إلى ذلك مما يسميه نيتشه الثيوديسيات المتسترة؛ الذاكرة والنسيان والذمامة casuistique ؛ تحليل تنبؤات نيتشه؛ أفكار كالحتمية والغائية والتطور...إلخ.

كانت نيتي من البداية، جعل نيتشه يتحدث لأول مرة بالعربية، غير أن إعتمادي على الترجمتين الفرنسية والأنجليزية لنصوصه وكذا صعوبة نقل تلك الترجمات إلى العربية، جعلني أقدم نصا مرفوقا بتمني أن يفهمه القارئ مثلما قصدت منه، لأنني إكتشفت أنه من الصعب جدا بلوغ المعنى العميق للنص النيتشي بواسطة اللغة العربية. ورغم كل الصعوبات، فإني أرى أنه

من حقي القول بأني واحد من القلائل، الذين استخدموا جميع أعمال نيتشه في بحوثهم، وبكثافة واعتمادا على ترجمتي الشخصية فقط. وبالنسبة للمصادر والمراجع، التي إعتمدت عليها في إنجاز هذا البحث، فقد ركزت فيها على أعمال كبار الفلاسفة والمتخصصين في فلسفة نيتشه، وسمحت لي مطالعاتي الكثيرة بأن ألاحظ تقاربا وتشابها كبيرين في محتويات المراجع الكثيرة جدا، التي ساهم الهواة والمتحزبون، وغيرهم من الفئات غير المتخصصة، في تزايد عددها باستمرار. وإجمالا، يمكنني أن أعتبر فئة اللغويين والألمان واليهود أفضل العارفين بفلسفة نيتشه، كما أفضل قراءة أعمال جيل الثلاثينات على نظيراتها اللاحقة، بالرغم من أن جيلَ مارك دو لوني وباربارا ستيغلر ومارك كريپون...وغيرهم، تمكنوا من إعطاء دفعة وطعما جديدين للتقاليد الفرنسية المعاصرة التي بدأت مع جيل ج. دلوز. الجامعيون الأمريكان، من جهتهم، نشروا أعمالا ومقالات كثيرة يتميز جزء هام منها بجرأة أصحابها وعمقهم، وتعتبر أعمال ج. أ. مورغان و و. كوفمان وج. ريتشاردسن أفضل ما قرأته لأمريكان حول نيتشه.

5- من العرض إلى المرض:

يعيدنا هذا الموضوع إلى أرضية كل تفسير نيتشي، أي إلى النقطة التي يمتزج فيها الطبيعي بما صارت الثقافات تسميه "بشريا"، بعدما تمكَّنت من تطليق تضادية الحب والحقد، الإعتراف والضغينة، الإحسان والغضب، التصرف الإيجابي والتصرف السلبي، الجِدُّ مرتبطين أحدهما بالآخر، في كل عِرْقٍ رجالي قوي وظل قريبا من الطبيعة، عن طريق نشر مرض الفلج الشَّقِّي hémiplégie، القائل بأن المثالي يكمن في امتلاك نصف القدرة، أي عن طريق ابتداعها للإنسان العدل juste أو فلج الفضيلة الشقي الذي يعكس إيديولوجيا مضادة للطبيعة[1].

ويكشف لنا "اتخاذ الجسد كدليل"[2]، أننا "حين نتحدث عن الـــ**إنسانية** فإننا نبني حديثنا على فكرة أن الإنسانية قد تكون ما **يفصل** الإنسان عن الطبيعة، غيرأنه لا وجود لهذا الفصل في الحقيقة: فالخواص "الطبيعية" وتلك التي نقول عنها أنها "بشرية"، ممتزجة يبعضها البعض بكيفية لا تنفصم. في هذه الخاصيات الأنبل والأرفع، يكون الإنسان في كُلِّيَتِهِ طبيعة ويحمل في ذاته غرابة هذا الطابع الطبيعي المزدوج"[3]، أي أن "له في كُلِّيَتِهِ كافة صفات العضوي هذه التي تبقى جزئيا غير واعية، وتضحى لنا في جزئها الآخر واعية في شكل غرائز"[4]؛ ومن ثمة فاللاشعور أسبق من الوعي والجسد قبل الروح. وباختصار: الحياة قبل الأخلاق؛ وقد دلل نيتشه على ذلك بسخريته المألوفة بأن الحيوانات تعتقد أنه "لا وجود للبشرية لأنه لم يحدث وأن وُجِدَ الإنسان الأول"[5]، وأن حيوانا يعرف النطق، قال ذات يوم أن "الإنسانية فكرة مسبقة لا نعاني منها، على الأقل، نحن الحيوانات الأخرى"[6]. ومن تلك المعاناة وقف نيتشه على ما رآه اكتشافا توصَّل إليه– بعدما درس أعراضا كالعدمية والتشاؤم والانحطاط ورد الفعل ...، وشخَّصَ أمراضا كالحقد والشعور بالذنب والشعور بالخطأ والمثال الزهدي ...،– والذي يقول "أن الأخلاق هي الغريزة الناكرة للحياة، لأن كافة القوى والغرائز، التي تجعل الحياة والنمو ممكنين، **أدانتها الأخلاق**"[7]. وذلك ما يكشف بشكل جلي أن الأمر يتعلق أساسا بعلاقة الإنسان بالحياة، ذلك أنه "في كافة الأزمنة، أصدر كبار الحكماء حكما على الحياة مفاده: **أن لا قيمة لها**"[8]؛ وذلك ما يجعل نوعا من "الإتفاق، من نوع **فيزيولوجي**، يسود بين كبار الحكماء هؤلاء ويَجُرُّهُم إلى تبني الموقف المُنْكِرَ ذاته حيال الحياة ...و**العجز** عن غير ذلك."[9] ولأن "الحي جزء من الحياة، بل وموضوع النزاع وليس القاضي، **فإنه لا يمكن تقدير قيمة الحياة**"[10]. إن إصدار "أحكام، أحكام القيمة على الحياة، مع الحياة أو ضدها، لا يمكنها أن

---

1 VP,I,LI,277
2 VP,I,LII,192
3 Philo.ETG, la joute chez Homer., p.196 ; VP,II,LIV,414
4 VP,I,LII,192
5 ibid., 69 ; VP,II ,LIII,281
6 A,333
7 VP,I,LI,299
8 Cré.id, le problème de Socrate, 1
9 ibid., 2
10 VP,I,LI,299

تكون صحيحة في نهاية المطاف إطلاقا: إنها لا تساوي سوى أمر كونها أعراضا"[1]، لأن من يقومون بذلك لا يفعلون شيئا بغير "مقابلة شكل تفكير بآخر وكأنه عليهما أن يتصارعا بشأن ما هو حقيقة، في الوقت الذي ليسا فيه سوى عَرَضَيْنِ وأن **صراعهما** يدل على وجود مشكلة حيوية وليس قضية فلسفية"[2] .

إنطلاقا من قوله: "لا يكمن خلاصنا في **المعرفة** بل في **الإبداع !** ففي الظاهر الأقصى وفي أنبل انفعال émotion تكمن عظمتنا"[3]، و"أن الإغريق تحكموا في غريزة المعرفة لديهم– التي لا تشبع، بفضل الاحترام الذي يكنونه للحياة، بفضل حاجاتهم المثالية للحياة .... لأن ما يتعلمونه يريدون أن يعيشوه بعدئذ مباشرة"[4]، فضلا عن اقتناعهم بأن "الإنسان هو الحقيقة الوحيدة وعمق الأشياء"[5]، مما جعل بلادهم، قبل سقراط، "الموطن الوحيد والحقيقي للثقافة"[6]– نفهم أن الموضوع بِرُمَّتِهِ مرتبط بالعالمين اللذين ابتدعتهما الميتافيزيقيا: عالمي الظاهر والباطن، اللذين يمثل فيهما الرمز "أفلاطون ضد هوميروس"[7] مقابلة نيتشه تاريخ البشرية، الأوروبية المسيحية خاصة بدء بسقراط وأفلاطون، بتاريخ اليونان ما قبل سقراط ومحاولة استرجاع إنسانيته "الأكثر بشرية عن غيرها"، وخاصة لتميزها بامتلاكها طابعا قاسيا كمظهر لرغبة وحشية في التخريب[8]، والتي لا تخجل من فضاضتها أو من غرائزها، تقول نعم للحياة ولا تصدر منها سوى الأفعال الحرة، في الوقت الذي لا تمثل فيه البشرية الأخرى– بدء بأفلاطون، كمعبر يؤدي إلى الفساد[9]، ثم المسيحية والإيمان بصفة عامة، كمعبر إلى الحمار[10] ،[*] وانتهاء عند نيتشه نفسه، الذي اعترف أنه ابن عصره، أي **منحط[11]** ومتشائم أخلاق،[12] ولم يتجرأ على الإعتراف لنفسه بأنه كان عدميا حتى النخاع سوى بعد مضي وقت ليس بالهين[13]، حين فهم الانحطاط بفضل الفيلسوف الكامن فيه، ومقاومته له بكل قواه[14]، قبل أن يضحى من يعلن **الخبر السار** بأنه أول من يمتلك مقياس "الحقائق" وأول من **يقدر** على القرار على أنها كذلك، بعدما دمَّرَ كافة الحقائق لكل الأزمنة ومثاليتها

---

1 GS., préface., 2 ; VP,II,LIII,324 ; idem

2 VP,II,LIII,324

3 LP,84

4 Philo.ETG, 1

5 ibid., 3

6 Sur ANEE., 2[e] conférence, p.11

7 GM, III, 25

8 GS.,344 ; Phil.ETG, la joute …, p.196

9 VP,I,LI, 380

10 ibid. ,426

* "أنا ضد الحمار anti–âne، وفي هذا عملاق فريد في التاريخ،- أنا، باليونانية وبغيرها، **المسيخ الدجال**" (EH, pourquoi j'écris de si bons livres, 2, p.133)

11 CW., p.17

12 VP,II,LIII,84

13 Ibid,98

14 CW, p.17

idéalité[1] – سوى "معالجة تخلية لمشكلات حقيقية"، على حد تعبيرألتوسر Althusser[2]، مثلما سيلي شرح ذلك:

– **الأعراض:** هي المرآة التي تعكس تاريخ أخطاء بشرية عمَّرَتْ ألفيات من الزمن، نجمت أساسا على إضطرار الإنسان للعيش وسط أشكال شتى من التجمعات البشرية، مما إضطره إلى التصرف وفق ما تمليه عليه جميع أشكال الإجبار الاجتماعي، ومن جهة أخرى عن سوء فهمه للجسد وذلك ما جعله "أكثر مخلوقات الطبيعة نكبة وإثارة للنفوس لِتَخَفِّيه لعبقرية ذاته، حيث أخذ بعدئذ يلتفت كالأعمى يمينا وشمالا، إلى الخلف وإلى كافة الإتجاهات (...) لأنه لم يرد أن يسمع صوت ضميره الذي يصرخ قائلا له: كن على حقيقتك ! لست كل ما أنت فاعله ومفكر وراغب فيه الآن"[3]. لقد صار الإنسان، إذا استثنينا العدد القليل من "الصدف السعيدة"[4]، مريضا بل مرضا وأرضا خصبة لنمو شتى الأمراض، لأنه ابتدع بعجزه عالما لا يمجد فيه سوى إنسان العامة، عالما جاء نتيجة لحقده على الفئة القوية والعنيفة والسيدة والنبيلة، فاستحال شعوره بقوَّته تجاه الناس، وليس ضد الطبيعة، ينطوي على المرارة الأكثر يأسا من الوجود [5].

ولفهم هذا الأمر: "لابد للمرء أن يتساءل، بشأن كل فرد، عما إذا كان يمثل خطا صاعدا أو هابطا للحياة؛ وحين يكون لديه جواب عن هذه النقطة، فانه يتوقف بذلك على مقياس قيمة أنانيته. فإذا كان يمثل الخط الصاعد، فذلك ما يدل حقيقة على أن قيمته إستثنائية– ولذلك فَهَمُّهُ في حفظ نفسه وفي الحصول على شروط حياة قصوى قد تكون شرعيا قصوى، وكل ذلك [يتم] باسم الحياة، بمعناها الشامل، التي تتقدم بفضله خطوة أخرى.(...) أما إذا كان يمثل التطور الهابط والانحطاط والتفسخ المزمن والأمراض (والأمراض في جملتها عواقب لانحطاط و**ليست** أسبابا له) فلا قيمة كبيرة له...إنه عالة على النموذج الكامل"[6]. وذلك ما يعني أن "الاختلاف يتضمن الحقد"[7] الناجم عن حالة عدم توازن، لأن "إنسانا كاملا"، "فانٍ سعيدٍ"، لَيَكُونُ مجبرا على القيام ببعض التصرفات ويتراجع غرائزيا أمام تصرفات أخرى ولَيَنْقُلُ النظام، الذي يجسده فيزيولوجيا، إلى علاقاته مع الناس والأشياء. وفي صيغة موجزة: فضيلته هي **مفعول** لسعادته[8]، مثلما جاء في نشيد زرادشت:

"قَلَّمَا تكون فضيلة سامية شيئا مألوفا وذا فائدة، إنها لامعة ولمعانها عذب:

هي الأسمى، كل فضيلةٍ تَهِبُ (...)

تجبرون جميع الأشياء لأن تبلغكم وتكون فيكم إلى أن تضحى مُنبعثة من عينكم fontaine كَهِبَاتٍ لِحُبِّكُم.

---

1 EH, Cré.id., p.177-178

2 Yvon QUINIOU : Nietzsche, ou l'impossible immoralisme., éd. Kimé., Paris., 1993., p. 219

3 CI,III,1, traduction modifiée

4 VP,I,LI,395

5 VP,II,LIII,8

6 Cré.id., divagation d'un"inactuel", 33

7 Pbm, 263

8 Cré.id., les 4 gdes erreurs, 2

في الحقيقة، وجب على مثل ذلك الحب المعطاء أن يستولي على كافة القيم ؛
غير أنني أقول لكم: إن مثل تلك الأنانية لهي سليمة ومقدسة.
توجد أنانية أخرى تريد الإستيلاء لشدة فقرها وجوعها. إنها أنانية المرضى، إنها الأنانية المريضة (...) إن المرض والتفسخ الخفي هما اللذان يجدان تعبيرهما عبر مثل ذلك التعطش؛ إنه من الجسد المريض يصدر تعطش هذه الأنانية السارق.
قولوا لي يا إخوتي : ماهو أبشع وأحقر شيء عندنا ؟
أليس **التفسخ** ؟ – وحيث لا وجود للنفس الواهبة، فهناك نكتشف دوما التفسخ"[1].
ولما كان من الخطر على الإنسان أن يكون وريث ما زرعه فيه عقل وجنون ألفيات كاملة من التاريخ البشري[2]، فإنه من السهل عليه أن ينطلق من نفسه، كثمرة، ليلاحظ حالة البشرية في أهم جوانبها، أي في ثقافتها وحضارتها، بكل ما يحمله المفهومان من معاني ومثلما تؤكده هذه النصيحة: "أعن نفسك، بنفسك [أيها الطبيب] لتساعد بذلك مريضك، ولْتَكُنْ رؤيته وبأم عينيه للذي يشفي نفسه بنفسه، أفضل علاج له"[3].

وهكذا، وبإتباع طريقة نيتشه في التحليل، يمكننا أن ندرج جميع مظاهر الثقافة ضمن أعراض المرض وأن نتناوله حسب تقسيمنا لها إلى جوانب سياسية واقتصادية واجتماعية ....الخ، لتكون بذلك مثلا، وعلى التوالي، البورجوازية والديمقراطية والإشتراكية والعلم والمنطق والفن والدين والأخلاق...، أعراضا للمرض المزمن الذي أصاب البشرية، الذي يؤدي بنا تفكيكه، إلى موضوعات جزئية قصد تشخيصه، إلى الحالة التي تجعلنا نشعر فيها وكأن نيتشه يؤمن بتوارث الصفات المكتسبة .

-الأخلاق والمسيحية: من نيتشه، المُتَحَدِّر من عائلة متدينة، لم ينل أي موضوع من النقد اللاذع، الذي بلغ حد الشتم الواضح وكأن الأمر يتعلق بقضية شخصية، ما نالته المسيحية، فقد ذكر أنه: "ينتفض ضد طريقة رد الواقع إلى مستوى صيغة أخلاقية، كما أنه يمقت المسيحية مقتا مميتا"[4]. وأنه "لا كتاب أضر بالناس كالكتاب المقدس"[5]، الذي، ببقائه "أفضل كتاب ألماني إلى شعار آخر"[6]، يكون قد أعطى الدليل الواقعي على ضرره، وأنه لابد أن "نعطي التاريخ الـ"مقدس" الإسم الذي يستحقه: التاريخ الملعون؛ سنستعمل كلمات "إله"، "المسيح"، "مُخَلِّص"، "قديس"، كشتائم وللتدليل على المجرمين"[7]، لأنه "مادام رجل الدين(...) قد صار نموذجا راقيا للبشرية، فإنه لا جواب ممكن للسؤال: ما الحقيقة؟ حين يصبح المحامي، المثبت، عن العدم والإنكار ممثلا للحقيقة، فإن الحقيقة

---

1 APZ, de la vertue qui prodigue., p. 101-102
2 ibid., p.104
3 idem
4 VP,I,LI,395
5 Cré.id., les 4 gdes erreurs, p.38
6 Anté.,248
7 Anté, loi contre le christianisme., p.89

تكون مقلوبة على رأسها"[1]. وقد بين نيتشه تخصص القادرين على البحث في هذا الموضوع في قوله :"في الحقيقة، لا يمكن للمرء أن يكون فقيه لغة وطبيب دون أن يكون في الوقت ذاته "مسيخا دجالا antéchrist"؛ كفقيه لغة، ينظر فعلا وراء الكتب المقدسة، وكطبيب، خلف التدهور الفيزيولوجي للنموذج المسيحي. الطبيب يقول: "لا شفاء له " وفقيه اللغة: "بُهْتَان!"[2]، والأمر كذلك بالنسبة لمن يتناول العصر الحديث، الذي عليه أن يشرع في تشخيص روحه [روح العصر الحديث] "بضربة مبضع جاد في تعارض الغرائز المتنافرة هذه، وبتعرية القيم المتنازعة وبتشريح الحالة الإكلينيكية الأكثر **إظهارا** للحالة "[3] .

وهكذا، وبإتباع طريقة تحليل نيتشه، يضحى بمقدورنا العودة إلى موضوع اللغة من جديد، والذي يقودنا بدوره إلى بدايات نشأة "المفاهيم الخالدة والقيم الخالدة والأشكال الخالدة والنفوس الخالدة"[4]– أي إلى "هذا الإيمان المسيحي، الذي كان أيضا إيمان أفلاطون، والذي وِفْقَهُ يكون الله حقيقة والحقيقة إلهية[5]– لنلاحظ أن النقد جذري لأنه ينطلق من فكرة اعتبار "كافة المفاهيم على أنها صارت devenus وأن الكثير منها لا يزال في صيرورة en devenir، لدرجة أنه وجب على أهم المفاهيم أن تكون الأقدم والاغلط"[6]، ومثال ذلك: "الاله–الروح باعتباره كمالا"[7] ومن ثمة تبرز مهمة "وجوب **وضع** قيمة الحقيقة محل الشك"[8]، أي محاولة الإجابة على السؤال: "ماذا لو ثبت أن لا شيء إلهي بغير الخطأ، الإعماء، الكذب– إذا اتضح أن الإله نفسه صار أطول كذباتنا ؟"[9]، وبتعبير آخر، ضرورة التشكيك في كل الفلسفة المبنية على عالم ابتدعته من مفاهيمها، على عالم يُنِمُّ عن وجود مشكلة فيزيولوجية لدى الفيلسوف، على عالم يبرر تخوف الحضارات من "الإنسان العظيم"[10]؛ وباختصار، على عالم خيالي ابتدعه الضعفاء بغرض إيجاد تعويض خيالي لحالتهم الواهنة، ومن ثمة فمركزه الوعي، لأن الضعيف في حاجة دائمة لأن يكون الآخرون نقيض ما يراه هو طيبا، لأن يكونوا شريرين، كي يظهر هو في مظهر الطيب، وبهذا المعنى، يكون منطلق أخلاق الضعفاء هو رد فعلهم على واقع حقيقي، أي رد الفعل ذاته الذي، حين يزداد درجة، يتحول إلى "حقد خلاق ينتج القيم"[11]. وباختصار، يشكل ذلك كله صراعا بين نعم ولا، نَبَعَا من حالتين مختلفتين، وموجهين للحياة .

---

1 Anté., 8
2 Anté.,47
3 Anté., 7 ; CW, épilogue, p.55
4 VP,I,LI,112
5 GS,344 ; GM,III,24
6 VP,I,LI,112
7 ibid.,113
8 GM, III, 24
9 GS, 344
10 VP, II, LIII, 702
11 GM,I,10

أ- "**أخلاق السادة** (أو الأخلاق "الرومانية"، "الوثنية"، "الكلاسيكية"، "النهضة") باعتبارها(...) اللغة الرمزية للفوز الجسماني، للحياة **الصاعدة**، لـــ"إرادة القوة" باعتبارها مبدأ الحياة. إن أخلاق السادة لَتَقُولُ **نعم** غريزيا"[1]. وإذا تناولنا على سبيل المثال "التعارض بين "طيب" و"شرير"، الذي له المعنى ذاته للتضاد القائم بين "نبيل" و"محتقر"،[2] فإننا نجد أنه حين "يحدد مفهوم الـــ"طيب"، فإن مشاعر العزة والتفوق هي التي تُحَسُّ على أنها مميزة وتؤسس التراتب"[3]. وقد نبعت كلها من شعور أساسي يمكن تلخيصه في عبارة: "أنا طيب"، فقد كان "نبلاء اليونان القديمة يقولون عن أنفسهم: "نحن الصادقون"، وبسرعة ارتبطت الأحكام الأخلاقية بـــ**الناس** أولا ثم إمتدت بعد ذلك إلى الأفعال لاحقا (...). وتشعر البشرية الأرستقراطية بأنها تحدد القيم ولا حاجة لها لتزكية. إنها تحكم على أن ما يضرها، ضار في ذاته، وتعرف أنها هي التي تولي الأشياء كرامتها، إنها **خالقة قيم**. إنها تكرم ما تجده في ذاته: إن مثل تلك الأخلاق لَهِيَ تمجيد للذات. إنها تضع الشعور بالكمال، بالقوة التي ترغب في أن تفيض، سعادة معرفة شدة قوية، الوعي بغنى يود يهب ويوزع"[4]؛

ب- **نبعت أخلاق الضعفاء**، الذين "نغص عيشهم، المضطهدون، المتعذبون، التابعين، غيرالواثقين من أنفسهم والمتعبين ..."[5]، من الوهن الذي أصابهم ومن سعيهم لبلوغ الراحة، "سبت السبوت"[6] التي تعكس شعورهم بالعجز، الذي جعلهم يقولون: "نحن، الضعفاء، فعلا ضعفاء، ولذلك علينا ألا نقوم **بما حال دون أن نكون جدٌ أقوياء**"[7]، وهذا الشعور هو بالتحديد تربة الحقد الخصبة- الذي ينم عن عجز عن الإعجاب والإحترام والحب، عن السلبية وعن عزو الأخطاء وتوزيع المسؤوليات والإتهام المستمر[8]- وقد وُجِّهَ ضد كل من يتمتعون بالعافية[9] بعدما صار حقدا خلاقا[10] وتمردا للعبيد على السادة في تاريخ علم نفس الأخلاق .

يعني الشرير في أخلاق هؤلاء، "بالتحديد، "طيب" الأخلاق الأخرى؛ إنه الأرستقراطي، القوي، المهيمن، ولكنه قُتِّمَ، نُظِرَ إليه وقُبِضَ عليه مقلوبا بنظرة الحقد السامة"[11].

ولفهم الأخلاق المسيحية، والمسيحية في حد ذاتها، لابد من "الإنطلاق من الأرضية التي ولدت فيها- أي أنها لم تكن حركة مضادة للغريزة اليهودية بل كان ذلك نتيجة واستدلالا آخر من منطقها الرهيب (...) واليهود هم الشعب الأكثر إثارة للدهشة في التاريخ العالمي، لأنهم حين وُضِعُوا أمام مسألة الموجود واللاموجود، فإنهم اختاروا عن وعي تام وبعزيمة تثير الخوف، الموجود **بأي**

---

1 CW, épilogue, p.53
2 Pbm,260
3 Idem
4 Pbm,260
5 Idem
6 Ess. d'auto., NT,5
7 GM,I,11
8 Gilles DELEUZE : Nietzsche et la philosophie., 4°éd., PUF/Quadrige., Paris., 2005., p.134à136
9 GM,III,14
10 GM,I,10 ; Anté.,24
11 GM,I,11

ثمن. كان ذلك الثمن **التحريف** الجذري لكل طبيعة، لكل طبيعي، لكل حقيقة في العالم الداخلي والعالم الخارجي. لقد تخندقوا بمحض إرادتهم خارج كافة الشروط التي كان، إلى ذلك الوقت، بمقدور أي شعب أن يعيش فيها و**له** فيها **الحق في العيش**؛ لقد تحولوا إلى نقيض الشروط الطبيعية"[1]. "ومن الناحية السيكولوجية، فاليهود شعب، ذو مقاومة عجيبة– إنحاز، بعدما وضع نفسه في شروط مستحيلة بإرادته وببراعة عميقة يُحتذى بها– إلى جانب غرائز **الانحطاط**، وذلك ليس لكون غرائزه قد هيمنت عليه ولكن لأنه تنبأ بوجود قوة فيها يمكن الهيمنة بواسطتها **على** العالم [يمكن بواسطتها فرض الوجود اليهودي رغما عن العالم] . إنهم نقيض كل المنحطين: كان عليهم أن يمثلوهم إلى درجة تقديم البديل. فقد **عرفوا**، بتفوق non-plus ultra ينم عن عبقرية في التمثيل، كيف يضعون أنفسهم على قمة كافة حركات الانحطاط (– في شكل مسيحية الرسول بولس–) ليجعلوا منها شيئا أقوى من كل حزب "نعم" للحياة. وبشأن نوع الإنسان الذي يطمح إلى السلطة، في اليهودية والمسيحية، والذي هو النوع الكهنوتي، فإن **الانحطاط** ليس سوى وسيلة: فلهذا النوع من البشر مصلحة حيوية في أن يجعل البشرية مريضة وأن يقلب– حتى يهدد وبشكل أحسن، الحياة و يغتاب العالم– مفهومي "خير" و"شر"، "صحيح" و"خاطئ"[2] .

وهكذا، وبظهور المسيحية، لم يعد هناك ما يدفع إلى التساؤل بشأن "المدهش إذا كانت الإنفعالات المضمرة، المحتضرة تحت الرماد، إذا كان التعطش إلى الإنتقام والحقد يستعملان هذا الاعتقاد لصالحهما لتدعيم، بحمية خاصة جدا، هذه العقيدة التي تؤكد أنه يمكن السماح للقوي بأن يصبح ضعيفا، وللطير الجارح أن يصير حملا:– وهكذا منح الناس أنفسهم حق محاسبة الطير الجارح على كونه طيرا جارحا...، حين أخذ المضطهدون، المسحوقون، المستعبدون، تحت وطأة خداع العجز الحقود، يقولون: "لنكن نقيضين للشريرين، أي طيبون ! وطيبٌ كل من لا يقسوا على أحد، كل من لا يهاجم ولا يتعدى ولا ينتقم ويترك لله أمر الانتقام، وكل من يظل مختبئا مثلنا، سيتفادى لقاء الشر، ولا ينتظر الكثيرمن الحياة، مثلنا نحن الصابرون، المتواضعون، المستقيمون"[3]. وباختصار، إنطلق الحقد من تحويل "الحق كامتياز"[4] إلى مساواة، أي إلى قلب للقيم الأرستقراطية إلى أن "أضحى العجز عن الإنتقام، بواسطة الكذب، "طيبة"، والتدني الجبان "تواضعا"، والخضوع لمن نكرههم "طاعة" (أي طاعة من يقولون أنه يأمر بهذه الطاعة – إنهم يسمونه إلها). ما لدى هذا الكائن الضعيف، وقاحته، هذه الوقاحة التي هي غناه والتي تشكل غرفة إنتظار لديه، تنتظر عند الباب، لا مفر، فقد أخذت هذه الوقاحة تتحلى بإسمٍ رنانٍ للغاية ويسمى "صبرا"، وأحيانا حتى "فضيلة"، لا أكثر؛ "عدم القدرة على الإنتقام" أمسى "عدم الرغبة في الإنتقام" وصفحا، في بعض

---

1 Anté., 24

2 idem

3 GM,I,13

4 Anté.,57 ; Pbm,202

الأحيان، عن الإساءة، "لأنهم لا يدرون ما هم فاعلون– نحن فقط نعرف ما الذي هم يفعلونه !". يتحدث الناس أيضا عن "محبة الأعداء"– ويتصبَّبُون عرقا بقطرات كبيرة"[1].

ومن المساواة وَلَّدَ الحقدُ: الشعورَ بعدم شرعية تمتع الأقوياء بامتيازهم، الشعور الذي كان إيذانا للضعفاء بأن ينسبوا معاناتهم وتعاستهم لغيرهم،[2] بل وأكثر من ذلك، "فرجل الدين مثلا يعيش على "الخطايا" لأنه في حاجة لان "تُرتكب الخطايا"[3] التي تمكنه من "الهيمنة"[4]، من خلال تفادي البحث في أسباب الآلام أو العمل على إبعادها والسهر فقط على "تبنيج [تسكين] آلام البشرية"[5].

لقد أعلنت المسيحية– باعتبارها "أخلاقا مطلقة"[6]، لأنها "أول من أدخل الخطيئة إلى العالم"[7]– "الحرب على كل شعور بالإحترام والمسافة بين الإنسان والإنسان، بمعنى على الشرط الوحيد الذي يسمح للثقافة بأن تسمو وتتفتح، من خلال دَسِّهَا سم "الحقوق **المتساوية** للجميع" في جميع مظاهر الحياة. إن المسيحية، التي ربحت إلى جانبها بالتحديد كل الناقصين والمنتفضين والمرفوضين، كل رعاع وحثالة البشرية، هي ثورة كل زاحف على كل ماله إرتفاع[8]، التي تجسد الديمقراطية والإشتراكية والفوضوية أعلى مراحل لها زمن نيتشه[9].

وبلغة إرادة القوة نقول، "أن نموذجا بشريا طفيليا لا يزدهر سوى على حساب كافة الأشكال السليمة للحياة، رجل الدين يتعسف في استعمال إسم الله: فهو يسمي سيادة الله [ملكوت الله] حالة الأشياء حيث يكون رجل الدين هو الذي يحدد قيمة الأشياء؛ يسمي بــ"إرادة الله": الوسائل التي بواسطتها يتم بلوغ مثل تلك الحالة أم لم يتم بعد. وبكلبية باردة، يُقَدر قيمة الشعوب والفترات والأفراد وِفْقًا لدرجة مساعدتها على تفوق رجال الدين أو لدرجة عرقلتهم لهم"[10]، مثلما تبين ذلك العصور السبعة التي وضعها القديس أوغسطين لتاريخ الكون[11]، وهذه هي وسيلة حفظ الضعفاء لحياتهم[12]. وبلغة علم النفس نقول بأنه مادامت "الأخلاق والدين يرجعان كلية إلى علم نفس الخطأ"[13]، "فماذا عساها تكون الحقيقة، حقيقتنا ؟"[14] حين نعرف أن المسيحية، بإدخالها الخطيئة إلى العالم، باحتقارها للعالم وجعلها من الجهل فضيلة مسيحية[15]، بإعلانها لقرارها الخطير "الذي

---

1 GM, I, 14
2 Cré.id, divagation d'un"inactuel",34; A,54
3 Anté., 26
4 ibid.,49
5 HTH, 108
6 Essai d'autocrit., NT,p.41
7 VO,78
8 Anté.,43
9 ibid.,57
10 ibid.,26
11 Jean EHRARD et Guy PALMADE : L'histoire, (Imp. de l'Est, Besançon), Armand Colin., Paris, 1965, p.9
12 GM,III,13 ; VP,I,LI, 306
13 Cré.id., les 4 grandes erreurs,6
14 VP,I,LI,110
15 A,333

يقضي برؤية العالم على أنه بشع وشرير، مما جعل العالم قبيحا وشريرا"[1]، مما جعلها "خجلا مما هو طبيعي ونقيضا لــ"الطبيعي" ومن مؤمنيها أناسا فقدوا نهائيا براءتهم ؟[2]. لننظر إلى علومنا، منطقنا، فلسفتنا، جدلنا ...، إلى حداثتنا[3]، فهي تستند كلها إلى الإيمان. لنتناول بالدراسة، على سبيل المثال، المواطن الأصلية لفكرة "العالم الآخر" لدى كل من رجلي الدين والأخلاق والفيلسوف وسنكتشف أنه معنى للاموجود، للاحياة، لإرادة عدم الحياة وينم عن ارتباكات فيزيولوجية لأن:

- الفيلسوف، ابتدع عالم عقلٍ يتلاءم فيه العقل مع الوظائف المنطقية، أي المصدر الذي خرج منه الــ"عالم الحقيقي"؛
- رجل الدين ، ابتدع "عالما إلهيا"، ومنه كان العالم الــ"مُشَوَّهُ"، "المضاد للطبيعة"؛
- رجل الأخلاق، الذي تخيل "عالما حرا"، ومنه كان العالم "الخَيِّرُ، الكامل، العادل، المقدس"[4].

تعكس "العوالم الثلاث" شعورا بالعجز– حيال الطابع المميز للسادة وليس الطبيعة– ينطوي على المرارة الأكثر يأسا من الوجود، ولذلك سعت تلك الفئات دائما، وخاصة رجال الدين والأخلاق وبميلهم الغريزي وغير الواعي نحو البيداغوجيا والتدجين، أي بتشديدهم على أهمية غريزة القوة لدى القطيع، لتشجيع إنسان العامة وتحصينه ضد السادة ثم تعليمه، في مرحلة لاحقة، كره الطابع المميز لهؤلاء[5]. وذلك ما يؤكد مبدأ، كون "الاختلاف يتضمن الحقد"، الطبيعي، ما دامت الطبيعة تتطور بخلق الفروق[6]، ويبين بشكل جلي أنه لا يمكننا أن "ندحض مرضا"[7]، لأن ما تسميه الديانات والأخلاق "تحسينا للإنسان"[8]، ليس سوى دَخْلَنَةً "تحدث حين تسعى غرائز قوية– مَنَعَهَا تنظيم السلم والمجتمع من أن تجد تلبية خارجية– لأن تجد لنفسها تعويضا داخليا بمساعدة التخيل(...) [وشيئا فشيئا إلى أن] تتحول الغرائز إلى شياطين نقاومها"[9]. إن "الأقوياء لَيَتَطَلَّعُون إلى **الإنفصال** مثلما يتطلع الضعفاء إلى التوحد، وفي هذا ضرورة طبيعية، وإذا حدث وأن تجمع الأوائل فلأجل إنجاز فعل عدواني مشترك، لأجل إرضاء إرادة قوتهم، الفعل الذي ينفر منه كثيرا ضميرهم الفردي، أما الأخيرون فبالعكس، فهم يصطفون في خطوط محشورة انطلاقا من **المتعة** التي يشعرون بها في هذا التجمع؛ – وبهذا تكون غريزتهم قد وجدت لنفسها تلبية مثلما حدث لغريزة "سادة" بالولادة(أي نوع الإنسان، الحيوان المفترس والمنفرد) التي يثيرها التنظيم، بعمق. كل أوليغارشية (والتاريخ كله هنا ليعلمنا) تضمر في ذاتها دائما الرغبة في الطغيان"[10]، ومن ثمة فإن للأخلاق أهمية قصوى في الحياة من عدة جوانب، فهي:

---

1 GS,130
2 VP,I,LI,335
3 Anté., 1
4 VP, I,LI,213
5 VP,II,LIV, 8
6 LP, 23
7 VP, I, LI, 277 ; CW., post. scriptum,p.45
8 Cré.id., ceux qui veulent…,2 ; VP,I,LII,511
9 ibid.,420
10 GM,III,18

1- مبدأ لبقاء الجماعات الكبيرة، حيث تقوم بتهذيب أفرادها؛ "وسيلة" ؛

2- "مبدأ للبقاء بالنظر إلى الخطر الداخلي الذي تمثله الشهوات passions في الإنسان: "الإنسان الحقير"؛

3- مبدأ بقاء ضد تأثيرات البؤس والأفول العميق المدمرة: "الإنسان الذي يعاني"؛

4- علاج لانفجار الأقوياء الرهيب: "الوضيعون"[1] . إن الأخلاق لهي إذن "رد فعل ضد المجهودات التي تبذلها الطبيعة لبلوغ **نموذج أعلى**، ويكمن مفعولها في إثارة الحذر حيال الحياة"[2]. وهي، وفق التعريف العزيز جدا على نيتشه، "خاصية **المنحطين**، تنم عن خلفية (مُتَوَّجَة بالنجاح **!) الإنتقام من الحياة** "[3].

– **العدمية:** بمعرفته بـــ"أن الأخلاق والدين يرجعان كلية **إلى علم نفس الخطأ**"[4]، شرع نيتشه في تعرية عالمهما الكاذب وفي الكشف، في الآن نفسه، عن لا قيمة جميع القيم التي آمن أو ظل الناس يؤمنون بها إلى زمنه، لأنه بفعله ذلك لم يكن يرى سوى نماذج بشرية ضارَّة وحاقدة على الحياة[5]، وكانت أعماله كـــ Pbm و.Cré.id مثلا تدل على أنه اكتشف امتدادات تأثيرات سموم "قيم" تلك النماذج إلى العصر الحديث، لأنه في هذين العملين كان واضحا في نقده "للحداثة"، دون استثناء العلوم والفنون والسياسة الحديثة[6]، أي ما كان يسمى حقيقة، قبل ظهوره[7]، ذلك أن **الإشفاق** مثلا كإحدى فضائل المسيحية، استمر إلى أن جعل الحداثة قذرة بحكم كونه براكسيسا praxis[تطبيقا عمليا] للعدمية[8] مثلما هي الكنيسة، في حد ذاتها، براكسيسا معاديا للحياة[9] .

"لقد ربحت المسيحية إلى جانبها بالتحديد، كافة الناقصين والمنتفضين والمرفوضين، كل رعاع وحثالة البشرية"[10]، و"صارت الأخلاق في أوربا أخلاق قطيع"[11]، لأن "الأوربي صار حيوانا مريضا، معتوها، عاجزا وله أسباب وجيهة لكي يكون "مُدَجَّنًا" (...) إن الأخلاق **لَتُبَهْرِجُ** الأوربي– فلنعترف بذلك– كي تعطيه التميز، الأهمية، المظهر وكي تجعله إلهيا"[12]، كما أن التاريخ، إجمالا، صار تاريخ "تحسين" النوع في أوربا، وحتى في كل من الهند والصين[13].

إن العدمية كالأخلاق، نتيجة منطقية للانحطاط[14] وتعبير عن الانحطاط الفيزيولوجي بصفة

---

1 VP, II, LIII, 8 ; VP, I, LII, 532 ; VP, I, LI, 246
2 VP,I,LII,556
3 EH., pourquoi je suis un destin,7
4 Cré.id., les quatre grandes erreurs, 6
5 EH., pourquoi je suis un destin, 8
6 EH, Pbm,2
7 EH., Cré,id.,1
8 Anté.,7
9 Cré,id., la morale, une anti-nature,1
10 Anté.,43
11 Pbm, 202
12 GS ,352
13 VP,I,LII,466
14 VP,II,LIII,63

خاصة[1] وتتم عن إدراك الإنسان لحجم المجهودات التي أهدرها في سبيل بلوغ تفسير معين للوجود في الوقت ذاته الذي يصبح فيه غير قادر على إنكار المصير devenir كحقيقة وحيدة، أي أن الديانات، ومنها المسيحية، لعبت دورا كبيرا في انتهائه إلى تلك الحالة، مثلما يدل على ذلك تحليل نشأة العدمية كحالة سيكولوجية:

1- تنشأ العدمية من خيبة الأمل في بلوغ التطور غاية ما ليظهر الإنسان بذلك نقيض ما ظل سائدا كاعتقاد بشأن نفسه، أي أنه ليس بالذي ساهم في صنع المصير ولا حتى كونه محور المصير، ومن ثمة يضحى بحثه عن "معنى" للوقائع بلا جدوى لأنه هو الذي سعى دائما لأن يضيفه عليها؛

2- تنشأ أيضا حين يكشف الإنسان أنه لا وجود للتعميم الذي بلغه بواسطة افتراضاته، كافتراضه وجود كلية une totalité وسستمة وحتى تنظيما في وبين جميع الوقائع لدرجة أن النفس، التي أضناها الإعجاب والتبجيل، تستمع بتخيلها وجود شكل هيمنة وتنظيم وتشعر بعدها بأنها تعيش وسط إحساس بالارتباط والتبعية حيال كلٍّ يتجاوزها، حيث يكون الإنسان كنمط للألوهية وتقتضي المصلحة العامة إخلاص الفرد ...الخ، وهي كلها تخيلات ابتدعها الإنسان كي يقدر على الإيمان بقيمته الشخصية ؛

3- تنشأ أخيرا حين يكتشف الإنسان أن العالم الصحيح، الذي ابتدعه لتعويض المصير حين بدا له وهميا، يستند إلى حاجاته السيكولوجية الخاصة مما يجعله ينكر العالم الميتافيزيقي ويمنع نفسه من الإيمان بوجود ذلك العالم الصحيح .

وإجمالا، يبلغ الإنسان حالة الشعور بلا قيمة الوجود، حين يفهم بأنه لا يمكن للوجود برمته أن يجد تفسيره بواسطة مفاهيم الغاية أو الوحدة أو الحقيقة، المشار إليها تباعا أعلاه، ومن ثمة يمسي الإنسان بلا أي تفسير، تفسير يستند إلى الافتراض القائل بوجود عالم آخر وقيم أخرى تفوق الحياة، تفسير ينطوي على إرادة إنكار قيمة الحياة[2].

وهناك درجة أخرى من العدمية، ويسميها نيتشه بالجذرية، والتي تتم عن "القناعة بأن الوجود لا يُحتمل إطلاقا إذا قارنناه بأسمى القيم التي نعرفها؛ تنضاف إلى ذلك، **الملاحظة** بأنه ليس من حقنا افتراض وجود عالم آخر أو عالم في ذاته للأشياء، لكي يكون "إلهيا"، لكي يكون أخلاقا مكرسة. (...) وقد تولد هذا الإعتراف في حد ذاته، من الإيمان بالأخلاق"[3]؛ "ألم تكن كافة الشغفات passions الكبرى للإنسانية إلى اليوم من تلك الشغفات بالعدم ؟ ثم ألم تكن جميع تبجيلات البشرية، تبجيلاتًا بسبب العدم؟"[4]؛ ألا "يفضل الإنسان الرغبة في لاشيء من ألا يرغب على الإطلاق" ؟ ألا يفضل أيضا أن تكون لديه إرادة العدم من ألا يرغب بتاتا"؟[5]. لننظر إلى القديسين فهم يرتاحون في

---

1 ibid. ,93
2 VP,II,LIII,111
3 ibid.,103
4 A, 474
5 GM,III,1 & 28

عدمهم leur néant"[1]، ونيتشه نفسه، ألم يصرح، عام 1887 فقط، قائلا بأنه لم يتجرأ "سوى مؤخرا على الإعتراف لنفسه بأنه كان دائما عدميا حتى النخاع"[2]، ووصف نفسه بـــ"متشائم أخلاق"[3]، وهو يعي جيدا أن "التشاؤمية شكل أولي للعدمية"[4]. لقد كان التوصل إلى طريقة لمعالجة "المشكلات الأخلاقية" أمرا كلَّفه الكثير من المجهود والإختبارات في التاريخ الإنساني، وسوف نرى، في موضوع السببية، كيف كانت طريقته تستند إلى اعتبار ما ظل الناس يرونه أسبابا على أنه نتائج.*

– **المرض:** يستند هذا الموضوع إلى التفسير الفيزيولوجي ومن ثمة إلى رد مفهوم الإنسان الضعيف إلى حجم القوة الكامن فيه بالكيفية التي تجعل تصرفاته وآراءه تأخذ إلهامها من حاجاته[5] وتدلل على أنه يمكن للضعف أن يكون ظاهرة أصلية تعني أنه **لا وجود بعد** للكثير من القوة (بسبب وراثة غير كافية أو لتشتت الموروث مثلا)، أو ظاهرة نهائية تعني أنه **لم يعد هناك وجود** للقوة، ولذلك فالنقطة الواجب تحديدها هي: أين يوجد **الكثير من القوة**، أين يوجد ما يجب **إنفاقه** منه ؟ ولذلك يصدر رد فعل الجمهور، الذي يمثل مجموع الضعفاء، ببطء، وينم عن دفاعه عن نفسه ضد ما يهدد ضعفه وما قد لا يفيده، أي أنه لايبدع ولا يتقدم[6]. ولذلك "يجب القصد من مرضٍ، دُنُوَ شيخوخة مبكرة وقُبْحٍ وأحكام تشاؤمية، وهي أشياء ثلاثة تسير مع بعضها البعض"[7]، ومثل ذلك أنه "حين يسرع عِرْقٌ أو شعب إلى هلاكه وتفسخه، فإن **ما ينجم عن ذلك** هو الفسق luxure والترف (أي الحاجة إلى الطلبات، الأكثر إلحاحا دائما والمستمرة دائما، التي يحس بها مزاج منهك)[8]؛ كما أن شابا، يبدو لأصحابه بأنه سيضحى شاحبا ومجعدا بسرعة، فيقولون عنه: إن هذا المرض أو ذاك هو **سبب** حالته، في الوقت الذي كانت إصابته بالمرض وعدم مقاومته له يدلان على أنهما كانا في حد ذاتهما نتيجتين لحياة فقيرة وإنهاك وراثي[9].

ويمثل "المثال الزهدي– وعبادته الأخلاقية المقدسة، هذا المنظم البارع، الجسور والخطر، لكافة الوسائل الهادفة لإفاضة الشعور، الممارس تحت غطاء هدف مقدس، جرت كتابته بحروف رهيبة، ولا تمحى، في تاريخ البشرية بأكمله"– البلاء بكل جدارة في التاريخ الصحي في أوربا[10].

"**يستمد المثال الزهدي مصدره من الغريزة الوقائية لحياة آخذة في التفسخ** وتبحث عن شفاء، والتي تكد بكافة الوسائل لأن تبقى على نفسها، تصارع من أجل الحياة؛ إنها مؤشر على

---

1 GM,I

2 VP,II,LIII,98

3 ibid.,84

4 ibid., 92

* Karl LOWITH : Karl LOWITH :From Hegel to Nietzsche(the revolution in XIXth century thought). translated from german by David E. GREEN., Constable, London, 1965,p.373؛ يرى لوفيث أن العودة الأبدية بديل صريح للديانة وهروب من اليأس: محاولة للخروج من لاشيء للوصول إلى شيء ما.

5 VP,I,LI,130

6 VP,II,LIV,160

7 A,409

8 Cré.id., les 4 grandes erreurs,2

9 Idem

10 GM,III,21

إنهيار وإنهاك فيزيولوجي جزئيين تتصلب تجاهمها باستمرار أعمق الغرائز وأسلمها في الحياة، بواسطة إبداعات وحيل تتجدد دائما. والمثال الزهدي هو وسيلة فن **حفظ** الحياة،(...) صراع فيزيولوجي للإنسان ضد الموت (وبالتحديد ضد القرف من الحياة، التعب، الرغبة، في "النهاية"). الكاهن الزاهد هو الرغبة المجسدة لـــ"المختلف" autrement ، لـــ"الجهة الأخرى" autre part ، انه أعلى درجات هذه الرغبة (...). هذا الكاهن الزاهد، الذي يبدو عدوا للحياة، هذا الناكر،- هو بالتحديد من يشكل جزء من أكبر القوى المحافظة والمؤكدة للحياة... إلى أي شيء تُعْزَى إذن هذه الحالة المرضية ؟ لأن الإنسان أكثر مرضا، أكثر عدم يقين، أكثر تقلبا، أكثر عدم رضا من أي حيوان، مما لاشك في ذلك – إنه الحيوان المريض بجدارة.
من أين جاء هذا ؟ بالتأكيد قد تجرأ كثيرا، جدَّدَ كثيرا، تصدَّى كثيرا، أثار القدر كثيرا، أكثر من كل الحيوانات الأخرى مجتمعة: هو المجرب الكبير الذي يجرب على نفسه، غير الراضي، الذي لا يشبع، الذي من أجل السلطة العليا، يصارع الحيوان، الطبيعة، الآلهة،- هو، غير المُرَوَّضِ إلى الآن، كائن المستقبل الخالد الذي لا يجد الراحة بَعْدُ أمام قُوَّتِهِ، المدفوع باستمرار بالمهماز المُتَّقِدِ الذي يغرسه المستقبل في لحم الحاضر"[1]. وباختصار شديد، "فالكاهن هو الرجل الذي يغير **وجهة الحقد**"[2].

وحتى نقتصر على أشد الأمراض فتكا بالإنسان، الأمراض التي يسببها الماضي للحاضر[3]، نكتفي بذكر مثال أخير، تصير فيه إرادة القوة في خدمة المرض وتنم عن مشكل عُصاب الثقافة ووعكة الحضارة بالمعنى النيتشي[4]، ونقصد به "الضمير السيء كحالة مرضية عميقة نشأت من حاجة المجتمع إلى حماية نفسه من غرائز الحرية لدى الإنسان المتوحش، الحر، المتشرد، عن طريق دخلنة الحقد والقسوة والحاجة إلى التعذيب، فيه، أي تدجينه بالكيفية التي يمسي فيها مُكَبَّلاً في أغلال المجتمع والسلم وكأنه حيوان مائي مجبر إما على التكيف مع حياة اليابسة وإما الإنقراض، أي تصيير غرائز الحرية لديه بلا فائدة .

تكمن عملية الدخلنة تلك، التي تبين الأصل البشري لهذا المرض، في خلق ضمير متعب، لدى الأحرار المتمتعين بالعافية، ملؤه توجيه العداء ضد جميع غرائز الحرية[5] بواسطة الدين، الذي جعل من الإلتزام حيال الإله وسيلة يتعذب بواسطتها الإنسان[6]، أي تحويل المعاناة إلى تعويض عن الدين وإلى إصلاح للأمور بين الدائن والمدين[7]، وهو تصرف قديم يعود إلى زمن كان "يُسْمح [فيه] للدائن بنوع من **التلبية** في شكل تعويض وتسديد، التلبية التي تكمن في ممارسته لسلطته، بكل

---

1 Ibid., 13 ; "الحاضر يعيش على حساب المستقبل" (GM, I, 6)
2 ibid., 15
3 Paul HAMILTON: Historicism., second published by Routledge., NY., 2001., p. 113
4 P-L. Assoun., op.cit., p .286
5 GM,II,16
6 ibid.,22
7 ibid. ,6

أمان، على كائن رُدَّ إلى حالة العجز، ممارسة متعة "**إثارة الأذى لأجل لذة الإثارة تلك**"، الإستمتاع بشعور الترويع (...) ويعطيه هذا الإستمتاع ذوقا أوليا ببلوغه مرتبة إجتماعية أرفع. وبفضل العقاب الذي يسلطه على المدين، فإن الدائن يضحى في عِدَاد الحائزين على الحق الذي [كان في ما مضى] لدى السادة"[1] .

ولبلوغ هذا الشعور الفياض، إتَّبَعَ مؤسس الدين، هذا الكائن الهجين المركب من المرض وإرادة القوة[2]، والكاهن الحقود وبقية حُمَاة العدم، طريقة جهنمية لتنجيس التعاسة باسم "الخطيئة" وتصوير العيشة الرغيدة كسقوط و"إغراء" وتسميم الإضطراب الفيزيولوجي بدودة الضمير الناهشة،[3] هذا الضمير الذي ابتدعته الكذبة المقدسة لِتُدَلِّلَ به على ثبات الشعور بالخير والشر[4]. لقد أراد الكاهن أن يصبح **النموذج الأعلى** للبشرية وكذا الهيمنة حتى على الذين لديهم القوة. فكانت وسائله في تحقيق تلك المرتبة تتمثل في أنه: "صار" وحده يعرف، وحده **فاضل**، له وحده **أسمي معاني التحكم في الذات**، وحده إله بمعنى ما، وحده الوسيط بين الله وباقي **الناس**، يعاقب الله كل إعتداء على الكاهن، لفظيا كان أم جسديا؛ الحقيقة موجودة ولبلوغها لابد من إمكانية وحيدة: أن يصبح المعني بها كاهنا[5]، أي أن يتطهر من كل حِدَّةٍ وطمع كبير وشغف بالقوة والحب والإنتقام والملكية لأنها غالبا ما تسبب التعاسات، ومن ثمة فهي سيئة ومن يتخلص منها يكون صالحا[6]. إنه المنطق ذاته الذي نجده "في أشهر صيغة للحرب على النزوة في "خطبة الجبل" والتي قيل فيها مثلا، وينطبق هذا على الجنسانية،: "إقلع عينيك إن رأيت فيها سببا يدفع بك إلى الخطيئة". وطبعا من عظيم حسن الحظ أنه ولو مسيحيا واحدا لم يتصرف وفق هذا الطرح"[7]. ثم أنه حين "أعطت المسيحية السم لإيروس Eros، فإنه لم يمت به بل صار آفة"[8]؛ كما أنه حين طبق مؤسس المسيحية هذا المبدأ على أتباعه لتطهيرهم من الإثارة الجنسية، فإنه جعل كل واحد منهم ينقصه عضو[9]. لقد أدخلت الخطيئة في كل مكان، ولا ندري "باسم السماء، كيف دخلت الموسيقى"[10]، إلى أن "ظلت الحدث الأهم في تاريخ النفس المريضة إلى الآن"[11]، وخاصة منذ قدمت لها بعض الدروس لتعليمه:

1- أن الإنسان والكوسموس مذنبان[12]، مثلما ورد في رسالة بولس إلى أهل رومية (VII ,7-24): "فماذا نقول، هل الناموس خطية. حاشا، بل لم أعرف الخطية إلا بالناموس، فإنني لم أعرف

---

1 ibid.,5
2 EH, avant-propos.,4
3 Anté., 25
4 VP, I, LI, 346
5 ibid.,345
6 ibid., 278
7 Cré.id., la morale, une anti-nature,
8 Pbm,168
9 VP,I,LI,278
10 VO,156
11 GM,III,19
12 Jacob TAUBES., La théologie de Paul., op.cit.,p.129

الشهوة لو لم يقل الناموس لا تشته، ولكن الخطية وهي متخذة فرصة بالوصية أنشأت في كل شهوة. لأن بدون الناموس الخطية ميتة (...الخ)".[1]

2- ضرورة خجل الإنسان من كافة الغرائز، وليلقي بنظره على كاتالوغ عاهات طبيعته، بمعية البابا إينوسنت الثالث Innocent III ، التي تشير إلى "إنجاب نجس، تغذية مقرفة من ضرع الأم، نوعية رديئة من المادة التي تطور منها الإنسان، رائحة كريهة، إفراز اللعاب، البول، الغائط"[2].

3- عليه أن يعلم أنه وفق رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس، 27، أي وفق مفتاح الإنحطاط،[3] أن "الله اختار جُهَّال العالم لِيُخْزِيَ الحكماء، واختار الله ضعفاء العالم ليخزي الأقوياء، واختار الله أدنياء العالم والمزدري بهم وغير الموجود ليبطل الموجود، لكي لا يفتخر كل ذي جسد أمامه"[4].

4- عليه أن يقتدي بالسلف الصالح والمصلحين، من أمثال لوثر، ويعمل بحكمته القائلة: "لو انتزعوا منا أجسادنا وخيراتنا وشرفنا ونساءنا وأطفالنا: دعوهم يفعلوا ذلك،– فسيبقى لنا الملكوت رغم ذلك**!**" بلى **!** بلى **!** الــ"ملكوت" **!**"[5].

باختصار شديد، فإن "الذي ينحني يريد أن يترفع"[6].

---

1 الكتاب المقدس
2 GM,II,7
3 Anté., 51
4 الكتاب المقدس
5 A,262
6 HTH,87

1- بيوغرافية عمل إبن عصره:

إذا استثنينا مجهوده الهائل والجد متميز، الذي يُنِمُّ عن عبقرية فذة، والذي يجد تعبيره في ما سماه "أسلوبه الكبير"، فإنه يمكننا القول بأن المحيط والعصر كانا جد ملائمين* لكي يصبغا شخصية نيتشة منذ طفولته ويجعلا شبابه ملازما له في أعماله إلى أواخر أيامه، التي سبقت إنهياره. فقد وَفَّرَتْ له نشأته الدينية وتعلمه اللاتينية والإغريقية، وشغفه بتعلم لغات أخرى كالفرنسية والأنجليزية والإيطالية... إلخ، وكتابته بالأوليين** وتعاطيه ـ تعلما وإبداعا ـ الكثير من الفنون كالموسيقى والشعر والمسرح واحتكاكه، بواسطة البحث العميق والمطالعة والإتصال الشخصي، بعظماء المفكرين القدامى والمعاصرين له، إلى جانب المستوى الذي بلغه عصره في شتى مناحي الحياة وما أفرزه تقدم المجتمعات الأوربية من تحولات في أنماط الحياة الإقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية، وبصفة خاصة الفلسفة والعلم، حيث بدا نيتشه، منذ كان طالبا، إبن عصره***، حيث أيقضت فيه مثلا قراءته لتاريخ المادية لفريدريك ألبارلانج F.A.Lange، صائفة 1866، الرغبة في علوم الطبيعة وفلسفات الوضعية، التي جَرَّته إلى رفض الميتافيزيقا.[1] بعد خمس سنوات من ذلك، أخذ "يهتم بِجِد بِمَدِّ قدراته إلى مجال علوم الطبيعة والرياضيات وتناول، عقب إطلاعه على طبيعة المذنبات لتسولنر Zôllner، نظرية فلسفة الطبيعة لــبُوسكوفيتش R.J.Boscovitch (...) تاريخ الكيمياء لــ كاپ Kapp، محاضرات عن تطور الكيمياء لــلاندنبورغ Landenburgh، نظرية عامة حول القوة والحركة لــموهر Mohr، هندسة الكون الرائعة لــمادلر Mâdler، عناصر الفيزياء لــپويي Pouillet، الفكر والواقع لــ آفريكان سپير African Spir"[2] ... إلخ، كما صاحب نيتشه أحد ممثلي المذهب الطبيعي، ويُدعى هاينريش هارت Heinrich Hart [3] وربما كان ذلك كله هو الذي دفع بــ برينتون Brinton لأن يقول عن APZ، الذي يبدو أنه لم يقرأ

---

* لم تكن الحالة الصحية المعتلة جدا لنيتشة أبدا حجة ضد عمله وحياته، ومن ذلك كانت نظرته الإيجابية إلى المرض كشرط للنشاط الفلسفي عنده (EH., APZ., 1, p.161 ; GS., avant-propos à la 2°éd., 3, p.106-107)

** ألف نيتشة أولى محاولته الموسيقية والمسرحية والعسكرية والشعرية عام 1854، وفي 1862 أنجز محاولات باللاتنية عن نابوليون الثالث، وبعد سنتين من ذلك، أنجز عملا تراجيديا باليونانية واللاتينية عن أوديپ(Curt Paul JANZ : Nietzsche., biographie, T.II., trad. de l'allemand par : Pierre RUSH., Gallimard., Imp. Floch, Mayenne, 1984., p.607-608)، وفي صباه "كان نيتشه يكتب لأصحابه مقالات تعليمية تتضمن قواعد ونصائح وكان يعلمهم، في البداية، الهندسة المعمارية؛ وإبان حصار سيباستوپول عام 1855، درس آلات القذف [المدفعية] ودفاعات المواقع المحصنة، وفي الوقت ذاته أسس، بمعية صديقين له، مسرحا للفنون، أين لُعبت مسرحيات درامية قديمة وبربرية كان قد ألفها بنفسه، ومنها: إله الأولمپ و"أوركادال un Orkadal"(PE., p. 40-41)

*** - نيتشة نفسه يعترف ذلك بقوله : "أنا كفاغنر، إبن هذا القرن"(CW, p. 17)

-[1] PHP., p.11

-[2] Curt Paul JANZ ., op.cit., p.30

-[3] Notes et variantes in EH., p. 307 ؛ سوف يدعي نيتشة مرارا أنه لا يقرأ الكثير وأن القراءة لا تفيد في شيء (مثال APZ., Lire & écrire ؛ EH., pourquoi je suis si avisé, 3)غير أن جميع الدراسات التي أنجزت بهذا الخصوص تثبت العكس، أنظر مثلا: (Thomas H. Brobjer ; Nietzsche's reading and private library, 1885-1889., Journal of the History of Ideas., vol.58, N°4, october1997)

غيره من كتب نيتشة، أنه "يحتوي من داروين أكثر مما يتضمنه من زرادشت"[1]. وبالفعل فقد تأثر نيتشة "بالأمل الذي ولَّدته التحولية (...) بالقدرة على تنشئة بشرية جديدة"[2] وبأفكار التقدم والتطور، من الإغريق إلى هيغل وداروين ولامارك، وبنظريات علمية وإجتماعية شتى كنظرية "مصونية الطاقة"[3] والإشتراكية ... إلخ.

سجلت طفولة وشباب نيتشة قالبا لمجموع فكره، بالرغم من أن أهم محاور فلسفته وأعمق أفكاره لم تظهر في صيغتها الناضجة سوى إبان المرحلة الثالثة من حياته الفلسفية، وذلك ما يعني أيضا أن فلسفته أخذت تشكل "كُلاً متكاملا"[4] منذ الفترة الأولى، نظرا لاهتمامه بالحياة، أي بالموضوع الذي تناول فيه قضايا التاريخ والثقافة والحضارة والإنسان، ومحاولته "طرح رؤية شاملة"[5] وذلك ما يجعل من مهمة التعامل معه أمرا صعبا من عدة جوانب :

- **تطور مفاهيم فلسفة نيتشة عبر عدة مراحل**، مما يستجوب قراءة كل نيتشه وعدم فصل شخصه عن مؤلفاته؛ وسوف تكشف لنا الصفحات التالية مدى رفض نيتشه الحديث عن الأفكار الخالصة، التي يفصل فيها أصحابها الأعمال عن مؤلفيها، ولذلك فقد سعى لأن لا "يستخلص من كل نسق سوى ما يشكل شخصيَّة **شخصية**، وينتمي لهذا الجزء الذي لا يمكن دحضه أو مناقشته، والذي وجب على التاريخ أن يصونه"[6]، "لأن الشيء الوحيد الذي يمكنه أيضا أن يهمنا في الأنساق، التي دُحضت، هو بالذات الشخصية، لأنه فيها يكمن بالفعل ما لن يُدْحض أبدا"[7]؛ و"في الفيلسوف ما لم يكن أبدا في الفلسفة: أعني سبب الكثير من الفلسفات: الرجل العظيم"[8]. من ذلك كان حديث نيتشه عن أهمية الجسد أو الجانب الفيزيولوجي في كل نص والذي يجد تعبيره أيضا في حديثه عن نفسه، كقوله مثلا: "على المرء أن **يبتغي** عيش المشكلات الكبيرة بجسده وعقله"[9]، أو قوله أيضا بأنه لا يقرأ "من كل ما كُتِب سوى ما كتبه صاحبه بدمه"، لأنه يعرف أن "الدم فكر"[10]، فضلا عن كون كتاباته كلها مُدونة بدمه و"لا تتحدث سوى عن إنتصاراته"[11]، ويكفي مثلا استبدال إسم

---

1 Theodosius DOBZHANSKY: L'homme en évolution., Flammarion, éditeur., Paris., 1966., p. 159

2 "كان نيتشه طفل داروين"(ول ديورانت: قصة الفلسفة، ترجمة فتح الله محمد المشعشع، ط،7، منشورات مكتبة دار المعارف، بيروت، ص،523)؛ Charles Andler : Nietzsche et le transformisme intellectualiste éd. Bossard., Paris., 1922., p.19 ... إلخ

3 VP,I, Chap.III, surtout § 331

4 G. A. MORGAN, Jr :What Nietzsche means, Harvard university Press, Cambridge, Massachusetts 1943., p. 241 ؛ قسَّم غرانيي فكر نيتشة إلى: 1\ "تشاؤم جمالي"؛ 2\ "فكروية نقدية" ذو إلهام علمي؛ 3\ "الديوينزي" للعالم المبني على العودة الأبدية والإنسان المتفوق (J. Garnier., op.cit., p.2)

5 جماعة من أساتذة سوفييت: موجز تاريخ الفلسفة،ترجمة توفيق سلوم، دار الفرابي،بيروت، 1989، ص، 523

6 Phil. ETG., p.9-10

7 Ibid., p.11

8 Henri LICHTENBERGER : La philosophie de Nietzsche., 12° édition., Librairie Félix Alcan., Paris., 1923., p.177 ; Pbm, 6

9 VP,I,LI,13

10 APZ., Lire & écrire

11 APZ., Lire & écrire ; OSM., préface., p.5

ڤـاغنر بإسم نيتشه أو زرادشت في RWB [1] أو عبارة SE بعبارة Nietzsche éducateur [2]، للإستدلال على مدى إرتباط شخص نيتشة بفكره، "ولْيَنْبَسِط الإنسان بمعرفة ما شاءه، ويبدو موضوعيا ما رغبه، وفي النهاية لن يخرج من ذلك سوى ببيوغرافيته الخاصة به"[3].

لقد أفضت كتابات نيتشه، كتطور لتجارب شخصية، إلى بروز تشابه كبير في أغلبية الدراسات التي أجريت عليه، وذلك ما يُنم بصفة رئيسية عن عجز الكثير ممن تناولوه عن الاستمرار في "الرقص" بين كتبه وفقراتها الكثيرة جدا.

– **الكتابة بأسلوب الفقرات:** إذا استثنينا NT،CI ، GM ونسبيا APZ وVP، فإن نيتشه كتب بقية مؤلفاته في فقرات متباينة الأحجام وتُنم كلها عن غزارة فكره وصرامة لغته وقوة أسلوبه و"صدق" تجربته، فما الفقرة في مؤلفاته سوى إقتناص للكلمة والفكرة في اللحظة التي تتوسط قدوم وذهاب الطوفان. وفعلا فمنذ أن "كان تلميذا على مقاعد المدرسة، كان نيتشه قد شرع في التأمل بشأن ما سيكون مشكلة حياته وكل فكره"[4]، وما تلك "السير الذاتية"*، التي ألفها، أو بحثه في مسائل وقضايا كبيرة، من قبيل "مشكلة أصل الشر"[5]، سوى دليل على ذلك.

وبعيدا عن أولئك الذين يجدون في أسلوب الفقرات ميلاً، لدى نيتشه، إلى إختزال "تنوع الواقع الهائل، سواء تعلق الأمر بالمجال الروحي أو بالميدان التاريخي، في خط يختار تعسفا بشكل سيكولوجي وتاريخي، مما يجعل الباقي يأتي منه بالضرورة أي بشكل مطلق"[6] ونعتبره بعدئذ مصابا بجنون العظمة[7]، فيقول لنا حينها: "تعلموا كيف تقرأوني جيدا"[8] حتى ول كان نيتشه نفسه يسعى لأن يقول "في عَشْرِ جُمَلٍ ما يقوله آخر في كتاب ... ما لا يقدر على قوله في كتاب"[9]، وحتى لو كانت معظم كتبه، وبصفة أخص EH، ملآى بصفات الذرى والمطلق، وهي الكتب التي استقلت فيها "أنا" عن "نحن".

لقد أدرك نيتشه أن "كل انسان معجزة مرة واحدة"[10] وأن "كبريات الأفكار كبريات أحداث"[11] وأن عظماء، أمثال شوپنهاور وڤاغنر وبوركارت ... وغيرهم ممن تأثر بهم، "أحداث في حياته"؛

---

1 EH., NT., aph.4

2 EH., les « inactuels »., 3 الإتجاه العكسي غير صحيح لأن إستبدال إسم زرادشت، في هكذا تكلم زرادشت، بإسم فاغنريجعل فطنة ألفيتين غير كافية للتفطن إلى أن مؤلف HTH هو نفسه مؤلفAPZ(EH, pourquoi je suis si avisé, 4)

3 VP,II,LIII, 312 ; HTH., 513

4 K. Löwith., Nietzsche et sa tentative de récupération du monde., trad. de l'allemand par Arion KELKEL., Colloque de Royaumont. p.47

* بين 18 أوت وفاتح سبتمبر 1858، ألف نيتشه "مقتطفات من حياتي"، وفي فيفري 1859: "حياتي" وفي أفريل1861: "حياتي" 1 و2...إلخ (C.P. Janz., op.cit., p. 607- 608)

5 "كنت لا أزال طفلا في الـ 13 من عمري حين أخذت مشكلة الشر تختلج فيَ" (GM., avant-propos., 3)

6 Nicolas MILOCHEVITCH : Nietzsche et Strindberg (psychologie de la connaissance)., traduit du serbe par Zorica Hadji-Vidoïkovitch et Svetlana Nickchitch., éd. L'Age de l'homme., Lusanne., 1997., p.155

7 ibid., p.167

8 A,5

9 Cré. id., divagation d'un « inactuel », 51

10 CI., III., 1. p. 17

11 Pbm., 285

وأن الفقرة والحكمة "شكلان للخلود"[1]، ولذلك سعى لتخليد نفسه بهما وهو يدرك أن "أسلوب الفقرات(...) يوفر صعوبة معينة(...) ولذلك سيمضى المزيد من الوقت قبل أن يصبح مقروءً"[2]، لأنه "لاآني" بحكم كونه "بسيطا ونزيها في فكره وحياته"[3]، لأنه عرف أنه "لابد لمن أراد أن يصير حكيما، أي يبتغي معايشة بعض التجارب، ومن ثمة أن يلقي بنفسه في فم الأحداث"[4] وأن "يحبل بأفكاره إنطلاقا من معاناته"، فيضحى أُمًّا تمنح تلك الأفكار "كل ما لديها من دم وقلب واتِّقَادٍ ورغبة وشغف وعذاب"[5]؛- ثم كيف لذلك الطفل ألا يولد في شكل آخر غير الحوصلة؟ إن ما يكتب في شكل وجيز قد يكون "ثمرة شيء جرى الإمعان فيه مليا"[6]. ثم أن هنالك أسلوب أو "وجهات نظر، جُمعت وفقها تلك الفقرات"[7]، فعلى القراء ألا "يعتقدوا أن الأمر يتعلق بعمل مفكك" لأنه "لابد وأن نُعرضه عليهم بهذه الصيغة"[8]،- وحين تضعه، ينقلب عليها، لأنه يكون قد أنهكها.[9]

لقد جاءت أعمال نيتشه في شكل إنتصارات على:

1- معلميه، ولم يسلم من قلمه أحد وخاصة شوپنهاور وڤاغنر؛

2- عصره، وخاصة قيم الجماهير كالإشتراكية والديمقراطية والمساواة...إلخ؛

3- على المسيحية، كعقيدة وتاريخ وقيم .

ولذلك فإنه سعى إلى تجاوز كل ذلك و"جعل روحه رمزا للعالم"[10]، بل لقد جعل من نفسه، بواسطة فكرة العودة الأبدية، "مصيرا لنفسه"[11] ومعنًى للعالم.

لم تكن اللاآنية*، التي تحدث عنها نيتشه، مجرد كلمة تلفت الإنتباه والدهشة، بل كانت حقيقة واقعة، فقد كان يدرك تماما أنه سابق لعصره وأنه يجب انتظار نصف قرن لكي تقرأ مؤلفاته[12]؛ و"لاحقا سيحتاج الناس لمؤسسات يحيون ويعلمون فيها وفق فكره، وقبل هذا إلى معاهد جامعية لتفسير كتابه APZ"[13]، ومن ثمة كانت صعوبة فهمه، الصعوبة التي نجمت عن قوة وغزارة لغته وسعة إطلاعه، في مجالات متنوعة، وعمق تجربته...؛ فضلا عن تعمده شخصيا "الغموض في

1 Cré. id., divagation d’un « inactuel », 51
2 GM., avant-propos., 8
3 CI., III., 2., p.25
4 VO., 298
5 GS., avant-propos à la 2°éd., 3
6 OSM,127
7 Eric BLONDEL : Nietzsche, le corps et la culture., PUF., Paris., 1986., p.104
8 OSM,128
9 EH., APZ,5,p.166 (عادة ما نفرط في الأشياء التي دفعنا ثمنها غاليا OSM ; APZ., les iles bienheureuses)
10 Lou ANDREA-SALOME : Friedrich NIETZSCHE., trad. de l allemand par Jacques BENOIST-MECHIN., 2* ed. , Imp. Gordon et Breach., Paris., 1970., p.30
11 Karl LOWITH : Nietzsche, philosophie du retour éternel, trad. de l’allemand par Anne-Sophie ASTRUP., Hachette., Paris., 1998., p.9
* ألف نيتشه: 4 لاآنيات، وتحدث في ".Cré.id عن « divagation d’un « inactuel ...إلخ و("الفضيلة المصغرة"، APZ.,3 و"الروح الثقيل في APZ ").
12 Karl LOWITH ., op.cit., p.9
13 Lettre de Nietzsche à E.W. Fritzsch, le 7/8/1886., M. de Launay: Glossaire in Ess.d'auto. p. 164 ; EH., pourquoi j’écris de si bons livres, 1

جوانب معينة"[1]. فقد تساءل مرة قائلا: "ألا أبذل قصارى جهدي كي أجعل نفسي صعب الفهم؟"[2]، إلى جانب إمكانية قراءة "أشياء غير مكتوبة"[3] في مؤلفاته، ومنها الجانب الشخصي مثلا، الذي يعجز نيتشه نفسه، حتى ولو كتب "عدة مقدمات" لكتاب واحد، "عن تبليغه لمن لم يعش شيئا مماثلا"[4]. وكالقرآن، تضمنت كتب نيتشه استطرادات كثيرة، في جمل مكررة أو تعابير أو أفكار. ويمكننا أن نؤلف، في هذا السياق، كتابا معتبرا، نُبين فيه مدى ارتباط مؤلفاته ببعضها البعض وكذا وحدة فكره، وذلك ما زاد في صعوبة البحث فيه.

– **تأثر الباحثين بتخصصاتهم وتأثرهم ببعضهم البعض،** بالشكل الذي دفع بالبعض إلى أن "يقترح بأن يبني كل جيل نيتشاه أو نيتشاته الخاصين به"[5]، وبالذين رأوا في قراءة أعمال نيتشه: "مواجهة شخصية وحتى خاصة، محفوفة بالإشاعات أو التشويه"، أن يحتملوا أن "يكون لكل واحد منا سبيله الشخصي الذي يؤدي به إلى نيتشه"[6]، وهي أمثلة عن أقوال أراد بها عدد، ممن صرحوا بها أو كادوا، أن يَسْلَمُوا من النقد، ومن ثمة تبرير عجزهم عن متابعة "عبقرية" نيتشه. وكان من نتائج ذلك: ترميز وحتى تقديس إسم نيتشه، أي ما كان هو ضده*، رغم أنه جعل من نفسه محطة لبداية ونهاية عودته الأبدية. وهكذا، ونتيجة لقلة تجارب وخبرة الكثيرين، ولاعتقاد البعض في إمكانية فهم نيتشه كمفكر فحسب**، ظهرت دراسات لأطباء لتجعل منه طبيبا، ولفلاسفة لتجعل منه فيلسوفا ولمؤرخين لتجعل منه مؤرخا... إلخ***، غير أن نيتشه "ظل واحدا في كل مرحلة ولكن بقناع

---

1 Pbm, 42

2 Pbm,27

3 VO., 62 ; OSM., 175

4 GS., avant-propos, 2°éd.,1

5 Steve E. ASHHEIM : Nietzsche, anti-semitism and the holocaust., (Nietzsche and jewish culture) p.3

6 Robert S. COHEN : Préface to : Nietzsche, theories of knowledge and critical theory., edited by Babette BABICH and Robert S. COHEN., vol.I., Kluwer academic publishers., Dordrecht/Boston/ London., 1999, p.XV

* أنظر مثلا: VP,I,LII,311

** "لا أعرف أي شيء عن القضايا الفكرية الصرفة". F.A. Lea : The tragic philosopher, a study of F.). (Nietzsche., London, Methuen & co ltd/ Barnes & Noble books, NY., 1972., p.51

*** ومثال ذلك :- الطبيب، الطبيب النفساني وعالم النفس Louis CORMAN : Nietzsche, psychologue des profondeurs., PUF., Paris., 1982., p.9 الذي قال : "نيتشه واحد من أعظم علماء النفس الذين وُجدوا وربما أعظمهم جميعا"؛

- Kurt Rudolf Fischer., p.119 : "يعتبر فيتغنشتاين نيتشه فيلسوفا وبالفعل فيلسوف مهم"؛

- Charbonneix LAURENT : Nietzsche, une philosophie de la santé et de la maladie., Thèse de doctorat, présentée à l'Université de Lille III., (Bibliothèque de la Sorbonne MC3455) p.837 :"لقد لاحظت عدة مرات الطابع هذا العلاجي للفكر النيتشي"

- برتراند راسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ج3، ص393: "فأهمية نيتشه بالدرجة الأولى في الأخلاق وبالدرجة الثانية كناقد تاريخي قاسٍ".

7 FP/HTH 18[27]، وهذا ما لاحظه QUINOT., Essai d'introduction au Zarathoustra in Société Française d'Etudes Nietzschéennes : Nietzsche., éd. Martin Flinker., Paris., 1950., p.51

8 L.-A. Salomé., op.cit., p.30

مختلف في كل مرة"[1] وفي حالة ضغط وصراع دائمة، تعايش فيه موسيقي معتبر ومفكر حر ومصلح ديني وشاعر بالفطرة...[2].

كما أن نيتشه نفسه تحدث عن أنه "تقريبا لا يؤلف كاتب جيد أبدا سوى كتابا واحدا، والباقي ليس سوى مقدمات له، مخططات، شروحات، ملحقات"[3]، وأن كتبه "تشهد على تطور ثابت"[4]: فقد كان APZ أهم كتبه "ورواقا"[5] يؤدي إلى أعمال أعظم منه. ولفهم مؤلفاته، نصح بأن تُقرأ بداية من آخرها، وبصفة أخص Pbm وGM، باعتبارها ذهبت بعيدا، كما اعتبر A وGS ، المؤلفين المحبذين لديه والأكثر شخصية[6]. وقد نجم عن كل ذلك أن كثرت الدراسات وتباينت آراء أصحابها بشأن فكر نيتشه، ووصل بعضها إلى حد اتهامه بالفاشية قبل أن يقوم كل من كولي Colli ومونتيناريMontinari بإصلاح الأمور. وقد لعبت شقيقته دورا كبيرا في ذلك، إلى جانب الدوائر البانجرمانية، فأنجزت "تنقيحات" و"إضافات" و"ترتيبات" جديدة و"تشويهات" خدمت و"شرّفت بها القضية" واستحقت عنها شهادة دكتوراه، بعدما أهدت عصا شقيقها لأدولف هتلر[7]، وإهداء هذا الأخير بدوره، مؤلفات نيتشه الكاملة لموسوليني، مما جعل الفرنسيين مثلا يعتقدون أن نيتشه جَدٌّ للنازية[8]. ولا غرو في هذا إذا عرفنا أن نيتشه نال إمتيازا "قلّما تمتع به فيلسوف ألماني، لكونه قُرِىء ونوقش، ليس من قبل أهل المهنة فحسب بل من قبل الجمهور العريض أيضا"[9]، وذلك ما كان نيتشه يخشاه؛ وكتابه APZ مثلا ملىء بالعبارات التي تدل على أنه "حيث تتواجد العامة فهناك تتعكر المياه"[*]، كما أنه كثيرا ما تحدث عن حاجة مؤلفاته لأصحاب "عيون وآذان جديدة"[10]، لأنه شاهد، وهو حي، "قطيع العارفين" وهم يتهمونه مثلا بالداروينية، بسبب حديثه عن الإنسان المتفوق[11]. وعقب الحرب العالمية الثانية، أوجدت مساعي الكثير من مفكري الغرب، لإلغاء فكرة

---

1 Lou ANDREA-SALOME : Friedrich NIETZSCHE., trad. de l allemand par Jacques BENOIST MECHIN., 2* ed., Imp. Gordon et Breach., Paris., 1970., p.19 "محاولة استرجاع العالم" هي الفكرة الأساسية في المجزأة في فقرات فلسفة نيتشه" (Jacob TAUBES : Question posée à Karl LOWITH au Colloque de Royaumont., p.79)

2 Salomé., op. cit., p.30

3 Arnaud QUINOT., Essai d'introduction au Zarathoustra., FP/HTH 18[27] وهذا ما لاحظه in Société française d'études nietzschéennes : Nietzsche., éd. Martin Flinker., Paris.,1950., p.51

4 Lettre de Nietzsche à E.W.Fritzsch., idem

5 Friedrich WURZBACH : Postface à volonté de puissance, T.2.,op.cit.,p., p.471

6 M. de Launay., op. cit., p.18

7 Jean GARNIER : Nietzsche., PUF., Paris., 2000., p.12-13 ; Vladimir Biaggi., op.cit., p.16 عن التشويهات التي ألحقت بأعمال نيتشة أنظر أيضا Giuliano CAMPIONI : Les lectures françaises de Nietzsche.,traduit de l'italien par Christel LAVIGNE-MOUILLERON., PUF., Paris., 2001.,p.1 &suiv.

8 Pierre DOURNES : Nietzsche vivant., Bloud et Gay., Imp. Floch à Mayenne., 1948 ., p.83 حين إندلعت الحرب العالمية الأولى، تم إنجاز سحب لـAPZ وFaust والعهد الجديد في 150 ألف نسخة وتوزيعها على الجنود في الجبهات، ولذلك رأى البعض في أمريكا وبريطانيا وفرنسا أن نيتشه محرض للحرب وفي 1919 برهن Hermann Hesse هس بكتابه"عودة زرادشت" أنه يمكن فهم بشكل مغاير لذلك تماما(Rüdiger SAFRANSKI : Nietzsche, biographie d'une pensée., trad. de l'allemand par Nicole CASANOVA., Solin Actes du sud., Arles., 2000., p.305-306)

9 Henri LICHTENBERGER : La philosophie de Nietzsche., 12° édition., Librairie Félix Alcan., Paris., 1923., p.169

* أنظر مثلا APZ

10 Anté., avant-propos., p.13

11 EH., notes et variantes., p.299

"الرهان الفاشي" عن نيتشه، تفسيرا جديدا لفكر فيلسوف إرادة القوة واعتباره فيلسوفا للحرية[1]؛ وباختصار فالمرء حين "يكون عظيما، فمعنى ذلك أن يُساء فهمه"[2]، ونيتشه لم يخطيء كثيرا حين اعتبر نفسه "الكاتب الألماني الوحيد والعقل الأكثر تحررا في أوربا"[3]. فمثلا مع سنة 1898، أكد أندري جيد A. Gide على أن تأثير نيتشه في فرنسا سبق ترجمة مؤلفاته[4]؛ ولاحظ هنري ألبار Henri Albert أن نيتشه صار مشهورا في فرنسا وهو بالكاد معروف[8]؛ كما أن المطلع على المناقشات، التي كانت تجري في الملتقيات حول فلسفته، وعلى مدى التباين في فهمها، دفع بالبعض إلى القول بأن "لاآنية intempestivité نيتشه لاتزال إلى اليوم أغرب عما كانته في القرن الماضي[التاسع عشر]"[6]. ومما زاد في صعوبة فلسفته، تناول أعظم الفلاسفة لها. ويكفي أن نذكر على سبيل المثال: توماس مان، كارل ياسيرز، مارتان هايدغر، وتلميذه كارل لوفيث، أوجين فنك، جيل دولوز، جورج ألن مورغان وغيرهم، وربما جاء ذلك من كون المؤلف أفضل من مؤلفه، لأن نيتشه، حسب براندس Brandes، "مثل شوپنهاور، إلهي، عرّاف، فنان، أقل أهمية بما يفعله عما هو"[7]، ومن ثمة فهو يفعل فعله في نفوس العلماء وليس في العلم.[8] وذلك ما انتهى إليه برترام Bertram ، في كتابه "نيتشه، محاولة ميثولوجية"، حين قال أن لاموضوعية في تمثل وتحليل حياة وعمل بشريين، بل هناك فقط تفسيرات لهما[9]. وهذه نتيجة أفضى إليها الباحث، على ما يبدو، من خلال محاولته فهم المعنى الديونيزي للحياة، لأن إتباع الطريقة التاريخية في دراسة أعمال وحياة نيتشه تؤدي دائما إلى "تجزئة فكره إلى فترات"[10]، بينما سعى **برترام** إلى إيجاد الوحدة فيه، وفي هذا تتجلى شدة تأثره بنيتشه.

– **تعامل الباحثين والفلاسفة مع الطفل نيتشه وكأنه وُلِدَ ناضجا،** مما يكشف مدى عبقريته وأهميته، ما سميناه منذ قليل، "القالب" في حياته وأعماله اللاحقة. وتكفي إطلالة سريعة على الموضوعات التي تناولها في شبابه لتبيان مدى عمقه واهتمامه المبكر بالجوانب الرهيبة في الحياة، الجوانب التي يصاب فيها عقل كل شاب في عمره بالدوار، مثل "التاريخ الفاتوم"– الذي قال فيه: "إنه من الصعب الرغبة في حل مشكلاتٍ تصارعت بشأنها الآراء منذ ألفيات" و"إن محاولة من هذا النوع لَهِيَ عمل العمر كله"[11]– و"حرية الاختيار والفاتوم"، الذي وجد فيه "أن

---

1 Norman PALMA : Nietzsche et le devenir du monde., Colloque de Cerisy-la-Salle., p.371
2 FP., 30 [104]
3 P. Dournes., op.cit., p.44 "أعطيت الألمان أعمق الكتب التي بحوزتهم" (CW., 2nd post-scrip., p.50)
"أعطيت البشرية أعمق كتاب تمتلكه، زرادشت (ي)" (Cré.id.,51)
4 Geneviève BIANQUIS : Nietzsche en France (l'influence de Nietzsche sur la pensée française)., Librairie Félix ALCAN., Paris., 1929., p.11
5 idem., p.10 ؛ "لا أريد أن تذكروني بل أن تفكروا فيَّ." (APZ., lire et écrire)
6 Jean-François MATTEI : L'ordre du monde (Platon, Nietzsche, Heidegger)., PUF., Paris, 1989., p.73
7 ("moins interssant par ce qu'il fait que par ce qu'il est") Lichtenberger., op. cit., p.177
8 Ibid., p.172
9 R. Safranski., op.cit., p.307
10 J. Granier., op.cit., p.22
11 **EJ**., p. 729

الشعوب التي تؤمن بفاطومها، تتميز بقوتها وطاقة إرادتها"[1]، وهي واحدة من أساسيات فكره اللاحق. وقد تمكن نيتشه بحديثه عن الفاتوم من بلوغ مستوى كانط، رغم أنه لم يكن يعرفه. كما يمكننا أن نطلع مثلا على واحدة من أدوات تفسيره، أي أهمية الجسد، في كتابات أقدم من تلك، حين لَمَّح مثلا إلى كون بنية صديقه فيلهالم الضعيفة وراء حالة الإشفاق الكامنة فيه[2]. وقد كشفت لنا قراءاتنا، المتكررة والمتمعنة لجميع مؤلفاته، عن أن "ميلاد المأساة NT"، التي تمثل "البداية الساطعة لكاتب عظيم"[3]، والتي بناها على أعمال سابقة،- كـ"الدراما الموسيقية الإغريقية" و"سقراط والمأساة" و"ميلاد الفكر المأساوي" و"النظرة الديونيزية للعالم" وغيرها- أن معظم نيتشه يتواجد فيها وفي "الفلسفة في الفترة المأساوية للإغريق" و"عن مستقبل مؤسساتنا التعليمية" و"خمس مقدمات لخمس كتب لم تؤلف"**، فضلا عن كون "NT واحدة من أصعب القضايا التي تناولتها الفيلولوجيا في زمنه"[5]. ولم يكتف الباحثون بذلك فحسب، بل لقد امتد اهتمامهم، المصحوب بالإعجاب الشديد، إلى مسوداته[6]، بما في ذلك تلك التي ألغاها بقلمه[7]، بل وحتى إلى رسائله التي كتبها عقب انهياره أو جنونه، مثلما حكموا عليه[8]. وباختصار ظهرت نتيجة ذلك، فلسفات تتحدث عن نيتشه "المتاهة" و"اللغز" و"صاحب الأقنعة" و"الميثولوجي" و"المجازي" وغيرها من المفاهيم، التي حاول بها أصحابها القبض على كل نيتشه، وهي كلها محاولات تبين أن نيتشه صار، عقب انهياره، عاملا حاسما في تطور الفكر الغربي، حيث كانت فلسفته في الحياة وراء ميلاد أهم التيارات الفلسفية كالوجودية والبرغسونية، والفنية كالرمزية والانطباعية واليوغندشتيلية والعلمنفسية... وغيرها، قبل أن تضحى "كل الفلسفة الحديثة تُنسب نفسها لنيتشه، وكل ثقافتنا تعيش على نيتشه"[9]. كيف لا، فقد انتشر خبر انهيار نيتشه، الذي ظل طوال حياته يشتكي عدم فهمه وقلة قرائه، بسرعة البرق وأعاد ناشره نومان Naumann نشر مؤلفاته عام 1890، التي ازدادت مبيعاتها، مما أدى إلى إعادة طبعها عام 1909، وقبل ذلك نشرها دروز A. Drews بعنوان

---

1 Ibid., p. 734

2 **PE**., p.29 & 30

3 Geneviève Bianquis : préf. à la trad. de NT., éd. Gallimard., Dijon., 1949. p.1

* ليست الحالة قاصرة على طفولته وحدها فقد ظل نيتشة يحيلنا من حين إلى آخر إلى فقرات كتبها في كتب أخرى فضلا عن استمرار وجود ما اسماه (Ch. Andler., p.327) "العوالق" في كتب تعود لفترات مختلفة من حياة نيتشه الفكرية، فمثلا لاحظنا أن عبارة "بوذا ضد المصلوب" (VP,I,LI,342) كانت موجودة في EH بهذه الصيغة: "ديونيزوس أمام المصلوب"، وهذه الأخيرة في صيغة مبكرة على هذا النحو:"أمام المصلوب"(EH.,avant-propos,1)...إلخ

5 idem نيتشه نفسه يؤكد هذا القول بطريقة غير مباشرة، حيث قال مثلا أنه لابد لمؤلفاته أن تكون مؤرخ لها

6 Curt Paul Janz., op.cit., p.30 et suiv.

7 كافة notes et variantes التي ألحقها مترجمو نيتشه بالمؤلفات التي ترجموها له، دليل آخار على ذلك.

8 من بين الذين أعتبروا نيتشه مجنونا في نهاية عمره واستعملوا رسائله في تلك الفترة لأغراض "عاقلة" نذكر مثلا: Safranski., p.295;G. Campioni., p.240 ; G. Deleuze : conclusions., Colloq.Roymt., p.276 ...إلخ

9 Sarah KAUFMANN : Nietzsche et la scène philosophique., Union Générale d'édition., Saint-Amand (Cher)., 1979., p. 7 & 10

"فلسفة نيتشه"، كما تم طبع VP في طبعة ثانية، من عشرة أجزاء منقحة ومزيدة، وأسست له شقيقته، إليزابيث، "أرشيف نيتشه في ڤايمار"[1]، ومنذئذ ظهرت آلاف الدراسات حوله وأصيب معظم أصحابها بالدوار فاستحالت أعمالهم إعجابا وانبهارا، تصف نيتشه "بالحي أبدا"[2]، ولم يعد يسلم من تأثيره حتى ناقديه، مثل أناطول فرانسAnatole France و جـ. طوب و جـ. كولي، أو أولئك الذين سرقوا فكره وتنكروا له والذين يمثلهم فرويد بكل جدارة. كما أن البعض لم ير في "سيادة" نيتشه، سوى مشكالا[3] Kaléidoscope (المصطلح الذي يعني أيضا التعاقب المتقلب للمشاعر)، لأن نيتشه تحدث في جميع مؤلفاته عن وجهي الظواهر الأخلاقية والإجتماعية والنفسية ...الخ، كخاصيتين للشيء نفسه. ومن جهة أخرى، أدت الطريقة التاريخية، التي تساعد على الفهم، بأن يجزئ أصحابها فكر نيتشه إلى فترات ثم يشرعون بعدئذ في البحث عن الإنسجام فيه، أي سَسْتَمَته، مما يخلف لديهم إحساسا بتباين، وأحيانا بتناقض، مضامين فلسفته. صحيح أن نيتشه تحدث عن تطور فلسفته ولكنه لم يكن يعني انسلاخه عن مرحلته الأولى مثلا، حتى ولو قدم دراسة نقدية لنفسه[*] واعترف بأخطائه[**]، لأن عمله "انساني، انساني للغاية". ولأن تناوله الموضوعات بطريقة فنية جعل أعماله تستوجب توفر "صفة السذاجة لدى من أراد فهمها"، مثلما لاحظت ذلك جوديثMme Judith Gautier[4]، ومن ثمة يقف كل من الفنان والفيلسوف، في ما فهماه من نيتشه، على الإنسجام أو النسق، أو لِنَقُلْ الكلمات "المنتقاة التي تريد محيطها من الكلمات وكذا عطره"[5]، أو المفاهيم التي تحتوي الوجود كله مثل: الحياة، الإنسان، إرادة القوة، العودة الأبدية، الحالة الديونيزية... وغيرها، وهي مفاهيم ينفلت بها نيتشه من الإحتواء كي لا يفني[6]، ويظل خالدا، تماما مثلما كان يفعل فلاسفة الإغريق، الذين لا حدود لشدة تأثره بهم، ومنهم "هيراقليط Héraclite ، الذي قال بصوت أعلى من أناكسيمندر."لا أرى شيئا بغير المصير devenir فإياكم وأن تظللوا أنفسكم ! لأن الأمر يتعلق بأثرٍ لقِصَرِ نظركم وليس لجوهر الأشياء، إذا اعتقدتم أنكم أدركتم أرضا يابسة في مكان ما على بحر المصير الزائل. إنكم تستعملون أسماء الأشياء وكأن لها صلابة ثابتة، غير أن النهر الذي تنزلون إليه لثاني مرة لن يكون النهر نفسه الذي سبق وأن نزلتم إليه لأول مرة"[7]. لقد ولّدت لديه الفيلولوجيا عمقا كبيرا وجعلته يقف على النسبية والأنسنة، من خلال تعلمه

1 Oswald KULPE : The philosophy of the present in Germany., translated from the 5th German edition by Maud LYALL & G.T.W. Patrick., George Allen & co., London., 1913., p.116

2 Otto Gerhard OEXLE : L'historisme en débat (de Nietzsche à Kantourowiz)., Trad. de l'allemand par Isabelle KALINOWSKI., Imp. Floch à Mayenne., 2001., p.230

3 Ph. CHOULET et H. NANCY : Nietzsche, l'art et la vie., éd. du Félin., Paris., 1996, p.11

* FP/A 3[31] ; Essais d'autocritique et autres préfaces

** EH., NT., 1., p.139 NCW., nous les antipodes ; GS., 370 ... إلخ.*

4 Léonce MESNARD : 3 essais de critique musicale., Librairie Fischbacher., Paris., 1892., p.135 إلتقى نيتشة جوديث في بيروث عام 1876وله رأي مشابه لرأيها،أنظر مثلا RWB,2

5 FP/HTH 39[9]

6 Phil. ETG., 3-4-5

7 Phil. ETG., 5

الذِّمَامة casuistique وعلم النفس، وجرّته لأن يصادق الموتى الخالدين، ومنهم كبار الفلاسفة الإغريق والفرنسيين بصفة خاصة، وأن يتأثر ويستقي حتى ممن صبّ عليهم جمّ نقده، الفلاسفة الألمان، ويسعى لخلق فيلسوف المستقبل، الفيلسوف الحقيقي الذي وجب عليه "أن يكون ناقدا وشكوكيا ودوغمائيا ومؤرخا وشاعرا وجامعا ورحالة وفكاك ألغاز وأخلاقي وعراف و"مفكرا متحررا"؛ أن يكون تقريبا كل شيء كي يكون في **مستوى** عبور حلقة القيم ومشاعر القيم الإنسانية وأن يرى الأشياء عبر مختلف العيون والضمائر، من علٍ وهو ينظر إلى كافة الأماكن البعيدة، من أسفل وهو يتوجه نحو كافة الذُّرَي، من الزاوية إلى كافة الإتجاهات.

بيد أن هذه كلها شروط أولية، لأن مهمته... تقضي بأن يخلق قيما... بأن يختزل "الزمن" وحتى أن يهيمن على الماضي كله... **فالفلاسفة الحقيقيون رجال يقودون ويُشَرِّعُون:** إنهم يقولون: "على الأمور أن تكون هكذا !" ويحددون مصيرا وغاية الإنسان(...)".معرفتهم "إبداع"، إبداعهم تشريع، إرادة الحقيقة عندهم **إرادة قوة**(...)"[1]. إن الباحث عن مدى قدرة مؤلف "قدر وتاريخ" Fatum & histoire على على الإبداع لاحقا، وكذا الباحث عن الممكن في جميع مؤلفاته، الذي يحترم تواريخ صدورها، ليفهمان بسهولة أنه حتى ولو كان نيتشه قد بلغ مستوى متميزا للغاية في نوعية المعالجة التي تناول بها تلك النوعية العسيرة من القضايا، التي تناولها في أولى كتاباته، فإن إبداعه سيستمر ولا يستغربان من تمكنه من إبداع APZ؛ غير أن نظرتيهما السريعتين لتاريخ مشاهير الفلسفة تجعلاهما يقولان أنه حتى ولو قطع أشواطا هائلة في تحقيق تفكير فردي، جسّد فيه تجربته الشخصية بلغة جديدة ووفق ضرورات وقواعد، غير تلك التي أَلِفَهَا الفكر الإنساني، فإنه لا مجال أمام نيتشه لكي ينتج ما هو أعمق من APZ، ليضحى بذلك "التجاوز"، الذي كثيرا ما تحدث عنه، مجرد "جنون" في نظر البعض أو مشروعا لم ينجز، بالنظر إلى أرشيفه. لقد أوصلته فيلولوجيته إلى ما قبل السقراطيين، إلى حيث ساد اقتصاد اللغة، لغة تعكس كلماتها وتعابيرها، بشكل مباشر، ما نسميه في عصرنا: "سذاجة"، حين لم تكن "معاجم" الأقدمين تتفاخر بنفسها على أنها تتضمن آلاف الكلمات والإشتقاقات، حين كان الإنسان يحيا ويتصرف أكثر مما يقول، حين سادت أرضية أخلاق وعلوم عصرنا، أي الأساطير والفنون.... غير أن نيتشه، الذي يعي جيدا أن لا قوة لا أدرية تقف وراء تبوئه قمة الفلسفة في عصره، وحديثه بالــ"أنا" بدلا من الــ"نحن"، يبين بشكل واضح مدى وعيه بعمق نقده لشتى فترات التاريخ السابقة له، ومن ثمة مدى مقارنته نفسه بمفكري تلك الفترات وكذا كونه ابن عصر، وفّر له من المعارف والتجارب الجاهزة ما لم توفره العصور السابقة لمن تأثر بهم*، وانطلاقه من فكرة "اعتبار التطور الراقي للإنسان كأعلى تطور للكون"[2]، وهو الاعتقاد ذاته الذي تضمنته المعتقدات

---

1 Pbm., 211

* أنظر مثلا FP/HTH 23 [85] ; VP,II,LIV, 233

2 LP,105

القديمة*، وأن فهم ماضي البشرية يتطلب نوع "الفيلسوف الشامل"، الذي يجب عليه "القيام، وبخطى أكبر، بالمسيرة ذاتها التي أنجزتها البشرية، ثم تجاوز الهدف الذي إنتهت إليه إلى اليوم"[1]؛ الفيلسوف الذي يرضى بأن يكون فأر تجارب نفسه[2]، لم يفعل أكثر مما فعله صناع "المرحلة المحورية في التاريخ"[3]، أكثر مما فعله أنبياء الشرق: رفض الماضي بِرُمَّتِهِ والقول "أنا آخر الأنبياء وأفضلهم"، "أنا مصير العالم"، "أنا كابح عجلة الزمن"[4]؛ فهل حقا تتطلب لاآنية نيتشه ميلاد فلاسفة لاآنيين، ممن يشكل حدثا في حياتهم، لكي يفهموه ومن ثمة يتساووا به؟ ومن ثمة ليتذوقوه ! ليتجاوزوه[5].

* A. 37 مثلا "لنتذكر طريقة تفكير كريستوف كولمب : خُلقت الأرض لأجل الإنسان، إذن إذا كانت هنالك أراضٍ فلابد أن تكون مأهولة."أصحيح أن الشمس تنشر نورها على العدم وأن العشية المظلمة للنجوم ستكون تبذيرا لأجل بحار بلا مسالك ومناطق غير مأهولة؟" .

1 FP/ HTH 23[160]

2 GS,319

3 Karl JASPERS : Introduction à la philosophie., traduit de l'allemand par Jeanne Hersch., Plon., Paris., 1954 p.105

4 LP,24

5 Pbm,73 ; "الذوق هو الوزن والميزان والوازن".(APZ., le convalescent.)

2- الإنســـــــــــــــان

شكَّلَ الإنسان موضوعا أساسيا ومحوريا في فلسفة نيتشه، التي انطلقت من "ربط مصير الكون بمصير الإنسان"[1]، ولذلك حمّل العديد من مؤلفاته اسم الإنسان وخصّ بعض النماذج كشوبنهاور وفاغنز وزرادشت بمؤلفات بأسمائهم، كما لا يخلو أيا من هذه الأخيرة، و في جزء كبير منها، من عشرات الفقرات التي تناول فيها الإنسان وعلاقاته المختلفة لدرجة أن إطلالة سريعة على مجموع كتبه تكفي لوصف فلسفته بالإنسانية. فقد جرّته دراسته وكتاباته ومحاضراته الأولى، التي تركزت على الثقافة الإغريقية بشكل أساسي، لأن يكتشف بأن "الإنسان كان الحقيقة وعمق الأشياء" لدى الإغريق وأن "الباقي ليس سوى مظهرا ولعبة مُغَلَّطَة"[2]؛ ومن ثمة فحقيقة الإنسان، إلى عصره، ليست سوى تراكمات "أخطاء تمثلاته الأخلاقية والدينية والميتافيزيقية الثقيلة وذات المعاني"[3]، مما جعله مجرد قناع تختبئ وراءه "كافة الفترات وكافة الشعوب بألوان شتى" و"تتحدث كافة العادات وكافة الاعتقادات لغة ملونة في مواقفه"[4]، فضلا عما تراكم في جسده، إبان مسيرته عبر التاريخ، والذي يمثل الفكر "رفيقه وصداه"[5]، الفكر الذي صار انحطاطا، مما جعل الإنسان مرضا، يصيب قشرة الأرض[6]، شَخَّصَه نيتشه ثم عبَّرَ عنه في أقوال "إنسانية للغاية" مثل: "ظل الانحطاط شغلي الشاغل"[7]، و"إنكم لا تعانون الكثير(...) لأنكم تعانون من أجل أنفسكم ولم يسبق وأن عانيتم من أجل الإنسان"[8] وغيرها. وقد جاء تناول نيتشه لموضوع الإنسان كدراسة أنتروبولوجية شملت كل التاريخ البشري، بما في ذلك فترة ما قبل التاريخ، التي رفعت قيمة طريقته إلى مصاف عظماء الفلاسفة الذين أنجبتهم البشرية، ومعظم القارات لدرجة أنه تحدث عن ثقافات قَلَّمَا يخطر ببال أحد أنه تناولها فيلسوف في حجمه ككامــپوتشيا[9] وبسكرة[10] ... أي أنه استند، في دراساته للإنسان والمجتمع والثقافة، إلى معطيات واقعية وشمل نقده ما تعرَّض له الإنسان حقا. وقد جاء حديث نيتشه عن الإنسان مرتبطا بالحيوان ولم ينفصل عنه سوى في النموذجين الإغريقي والمتفوق، مما جعل من انفصالهما أمرا بشريا تصنعه نماذج متفوقة بإرادتها.

أ- **الإنسان جزء من الطبيعة:** في هذه النقطة يقبع كل ما قبل تاريخ نيتشه وتتجلى أهمية طريقته، في تفسير شتى الظواهر، بشكل واضح، وما مفاهيم إرادة القوة والجسد والغريزة مثلا سوى أدوات تفسيره، الذي بناه على وحدة الطبيعة والإنسان، في ما يمكننا أن نسقط عليه عبارة

---

1 VP,I,LII,14 ; LP.105
2 Phil.ETG, 3
3 VO,350
4 APZ., du pays de la culture, p.165-166 modifié
5 APZ., de la vertu qui prodigue., I., p.102
6 APZ., des grands évènements., p.183
7 CW, 17
8 APZ., de L'homme supérieur., VI., p.411 ; HTH,35 ; VP,I,LI, 294
9 GM,III,9
10 FP/A 3 [15]

"الحياة، ثمرة للحياة"[1]، أي إنتاج الطبيعة "لابنها الكريم"[2] وفي سيرورة طويلة، لا يزال بعدها الناس إلى اليوم "حيوانات غير مكتملة"[3]. لأنها من جهة، لم تُسَلِّحْهم بأدوات الصراع من أجل الوجود، التي سلَّحَتْ بها الحيوانات الأخرى: كالقرون والفكوك الحادة[4]، وقذفت بهم، من جهة أخرى، في جغرافيات طبيعية قاسية، مما أدى إلى ظهور ملكة التفكير لدى الإنسان، التي "مرت خلودات éternités كانت منعدمة إبانها"[5]، ومن ثمة فقد نشأ تشابك في العلاقات بين بني البشر، وبينهم وبين الطبيعة، اتخذت طابع الصراع والسيطرة. في الشكل الأول، ظهر الصراع بين الأقوياء والضعفاء ولاحقا بين السادة والعبيد؛ صراع جَنَحَ نحو السيطرة على الأرض، وفي الشكل الثاني ظهرت الثقافة والحضارة والعبقري[6]...إلخ، كنماذج لتطور الطبيعة في الإنسان، التي لا تزال سائرة نحو "التفوق على ذاتها"[7] في الإنسان المتفوق بشكل أساسي؛ وفي كلا الشكلين لا ينتج الصراع سوى تجاوز الأشكال القديمة إلى أشكال جديدة. وعليه فإنه "حين نتحدث عن الـــ**بشرية** فإننا نستند إلى فكرة أن الأمر يتعلق بما يفصل الإنسان عن الطبيعة ويميزه عنها، غير أنه لا وجود لهذا الفصل في الواقع: فالخواص "الطبيعية" وتلك التي نقول عنها "بشرية" متداخلة بكيفية لا يمكن فصلها. وفي أنبل وأعلى ملكاته، لا يزال الإنسان طبيعةً وحاملا في ذاته غرابة هذا الطابع الطبيعي المضاعف"[8].

– **عدم اكتمال الإنسان:** يشكل ما يمكن القبض عليه في الإنسان الحالي من ما قبل تاريخ الإنسان، في شكل اندفاعات ورغبات وغرائز... مجسدة في شكل سلوكات "حركية ومادية ومعنوية"[9]، أي الجانب الذي تتناوله مدارس علم النفس والفن كموضوعات دراسة، إلى جانب شتى الأدلة التاريخية، أهم المواد التي يمكننا أن نستند إليها للوقوف على مدى استمرار الطبيعي (الحيوان) في الإنسان وعدم اكتماله. ولشرح هذا الأمر، انطلق نيتشه من فكرة الرد réduction* ، بعدما ترك سؤالا جوهريا بشأن "الأسباب التي لم تَحُلْ دون ظهور الحياة العضوية إلى الأبد"[10]؟ فـــ"التعضيات الأقدم، سيرورات كيميائية بطيئة"[11]، كما أن "الخلية الأصغر صارت الآن وريثة كل

---

1 HTH,513
2 NT,I,51
3 APZ.,de la chasteté.,p.72
4 VMSEM.,p
5 Idem
6 APZ, des 1001buts.,79
7 APZ., des tarentules ; APZ., du surpassement de soi
8 5P5L., la joute chez Homer, p.196
9 Ralph LINTON : Le fondement culturel de la personnalité., trd. par André Lyotard., Ed. Dunod., Paris., 1977., p.
* كارل بوبر: الحياة بأسرها حلول لمشاكل، ترجمة بهاء درويش، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1998، ص، 181 وما بعدها.
10 VP,I, LII., ?
11 VP,I,LII,228

الماضي العضوي"[1]، وإرادة القوة لم تكن في الأصل سوى "شكلا بدائيا للعاطفة، تطورت منه جميع المشاعر"[2]، كما أن "الشعور [هو] آخر مرحلة في التطور العضوي، ومن ثمة فهو الأقل اكتمالا وقوة"[3]. وباختصار، فإن الإنسان وثيقة تاريخية نتعرف من خلالها "عما **كُنَّاهُ** كلنا" ومثال ذلك: أفظاظ اليوم، الذين "يكشف جبل الإنسانية عن التشكيلات الدنيا التي لولاهم لظلت مخفية. إنهم كائنات متخلفة، لم يتلق مُخُّهَا، خلال كافة الاحتمالات الممكنة في الوراثة، سلسلة التحولات الدقيقة والمتنوعة"[4]. وتلعب الشروط الطبيعية للوجود الحيواني، كالمحيط ونوعية الغذاء وطبيعة العلاقات البيولوجية، الدور الأساسي في نمو الإنسان ورقيه، حتى لو تعلق الأمر بالمراحل التاريخية التي أنتج فيها الثقافة، وهي نفسها الشروط التي تعطي "الفشل الفيزيولوجي" أهمية قصوى في تفسير الثقافة[5]، حين تبدأ كلمة طبيعة في أخذ معنى كلمة حياة انطلاقا من الحديث عن وحدة السلوكات المتكررة في الحياة الاجتماعية والثقافية والتي تبدو لنا متناقضة، حين نتتبع تطورها في الأخلاق: كأن يكون "الإنسان النشط، العدواني، وحتى العنيف في عدائه، أقرب مائة مرة من العدالة من الإنسان [صاحب] "رد الفعل"[6] ، أو أن يكون "التخلي عن الأحكام الخاطئة بمثابة تخلٍّ عن الحياة". ومن ثمة لابد من "الاعتراف باللاحقيقية la non-vérité كشرط للحياة"[7]، ومن الحذر من القول بأن "الموت نقيض للحياة، لأن الحياة ليست سوى نوعا من الموت، نوعا نادرا للغاية"[8]، فـ "ما التكاثر والحياة والقتل سوى الشيء الواحد نفسه"[9]؛ وبالتالي "على الإنسان أن يصير أفضل وأسوأ"[10]، لأن "أسوأ ما في الإنسان ضروري لأحسن ما فيه، وأن أسوأ ما فيه ، قوَّته الأفضل وأصلب حجرة للمبدع الأعلى"[11]. ومن هنا كان الإنسان حيوانا، من أعلى شعرة في رأسه إلى أخماص قدميه؛ وتكفينا إطلالة سريعة على أصل بعض سلوكاته للتدليل على ذلك: فمثلا ظل "تقليد الحركات، الذي يتم بطريقة لاإرادية، إلى اليوم أقدم من اللغة"[12]، كما أن هذه الأخيرة لا تزال شاهدة على مراحل جد قديمة للإنسانية. فمثلا يعود أصل كلمتي Manas و Elend ، الألمانيتين، إلى الفترة البربرية في تاريخ الشعب الألماني[13]، كما أن الرغبة والحقيقة والكذب[14] والمنطق[15]... إلخ وظائف فيزيولوجية؛ ويمكننا أن نتخطى ذلك إلى ذوقنا، لنكتشف أن "**البشاعة**

1 VP,I,LII, 98
2 VP,I,LII,228., 42
3 GS, 11
4 HTH.,43
5 Patrick WOTLING : Nietzsche et le problème de la civilisation., P.U.F.,Paris, 1995., note 1., p.212
6 GM,II,11
7 VMSEM., p.176 ; Pbm,4
8 GS., 26-109
9 CP., L'Etat chez les Grecs.
10 APZ., Le convalescent, p.313
11 Idem
12 HTH., 216
13 GM.,II, 8 & 9
14 LP, 64
15 HTH.,18

نتيجة تهجين"[1]، و"المساواة مَسَرَّةٌ ماكرة"[2] والدهشة مقياس للعقوبة[3] والحقيقة حالة ذهول قصوى[4]، ثم ما هي الأخلاق في حد ذاتها إن لم تكن "لغة مشفرة للإنفعالات!"، إن لم تكن "الانفعالات لغة مشفرة للوظائف العضوية!"[5]. ومن الناحية الفيزيولوجية، تمثل شتى أعضاء وأطراف الإنسان مراحل عريقة جدا في تطوره الطبيعي رغم "ابتعاده عن غرائزه"[6]، الابتعاد الذي جعل منه حيوانا غير مكتمل، بفعل فقدانه لبراءة حواسه[7] أيضا. وربما لم تكن الحواس والحاجيات سوى الشيء نفسه[8]. ومثل ذلك حاسة السمع، المرتبطة بـــ"عضو الأذن، الخوف"[9]، وبالجسد[10]، والتي ليست انطباعاتها سوى ظاهرة **متأخرة** ومنعزلة[11]. ولأن الإنسان كان يفكر بأحاسيس اللمس، فإن تشكل أدوات الإحساس، كالعين مثلا، جاء بعد التفكير بوقت طويل[12]. وهكذا "يكرر الإنسان، في كل واحد من أفعاله، التطور الكلي للحياة النفسية"[13].

– **الإغريق هم الأكثر بشرية:** نتوصل، من خلال ما تقدم، إلى عدم تعارض العضوي وغير العضوي، وإلى اعتبار عبارات تجعل من الإنسان "حيوانا معقدا وماكرا وكذّابا وغامضا، يُهزم الحيوانات الأخرى بِقُوَّتِه أقل مما يُهزمها بخداعه"[14]، أو تبين أن زرادشت "وجد من الخطر بين الناس أكثر مما وجده بين الحيوانات"[15]، أو أن يرى التشابه بين أعظم الناس وأصغرهم، حين ينظر إليهما عاريين، بل يجد الأول في غاية بشريته[16]، إلى اعتبارها دليلا على استمرار كُلِّيَةَ الإنسان في جسده، بل وسعي الإنسان على بقاء الحيوان فيه: "فقد أخذ عن الحيوانات فضائلها"[17]، وزرادشت نفسه صَاحَبَ النسر والثعبان ليتعلم من الأول فخره ومن الثاني مُكْرَهُ[18]، وتمكن من "انتقاء جملة دوافع **متناقضة** في ذاته، صار على ضوئها سيدا على الأرض"[19]. وبتناقضاتهم أيضا، " يتفادى الناس الكذب أقل مما يتفادون الأذى الذي يسببه الكذب"[20]، "وغالبا ما نضحك من الأشياء المتعارضة ولكننا للأسف نختار الأشياء المختلفة"[21] ونتحدث عن "قضية "المساواة" في الوقت الذي

---

1 Cré.id., le problème de Socrate
2 VO., 27
3 VO, 24
4 VP,II,LIII, 568
5 VP,II,LIII, 479
6 Anté.,14
7 APZ., de la chasteté., p.72
8 VP,I,L.II,105
9 A., 250
10 APZ., de la rédemption, p.194
11 VP,I,L.II,103
12 Ibid., 107
13 Ibid., 206
14 Anté.,14 ; Pbm., 291 ;APZ., de la vision et de l'énigme, I, p.218
15 APZ., Le retour., p.258 ; APZ., prologue, 10., p.24
16 APZ., des prêtres., p.125
17 APZ., des vieilles et des nouvelles tables., XXII.,p.300
18 APZ.,prologue.,10,p.24
19 VP,II,LIV,507
20 VMSEM.,p.209
21 Sur ANEE., 3e conférence., p.121

نتعطش فيه كلنا إلى التميز"[1]. وهكذا إلى أن صارت الحقيقة، التي يتوصل إليها الإنسان، مؤذية بسبب تحطيمها للاعتقادات السائدة[2].

لقد كشفت الحياة كمدرسة و"الطبيعة ككتاب"[3] ، "الحياة كوسيلة معرفة"[4]، للإنسان أن عقله، الذي يتباهى به على بقية الحيوانات، لم يكن سوى استثناء في التاريخ الطبيعي، لأن وجوده بالنسبة للطبيعة كغيابه، فضلا عن كونه وسيلة الفرد الضعيف طبيعيا لحفظ نفسه".[5] وقد ثبتت استحالة تأسيس حضارة على المعرفة"[6]، ومن ثمة فـ"البشرية آلة ضخمة لها طاقات هائلة وتعمل بشكل سيء"[7] ، أي أنها "تقدر على أقل للغاية مما لا تريده"[8] . وقد كان الإغريق، ومظاهر حياتهم، نموذجا يعكس هذه الدرجة من الوعي بأن "العقل وظيفة للعضوي والعضوي ليس نقيضا للاعضوي، كما ترى اللغة ذلك، بل هناك استمرارية جوهرية بين المادة والحياة والعقل"[9]. ومن هذا الأمر بالذات، إكتسى إغريق ما قبل سقراط والفلسفة أهميتهم المتميزة وجاءت ثقافتهم كـ"ثقافة رجال"[10]، تتضمن العناصر الأساسية في فلسفة نيتشه مما جعل منها نَيْتَشَةً لتاريخهم ورمزا يعكس شعار "كن على حقيقتك"[11]، الذي يجعل من الثقافي متداخلا مع الطبيعي ويكشف عن الأول كبراءة شعب أو ما سماه نيتشه بـ"الغريزة الإغريقية"[12].

"لقد شاءت الأقدار أن تكون للهلينية، المتأخرة جدا والأكثر تفسخا، القوة التاريخية الأكبر، ولذلك ظلت الهلينية الأقدم موضوعا أسيء الحكم عليه دائما"[13]، إذ قَلّما نجد من فهمها "لأن **الحقيقة الأساسية** للغريزة الهلينية تجد تعبيرها فقط في غرائب ديونيزوس وسيكولوجيا الحالة الديونيزية"؛ وبتعبير آخر، فقط من يربط الثقافي بالطبيعي، هو الذي يفهمها. ومثال ذلك "جاكوب بوركارت- الذي تميّز بكونه "أعمق عارف بثقافة الإغريق"، بواسطة "تحليله الخاص عن هذه الظاهرة [الديونيزية]"[14]. ينسحب القول أيضا على نيتشه نفسه، الذي لا يزال بحثه في التعارض بين ديونيزوس وأبولون، في "ميلاد المأساة"، موضوع مناقشات كثيرة ومحل تأثر بالغ[15]. لقد انطلق نيتشه في قوله "أنا أول من أخذ الظاهرة الرائعة، التي تحمل إسم ديونيزوس، مأخذ الجد، لأجل

1 VP,I,LII,459
2 VP,I,LI, 31
3 HTH.,8
4 GS.,324
5 HTH.,247; VMSEM.,p.208
6 VP,II,LIV,176
7 FP/HTH 21[11]
8 FP/A 4[250]
9 Barbara STIEGLER : Nietzsche et la biologie., PUF., Paris, 2001., p.59
10 HTH.,259
11 APZ., l'offrande de miel, p.338 ; GS,270
12 Cré.id., ce que je dois aux anciens, 4
13 LP,IV,191
14 Cré.id., ce que je dois aux anciens, 2
15 Angèle Kremer-Marietti : la démesure chez Nietzsche., Revue Internationale de Philosophie Pénale et de Criminologie de l'Acte., n°5-6, 1994., p.69-84

فهم أحسن للغريزة الهلينية القديمة archaïque"[1]، من الفكرة المحركة لكافة الأمور في فلسفته. حيث قال: "رأيت أكبر غرائزهم، إرادة القوة، رأيتهم يرتعشون أمام العنف الجامح لهذا الدافع. رأيت كل مؤسساتهم كيف نشأت من إجراءات الحماية التي كانوا يتخذونها كي يقوا بعضهم البعض من **موادهم المتفجرة** فيهم. لقد تفرغ هذا الضغط الداخلي الهائل في شكل عداء مرعب وجذري وُجِّهَ ضد الخارج: لقد كانت المدن تمزق بعضها البعض حتى يكف مواطنو كل واحدة منها عن خشية بعضهم البعض. لقد كانت الرغبة في أن يكون [الناس] أقوياء، حاجة مُلحة: الخطر محدق وكامن في كل مكان. لم تأت الحيوانية الرائعة والمرنة والواقعية réalisme المقدامة واللاأخلاقية، التي تميز الهلينيين، من "طبيعتهم" بل من **الضرورة** حيث يوجدون. كان ذلك نتيجة وليس هبة فطرية. ولم يكن الناس يبحثون، من خلال الحفلات والفنون، عن غير الشعور بالتفوق، بالظهور على أنهم متفوقون: إن الأمر ليتعلق هنا بوسائل تمجيد الإنسان لنفسه، وإثارة الخوف متى سمحت الفرصة بذلك."[2]، وهكذا إنْجَرَّ كل التفسير النيتشي لتاريخ الإغريق عن هذه الفكرة، ويكفينا استبدال كلمة إغريق بمرادفات لها في الفلسفة ذاتها، كـــ"نعم للحياة" أو "الإنسانية الحقة" أو الإنسانية التي تهتم بالطبيعي في ذاتها" أو "النفوس النبيلة"...إلخ، لكي يسهل علينا إسقاط هذا النموذج المعياري على كل حياة بشرية تزخر بمثل مواصفات الحياة الإغريقية في عصرها القديم.

– **إنسانيتنا التاريخية:** يدل النموذج الإغريقي الكلاسيكي وبعض النماذج الفردية المميزة لتفوق الإنسان، كنابوليون بونابارت،[3] على الأهمية التي يكتسيها الصراع كمظهر لإرادة القوة في نقد نيتشه لطرق التفسير التي سبقته، انطلاقا من فكرة أن "الإنسان معبر وليس غاية"[4] وأنه "لا **يمكن تقدير قيمة الحياة**، لأن الحي جزء منها بل وموضوع النزاع وليس القاضي"[5]، لأن "الحياة إرادة قوة"[6]، جعلت "الحالة العادية هي الحرب: ونحن لا نتفق على السلم سوى لفترات محددة"[7]، أي أن القوة هي العامل المتحكم في كافة العلاقات. و"بالتقدير تثبت القيمة"[8] لدى كافة الموجودات. ومثلما "لا تنشغل ذرة قوة سوى بما يجاورها: القوى المبعدة تلغي بعضها البعض"[9]، فإن "الناس كالذرات، تتحدد صفاتهم بوضعيتهم بالنسبة للطبيعة ولباقي الناس"[10]، ولما كان "الكائن الحي "أنانيا" بشكل عميق"[11]، فإن فعل الحياة كان "تقديرا"، ولذلك استلزمت كل إرادة كامنة في الحياة العضوية تقديرا[12]. وبذلك كانت البشرية "**مجموع القوى** التي يتصارع الأفراد على **استعمالها وإدارتها.**

1 Cré.id., ce que je dois aux anciens, 4
2 Cré.id., ce que je dois aux anciens, 3
3 A.245
4 APZ., des vieilles et des nouvelles tables, III, p.280
5 Cré.id., le problème de Socrate, 2
6 Pbm.,13 ; VP,I,LII,146
7 LP.,56
8 APZ., de la chasteté., p.72
9 VP,I,LII,131
10 ibid., 224
11 LP,153 ; ibid., 131
12 ibid., 29

إنها جزء من السيطرة على الطبيعة: أي أنه لابد من معرفة الطبيعة ثم **توجيهها واستعمالها**"[1]. كما أن الفرد ظهر كـــ"آخر الإبداعات"[2] و"سلالة تتلخص فيها **الحياة السابقة كلها**،[أي] **أنه ليس نتيجة لها**"[3]، فقد تطلب تعايش الغرائز مع بعضها البعض موت مئات الناس قبل أن تشعر بأنها تشكل وظائف لقوة مُنظِّمَة واحدة، في إنسان واحد[4]؛ و"طوال مالا نهاية له من الفترات، تعرّضت غرائزنا لترويض **جماعات اجتماعية وعرقية** (وبلا شك بدءً **بقطعان القردة**)؛ إنَّ لها، وحتى في أيامنا هذه، الكثير من القوة كانفعالات passions وكغرائز إجتماعية بدلا من أن تكون غرائز فردية. فالوطني أكثر قدرة على المزيد من الحقد، على حقد أكثر مباغتة، أكثر براءة (والبراءة من المشاعر التأسلية الأكثر قدما) من الفرد انطلاقا من فكرة إمكانية كون "البشرية بِرُمَّتِهَا مرحلة في تطور نوع معين من الحيوانات، ديمومتها محدودة: لدرجة أن الإنسان الذي جاء من القرد يستحيل قردا"[5]، وكذا كون "كل شيء فردي في الفرد حتى أصغر خلية فيه، وذلك ما يعني أن الكلية تشارك في كافة التجارب وفي كل ماض"[6]، فإن الحياة "سعت" لتكريس الاختلاف بين الأفراد بواسطة الصراع وجملة عوامل متنوعة أخرى كالتغذية والحرية والخوف والمناخ...، وهي ذاتها العوامل التي تدخل في تطور الإنسانية نحو الأفضل. ففي المرحلة الوحشية مثلا، حين كان الإنسان يتمتع بنصيب كبير من الحرية[7]، أي الإنسان "الذي تتفوق فيه غرائز الفحولة والغرائز المحاربة والمنتصرة على بقية الغرائز الأخرى"[8]، كانت البداية طبيعية وكان على الإنسان أن يتصرف كالحيوان ويتعلم التعرف على نفسه من خلال علاقته بقوة هجومه ودفاعه فقط تقريبا[9]، مما جعل "كلمة "إنسان" تعني الذي يقيس، أي الذي يريد أن يُدَلِّلَ على نفسه انطلاقا من أكبر اكتشافاته"[10]، وهكذا كانت "الحرب مدرسة حرية"[11]، "غريزة الحرية" (أو إرادة القوة)"[12]، تُقوي كل من لم تقتله[13] مثلما تُنَبِّلُهُ المعاناة العميقة وتعزله[14]، ومن ثمة فـــ "الحرب وسيلة **انتقاء** موجهة لزيادة الاختلاف"[15] بين الناس، خاصة وأنه في نوعهم يسجل بطء النمو من الطفل إلى الكهل، لأن الإنسان كان غَيْرَيًّا في البداية أكثر من أي حيوان آخر، وقد حدث وأن بلغت الحيوانات المفترسة،

---

1 VP,I,LI,317
2 VP,I,LII,13 ; APZ., des 1001 buts., p.79 ; NT., 1, p.52
3 VP,II,LIV,617
4 GS.,113
5 FP 4[34] ؛ "ربما لم يُخَبَّأ إنتاج العبقري سوى لزمن محدود من عمر البشرية". (HTH,234)
6 VP,I,LII,131 ; LP,153
7 FP/ HTH 25[1]
8 Cré.id., divagation d'un « inactuel », 28
9 VO.22 ; A.212
10 VO, 21 modifiée
11 Cré.id., divagation d'un « inactuel », 38
12 GM,II,18
13 Cré.id., maimes & traits., 8
14 Pbm, 270., modifiée
15 VP,I,LI,280

الفردية قبله[1]. وعليه فـ"القسوة والعنف والاستعباد والخطر، في الشارع وفي القلوب، والسر والرواقية والإغراء والشيطنات من كل الأنواع وكل قبيح ورهيب وطغياني في الإنسان، كل ما يرتبط فيه بالثعبان والأشقر [الحيوان المتوحش fauve] يخدم أيضا أمر رفع نوع الـ"إنسان" مثلما يخدم نقيضه"[2]، وهي ضرورية ومن الحياة نفسها، التي "**تريد** الخداع و**تعيش** على الخداع" [3] وفي هذا فالحياة كالمرأة [4]؛... التي لا تحب سوى المحاربين[5]، ومن ثمة "فلتكن طبيعة الإنسان شريرة ... لأن ذلك ما يضمن قُوَّتَهُ"[6]، "وليسقط الضعفاء والمعتوهين ! [وهذا] أول مبدأ لحبنا للبشر، ويجب حتى مساعدتهم على ذلك"[7] ، لأن تصور الفلاسفة والشعوب "للفرد" و"الخاص"، لا يزال إلى اليوم يستند إلى الخطأ. "فهو لاشيء في حد ذاته ولا حتى ذرة أو "حلقة" سلسلة ولا أي شيء، ببساطة، موروث عن الماضي: إنه الخط الوحيد لمسار الإنسان إلى غاية الوصول إليه... أما إذا كان يمثل التطور الهابط والانحطاط والتفسخ المزمن والمرض (والأمراض في جملتها عواقب للإنحطاط و**ليست** أسبابه) فلا قيمة كبيرة له... إنه عالة على النموذج الكامل"[8]، وعليه فلا يجب "أن **يعطي** أحدٌ الإنسان ميزاته: لا الله ولا المجتمع ولا الدين ولا أجداده **ولا هو نفسه**(...) لا **أحد** مسؤول لكونه موجودا أو مخلوقا بهذه الكيفية أو تلك."[9].

إلى جانب ذلك، ساد الإعتقاد بأن الإنسانية "تتطور نحو الأحسن والأقوى والأسمى، بالمعنى المعتقد حاليا. فالـــ"تقدم" ليس سوى فكرة حديثة، أي خاطئة"[10]. "لقد ظهر الإنسان في شكل صدفة سعيدة واستثناء ولم يكن أبدا شيئا مرادا"[11]. ورغم أن الحياة "شهدت ميلاد حالات نجاح معزولة وفي أماكن مختلفة من الأرض، وانطلاقا من شتى الثقافات- إنه ظهور **لنموذج راق** وشيئا يمكن مقارنته بالبشرية جمعاء ونوع من الإنسان المتفوق... وقد يحدث أن تتمكن أعراق بأكملها وقبائل وشعوب وفي ظل ظروف معينة من إحداث تلك النجاحات"[12]- إلا أن الإنسان شكّل موضوع تَخَوُّفٍ مما تسبب في "ميلاد الرغبة في ترقية والحصول في النهاية على الصنف المخالف: الإنسان، الحيوان الأليف، الحيوان القطيعي، الحيوان المريض، المسيحي."[13]

يعود خطأ الاعتقادات، السابقة لنيتشه، بشكل أساسي إلى إغفالها الجانب الطبيعي، ممثلا في سلامة الغرائز ومرتبطا بالجسد. ولما كان الإنسان حيوان لم يستقر طبعه بعد[14]، فإنه "يجب إقناع

---

1 VP,II,LIII,521
2 Pbm, 44
3 HTH,1
4 APZ., le chant de danse & l'autre chant de danse ; Pbm., préface, p.17
5 APZ., lire et écrire
6 NT., 9, p.91 ; CP., la joute chez Homer., p.196 ; APZ., de l'homme supérieur,V., p.409 ; VPII.,LIII,471
7 Anté.,2
8 Cré.id., divagation d'un « inactuel », 33
9 Cré.id.,l'erreur du libre arbitre, 8
10 Anté.,4
11 ibid.,3
12 ibid.,4
13 ibid.,3
14 Pbm 62

الجسد أولا(...) وخلال جيلين أو ثلاثة، سيصبح كل شيء **مُدَخْلَنًا** intériorisé، وبشأن مصير الشعب والبشرية فإنه من الجدير بالأهمية أن تبدأ الثقافة في **المكان المناسب** (وليس في الروح، مثلما تريد ذلك خرافات رجال الدين وأنصاف رجال الدين المميتة): والمكان المناسب هو الجسد، المظهر الفيزيقي، النظام، الفيزيولوجيا- وما تبقَّى يلي ذلك من تلقاء نفسه"[1]. ويُعد الإغريق نموذجا في هذا، فقد رفعوا الإنسان إلى مستوى يتجاوزنا، عن طريق "إتقان الجسد كله وليس العقل وحده"[2]، وذلك ما لا يعني "العودة إلى الطبيعة" لأنه لم يحدث وأن وُجدت بشرية طبيعية(...) فالإنسان لن يبلغ الطبيعة سوى بعد صراع طويل؛ لن "يعود" إليها أبدا... فالطبيعة هي الجرأة على الوجود اللاأخلاقي كالطبيعة"[3]. ورغم ذلك، "يحتاج الكائن الأكثر حكمة، من حين لآخر، إلى العودة إلى الطبيعة، أي إلى علاقته الأساسية اللامنطقية مع كافة الأشياء"[4]. وقد كان ابتداع الإغريق للأسطورة مثلا، أمرا سمح لهم بالحياة[5]، كما أن أصل تدينهم من عرفانهم للطبيعة[6]، فضلا عن كونهم يهتمون بالجانب الطبيعي في ذواتهم[7] ويعون إرادة القوة الكامنة فيهم[8]؛ ومن ثمة كانت الرغبة الوحشية في التخريب التي يحملونها في ذواتهم[9] وكانت حرية التفكير التي تمتعوا بها[10]. وباختصار، صار الإغريقي عنوانا لـــ"الصلابة **الصاعدة**، قوة الحواس، اللاحياء، الافتقار للحس التاريخي، النزاع، الحقد على البربرية، الحقد على غير المعلوم، على الذي لا شكل له، على الانتفاخ؛ ولبساطة التعودات. وقد كانوا **يخلقون** آلهة لأنهم كانوا يشعرون بالحاجة إلى إعطاء أنفسهم مجتمعا راقيا"[11].

وإلى جانب الصراع، تكتسي عوامل كثيرة أخرى، أشرنا إليها سابقا، أهميتها في تطور الإنسان ومثل ذلك الغذاء: حيث لا تزال الحياة تؤكد لنا إلى اليوم أنه "غالبا ما تقرر لقمة أكل جيد واحدة إن كنا سننظر إلى المستقبل بعينين فقدت عزيمتهما أو مليئتين بالآمال"[12]؛ ولأن الاختلاف كان، منذ البداية، مظهرا لتطور الحياة، فإن الطبيعة جعلت من غذاء "الأومو بامفاغوس Homo pamphagus"[13] [الذي يلتهم كل شيء] وسيلة لزيادة اختلاف الأفراد في ما بينهم، مثلما "تعلمنا خبرة المربين [مربو الماشية] بأن الأنواع التي تتلقى تغذية أوفر وتكون موضوع مزيد من العناية والاهتمام، تجنح بسرعة نحو الابتعاد الأوضح عن نموذجها عن طريق إنتاج أكبر عدد من

1 Cré.id., divagation d'un « inactuel », 47
2 VP,II,LIV,402
3 VP,II,LIII,288
4 Pbm, 31
5 HTH,216 ; LP.189
6 Pbm, 49
7 OSM,220
8 Cré.id., ce que je dois aux anciens, 2
9 5P5L.,5
10 LP,196
11 VP,II,LIV,429
12 VO, 184
13 A,171

التشوهات والفضاعات (وكذا الآفات الفضيعة أيضا)"[1]. كما يُبين تاريخ الشعوب أن "**التغذية** الكافية من أسباب الإنهاك **المكتسب**"[2] بل وقد "تتسبب بعض الأخطاء الغذائية (الإدمان على الكحول في العصور الوسطى، سخافة النباتيين...)" في شعور المرء بالانهيار[3]، وذلك ما جعل بعض الشعوب تكتشف فضائل بعض المأكولات وتُقَدِّسُهَا. فمثلا "اعتبر الإغريق الحليب والعسل أُكلة الآلهة... كما أن مشروب السوما soma المُسكِّر لم يكن يظهر للإيرانيين سوى في مواسم الأُضحيات"[4]، على عكس الجرمان، الذين سمَّمُوا أوربا بالكحول[5]. ويمكننا أن نضيف إلى تلك العوامل الكثيرة، عامل الخوف، إذ "بغير الممارسة القديمة للخوف، الذي يرغمنا على رؤية(...) معنى خفيا، ونكون الآن محرومين من مسرات الطبيعة، مثلما يتركنا الإنسان والحيوانات بلا متعة لو لم يكن لدينا هذا المعلم initiatrice لكل فَهْمٍ، [أي] الخوف. ومن جهة أخرى، فإن الغبطة والمفاجأة البهيجة وأخيرا الشعور بالتافه، هم أبناء المودة sympathie، آخر أبناء الخوف وإخوته، الجِدُّ صِغَار،- خاصية الفهم السريع- التي تستند إذن إلى **التخفي بسرعة** - تقل لدى الأفراد والشعوب الفخورة والسعيدة، لأنها أقل خوفا؛ وعلى العكس، فإن كافة أنواع الفهم والتخفي تكون مألوفة لدى الشعوب الخائفة."[6] ومن ثمة "فالخوف أب الأخلاق"[7]؛ ويلعب إلى جانب السهولة والأمن والكسل والوقاحة، دور "تنظيم" الحياة وانتزاع طابع **الخطورة** منها[8]، أي القضاء على "حرية" الإنسان باعتبارها تعبيرا عن أعمق رغبة في الإنسان: حاجته إلى القوة[9]. "إن أكبر نتيجة حققتها البشرية إلى الآن، هي أننا لم نعد في حاجة لأن نعيش في خوف مستمر من الكائنات المتوحشة والبرابرة والآلهة ومن أحلامنا"[10].

- **علاقات الإنسان:** انطلق نيتشه من "فكرته المسبقة" الرئيسية، إرادة القوة، التي شرحها بالصراع الداخلي للتعضي، الذي يحدثه اختلاف الأطراف في الجسد الواحد[اختلاف الأجزاء في التعضي الواحد]، وهو الأمر الذي توصل إليه قبل قراءة **رو**Roux [11] ، لكي ينتقد كافة أشكال التطور والتفسيرات الأخلاقية التي سبقته- وسوف نتوقف لاحقا عند هذه النقطة بشيء من التركيز- لاستنادها إلى الهوية باعتبارها أمرا جاهزا في الوقت الذي يرى فيه هو أن الفردية العضوية تكتسب من خلال الصراع الداخلي[12]. ولأنه "حيث يوجد صراع فهو صراع من أجل

---

1 Pbm 262
2 VP,II,LIII,60
3 GM,III,17
4 FP/A 4 [224]
5 GM,II, 21 ; VP,II,LIII, 60
6 A,142
7 Pbm, 201
8 VP,II,LIV,483
9 VP,I,LII,458
10 A,5
11 Barbara STIEGLER : Nietzsche et la biologie., PUF., Paris, 2001., p.54
12 Ibid., p.52

السلطة" [1]، فإن أجزاء التعضي الواحد تتصارع وتتعاضد في ما بينها بالكيفية التي يظهر فيها الإنسان مثلا كتعددية لقوى متدرجة[2]، يكون فيها "أمر القيادة أو الطاعة هو الفعل الأساسي"[3]، حيث لا تنشغل أية ذرة قوة سوى بما يجاورها[4]، مما يجعل بعضها يتفوق على البعض الآخر، ويجعل "القوى المُبْعَدَة تُلْغِي بعضها البعض"[5]، وكأن الإنسان مجتمع لوحده[6]؛ وفي هذا يكون نيتشه قد "أدخل مفردات بيولوجية في النظام الأخلاقي"[7]، ذلك أن ما سبق يبين بوضوح أن "**التدرج**" [مثلا] نتيجة لحكم قيمي: أي أن علاقات الأعضاء في بينهم تقتضي ممارسة كافة **الفضائل**– طاعة، مواظبة، مساعدة متبادلة، حذر– وأن الحياة العضوية (التي هي استقلال) تستبعد كل طابع آلي"[8] . وبنفس اللغة البيولوجية والطريقة الرَّدِّيَة، كانت بداية الإنسان عند نيتشه، فمثلا: "ربما كانت الحاجيات والحواس شيئا واحدا"[9]، "وفي أحكام الحواس يدخل كل ما قبل التاريخ العضوي"[10]، و"لأننا كنا نفكر بأحاسيس اللّمس، فإن تشكّل العين يكون قد جاء بعد وقت طويل من ظهور الفكر"[11]، وأن "انطباعات الحواس هي إذن **ظاهرة** متأخرة ومنعزلة"[12]، وهكذا إلى أن نصل إلى معرفة أن "غريزة التملك إمتداد لغريزة التغذية والصيد كما أن غريزة المعرفة، في حد ذاتها، شكل راقٍ لغريزة التملك"، وهكذا إلى أن نصل "مع ترجمتنا لمميزات الكائنات الأكثر بدائية باستخدامنا لمصطلحات "عقلـــ" ـــنا، إلى جعل تلك الصفات غرائز **أخلاقية** وإن كائنًا، من ذلك النوع، لَيَتَمَثَّلُ كل أقربٍ منه ويُصَيِّرُه ملكا له (شكل الملكية الأقدم هو التغذية وتخزين الغذاء) كما أنه يسعى لتمثّل أكبر كمية غذاء ممكنة، تتجاوز ما هو ضروري له، **لتعويض** ما فقده– إنه **جشع**. وبهذه الكيفية وحدها يُنمي نفسه وينتهي إلى **التكاثر**– إلى أن ينقسم إلى كائنين.

تنتج **غريزة الحيازة**، غير المحدودة، النمو والجيل– وتدفع هذه الغريزة بالكائن لأن يستغل الضعفاء ويزاحم من يضاهيه قوة؛ إنه يصارع، بمعنى أنه **يكره، يخشى، يُخفي**– إن التمثل، قبل كل شيء، هو **جعل** الشيء الغريب **نظيرا** للذات، **إرهابه– إنه قسوة**. إنه يجعل نفسه في تبعية، يحول نفسه إلى **وظيفة**، ويتخلى عن العديد من قواه وحرياته، التي امتلكها في حالته البدائية، لأنه بهذا الثمن يستمر في الحياة: إن **الاستعباد** ضروري لتشكل تَعَضٍّ راقٍ. **الطوائف** أيضا(...) إن الحاجة إلى الـــ "شرف" هي الحاجة إلى معرفة أن وظيفتنا وجدت تلبيتها. الإنصياع إجبار، شرط للوجود، وفي النهاية: منشط للحياة. إن من يمتلك القوة الأعلى في جعل الغير يضحى وظيفة له

---

1 Cré.id., divagation d'un « inactuel », 14
2 VP,I,LII,187-192-193
3 Ibid., 503
4 VP,I,LII,131
5 Idem
6 VP,I,LII,187-192-193-194
7 Pbm., 257 ; B. Stiegler.,op. cit., p.5
8 VP,I,LII, 194
9 Ibid., 105
10 Ibid., 97
11 Ibid., 107
12 Ibid., 103

هو الذي يسود وللتابعين تابعين لهم، وهكذا فصراعاتهم دائمة، الديمومة التي حين تبلغ حدا معينا، تكون ضرورية لوجود الجميع[1]. وبمعرفتنا بكون غريزة التملك امتدادا لغريزة التغذية، نفهم أن "غريزة المعرفة، في حد ذاتها، شكل راق لغريزة التملك" [2]. ولأن "التعرف هو الدخول في علاقة مع شيء ما"، [3]فإن "الوعي **لم يتشكل سوى تحت ضغط الحاجة إلى الاتصال**، وأنه، لأول وهلة، لم يكن ضروريا ومفيدا سوى في حدود علاقات إنسان بإنسان (وخاصة في علاقات الذين يأمرون بالذين يطيعون) (...) وباعتباره الحيوان الأكثر عرضة للمخاطر، فقد كان [الإنسان] في **حاجة** إلى **العون** والحماية؛ كان في حاجة إلى أمثاله، وكان مجبرا على معرفة كيفية التعبير عن حزنه، معرفة كيفية جعل نفسه مفهوما [للآخرين]– ولأجل هذا كان لابد له من "وعي" كي "يعرف" بنفسه ما الذي ينقصه، "معرفة" ما كانت عليه وضعيته الفكرية، "معرفة" ما الذي كان يفكر فيه. لأن (...) الإنسان، كأي كائن حي، يفكر باستمرار لكنه لا يعرف ذلك. وليس التفكير الذي يصبح واعيا سوى أصغر جزء من ذلك، ولْنَقُلْ: الجزء الأردأ والأكثر سطحية... لأن هذا التفكير الواعي هو فقط ما **يتم في** [شكل] **كلام** [كلمات]**، بمعنى في إشارات تواصل**، أي بالواسطة التي يكشف بها مصدر الوعي عن نفسه. ولْنُضِفْ إلى ذلك، القول بأن اللغة ليست وحدها هي التي تلعب دور الوسيط بين الناس بل أيضا النظرة، الضغط، الحركة. لقد ازداد وعي انطباعات حواسنا الشخصية وكذا خاصية القدرة على تثبيتها وتحديدها، بشكل ما خارجنا، على الإيقاع الذي تكبر فيه الحاجة إلى تبليغهما **لآخرين** بواسطة إشارات. إن الإنسان، مبدع الإشارات، لفي ذات الوقت الإنسان الذي يعي نفسه بكيفية أكثر حدة دائما؛ إن الإنسان يتعلم كيف يكون واعيا بنفسه فقط حين يكون حيوانا اجتماعيا– ولا يزال يفعل ذلك، كما أنه سيظل كذلك– [وهكذا فإن] الوعي لا يشكل في حد ذاته جزء من الوجود الفردي للإنسان بل مما يدخل لديه في طبيعة المجموعة والقطيع، وعليه فإن العي لم يتطور بكيفية حاذقة سوى في علاقته بفائدة المجموعة والقطيع، [كما] أن تفكيرنا في حد ذاته **يزداد** في قيمته باستمرار بشكل ما بواسطة الطابع الخاص للوعي، بواسطة "عبقرية النوع" التي تتحكم فيه"[4].

وبناء على ما سبق، يتضح أن الإنسان "بدأ يعيش كجزء من كل، يمتلك صفات عضوية خاصة تستخدم الفرد وكأنه عضو، لدرجة أنه، بعد تَعَوُّدٍ طويلٍ، يشعر الناس بمشاعر اجتماعية، وليس فردية، حيال مجتمعات أخرى، أفراد آخرين، كافة الكائنات الحية والميتة. إن ما يكرهه الإنسان ويخشاه بشكل قوي، كعضو في عرق أو في دولة، هو العدو العمومي عوض عدوه الشخصي، وحتى في عدوه الشخصي فهو يكره العدو العمومي بشكل خاص (Vendetta). إنه يذهب إلى الحرب لكي يُغني دولته وقائده... إنه يتمثل ما هو غريب عنه لكونه عضوا في مجتمع، إنه يتعلم

---

[1] VP,I,LII,460
[2] Ibid., 379
[3] VP,I,LI,175
[4] GS., 354

لأجل خدمته ويحتقر الصفات التي لا تخدم بقاء المجتمع، ويدفع بعيدا بالأفراد المتفوقين، حين يخالفون هذه المنفعة بالتحديد. يضحى، وبشكل مفرط، عضوا في خدمة مجتمعه ولا يستعمل كل هذه الصفات سوى في إطار هذه النفعية، **وبالتحديد فهو لم يمتلك بعد هذه الصفات الأخريات ولا يكتسبها سوى كعضو في مجموعة. إنه كعضو فقط يشعر في نفسه بأولى حركات الصفات المميزة للحياة العضوية**[1]. وباختصار، فإن الفلاسفة أخطأوا حين جعلوا من الوحدة الأميبية للفرد نقط انطلاق وكأنها موجودة في الجميع، لأنها آخر ما يظهر إلى الوجود[2]، ثم إن "أصغر خلية الآن هي وريثة كل **الماضي** العضوي"[3]، أي أن "الفرد خط **تتلخص** فيه الحياة السالفة مما لا يجعله **نتيجة** لها"[4]، وكل ذلك يؤكد استباق الجماعي للفردي: ومثال ذلك "بلوغ الحيوانات المفترسة، الفردية قبل الإنسان"[5]، وذلك ما أدركه زرادشت حين قال: "بدأ المبدعون شعوبا ولاحقا أفرادا، وفي الحقيقة فالفرد نفسه آخر الإبداعات"[6]. ورغم أن الحياة شهدت ميلاد "حالات نجاح معزولة وفي أماكن مختلفة من الأرض وانطلاقا من مختلف الثقافات... في شكل ظهور لـــ**نموذج راق** وشيئا يمكن مقارنته بالإنسانية جمعاء ونوع من الإنسان المتفوق...، وقد يحدث وأن تتمكن أعراق بأكملها وقبائل وشعوب، وفي ظل ظروف معينة، من إحداث تلك الانتصارات"[7]، مثلما سيكون ظهور "العبقري أيضا ثمرة صدف سعيدة، لأننا لا نعرف مسبقا ظروفه"[8] و"لأنه لا وجود لوسائل ولا لغايات في الطبيعة"[9]، فإنه "ليست للبشرية أهداف أخرى غير عظماء الرجال وعظيمات الأعمال"[10] لتبلغ معناها: الإنسان المتفوق.

لقد كانت البداية طبيعية للغاية وسجلت الحياة بطء نمو الإنسان، فضلا عن كونه "الحيوان الذي لم يستقر طبعه بعد"[11]، حيث تدخل عوامل شتى في ذلك، غير أنه ظل، هو نفسه، "أثقل أعباء الحياة على نفسه"[12] إذ إبتعد، بفعل علاقاته، عن غرائزه[13]. العلاقات التي تشمل مؤسسات شتى كالزواج والمعبد والدولة...إلخ. إن إطلالة سريعة على هذا التاريخ "الطبيعي"، لَتُوصِلُنَا بسرعة إلى فهم أنه على المنشغل بمستقبل البشرية ألا يبني رجاءه على ما صرنا نسميه إلى الآن "تاريخا"، لأنه مجرد قصة "صدف سعيدة" أوجدت كل من الإنسان والإنسان المتفوق[14]، اللذين لم يكونا

---

1 VP,I,LII, 164
2 VP,I,LII, 161
3 VP,I,LII,161
4 VP,II,LIV, 617
5 Ibid.,LIII, 521
6 APZ, des 1001 buts, 79
7 Anté,4
8 FP/A 6 [111]
9 FP /A 6 [151]
10 FP/HTH 25 [1]
11 Pbm, 62
12 APZ, de l'esprit de pesanteur, II, p.273 ; APZ, des gds évènements, p.183
13 APZ., de la chasteté, p.72 ; Anté,14
14 Pbm, 203

"بالبتة شيئا مرادا"[1]، خاصة وأن معنى العلاقات الإنسانية كان دائما في صالح العدد، أي أنه جعله منتصرا[2]؛ ولننظر إلى طبيعة تلك العلاقات لنكتشف كم هي "سيئةٌ كل معاشرة لا تتم مع الأنداد"[3]، وأنها وسخة حين تكون اجتماعية، لأنها تجعل المرء "عموميا" commun"[4] وإن الأخلاق أحسن دليل على ذلك، فهي "تدين كافة القوى والغرائز التي تجعل الحياة والنمو ممكنين"[5]. ثم إن إلقاء نظرة على [الطبيعة ككتاب] تجعلنا نفهم أن "الخلية كانت، في الأصل، عضوا من كلٍّ بدلا من أن تكون فردا. وقد أخذ الفرد يتعقد أكثر فأكثر خلال التطور ويتحول تدريجيا إلى مجموعة مترابطة، إلى مجتمع"[6]، إلى أن صارت "الأنانية ظاهرة متأخرة، بل ونادرة"[7]، وصار "الإنسان يقدر نفسه على ضوء التقدير الذي يكون لدى الناس عنه"، كما يأتي التقدير الذي لديه عن نفسه في المقام الثاني، بعد تقدير الغير، أين يبحث عن جزائه. وهذه أنانية غير فردية، أقدم وأكثر بدائية من الأخرى"[8]. إن المطلع على "كتاب الطبيعة"، ليتجاوز "الفترات السعيدة"، ليبحث عن "فترات توفر أرضا ملائمة **لإنتاج العبقرية**"[9]، لأن العبقري هو "الغاية القصوى للطبيعة"[10]، لأنه الأقوى، أي الحر[11]، الذي أنتجته الظروف الصعبة[12] في شكل "نتيجة أخيرة لعمل تراكم خلال أجيال"[13] كلفت البشرية غالبية أفرادها، لأن النبتة البشرية لا تنمو بقوة سوى حين تكون الأخطار قوية[14]. "إن كل جيد موروث"[15]، و"إن الإنسان الحر محارب"[16]، وما دامت الحرية لدى الأفراد والشعوب تقاس بالمقاومة الواجب تخطيها وبالصعوبة التي تكلفها للبقاء **منتصرة**[17]، فإنه "من المحتمل ألا تتفتح طاقات الإنسان العظيم والإنجاز العظيم سوى في ظل الحرية"[18]، وما دام "المجتمع هو الذي يربي الكائن المنعزل ويشكل فيه الفرد الجزئي أو التام، فهو لا يتشكل من الأفراد ولا من عقود تمت بينهم، بل بالعكس فقد يكون الفرد على الأكثر ضروريا لتشكيل نواة التنظيم (زعيم)"[19]، وما دامت بذلك كافة أشكال تنظيمات البشر "تجعل الحياة ممكنة للناس، باعتبارهم بهائم قطيع"[20]، وذلك ما

---

1 Anté, 3
2 Pbm., 203 ; APZ., des 3 maux, I., p.263
3 Pbm, 26
4 Ibid, 254
5 VP,I,LI, 299
6 VP,I,LII, 163
7 Ibid, 461
8 Ibid, 163
9 VP,II,LIV,199
10 Ibid,19
11 VP,I,LII,458
12 HTH, 231
13 Cré.id., divagation d'un « inactuel », 47
14 VP,II,LIV,483
15 Cré.id., divagation d'un « inactuel », 48
16 Ibid, 38
17 Idem
18 FP/ HTH 25 [1]
19 VP,I,LII, 164
20 Idem

جعل من ظهور المتفوق مجرد صدفة، فإنه لابد من "البحث عن النموذج المتفوق للإنسان الحر"[1] للتقدم، "للصعود إلى الطبيعة العليا، الحرة، الرهيبة، إلى الطبيعي الرهيب الذي يُكَمِّلُ [يجعل الإنسان كاملا]"[2] لأن "طريقنا صاعدة من النوع إلى النوع الأعلى"[3].

---

1 Cré.id., divagation d'un « inactuel », 38
2 Ibid., 48
3 APZ., de la vertu qui prodigue, 1, p.102

3- اللغـــة:

تبلغ الردَية في موضوع اللغة مداها في فلسفة نيتشه انطلاقا من بلوغ فقه اللغة، تخصصه الأصلي، حدوده القصوى مما جعل نيتشه يبحث في الفلسفة رغم ثنائه على فقه اللغة[1]، الذي جعله يكتشف "الخطأ الأصلي"[2]، أو العقل الذي لا يرى سوى انعكاس نفسه، ويقف على حقائق "ميتافيزيقيا اللغة"[3] و"الإيمان بقواعد اللغة"[4]. بحيث يمكننا أن ننطلق من القواعد إلى العالم الفيزيقي مرورا بالكلمات واللغة والوعي والفكر، مثلما يمكننا أن نعود أدراجنا، وعبر هذه المحطات بالذات انطلاقا مما نسميه حقيقة، لنصل إلى القواعد.

وفي موضوع اللغة أيضا يقبع كل نيتشه وبمقدور القارئ أن يطلع فيه لوحده على موضوعاته الأساسية كالحياة والإنسان وإرادة القوة والأخلاق وما وراء الأخلاق...إلخ، ومثال ذلك تعميمه لفكرة الانحطاط في الأدب على باقي مظاهر الحياة الأخرى في قوله: "بم نتعرف على كل **انحطاط أدبي؟** حين لا تكون الحياة دافعا لكل شيء وتصبح الكلمة سيدة ثم تتفجر خارج الجملة، فتفيض الجملة لتغطي معنى الصفحة، التي تحيا[بدورها] على حساب الكل: أي حين لا يضحى الكلُّ يشكل كلاًّ. بَيْدَ أنّ هذه الصورة تنسحب على كافة أساليب **الانحطاط:** إنّها و في كل مرّة، فوضى الذرات وتشتت للإرادة. وفي الأخلاق، يعطي هذا الأمر الحرية الفردية ،وذلك ما يعطي في مجال الأخلاق "الحرية الفردية"، وحين يُمَدُّ إلى النظرية السياسية: "الحقوق ذاتها للجميع". الحياة، نوعية الحياة **ذاتها**، اهتزاز وفيض الحياة وهي محشورة في أصغر التفرعات، وكل ما تبقى **بلا** حياة. في كل مكان، شلل وعذاب وخمول، **أو** نزاع وفوضى: هذا وذاك يتجليان، أكثر فأكثر، للنظر كلما ارتقى المرء في هرم أشكال التنظيم. المجموع لم يعد قادرا على العيش: لأنّه مشكّل ومحسوب واصطناعي، إنّه منتوج حوصلة"[5].

لا شك في أنّ نيتشه، الذي سمّى نفسه باكرا: "آخر فيلسوف"[6]، تفطّن باكرا أيضا إلى أمر كون "الأنساق الفلسفية" مجرد منظومات قواعد، لا تملك من المحتوى سوى شكلها في حد ذاته"[7]، ولم يتوصل إلى التعميم المشار إليه سوى عبر الإغريق؛ فقد ظل يتذكر صرخة هيراقليط Héraclite- الذي قال: "لا أرى شيئا سوى المصير devenir، فإياكم وأن تُظللوا أنفسكم! لأنّ الأمر يتعلق بأثر لِقِصَرِ نظركم وليس لجوهر الأشياء، إذا اعتقدتم أنّكم أدركتم أرضا يابسة في مكان ما على بحر المصير والزائل. إنكم تستعملون أسماء الأشياء وكأنّ لها مكانة ثابتة، غير أنّ النهر الذي تنزلون إليه لثاني

---

1 أنظر مثلا: **GS**,358

2 VP,I,LI,40 ؛ "لا يكمن خلاصنا في **المعرفة** بل في **الإبداع**" (LP,8)

3 A,120 ; Cré.id., la raison dans la philosophie., 5

4 idem

5 CW., 7, p.33-34

6 LP, 86

7 George MOREL : Nietzsche., vol.1., éd. Aubier-Montaigne., Mayenne., 1970., p.84

مرّة لن يكون النهر ذاته الذي نزلتم إليه لأول مرة"–[1] ليقول في إحدى فقرات أواخر فترة إنتاجه، التي سبقت انهياره، بأنّ: "وسائل تعبير اللغة لا تصلح لقول الـــ"مصير"[2] ولا لتصوره، لأنّ "ملكة التفكير عندنا، التي تأخذ مصدرها من **صور**، تجنح لإثبات الاستقرار العام"[3].

ولأنّ نيتشه يتحدث بـــ"الأنا الكونية"[4]، فإنّ الإنسان، الذي صنع العالم الذي يعنيه (العالم الذي يعيش فيه بوعي، بألوانه وأشكاله وأشيائه وعلله ومعلولاته، العالم الذي يمثل جزءً مما أنتجه نشاطه العقلي)[5]، لا يمكنه أن يلج الكون سوى عبر نفسه مادام جزءً من طابع caractère الكون[6]. ومن هنا كانت جذرية نيتشه في معالجة موضوع اللغة، الذي يرتبط بموضوعات أساسية شتى كالسببية والمنطق والعلم والمعرفة والفن وعلم النفس، ...إلخ، ويدفعنا إلى طرح جملة أسئلة تدور حول معنى تناول نيتشه لموضوع اللغة؟ وهل تمكّن نيتشه بالفلسفة من قول ما لم يقله بفقه اللغة؟ وهل وضع نيتشه منهجا لمعرفة كافة الأشياء، كسبيل لمعرفة الإنسان لنفسه بنفسه، مثلما أشار إلى ذلك في إحدى فقراته؟[7]، لأنّ المنهج هو الذي يتحكم، على حد تعبير فيتغنشطاين Wittgenstein في اللغة ويضع الحدود لعالمنا؟[8]. إلى ما ترشدنا الـــ"نيتشية"، [إلى أي واقع]؟ كيف لنا أن نعرف إن كُنّا مخطئين أم لا؟ ثم، ألم يسْع نيتشه، في مجمل مؤلفاته، إلى توضيح وتحليل اللغة فقط، لأنّ "الحقائق" التي تحدث عنها، كان بإمكانه أن يبلغها عبر الفيزيولوجيا والبيولوجيا... وباقي فروع علم الطبيعة التي ولع بها؟.

بالرغم من أنّه كان لتجربته الفيلولوجية كبير الأثر على أعماله كلها، إلاّ أنّ تناول نيتشه لموضوع اللغة جاء بفعل تعذر فهمه لقضايا شتى، في فترة بدأت ترتسم فيها معالم فلسفته، وذلك ما يمثل حدود فقه اللغة، حيث لاحظ مثلا أنّ "اللغة لم تقدر أبدًا ولن تقدر على إبراز، وبشكل ظاهري، المنشأ الأصلي والعميق للموسيقى"[9]، ولذلك سوف نجد نيتشه كفيلسوف تاريخ وعالم نفس كلما عثرنا على فقرة تناول فيها هذا الموضوع، مما سوف يدعم جزءً هاما من بحثنا، الذي نسعى من خلاله إلى إبراز هذين الجانبين المعرفيين في النص التاريخي، بحثا وبناءً ونقدا.

ومنذ البداية، عمل نيتشه على الذهاب عميقا في اللغة والعناصر المرتبطة بها، التي تناولها، مثلما نلمس ذلك في أولى كتاباته كـــ: "الخطابة القديمة"، "الحقيقة والكذب بالمعنى الخارجي للأخلاق"، "كتاب الفيلسوف"، "ميلاد المأساة" و"الفلسفة في العصر المأساوي للإغريق"...إلخ، وكانت أولى القضايا

---

1 Phil.ETG.,5
2 VP,I,LI,104 ; VP,I,LII,58(1888)
3 VP,I,LI,104
4 Friedrich WURZBACH : Postface à volonté de puissance, T.2.,op.cit.,p.484
5 GS, 152 ; G. A. Morgan., op. cit., p.246
6 VP,I,LII,14
7 A,48
8 Ludwig WITTEGENSTEIN,http://www.utm.edu/research/iep/w/wittgens.htm
9 NT, 6, p.73-74

التي شغلته، ما أسماه عيب "الحس التاريخي أو خطيئة كافة الفلاسفة الأصلية"[1]، أي "انطلاق الإنسان من نفسه، من آخر نتيجة توصَّلت إليها الطبيعة، ثم تمثُّله لنفسه القِوَى، القوى الأصلية، مثلما يتم ذلك في وعيه. إنّه يتخذ **عواقب الميكانيزمات الأكثر تعقيدا في المخ** كمعطيات، وكأنّ تلك العواقب ظلت هي نفسها من البداية"[2]؛ كما نجد لدى "الفلاسفة هذا الخطأ المشترك، الذي يكمن في انطلاقهم من الإنسان الحالي ثم الاعتقاد ببلوغ الهدف بعد القيام بالتحليل؛ وبطريقة لا إرادية، يظهر لهم "الإنسان" كحقيقة خالدة *aeterna veritas*، كعنصر ثابت في الدوامة كلها وكمعيار مضمون للأشياء. غير أنّ كل ما يعرضه الفيلسوف عن الإنسان، ليس في العمق سوى شهادة على الإنسان في فترة وجيزة ومحدودة جدا(...)، والكثير منهم يتخذ، عن غير علم، آخر أشكال الإنسان، تماما مثلما نجم بتأثير ديانات معينة وحتى أحداث سياسية معينة، وكأنّه الشكل الثابت الواجب الإنطلاق منه. إنّهم لا يريدون أن يعلَمُوا أنّ الإنسان، وكذا ناصية المعرفة أيضا، نتيجة لتطور. في حين ذهب بعضهم حتى إلى استخراج العالم برُمَّتِهِ من ناصية المعرفة هذه. والحال هذه، فإنّ الجزء **المهم** في التطور البشري جرى في أزمنة غابرة، وقبل الأربعة آلاف سنة التي بالكاد نعرفها، بل وقد يكون الإنسان قد تغير بشكل ضئيل في هذه الأخيرات(...) كما أنّ الناس يتحدثون عن إنسان الأربعة آلاف سنة الأخيرة وكأنّه الإنسان **الخالد**، الذي ارتبطت به كافة الأشياء، منذ ظهورها، بعلاقة طبيعية. غير أنّ كل شيء تطور، ولا وجود **لوقائع خالدة** faits éternels: مثلما لا توجد حقائق مطلقة"[3].

كيف سيخرج نيتشه من اللغة ليعرفها؟: من مثل هذا النص تظهر جذرية النقد النيتشي لما ظل يُعْرف، إلى تاريخ ظهور أولى كتاباته، كحقيقة وعلم ومعرفة...إلخ، وتبدأ طريقته في فرض نفسها ومن ثمة سنمزج بين نقده وطريقته، لأنّ الموضوع لن يكون في النهاية سوى توضيح أسس الطريقة الأكثر إقناعا من غيرها، على الأقل بواسطة المقارنة البسيطة.

أ- **التفسير الفيزيولوجي والبيولوجي**: يعد الخروج من اللغة قصد النظر إليها نظرة بريئة ومحايدة، لفهمها وتعريفها، إجراءً محفوفا بالمخاطر، لأنّه من الممكن أن تكون المساءلة المباشرة للفاعل بشأن الفاعل والانعكاسات التي يقبض عليها العقل بشأن نفسه، مفيدة ومهمة لنشاط الفاعل في إعطاء تفسير خاطئ عن نفسه، ولذلك يجب الانطلاق من الجسد والفيزيولوجيا للحصول على تمثل صحيح عن طبيعة وحدتنا المثالية، ومن ثمة التخلي عن شهادة الحواس والنظر إلى الجسد كجماعة وكحكم ذاتيautarchie، يكون فيه الحاكم والمحكومين من نفس النوع، كلهم يحسون ويرغبون ويفكرون"[4]. ولأنّه في **الجسد** البشري يحيا ويترسَّخُ أبعد وأقرب ماضي كل مصير، الذي عبره وما وراءه وفوقه

---

1 HTH, 2
2 VP,I,LII,13
3 VP,I,LII, 335 ; LP, 177 ; HTH, 2
4 VP,I,LII, 230

يبدو أن نهرا خفيًّا هائلا يسرى فيه، فإنّ هذا الجسد فكرٌ أكثر إثارة للدهشة من الدهشة التي ظلت "الروح" تثيرها إلى عهد قريب"[1]. فحيث نرى أو نلمح حركة في الجسد، وجب الإنتهاء إلى وجود حياة خفية ومثالية ترتبط بها، لأنّ الحركة هي رمزية موجهة للعين وتدل على أن شيئا ما تم الشعور به ورغبته وتفكيره"[2]، وبهذا فالجسد عقل كبير، "معجزة المعجزات"[3]، و"مصدر كافة التفسيرات، التي تشهد بدورها على حالة الجسد المُفَسِّر"[4]، مثلما يبينه خطاب زرادشت:

"أنا جسد، من أقصايا إلى أقصايا، ولا شيء غيره.

ما الروح سوى اسم لشيء من هذا الجسد،

الجسد عقل، عقل كبير، تعددية بمعنى واحد، حرب وسلام، قطيع وراع،

يا أخي، عقلك الصغير، الذي تسميه "روحا"، أداة لجسدك، أداة صغيرة، لعبة صغيرة، لعقلك الكبير.

تقول "أنا" وتتفاخر بهذه الكلمة. بيد أنّ ما هو أكبر منها ولا تريد أن تؤمن به– جسدك، وعقله الكبير: لا يقول "أنا" بل يحققها"(...)

لا غاية في ذات ما تدركه الحاسية ويتعرف عليه العقل، بيد أنّه يبتغي إقناع نفسه بأنّهما كل شيء: وذلكم غروره. ليست الحاسية والعقل سوى أدوات ولعب وخلفهما تقبع الذات، التي تبحث أيضا بعيون الحاسية وتسمع بآذان العقل. تصغي الذات دائما وتسعى: تقارن، تُخضِع، تحتل، تُهدم. إنّها تسود وهي السيدة المتحكمة في العقل(...) إنّها تقطن جسدك، وهي جسدك. في جسدك من العقل ما يفوق ما يقبع منه في أفضل حِكَمِكَ"[5].

وبذكر حديث زرادشت عن "العقل الكبير"، نبلغ نقطة منهجية أساسية في تناول نيتشه لموضوع اللغة، ونعني بها إرادة القوة ومقولاتها الأخرى، كالحياة والتقدير والصراع... إلخ، ونقف على النقطة الأساسية التي انتقدها، أي عالم المعرفة، وليس الطبيعة مثلما اعتقد الكثيرون، ليضع قبلها مسألة القيم، لأنّ "ما يُدعى معرفة، يرتبط بمقياس حقيقة، أي بما يفترض تقديرا [قيميا]"[6].

"والتقديرات لم تنشأ من رغبة في الحقيقة، إذ أنّ التَّعَضِّي في صراعه مع الوسط، لم يكن في حاجة إلى "معرفة" الوسط معرفة صحيحة قدر الإمكان، بل إلى **تفسيره** بالرجوع إلى ضرورياته الأساسية، وإلى جهل [تجاهل] تدفق التفاصيل قصد الذهاب مباشرة لما قد يشفي شهيته"[7]؛ وبهذا يعصف نيتشه بكل ما ظلت البشرية تسميه حقيقة أو علما، بما في ذلك كل تفاصيلهما الدقيقة.

---

[1] Ibid., 173

[2] Ibid., 230

[3] VP,I,LII,226

[4] Patrick WOTLING: Le vocabulaire de Nietzsche., éd. Ellipses., Paris., 2001., p.20

[5] APZ., des contempteurs du corps., p. 41 & 42

[6] G.A.Morgan., op.cit., p.242

[7] VP,I,LI,190-192 ; Ibid., p.244

ومهما يكن من أمر، فإنّ نيتشه ينطلق من فكرة كون "الإنسان جزءً من مجموع الكائن الكوني"[1] وأنّ وجوده عرضي، ابتدع له وهو شاب هذه المقدمة: "في جانب إحدى زوايا الكون المغمور بأنوار عدد لا يُحصى من المنظومات الشمسية، وُجِد في إحدى الأيام، كوكب ابتدعت فوقه الحيوانات الذكية، المعرفة. كانت تلك هي الدقيقة الأكثر اعتزازا والأكثر كذبا في "التاريخ العالمي". بيد أنّ ذلك لم يكن سوى دقيقة واحدة؛ فبعد عدة تنهدات للطبيعة، تجمَّد الكوكب ولم يبق أمام الحيوانات الذكية سوى الموت"[2].

وبهذه المقدمة إنفلت من أمور شتى كالغائية والصدفة... وغيرهما[3]، رغم أنّه تحدث عن مثالية كونية وغير مؤنسنة للكون، لأننا "أشخاص يمرُّون في حلم إلهٍ ليصيروا ما يحلمه"[4]. وقد قادته أعماله الفيلولوجية الأولى، وخاصة ما تعلق منها بما قبل السقراطيين، إلى اكتشاف أهمية تحويل الإغريق لكل شيء إلى حياة، في الوقت الذي يبقى فيه عندنا مجرد معرفة ،[5]وإلى الانتباه إلى جوانب شتى، جعلته يحتاط من المعرفة ويتحدث عن "صراع المعرفة مع المعرفة!"[6]. ومن أمثال هؤلاء: پارمينيد Parménide، الذي كان يقول: "لا تكتفوا فقط بالاتكال على الرؤية الفظّة ولا على السمع المُصِمِّ ولا على اللغة ولكن إخضعوا الأشياء لامتحان قوة الفكر الوحيدة"، وبهذا يكون قد قام بأول نقد للجهاز الإدراكي appareil cognitif، نقدا في غاية الأهمية رغم نقصه الكبير وعواقبه الوخيمة. وفعلا بفصله وبضربة واحدة، الحواس عن ناصية التفكير التجريدي، أي العقل، وكأن الأمر يتعلق بناصيتين مختلفتين تماما، يكون قد دمَّرَ الذهن نفسه ودفع إلى الفصل الساخر بين الـــ"روح" والـــ"جسد"[7].

لقد كان نقد نيتشه لسقراط، في العديد من مؤلفاته[8]، مبني على هذه الفكرة الأساسية في فلسفته: أسبقية الحياة على كل تفسير، وفي هذا يكمن تاريخ خطأ الإنسان الأصلي. ومن ثمة "فنحن عائدون إلى السلوك الطبيعي(سلوك الإغريق) عبر إنحراف كبير، لأنّه ثبتت إستحالة بناء حضارة على المعرفة"[9]؛ حضارة نصبو لبلوغها بواسطة أدوات صنعناها نحن. ومثال ذلك: الإجراءات الفنية في البلاغة (كالكناية والاستعارة والمجاز المرسل، إلخ)[10]، مما أوقعنا في فخ القواعد(ميتافيزيقيا الشعب

---

1 VP,I,LI,10

2 VMSEM., p.207

3 GS., 109

4 VP,I,LII,15

5 Phil.ETG.,15 ; LP.,47

6 LP.,36

7 Phil.ETG.,10

8 أنظر مثلا ملخص لنقد نيتشه في : LP, 15

9 LP, 152

10 هنا يكمن مدى أثر فقه اللغة الواضح على فلسفة نيتشه، ومثال ذلك: LP, 152 ; GM,I,4 ; GS,344&355

هذه)"[1]، وجعلنا نصنع هذا العالم الذي نؤمن به ونحسبه بمنطقنا ورياضياتنا وسببيتنا...، ولا نتفطن إلى أنّه "حتى الكائن الأكثر حكْمَةً يحتاج، من حين لآخر، إلى العودة إلى الطبيعة، أي إلى **علاقته الأساسية اللامنطقية مع كافة الأشياء**"[2]. "ذلكم قدر الإنسان(...) تدفعه الحقيقة إلى اليأس والانهيار: حقيقة وجوده كمحكوم عليه أبدا باللاحقيقية. غير أنّ الإنسان يكتفي بإيمانه فقط بالحقيقة الممكنة وبالوهم القريب الذي يُلهمه الثقة المطلقة. وفي العمق، ألا يعيش **بفضل الوهم** الدائم الذي يتلقاه؟ ألا تخفي عنه الطبيعة أغلبية الأشياء، وخاصة أقربها منه كجسده الذي لا يملك عنه سوى "وعيا" استشباحيا؟ إنّه سجين هذا الوعي، والطبيعة رَمَتْ بالمفتاح بعيدا"[3].

ومن هنا فالإنسان جزء من الطبيعة، ومهما فعله بعقله أو حواسه، التي يقيس بها والتي لا تتعدى آفاقها[4]، فإنّه "أكثر قردية من أي حيوان آخر"[5]. كما أنّ "العالم، في حدود قدرتنا على معرفته، ليس سوى نشاطنا العصبي الخاص بنا لا أكثر"[6].

إنّ الحياة إرادة قوة، و"الإرادة وحدها لا تفني"[7]؛ وأن يحيا الكائن هو أن يُقَدِّرَ، ومن هنا كانت كل إرادة تقديرا بل وحتى في "**العالم الأصغر**"، حيث لا توجد الإرادة، يمكننا اعتبار الازدياد والتناقص المستمر لومضات إرادات القوة بمثابة تقديرات أيضا[8].

ب- التفسير السيكولوجي

- **نشأة اللغة:** "لأنها نتيجة منطقية لفترات جدُّ طويلة، فإنَّ اللغة لم تنشأ دفعة واحدة"[9]، وقد سبقها "تقليد الحركات، الذي يتم بطريقة لا شعورية والذي، رغم تراجع مفروض عموما على الإيحاء ورغم اكتساب التحكم في العضلات، لا يزال قويا إلى أيامنا هذه، لدرجة أننا لا نقدر على النظر إلى حركات الوجه دون تَلَقِّي إثارة على وجوهنا(ويمكننا مثلا أن نلاحظ أن تثاؤبا مُتَصَنَّعًا يثير تثاؤبا طبيعيا لدى من يراه).

يعيد تقليد الحركات المقَلَّدَ إلى الشعور الذي تجد تلك الحركات تعبيرها فيه على وجه أو جسد الشخص الذي تم تقليده، وبهذه الكيفية تعلَّم الناس التفاهم في ما بينهم، وبها لا يزال الطفل أيضا يتدرب على فهم أمه. وعموما، تمكنت أحاسيس بالألم من أن تجد تعبيرا لنفسها أيضا في حركات تُسبب بدورها آلاما(كاقتلاع الشعر وضرب الصدر وليّ وعقد عضلات الوجه بعنف). وخلافا لذلك، تتضمن

---

1 Cré.id., la raison dans la philosophie, 5
2 A,1 ; HTH,31
3 CP,I., p.175
4 A,117
5 FP /A 3 [34]
6 FP /A 10 [E96]
7 LP., 19
8 VP,I,LII, 58
9 LP., 19

حركات المتعة في حد ذاتها لذة لتتلاءم بذلك بسهولة مع تبليغ الفهم(الضحك،رد الفعل على الدغدغة، الذي هو أمر مريح ويؤدي أيضا إلى إثارة أحاسيس مريحة أخرى). وما أن يتفاهم الناس بواسطة الحركات، فإنه يصبح بالإمكان أن تنشأ رمزية للحركات: أعني أنّه يمكن للناس أن يتفاهموا بواسطة لغة تُوَفِّقُ بين الإشارات والأصوات بدءً، في الآن نفسه، بإنتاج الصوت والحركة (التي تنضاف إليه كرمز).وعادة ما يبدو أنه في هذا، وإبان الأزمنة القديمة، حدث الأمر نفسه الذي يحدث الآن أمام عيوننا وآذاننا في تطور الموسيقى، وخاصة الموسيقى الدرامية: في الوقت الذي كانت فيه الموسيقى في البداية، وبدون تعليق من الرقص والإيحاء، مجرد ضجة فارغة، فإنّه حدث وأن تروّضت الأذن، بواسطة تعوّد طويل، على هذه الموازاة بين الموسيقى والحركة، على التفسير المباشر للأشكال الموسيقية والانتهاء إلى السمو إلى درجة من الفهم السريع يجعلها في غنى تام عن الحركة المرئية وقادرة على **فهم** الموسيقى بدونها. وهكذا صار الناس يتحدثون عن الموسيقى المطلقة أي عن موسيقى تُفْهَمُ رمزيا بسرعة دون الحاجة إلى مساعدة أي شيء آخر"[1]. وقد كانت بداية اللغة، طبيعية، أوجدتها "**الحاجة إلى الاتصال**"[2]؛ ذلك أنّ الإنسان "كائن مجبر، أكثر من غيره، على الإعتماد على أمثاله"[3]. كما أنّه يحدث وأن تدفعه الضرورة والملل لأن يعيش في جماعة وفي قطيع ويضطر لعقد صلح والتصرف بالكيفية التي تزيل الطابع الفظ للغاية، لصراع الجميع ضد الجميع *bellum omnium contra omnes* من عالمه."[4] وباعتباره الحيوان الأكثر عرضة للمخاطر، **كان في حاجة** إلى العون والحماية، كان في حاجة إلى أمثاله، وكان مجبرا على معرفة كيفية التعبير عن حزنه، معرفة كيفية جعل نفسه قابلا لأن يُفْهَمَ[5]، و"كلما كان الخطر كبيرا كلما شعرنا بالحاجة إلى التفاهم، بسرعة وبدون عناء، بشأن ما يلزم القيام به؛ أمام الخطر [الداهم]، لا بد للناس أن يتفادوا، قبل كل شيء، كل سوء فهم بينهم، وفي كل صداقة وكل محبة نقوم بالتجربة ذاتها"[6]. وفي المجتمع، أخذ الانسان يتعلم كيف يكون واعيا بنفسه فقط، مثلما لا يزال وسيبقى يفعل ذلك، رغم أنّ محتوى ذلك الوعي مرتبط بالمجتمع والقطيع اللذين يعيش فيهما، وفي هذا يتَّضح أن الوعي مفصول عن اللغة، فكيف يتم ذلك؟

"يفكر الإنسان، كأي كائن حي باستمرار لكنه لا يعرف ذلك، وفقط جزء بسيط للغاية من ذلك التفكير، أي الجزء الأردأ والأكثر سطحية، يصبح واعيا، وهو الجزء الذي **يتم في شكل كلام، بمعنى في إشارات اتصال.** وهكذا يكشف الوعي عن نفسه بواسطة اللغة، ولذلك كان دائما مبدع الإشارات أكثر الناس وعيا بذاته مما يبين بوضوح أن الوعي لم يتطور بكيفية حاذقة سوى في علاقته بمدى

---

1 HTH., 216
2 GS., 354
3 Idem
4 VMSEM., p.209
5 GS., 354
6 Pbm., 268

نفعيته للمجموعة والقطيع، مما جعله "وسيلة"[1] تنطوي على محتوى غير فردي، أي على شيء يميز الجماعة"[2]، ولذلك "يبدو أنّ اللغة لم تُبْتَدَع سوى لأجل الأمور الحقيرة والمشتركة والقابلة للتواصل. فالإنسان الذي يتكلم، **يجعل نفسه مبتذلا** بواسطة اللغة"[3]، لأنّه بمجرد[بداية] وَعْيِنا، فإنّ فسادا عميقا وتزويرا وتسطيحا وابتذالا يحدث[ينجم عن ذلك]"[4]؛ ولأنّه "لابد للمرء أن يكون حقيقيا، أي أن يستخدم المجازات المألوفة(...)، الكذب وفق اتفاق جاهز، الكذب في قطيعٍ بأسلوبٍ كلُّ الناس ملتزمون باستعماله(...) إنّه يكذب إذن لا شعوريا(...) ملتزما بأعراف تعود لمئات السنين(...). ومن هذا **اللاشعور** ذاته(...) يبلغ الشعور بالحقيقة"[5].

وباختصار، فإنّ "الوعي آخر تطور، جدُّ متأخر، للحياة العضوية، ومن ثمة فهو الأقل اكتمالا والأكثر هشاشة"[6]؛ ذلك أنّ "التفكير ليس سوى العلاقة التعاضدية بين الغرائز"[7]، أو على الأقل "على الجزء الأكبر من التفكير الواعي أن يُعْزَى إلى النشاطات الغريزية، حتى لو تعلق الأمر بالتفكير الفلسفي نفسه"[8]. وإذا حدث وأن "تراخت حيوية الفرد وأحسَّ بنفسه مريضا أو مُتعبا، قلقا أو متشبعا، فإنّه يضحى، مؤقتا، محروما من رغبات وشهوات ويصبح نسبيا كائنا أفضل، أي أقل إضرارٍ ولن تعود تمثلاته[تصوراته] تُصاغ سوى في كلمات وتخمينات(...) ولكنه مهما كان قادرا على تخمينه، فإنّ كافة منتجات عقله تعكس بالضرورة حالته، أي صعود الخوف والوهن، وتراجع تقديره للتصرف والاستمتاع"[9]. وبهذا "فالعقل نشاط عضوي لدى الضعفاء، يبرر أفول الحياة"[10]، لأنّه "خلف كل منطقَ وكل حريةَ حركته الظاهرة، تنتصب التقديرات". وبلغة أوضح: "متطلبات فيزيولوجية تصبو لحفظ نمط حياة معين"[11].

– **تفكيك اللغة** (في موضوع التفسير السيكولوجي):

1- المصير: تجنح ملكة التفكير لدى الإنسان لإثبات الاستقرار الشامل لأنّها تأخذ مصدرها من صور، أي أنّها لم تنتظم لتصور المصير، مثلما سبق وأن أشرنا إلى هذا، ولأنّ إرادة القوة لا تنبع من الأنا الواعية بل من القوة الحيوية غير الواعية[12]، كما أنّه لما كانت كل إرادة تقديرا، فإنّه "في غياب وجهة نظر محددة، يستحيل الحديث عن قيمة شيء ما، وبعبارات أخرى، فإنّ التأكيد المحدد لحياة معينة

---

1 VP,I,LII, 226
2 GS., 354
3 GS., 354 ; Cré.id., divagation d'un « inactuel », 26
4 GS., 354
5 VMSEM., p.212
6 GS., 11
7 Pbm.,36
8 ibid., 3
9 A., 42
10 Friedrich WURZBACH ., op. cit., p.481 ; EH., NT.,19, p.14
11 Pbm., 3
12 Louis CORMAN: Nietzsche, psychologie des profondeurs., PUF., Paris., 1982.,p.106

يحدد الشرط المسبق لكل حكم"[1] ولذلك "فالقيمة الأعلى للوجود لا تكمن في نتيجة حقيقة عرفت بل إنّها **الشرط المسبق** للمعرفة"[2]، وعليه كان "الإدراك"، أي الشكل الأكثر بدائية للتمثل، بمثابة **اعتبار** "**الشيء**" **على أنّه حقيقي** والقول له نعم، مما يجعل مضمونه فعلا un acte بشكل أساسي، أي فرضٌ لأشكالٍ[3]. وقد ظل الإنسان مُبدعَ أشكالٍ لفترة طويلة قبل أن يتمكن من ابتداع المفاهيم[4]، أي أنّه بدأ "بتمثل أحاسيس جديدة ثم شَعْرَنَةُ poétisation الأحاسيس في صورٍ ثم تعبير الصور في كلمات"[5]. وبلغة أوضح، نقول أنّه لما كانت الحياة تتجاوز نفسها باستمرار من خلال تقديرات الإرادة، أي أنّها مصير وسيرورة وتطور...إلخ، فإنّ الكائن ظل دائما "يجد كفاية لنفسه في الظاهر التام"، الظاهر كَبُعْدٍ للمصير، مما يبين أن إندماج الكائن والمصير خاصية لـــ "ذروة إرادة القوة" وذروة التأمل[6]؛ ومن جهة أخرى أن "الحياة تنفلت من كل إمكانية للقبض عليها بالمفاهيم"[7].

2- **سيرورة تشكل اللغة**(أو تأكيد الإنسان للشكل لعدم قدرته على إدراك الحركة المطلقة الأكثر رفعة)[8]: في واحدة من مجموع المقدمات الجديدة التي وضعها لكتبه القديمة، أشار نيتشه إلى أنّه حاول، في "**ميلاد المأساة**"، "**تناول العلم من منظور الفنان والفن في منظور الحياة**"[9]. وتدل أولى كتاباته، وخاصة "**كتاب الفيلسوف**" والنصوص المعاصرة لها، على أهمية وأولوية الفن في الحياة على كافة أشكال المعرفة الأخرى، حيث يتعرف "فيلسوفه الأخير" على "لغة الطبيعة" ويقول: "نحن في حاجة إلى الفن، ولا يلزمنا سوى جزء من المعرفة"[10]. وقد تحدث نيتشه في هذه النصوص بصفة خاصة عن "قوة فنانة" و"سيرورة فنانة"[11]، مثلما تحدث في نصوص أخرى عن شيء مشابه كالقوة **الشاعرية** أو الغريزة الشاعرية[12]، وهي كلها سيرورات تعكس "الطابع السطحي لخاصية التفكير" لدى الإنسان وحاجة هذا الأخير، إلى الفن في كل لحظة، أي إلى ما يجعل حياته ممكنة في ظل تيار السيرورة المتدفق، لأنّ "الفن يستند إلى عدم دقة الرؤية"[13]، ولأن وسيلة"القوة الفنانة" تلك تكمن في "الإغفال وعدم الرؤية وعدم السماح؛ إنّها أيضا لا علمية: لأنّها لا تولي أدنى أهمية لأي مُدْرَكٍ"[14]،

---

1 VP,II,LIII,572
2 Ibid., 574
3 Ibid., 609 & 613
4 VP,I,LI ,13
5 Arnauld DEWALQUE: Heidegger, Rickert, Nietzsche et la philosophie de la vie sur les problèmes de la formation des concepts en philosophie,www.pheno.ulg.ac.be/Arnauld_Dewalque.,p.10
6 Marc de LAUNAY: Glossaire in Friedrich Nietzsche : **Essai d'autocritique.,** p.147
7 Arnauld DEWALQUE: op. cit., p.3
8 Pierre CHASSARD: Nietzsche, finalisme et histoire., éd. Copernic., Paris.,1977., p.104
9 Ess.d'auto., NT,2, p.23
10 LP,51
11 LP,51 ; 64…
12 VP,I,LII ,65
13 LP,55
14 LP,55

ومن ذلك: "ميل الإنسان نحو السماح للغير بتغليطه"[1]. بل إنّه يسمح لنفسه لأن تُغَلِّطَهُ أحلامه طوال حياته دون أن يبحث حسه الأخلاقي عن منعه[2]، ثم ما هي التراجيديا إن لم تكن في الأصل موسيقى؟ أليست الموسيقى عودة إلى الطبيعة وفي الوقت ذاته تطهير وتحول للطبيعة؟[3]، ألا نرى في شعر الغناء الشعبي كيف تجنح اللغة بكل قواها نحو **تقليد الموسيقى؟**[4]، الموسيقى كتعبير رمزي للتناقض والألم الأصليين، والتي لن تقدر اللغة لا على إبراز، وبشكل ظاهري، منشأها الأصلي والعميق ولا على إستنفاذ رمزيتها[5]. إنّها لغة الإرادة على حد تعبير شوبنهاور[6]. وهكذا يقودنا البحث في موضوع اللغة(في علاقته مع السيرورة)، أي في مراحل صياغة المفاهيم- أو الوسيلة التي يحاول الإنسان أن يشرح بها تغيرات الطبيعة، ومن ثمة أن يبرر ديمومة أحكامه لأن كل كلمة وكل مفهوم أحكام- من جديد إلى النقطتين الأساسيتين: الحياة والفن.

يستند بحث نيتشه، في البناء اللاواعي لسيرورة تَشَكُّل اللغة، إلى الحياة والفن في علاقتهما مع المصير. وقد بيّن أنّ "البشرية فنانة"[7] بِرُمَّتِهَا، وأنّ فَنَّ أُنَاسِها درجات[8]، وأن ميلاد الفن جاء كاستجابة لضرورات حيوية، لأنّه يعكس دائما "حالة ممتعة لأنفسنا"[9]. وتنطوي كلمة فن، في هذا السياق، على سيرورات شتى كالمجاز، الموسيقى، الاعتقاد، الوهم...إلخ، تبين كلها أنّ الإنسانية لم تنتج في تاريخها، وبتعدد لغاتها، سوى "مصيرا كاذبا" و"شكلا آخر للواقع". ومن ذلك كان كل التاريخ، الذي سبق نيتشه، تاريخا للخطأ، الخطأ الذي انتقد أسسه، رغم أنّه يرى في الوهم والإعتقاد الخاطئ...إلخ، ضرورات للحي، لأنّ "الفن أقوى من المعرفة مادام هو الذي يريد الحياة، بينما لن يكون الهدف الأقصى الذي تبلغه المعرفة، شيئا آخر بغير الإفناء"[10]. لذلك لا بد من التحكم في العلم بواسطة الفن، الذي عليه أيضا أن يعيد بمفرده الحياة إلى العالم[11].

- **الإعتقاد كأرضية:** تتفق الدراسات الحديثة مع نظرية نيتشه في نشأة وتطور اللغة وفي كونها سلسلة "معجزات"*، تبدأ بالحركات والإشارات الإيحائية إلى أن تصل الأفكار. وباعتبار إدراك الإنسان قوةُ سطحٍ،[1] فإنّه إبتدع التجريد، ومن ثمة يمكن إجمال مصادر اللغة في:

---

1 VMSEM., p.208
2 Idem
3 RWB, 5
4 NT, 6, p.71
5 Ibid., p.73-74
6 Arthur SCHOPENHAUER: le monde comme volonté et comme représentation, vol.3., vol.3., trad. par A. Burdeau., 5°éd., Félix ALCAN éditeur., Paris., 1909., §52
7 GS,152
8 LP,65
9 FP/A 6 [343]
10 GS,354 ; CP., I, p.176
11 LP, 39
* أنظر مثلا: المقال، الذي ترجمته لور تشالكي Laure SCHALCHI ، والذي بَيَّنَتْ فيه كيف بدأ التحكم

1- الإعتقاد الأولي: حيث "تُعلِّمنا الكيفية التي شَعَرَ بواسطتها المولدون الجدد بالمؤثرات وحكموا على الواقع الخارجي بشأن **المبدأ الذي يحفظ الحياة** الذي إنصاعوا له.[ومن ثمة] فالإعتقاد الذي يسمح بالبقاء هو الإعتقاد الذي انتصر ودام، وليس الأكثر صدقا بل الأكثر فائدة[1]. لقد كان ذلك الإعتقاد بمثابة "تخيل سعيد"[2].

2- "القوة الفنانة": أو الحالة الجمالية التي تمتلك ثراءً فيَّاضًا من **وسائل التعبير** وفي الوقت ذاته إستقبالية قصوى للمؤثرات والإشارات. إنها مِلْءُ المزاج التواصلي وإمكانية ترجمة الذات لدى الكائنات الحية– إنّها مصدر اللغة، وهنا تجد التعابير مكمنها الأصلي: التعبير بالشفاه والحركات والنظرات؛ والظاهرة الأكثر كمالا هي دائما الظاهرة الأصلية: إستعداداتنا جوهرٌ لاستعدادات أكثر سِعَة، وإلى الآن لا زلنا نسمع ونقرأ بالعضلات[3].

3- تقليد الظاهر: ليست كل منتجات اللغة، من قواعد ومنطق وسببية وكلمات ومفاهيم...إلخ، وحدها تقليد لمظاهر حالات سابقة لها، بل إنّ الموسيقى أيضا، كتعبير، "تقليد غير مكتمل" لظاهرة الإرادة[4]. ومن هذه العناصر الثلاث يبرز لنا الصوت والحدس والصورة(أو الشكل) والمفهوم والكتابة(كميدان يسجل فيه الخطاب الشفاهي) وباقي الأشكال التي تبلغها "القوة الفنانة"، وهي كلها عناصر تستند إلى الاعتقاد(الناجم بدوره عن الإحساس والذاكرة)[5] وتعبر عن بنية الجسد الفيزيولوجية وعن إرادة القوة. حيث يجرنا مثلا تحليل دوافع الفعل لدى الإنسان إلى اكتشاف أن "الفعل نصرٌ، لأن الإنسان لا يتصرف لأسباب مرتبطة بالسعادة أو المنفعة ولا لكي يدافع عن نفسه ضد الألم، بل لأنّ كمية معينة من القوة تنفق نفسها وتستولي على شيء لتشفي غليلها فيه"[6].

لم يكن صانع اللغة جدُّ متواضع لكي يؤمن بأنّه لا يفعل شيئا آخر بغير إعطاء دلالات للأشياء، ولذلك ظل الإنسان، ولفترات طويلة، يعتقد أن أسماء الأشياء والأفكار حقائق خالدة[7]. فإذا تناولنا مثلا الكلمة، فإننا نلاحظ أن لها مميزات الحادثة التاريخية(أي أنّها فريدة من نوعها ولها زمن ومكان معينين وتُعْرَفُ بطريقة غير مباشرة، باستثناء الكلمات التي يبتدعها أصحابها)، حيث يتم إسقاطها على عدد لا

=== في اللغة من خلال سلوكين رمزيين هما: إيحائية الوجه وبروز تركيب الكلام syntaxe، أي القدرة على تقليد تعابير الوجه أو على ترتيب الحركات، وإنّه بالتقليد تعلَّمَ الطفل أولى كلماته..إلخ (Revue de La Recherche., n°19(mai-juillet2005)., article de la revue Nature., pp89-90.).

1 LP., 54
1 VP,I,LI,121
2 George Allen MORGAN Jr. : op.cit. , p.245
3 VP,I,LII,446
4 NT., 16, p.127
5 LP., 97
6 VP,II,LIII,461
7 HTH,11

حصر له من الحالات التي تشبه الحالة الأصلية الأولى التي أعطيت لها كإسم. ولما كان التشابه اختلافا[1]، فإن الإنسان إعتقد بوجود أشياء في العالم الواقعي، كهوية الشيء ذاته في نقاط زمنية مختلفة وتساوي الأشياء...، وهو الإعتقاد نفسه الذي استند إليه حين أوجد الرياضيات والمنطق...إلخ[2]؛ وطبعا لا يعيب نيتشه على الإنسان في هذا شيئا مادام "من مرحلة التعضِّيَات الدنيا ورث الإعتقاد بوجود أشياء متماثلة(...). ونحن، الكائنات العضوية، لا شيء في البدء كان يعنينا بشأن كل شيء سوى علاقته بنا في ما يثيره لدينا من متعة أو ألم"[3]، ومن ثمة لا بد من استعمال اللغة للدلالة على الحالات والحاجات. وقد كانت المفاهيم، بذلك، إشارات استطلاع[4] وكان كل "إدراك" بمثابة اعتبار للشيء على أنّه حقيقي[5]. والحقيقي بلغة الفيزيولوجيا، درجة شعورٍ أي أنّه في تشديد الشعور بالقوة يكمن معيار الحقيقة[6].

– **تغليط الحواس لنا:** تفتح هذه النقطة المجال أمامنا للحديث عن الإعتقاد الكامن في عملية التبسيط التي تقوم بها الذاكرة والحواس، أي حيث يكمن منشأ الأشياء[7]، ومصدر كل تاريخ أخطاء اللغة ومنها بصفة خاصة "العقل"، الذي طُوِّرَ على أساس حِسَّوِيٍّ، على **الأفكار المسبقة لدى الحواس**، أي على الإعتقاد بصدق أحكام الحواس[8]. ومثل ذلك: حاستي الرؤية والسمع، اللتين تسجنان صاحبهما خلف أسوار سجن آفاق وحدود ومنظوريات محددة؛ فسواء كانت ثاقبة أم ضعيفة، فعيناي لا تريا سوى على مسافة معينة، ولو كانتا ثاقبتين مائة مرة في رؤيتهما للأشياء القريبة، فإنّ الإنسان كان سيبدو لي هائلا، وكذلك تفعل باقي الحواس، أي أنّها تحبسنا في مجال ضيق ولا تستجيب سوى لسلسلة محدودة من المؤثرات. وانطلاقا من تلك الآفاق، نقيس العالم ونقول عن الأشياء أنّها قريبة أو بعيدة، كبيرة أو صغيرة، صلبة أو رخوة، ونسمي كيفية القياس هذه "شعورا"، وهذا خطأ؛ ثم إنَه انطلاقا من عدد الأحداث والانفعالات، التي تكون ممكنة في المتوسط وفي حَيِّز زمني معين، يقيس المرء حياته ويقول عنها أنّها قصيرة أو طويلة، غنية أو فقيرة، ثرية أو فارغة، وهذا خطأ أيضا[9]. ومن أوضح عواقب مثل تلك القياسات: "حديث الناس عن تناقضات حيث لا وجود سوى لدرجات وتغيرات رفيعة"[10]

---

1 VMSEM., p.212
2 HTH,11-19-33
3 Ibid., 18
4 VP,I,LI,103
5 VP,II,LIII,609
6 A,212 ; GS,354 ; Ibid., 629
7 LP,97
8 VP,I,LI,151
9 LP,50 &54 ; A,117
10 Pbm., 24

ومراحل انتقالية كالتعارض بين ساخن وبارد مثلا (رغم أنّ هيراقليط مثلا كان يفسر ما نسميه بردا على أنّه درجة من الحرارة)[1]، مما أوجد الرغبة في الفهم والفصل انطلاقا من هذه الأضداد[2].

"لقد علَّبَتْنَا تَعَوُّدَاتُ حواسنا في نسيج من الأحاسيس الكاذبة والتي، بدورها، إليها تستند كافة أحكامنا وكافة "معارفنا"(...). إننا نقبع كالعناكب في نسيجنا ولا نقدر على صيد سوى ما نسمح له بأن يقع في شبكتنا"[3]؛ لأنّه "من السطحية الحديث عن انطباعات حِسِّية لأننا ببساطة لم نَتَلَقَّهَا بل نحن من أعطاها شكلها وإيقاعها، مادامت التجربة ممكنة فقط بمساعدة الذاكرة"[4]، ومثال ذلك أننا "لا نرى الصورة الموجودة في العين سوى في **ذواتنا** ولا نسمع الصوت سوى في ذواتنا"[5]، أي "أننا لا نملك حاليا من العلم سوى ذلك الذي يوافق قرارنا بقبول شهادة حواسنا، أين لا نزال نشحذها ونُسَلِّحُهَا وأين تعلمنا الذهاب إلى آخر معرفتها"[6].

إنّ إدراكاتنا الحسية لَتَسْتَنِدُ إلى استعارات(مثلما سيلي بعد قليل) وليس إلى تفكير غير واع؛ وتكمن السيرورة الأصلية، التي تعيش عليها **الذاكرة** وتفعل فعلها فيها باستمرار، في التعرف على المثيل بواسطة المثيل واكتشاف شيء من الشبه بين شيء وآخر، ومن ثمة فالظاهرة الأصلية هي **اللُّبْسُ**، أي ما يفترض **فعل رؤية الأشكال**[7]. لقد ظلت الفرضيات غير الناضجة، الاختلافات، الاستعداد الأحمق للــ"إيمان"، غياب الحذر والصبر، هي التي تتطور في أول الأمر؛ وفقط لاحقا جدا تتعلم حواسنا، أو لا تتعلم كلية أبدا، كيف تكون أعضاءً وَفِيَّةً ورفيعة وحذرة للمعرفة. عيننا لا تجد صعوبة في إعادة إنتاج صورة سبق لها وأن أُنتجت عدة مرات، من حفظٍ ما لانطباعٍ ما من مختلف وجديد؛ لا بد لذلك المزيد من القوة والــ"أخلاقية". إنّه من الصعب والمتعب لأُذُنٍ أن تسمع شيئا جديدا، فحين نسمع لغة مجهولة فإننا نبحث لا إراديا عن كيفية إلصاق كلمات مألوفة عندنا وقريبة منا على المقاطع اللفظية التي سمعناها(...) واليوم لا يقرأ القارئ كافة الكلمات، وأَقَلُّ من ذلك: كافة المقاطع اللفظية لصفحة واحدة. إنّه يستخرج ربما 5\20 سهوا و"يفك" المعنى التقريبي الذي يوافقها؛ ونحن اليوم أيضا لا نرى شجرة على حالتها الصحيحة والشاملة، بأوراقها وأغصانها ولونها وشكلها. إنّه من السهل علينا أن نبتدع شبه شجرة تخيلية. ونحن نتصرف كذلك بنفس الكيفية في حضور الأحداث غير المألوفة جدا، حيث نبتدع الجزء الأكبر منها ونكون بالكاد قادرين على عدم الإسهام كــ"مبدعين" لأية ظاهرة. كل هذا يعني أننا أساسا وفي كل الأوقات **تعوَّدْنَا على الكذب**(...) أي أننا فنانين أكثر مما نعتقد أنفسنا"[8].

---

1 Phil.ETG., 6,p.53
2 Pbm,34 ; VO,67
3 A,117
4 George Allen MORGAN Jr. : op.cit. , p.246 ; FP/A 6 [349]
5 LP,144
6 Cré.id., la raison dans la philosophie,3
7 LP,144
8 Pbm., 192

تدل أسئلة من نوع: "كيف لنظرة نيتشه أن تكون صحيحة حين يكون كل موجود مجرد منظوريات؟"[1]، أو "أَلَسْنَا هنا أيضا ألعابَ عالمٍ سبق تصوره من قبل نيتشه؟"[2]...إلخ، على قدرة نيتشه على الذهاب عميقا في أغوار النفس البشرية، ليس لشرح سيرورة نشأة ما نسميه لغة فحسب، بل لتأكيد نظرته المبنية على النتائج التي بلغها على ضوء دراساته الفيلولوجية وخاصة تلك المتعلقة بالإغريق ومنها ميلاد المأساة، التي وجد فيها عملا فنيا عظيما، بلغ بواسطتهما الإغريقي الحالة الديونيزية(قوة الإنفعال) عبر أبولون(قوة العقل)، أي عبر عنصري القوة اللذين يعكسان التوجه الفطري، للتعبير عن تأكيد صارم لكافة قوى الإنسان (إرادة القوة)[3]. وقد كانت الموسيقى بمثابة الفن القادر على التعبير عن الحالة الديونيزية، أي التعبير الرمزي عن التناقض والألم الأصليين الكامنين في الواحد–الأصليl'Un-primordial، ومن ثمة عن عالم موجود قبل كل ظاهرة، ويحوم فوق كل ظاهرة[4]. ومن ذلك بلغ نيتشه واحدة من أعمق أفكاره: والتي ترى "أنّه فقط انطلاقا من كونه ظاهرة فنية يمكن للوجود أن يجد لنفسه تبريرا،إنه فقط بعيون الفن يتمكن المفكر من الإلقاء بنظره في قلب العالم، في حين أن الفن **التراجيدي** بشكل أساسي، التراجديا القديمة، هي التي لها هذه النظرة الثاقبة(...) لأنّ الشعور المأساوي للحياة هو القبول بالحياة"[5]. ولذلك "فقد صَيَّرَ الفن أورغانونا للفلسفة وعَدَّهُ الدرب الأكثر جِدِّيَةً والأكثر أصالة لأجل الفهم الأكثر أصلية"[6]. لأنّ اللغة تُحَنِّطُ المجازات في مفاهيم وتُفْقِدُهَا طبيعتها الحقيقية[7]. ومن ثمة كان مثل السؤالان، اللذان طرحناهما منذ قليل، يُنِمَّانِ عن محاولة فاشلة من أصحابها تطبيق قواعد البحث في اللغة على الفن، أو ما أسماه هارتمان "منظومة المجازات اللامحدودة"، والتي قادته إلى أن يعتبر كل أفكار نيتشه الجوهرية كمجازات[8].

لقد سعى نيتشه منذ البداية إلى جعل لغة الفلسفة مسجلة ومكرسة في حياة الفيلسوف، ورأى أن "أرقى حياة وأنقاها تكمن في امتلاك الحقيقة مُتَضَمَّنَة في الإعتقاد"[9]. أي أنّه على عمل الفيلسوف أن ينبني على اكتشاف وإبداع أشكال حياة جديدة تسمح بوجود أقصى. ولن يكون هذا ممكنا سوى بواسطة تجارب ومحاولات ومبادرات متجددة باستمرار[10]، أي بواسطة الفن، مما يكشف عن ارتباطه

---

1 John HARTMANN : Nietzsche's, use of metaphor,http://www.geocities. com/Athens/1575/nmetaphor.html

2 Angèle-Kremer MARIETTI: Introduction à **LP**., op.cit., p.33

3 Samuel E. STUMPF: Elements of philosophy., 2nd ed. Mc Graw-Hil international. NY.,(w.d.)., p.100 & suiv.

4 NT.,24, p.173

5 Eugen FINK: La philosophie de Nietzsche., trad. de l'allemand par Hans HILDENBRAND et Alex INDENBERG., éd. de Minuit., Paris., 1965., p.21-22

6 idem

7 HARTMANN., op.cit., p.2 جان لاكوست: فلسفة الفن، ترجمة ريم الأمين،عويدات للنشر والطباعة بيروت، 2000، ص، 92–93

8 idem

9 LP,91

10 Eugen FINK., op.cit., p.21-22

بالفلسفة والحياة ويجعل النص المكتوب، مثلا، أثرا لمغامرات تُتَرْجِمُ محاولة شخصية إستثنائية تكتب بدمها[1]، لـــ"تُفَكِّرَ الشكل كمحتوى"، فيضحى بذلك الكلُّ تعبيرا عن ارتباط القيم الأرستقراطية بالتراجيديا[2].

وهكذا وبعدما حاول نيتشه تجاوز اللغة- باعتبارها إرثا يتقاسمه الجميع ويذوب فيه إبداع المتميز، ومظهر العالم المتضمن في مكونات اللغة، وبصفة أخص الكلمات والمفاهيم التي أوجدها الاعتقاد والتخيل السعيد وعمل التبسيط الذي تقوم به الحواس...- ومن ثمة تجاوز المصير، ها هو يعود إليه من جديد، ولكن بلغته الخاصة، مهما كان وَلَعُ الكثيرين به ومنهم مورغان G. Morgan، ويُعَرِّفُهُ على أنه "إبداع ورغبة وإنكار وتجاوز للذات(...) لم يصر، لأنه مصير بلا بداية، ولن يكون صائرا كُلِّيَةً أبدا، لأنّه مصير بلا نهاية"[3]. ومن هنا كانت أهمية الذين يطلقون التسميات لأول مرة les nomeurs لدى نيتشه، باعتبار كل تسمية تجربة جديدة.

لقد سعى نيتشه إلى تقييم التطور البشري بلغة تتجاوز عالمي الظاهر والباطن، اللذين "أرادت الـــ"أنا" أن تضع [تلد] إلهها [فيهما] ثم تضع العالم عند قدميه"[4]، إلهها الذي نجمت عنه أخلاق انحطاط "لا تلتقي بالواقع في أي نقطة من النقاط. إذ لا وجود هنا سوى لأسباب تخيلية("إله"، "نفس"، "حرية اختيار"، وحتى "عبد الاختيار")، سوى **لمفعولات** تخيلية("خطيئة"، "خلاص"، "عناية"، "تكفير"، "غفران الخطايا")، سوى علاقات بين **كائنات** تخيلية ("إله"، "أرواح"، "نفوس")، سوى علم **طبيعة** تخيلي (مركزية البشر في الكون ، غياب تام لمفهوم السبب الطبيعي)، سوى **علم نفس** تخيلي (أُنجز من سوء فهم الذات، من تفسيرات بالصدفة للأحاسيس الممتعة وغير الممتعة، مثلا لحالات **السعادة العصبية** بواسطة لغة رمزية خاصة بالمزاج الديني والأخلاقي ("ندم"، "وخز الضمير" ، "إغراء الشيطان"). يتميز هذا العالم **الخيالي**(...) عن عالم الحلم في كون هذا الأخير **يعكس** الحقيقة، في حين يُزَوِّرُ الأول ويُقَلِّلُ من قيمة الحقيقة وينكرها"[5]؛ ثم إن إيتيمولوجيا اللغة وتاريخها علَّمَانَا إعتبار كافة المفاهيم على أنها **صارت** وكثير منها لا يزال يصير، لدرجة أن المفاهيم الأكثر عمومية، باعتبارها **الأكثر غلطا**، لابد وأن تكون الأقدم. "الكائن"، "الماهية"، "المطلق"، "الهوية"، الـــ"شيء"، لقد إبتدع الفكر دفعة واحدة ومن كل قديم، هذه الأنماط النى تناقض بعمق العالم وهو في صيرورة، ولكنها **تبدو**، في البداية، وكأنها تتوافق معه في الحالة البليدة وغير المتميزة للوعي الناشيء، الذي لا يزال دون مستوى وعي

---

1 APZ., lire et écrire., p.50

2 Guillaume METAYER : Nietzsche et Voltaire : la critique du langage philosophique, http://www.cndp.fr/magphilo 09/nietzsche-Imp.htm

3 P. Chassard., op.cit.,p. 117 & 119

4 VPII,LIV,608

5 Anté., 15

الحيوان"[1]. ولابد أن نيتشه تأثر بعصره وبقراءاته، فقد ذكر هاينريش مان فكرة لمونتانMontaigne، لم يستبعد أن يكون نيتشه قد إطَّلَعَ عليها، يقول فيها: "أن العقول الجيدة لا تجلب للغة أية كلمة بل إنها تُثْري فقط مفرداتها هي؛ تتعلم وتعمق معانيها واستعمالها، تُعلمها حركات غير مألوفة ولكن بحذر وكيفيات بارعة"[2]. كما يمكننا أن نذكر بعض الأفكار التي تعكس روح العصر ومدى تقدم العلوم، مما كان يسهل على نيتشه عملية النقد، لأنّه اكتشف أنها تستند كلها إلى محاولة أصحابها وضع "اقتطاعات" في السيرورة، ومن ثمة خلق أشكال وصور، ومثل ذلك هذين القولين التاليين:

- "نحن لا نعرف بشكل واضح تماما سوى قانونا واحدا، قانون الثبات والإنتظام، هذه هي الفكرة البسيطة التي نريد أن نرد إليها الأخريات، وإنّه فقط في هذا الرد يكمن العلم بالنسبة لنا"[3].

- "كلما زاد إهتمامي بدراسة الظواهر، كلما لاحظت الانتظام والإتفاق في السيرورات النفسية"[4]؛ وهناك أمر ثالث، ويكمن في أن اللغة الألمانية "تُوَفِّرُ فُرَصًا غير محدودة" لمبدع الكلمات المركبة الجديدة كـــ"حقراء الثقافة" Bildungsphilister والحاصلين على أسوأ ما في الصفقة Schlechtweggekommene وغيرها"[5].

نختم بالقول بأنه بنفس القدر من الإندهاش، لعمق الجوانب التي تناولها نيتشه في موضوع اللغة، يجد الباحث نفسه، عقب إنتهائه من قراءة نيتشه، أمام جملة أسئلة جوهرية وشديدة الإرتباط بمنهجه وفلسفته برمتها؛ وتكفي الإشارة المباشرة والمختصرة مثلا للتدليل على ذلك: ففي موضوع اللغة انتهينا إلى ما يمكننا أن نسميه "تطور الذاكرة" واستمرارها كطابع للثقافة الاجتماعية. فبعدما كانت الذاكرة خاصية أصلية ولا علاقة لها بالمخ والأعصاب إلخ، لأن الإنسان يحمل في ذاته ذاكرة كافة الأجيال السابقة[6]، صارت، بعد تحول الإنسان إلى منتج للثقافة، فردية وفق ضوابط اجتماعية- أو لِنَقُلْ، مقتبسين من نيتشه، أنّها تُتِمُّ عن رد فعل يستجيب لضرورات تقتضيها حاجات القطيع- ومن ثمة لم تعد الأجيال قادرة على توريث نسلها تلك "الخاصية الأصلية" [الشكل الأول من الذاكرة]، بل قادرة فقط على تعليمها وتدريبها وتمكينها من الاقتباس والتقليد أو حتى على إرغامها بالإديولوجيا على إتباع ما تراه مفيدا للجميع[7]؛ ففي إحدى فقراته، ذكر نيتشه "أنّ البعض لا يتمكن من أن يصير مُفَكرا لأنّ ذاكرته قوية"[8]، وأنّ "العاقل لا يحتاج بتاتا لأن يخمن كما أنّه لا يملك من التخمين سوى اليسير"[9]. ومن

---

1 VPI,LI,112

2 Heinrich MANN: Nietzsche., Cassel & Co. Ltd.,second edition.,London.,1942., p.190

3 Poinsot : Eléments de statistiques., Paris., 1861., p.232

4 Helmholtz: Optiques physiologiques, trad. par Javal & Klein., éd. Mason et fils., Paris, 1867.,p.1001

5 Heinrich MANN: op.cit., p.10

6 LP., 92

7 العقل والتفكير الواعي أمور بيولوجية لدى نيتشه، أنظر مثلا: Pbm,3 ; GM,11; A, 42

8 OSM., 122

9 LP., 63

هذا تبرز ميزة العاقل وصاحب الذاكرة القوية كدرجة فردية في القدرة على الإستفادة من الماضي. ولما كانت هذه الذاكرة تعيش على اكتشاف التشابه بين الأشياء، أي أنّها ذاكرة تعمل بالصور أو المجازات[1]، فإن التساؤل البديهي الذي يفرض نفسه علينا هو: كيف لنيتشه، الذي لا يرى في اللغة سوى سيرورة مجازات، أن يعترف بالحقيقية التاريخية؟ وماذا عسى الحقيقة التاريخية أن تكونه؟.

يجرنا تناوله لأهم مكونات اللغة إلى معرفة أن "الكلمات دلالات صوتية على المفاهيم، والمفاهيم هي الدلالات المجازية، المحددة تقريبا والتي وضعت للتعبير عن أحاسيس، ومجموعة أحاسيس تنتج بعضها البعض في غالب الأحيان وتصادف بعضها البعض في معظم الأوقات"[2]، ومن ثمة فـــ"الكلمات والأصوات أقواس قزح وجسور وهمية بين الموجودات المنفصلة إلى الأبد"[3]، وأنّ "الحقيقة عدد متحرك من الكتابات والمجازات والأَنْسَنَات؛ وباختصار، جملة علاقات بشرية رُفعت، أُسقطت، زُحزحت بالشعر والخطابة ثم ظهرت وكأنها مبنية، قانونية وملزمة في عيون شعب ما، بعد استعمال طويل: الحقائق أوهام نسينا أنّها كذلك، مجازات أُستعملت وفقدت قوَّتها المحسوسة، نقود فقدت صورتها"[4]. ومن هذا تبرز أسئلة لا تقل أهمية عن الأولى مثل: كيف يمكن للعقل، الذي يسمح لصاحبه بأن يفكر في الوقت نفسه ذاته وتاريخه، الذي ليس سوى مفعولا له[5]، أن يمتلك معيارا يتعرف بواسطته على نفسه، خاصة إذا عرفنا أن كل موجود أضحى في نظر نيتشه، مجرد منظوريات؟ ألا يريد نيتشه أن يعيدنا إلى تاريخ الإغريق القديم، حين كانوا، أكثر من غيرهم من الشعوب، يرون أن أساس فهم الإنسان لنظام العالم هو استعمال خطاب منظم ومفهوم، الخطاب الذي خرجت منه كلمة logos، التي تعني الكلمة المنطوقة والحكمة معا، الخطاب المفهوم ونظام الأشياء أيضا؟[6]. ثم وحتى لو إفترضنا ذلك، ألم ينتج عالم ما بعد سقراط، ذلك؟ أليس العالم "بخير" رغم انتقادات نيتشه اللاذعة له؟

رغم أن نيتشه علَّق على أعلى بابه فقرة تتضمن عبارة: "لم أقلد أحدا"[7]، ورغم أنّه حاول في كثير من المرات صنع لغته الخاصة به[8]، إلاّ أنّ البحث في موضوعي التاريخ والثقافة وربطهما "بلغته" تلك، لا يبدو أنه سيسمح لنا بتجاوز "الرسم المفاهيمي للعالم، الذي صنعته الفلسفة الكلاسيكية"[9]، الذي انتقده نيتشه. لا شك أنّ نيتشه بلغ مداه في هذا، وإنّ المطلع على بعض ما كُتب عنه لَيَفْهَمُ بسرعة

---

1 LP,97 & 144
2 Pbm,268
3 APZ, le convalescent, II., p.311
4 VMSEM., p.212
5 Richard BEARDSWORTH : Nietzsche., Les Belles Lettres.,St-Amand-Montrand.,1997.,p.112 & 113
6 Marie-Françoise BASLEZ : Le péril barbare in La Grèce ancienne., ouvrage collectif., éd du Seuil., Imp. Mame., Tours.,1986., p.285
7 GS, p.1
8 G.Morgan., op.cit., p.258 ; P.Wotling., op.cit., p.194
9 Yirmiyahu YOVEL : Les Juifs selon Hegel et Nietzsche., Seuil.,Imp. Floch à Mayenne.,Paris., 2001., p.188

لماذا انتهى بعضهم إلى القول بأنّ أهم ما جاء به نيتشه إلى الفكر الحديث يكمن في تناوله مشكلة قلب القيم[1].

[1] W. Branger : Pour connaître la pensée de Nietzsche., Bordas., (s.l.)., 1946., p.11

4- **الأنسنة:**

لأن الإنسان "لا يقدر على التفكير سوى في صيغ اللغة"[1]، ولأن عقله لا يشعر بشكله وأثره سوى في الثبات[2]، فإن موضوع الأنسنة l'anthropomorphisme يرتبط على التوالي بسابقه وبفكرة المصير، ليكون بذلك "الوهم والتملق والكذب والتغليط والثرثرة والتباهي وكذا فعل إظهار المرء لحياته بَرَّاقَةً بالمقتبس وارتداء القناع، قناع التعاقد، فعل لعب الدور الكوميدي أمام الغير وأمام الذات، وباختصار، كل سيرك الإطراء الدائم، لأجل حُفنة تفاخُرٍ، الذي يجعل من كل ما سبق قاعدة وقانونا، لدرجة أن لاشيء تقريبا أكثر انفلات من الإدراك من ظهور غريزةَ حقيقةٍ نزيهة وصافية لدى الناس"[3]، قُلْتُ لتكون بذلك كل الأمور السالفة مظاهر للحياة برمتها وحياة الإدراك cognition بصفة خاصة، بما في ذلك الحقيقة نفسها باعتبارها وهما .

– **الانطلاق من الذات:** لأن التبسيط هو العملية الأساسية التي تقوم بها الحواس والذاكرة والتفكير، مثلما سبق شرحه، فإن الاعتقاد والافتراض هما أساس فهم الإنسان للعالم وتفسيره له– لأنه يصدق كل ما يتأتَّى إليه بواسطة حواسه، التي برهن كوبونيك على أخطائها التي لا تغتفر ومنها أن الشمس تتحرك والأرض لا تتحرك[4]– ولذلك صار طابع العالم **كما يبدو** spécieux ، الشكل الأضمن والأصلب، الذي يمكن لعيننا أن تقبض عليه؛ أي أن الإنسان صار، بفعل سذاجته الأخلاقية، يؤمن بيقينات مباشرة certitudes immédiates ويولي قيمة أكبر للحقيقة بدلا من أن يوليها للظاهر فقط[5]. وقد تفطَّن نيتشه لهذا الأمر وهو في ريعان شبابه، مثلما تدل على ذلك عبارة: "يعدك العالم مثلما تُظهر له نفسك"، التي كتبها في سن المراهقة[6]. وقد أكدت له أيضا دراساته الفيلولوجية مدى ارتباط موضوع الأنتروپومورفيزم باللغة، وهي الفكرة التي جاءته من "معلمه" شوپنهاور، لأن الأنتروپومورفيزم ليس شيئا آخر غير التمثل الذي تحدث عنه[7]. وباختصار، فإن تناول موضوع الأنسنة هو توضيح لسيكولوجية الخطأ لدى الإنسان، التي جعلته ينتج مواد بناء، مفاهيم، في غاية الهشاشة: كالأنا والرغبة والسببية والعدد ...الخ، بني بها، خلال تاريخه الذي استعمل فيه لغته، وانطلاقا "مما اعتقد أنه فهمه"[8]، عالمه الذي ظل يتفاخر به إلى الآن، عالم المعرفة الذي نال منه من الإطراء ما لم ينله منه أي موضوع أخر، و"هذه الكبرياء المرتبطة بالمعرفة والإدراك، الضباب الذي يغشى نظر وحواس الناس، تُغلط الناس بشأن قيمة الوجود مادامت تكون مُصَاحَبَةً بالتقدير الأكثر إطراء للمعرفة نفسها. مفعولها الأكثر عمومية هو الوهم

---

1 VP,I,LI,102
2 ibid.,104
3 VMSEM., p.118 ؛ "عيوننا هي التي لا تكف عن الدفاع عن خطأ أن الشمس في حركة" (Cré.id., la raison dans la philosophie,5)
4 Pbm,12
5 Pbm,34
6 **PE**., dernière page.
7 A. Schopenhauer: le monde comme volonté et représentation., idem
8 VP,I,LII,4, modifié

رغم أن عواقبها الأكثر خصوصية تستلزم أيضا شيئا من الطابع نفسه[1]. وهكذا كان تاريخ الفلسفة بِرُمَّتِهِ مثلما بينه خطاب زرادشت:

"تُسَمُّونَ ما يُحمسكم يا أعظم الحكماء: "إرادة حقيقية"،

إرادة **جعل** كل موجود قابلا للتفكير: هكذا أسمي إرادتكم !

تريدون أولا جعــل كل موجود قابلا للتفكير: لأنكم تشكُّون بحذر صائب في أن يكون من الآن قابلا للتفكير، بيد أنه وجب على كل هذا أن يَنْثَنِيَ ويخضع لكم !

هكذا تريد إرادتكم. على هذا أن يضحى أَمْلَسًا وخاضعا للعقل وكأنه إنعكاسه ومرآته(...). تريدون خلق العالم الذي يمكنكم أن تَجْثُوا أمامه: إنه رجاءكم الأخير وآخر سُكْرٍ لكم"[2].

ومثلما رأت ستيغلر عن حق، فإن الفاعل حافظ لدى نيتشه على معناه الكانطي المزدوج: فهو في الآن نفسه تدفق (فاعل تجريبي) وفعل توحيد (فاعل متعالي)[3]، حيث اضطر توازي السيرورات لبعضها البعض- ذلك أن الإنسان في حد ذاته سيرورة ويقف أمام جميع السيرورات التي سماها لاحقا "كائنات"- الإنسان لأن يجد واقعا يتطابق معه، أي واقعا ذا قيمة في نظره، باعتبار أن القيمة هي "**الشرط المسبق** للمعرفة"[4]. ولما كانت القيمة تثبت فقط بالتقدير، الذي كان الوجود يضحى بدونه نواة فارغة، فإن كل تقدير هو تجديد وإبداع وإن كل تغيير هو تبدل للمبدعين ومن ثمة تجاوز[5] وتدمير للمألوف والمعروف وزيادة في إرادة القوة. ولا غرابة في هذا إذا عرفنا مثلا أن الإنسان أدرك هذا، مثلما تدل على ذلك تسميته لنفسه بالإنساني، بالألمانية، التسمية التي اشتقها من الجذع اللاتيني mens (التفكير)[6]. وهكذا فنحن نقف هنا من جديد على الأرضية البيولوجية التي تسبق القيمة على الحقيقة، فكيف تمكن الإنسان من إقحام "ذاتـــ"ــــه في الأمور؟ وكيف اعتبرها حقائق ؟

بدأ الإنسان يشعر بأنه الفاعل sujet حين أخذ يخلق الصور والأشكال ويبني عالمه، أي أنه بدأ يتخيل أن الحالات المتماثلة فيه هي مفعول لجوهر substrat وحيد، متناسيا أنه هو الذي أعطى تلك الحالات هويتها[7]، ومن هذا فخاصية التفكير intellect قوة **خلاقة**[8]، أو لِنَقُلْ بشكل أدق، قوة تزوير كبيرة، تجعل من كل التنوع، الذي يتجلى لها، تماثلا identique[9]؛ ولم يكن ابتداع "الفاعل" يستند لحالة جزافية بل هو"الشرط الحيوي للوجود العضوي، وذلك ما لا يعني أنه "صحيح"[10]، ومن هذا

---

1 VMSEM., p.208
2 APZ.,du surpassement de soi, p.156
3 Barbara STIEGLER : Nietzsche et la biologie., PUF., Paris, 2001., p.20-21
4 VP,II,LII,574
5 APZ, des 1001 buts., p.79
6 idem
7 FP/A 6[349]
8 VP,I,LI,174
9 B. Stiegler., op.cit., p.19
10 VP,I,LII,121

كانت سذاجة الإنسان، **المبالغ فيها**، الذي يعتبر نفسه معنى ومقياسا للأشياء[1]؛ و"لو كان بمقدورنا فهم الذبابة، فإننا كنا سندرك بأنها تطير في الهواء وقد انشغلت بهذا الشغف ذاته وأحست أن محور العالم يطير معها"[2]، كما أن "الكون كله نبات للنبتة"[3]. وهكذا، من درجة شعوره بالحياة والقوة (منطق وانسجام المُعَاشِ)، نَبَعَ مقياس الـ"كائن" والـ"واقع" واللاظاهر non–apparence[4]؛ وبشيء من التعمق، نقول أن "الكائن" مثلا، تعميم لمفهوم "العيش" (التنفس)، كائن فيه حركة" être animé، "الرغبة"، "التصرف"، والعكس هو: "كائن لا حركة فيه" être inanimé ، "لا تصر" ne pa devenir، "لا ترغب". وعليه، فالإنسان لا يضع الكائن في مقابلة مخالفة مع اللاكائن ولا مع الظاهر ولا الميت (لأنه لا وجود لموت سوى لما يمكنه أن يعيش أيضا). وقد قُبلت "الروح" والـ"أنا" **كفعل أولي** ثم أُقحم حيث يوجد **مصير**[5]. وهكذا ظلت الأنا تسعى للتجدد وهي حبلى، تريد أن تضع إلهها ثم تضع العالم عند قدميه[6]. ولا يزال "الإنسان المتحضر يعتقد أنه الحقيقة الوحيدة"[7]، أي أنه ظل يقوم بالعملية ذاتها، مثلما يبين لنا ذلك تاريخ مفهومي "الروح" و"الأنا"، اللذين يُرْجعهما إلى "نفخ" و"حياة"[8]، ومن ثمة فهو حين يستعمل كلمة "تنفس" لِيُدَلِّلَ على كافة الأشياء المختلفة عنه، فإنه يستبدل مجازيا، القناعة بأنه يتنفس هو ويعيش، بالأشياء المختلفة عنه ويتصور وجودها كفعل التنفس عن طريق تشبيهها بنفسه. وهكذا ينمحي المعنى الأصلي للكلمة بسرعة[9]؛ وهذه بالتحديد ما يدعوها معرفة، أي رد كافة الظواهر إلى العالم الذي يعرفه، بمعنى إليه **هو**[10]، لأنه يعتقد أن كل نشاطه لا يكون سوى نتيجة لرغبته vouloir [11]. فـ"حتى الفلكي، الأكثر تحررا من الأفكار المسبقة، لا يمكنه أن يتمثل لنفسه الأرض بدون حياة سوى كقبر منير وعائم للبشرية"[12]، كما أنه يمكننا أن نجد عوالق هذه الطريقة بادية للآن في سلوكات وأقاويل رجال الدين، مثلما يبين هذا النص: "لا تحاكموا بتاتا ! هكذا يقولون، بيد أنهم يوجهون من يقلقهم إلى الجحيم. حين يلجأون إلى الله ليحكم juger ، فإنهم هم الذين يحكمون، حين يمجدون الله فإنهم يمجدون أنفسهم"[13].

– **النظر بالمقلوب** : أشرنا في موضوع اللغة إلى أنه حين تكون الذاكرة قوية فإن صاحبها لا يحتاج إلى الكثير من المفردات، أي إلى تفكير مَلَيٍّ، للتعبير عن حالاته، وفي هذا تكمن طريقة تعامل الإنسان مع الأشياء التي يمكننا أن نسميها "المنهج البصري"،– الذي هو أيضا منهج نيتشه

---

1 VP,II,LIII ,111,B
2 VMSEM,p.207
3 LP,102
4 VP,I,LI,150
5 GM,I,13 ; VP,I,LI,151
6 VP,II,LIV,608
7 NT.,8,p.80
8 VP,I,LI,145
9 Philo.ETG.,11,p.51
10 VP,II,LIII,604
11 VP,I,LI,145
12 FP /HTH 42[17] ; VO,14
13 Anté., 44

نفسه، مثلما سنرى ذلك لاحقا– الذي يمثل قلبه لمقولة ديكارت: "أنا أفكر إذن أنا موجود"، لتصبح "أنا موجود، إذن أنا أفكر" أوضح معالمه. ويمتد هذا المنهج بجذوره إلى تاريخ نشأة فكرة السببية حين جعل الإنسان من إشارة بسيطة مُقَوِّيَةٍ للذاكرة mnémotechnique وصيغة موجزة، كائنا، وفي النهاية سببا كالقول مثلا: البرق "يلمع"؛ وأكثر من ذلك: "أنا"، اقتراح منظورية النظر **كسبب للرؤية**، إنها عملية رائعة ابتدعنا بواسطتها الـ"فاعل" والـ"أنا"[1]، فحتى في حلمه، يرى الإنسان أيضا بالمقلوب: فهو يُدْخل مثلا دوي المدفع في حلمه ليفسره بعدئذ وكأنه يرى فيه أنه عاش الظروف التي سبقت الدوي[2]، أي "أننا نعكس في ظواهرية "العالم الباطني" كرونولوجيا العلة والمعلول. ويكمن الفعل الأساسي "للتجربة الباطنية" في كوننا نتخيل السبب بعدما يحدث الأثر ....، والأمر كذلك بالنسبة لتعاقب الأفكار: فنحن نبحث عن سبب فكرة ما قبل أن تضحى واعية، وهكذا يتوغل أولا السبب في الوعي ليأتي **أثره** بعدئذ"[3]؛ وعليه فمعرفة الإنسان برمتها ليست معرفة في ذاتها بل هي تراكم هائل لنتائج واستنتاجات توصل إليها الإنسان ومددها بواسطة تخيله. فهو الذي خلق قوانين هذا الكون وتطابق معها ثم إعتقد أنه نتيجة لهذا الكون وأن تلك القوانين هي قوانين هذا الكون[4]. "إننا لا نقدر أبدا على استنتاج استحقاق الفرد انطلاقا من إنتاجه"[5]، "فإذا أخفى شخص ما شيئا وراء الأشجار ثم جاء ليبحث عنه هناك بالذات فهو سينتهي إلى العثور عليه، ولا مجال لتمجيد هذا البحث وهذا الاكتشاف"[6]، لأن ذلك يشبه ما أقوم به "حين أُعطي تعريفا لحيوان ثديي وبعد مشاهدة قطيع من الإبل أُعلن: ها هو حيوان ثديي. بالتأكيد فإن حقيقة عرفت بذلك النور، غير أن قيمتها محدودة، أعني من هذا أنها مُؤنسنة من كافة النواحي وأنها لا تتضمن أية نقطة "صحيحة في ذاتها"، واقعية وعامة، بمعزل عن الإنسان. إن من يبحث عن تلك الحقائق لا يبحث في الحقيقة سوى عن تحول العالم في الإنسان"[7]. أي أنه "لا يكتشف التعقد الهائل للكون سوى ببطء شديد. فهو يبدأ بتخيله في غاية البساطة، أي على قدر سطحيته هو"[8]، ومن ثمة فالفيلسوف مثلا لا يشرع في البحث في فهم العالم سوى حين يعي نفسه[9]، وإن تحقيقه لهذا التمثل لهو شعوره بالسيادة على الكون[10] .

– **أسبقية اللاشعور على الشعور:** لأن الوعي لم يتطور سوى تحت ضغط الحاجة إلى التواصل، فإن القوة الحيوية غير الواعية هي مصدر الأنا الواعية، ومن ثمة فبمقدورنا فعلا أن نفكر، نشعر، نرغب، نتذكر؛ بمقدورنا أيضا أن "نتصرف"، بكل ما لهذه الكلمة من معاني، دون أن

---

1 GM,I,13 ; VP,I,LI,100
2 HTH,13
3 VP,I,LII,245
4 Ibid., 114
5 Nietzsche, in Paul Laurent ASSOUN : Freud et Nietzsche., Quadrige/PUF., Paris., 1980.,.284
6 VMSEM., p.214
7 idem
8 VP,I ,LII,13 ; LP.,80
9 VP,II,LIV,603 ; LP,151
10 ibid.,607

يكون لدينا أي وعي بكل هذا، وبمقدور الحياة أن تمضي في سبيلها دون أن تنظر إلى نفسها في مرآة الوعي هذه"[1]. لقد بدأنا "الآن فقط ندرك الحقيقة، حقيقة أن الجزء الأكبر من نشاطنا العقلي يتم بكيفية غير واعية ولا نحس بها"[2]؛ ولا يمثل الجزء الذي يتم بكيفية واعية (شعورية) سوى "الواسطة التي يكشف بها مصدر الوعي عن نفسه"[3]، كما أن "الوعي لا يلازم، في نمو المخ، سوى الأجزاء المتأخرة récentes، أما الأجزاء الأقدم فتعمل بدون هذه المراقبة المنارية fanal"[4]؛ ويكفينا ربط هذا الطرح بالموضوعات السابقة لكي ندلل بوضوح على مدى تحكم اللاشعور في الإنسان، وهي إحدى الأفكار التي سبق فيها نيتشه، فرويد.

– **العالم الذي يعنينا:** استخرج الإنسان مفهومي "حقيقي" réel و"موجود حقا" من مفهوم "ما يعنينا"، الذي يعني مصالحنا، إذ كلما تم مَسُّنَا في مصالحنا كلما آمنا بـــ"حقيقة" شيء أو كائن ما، والقول: "هذا موجود" يعني: "هذا ما يجعلني أشعر بوجودي"[5]، وربما تكون مفاهيم كالسببية والزمان والمكان قد أعطيت مع أول إحساس sensation [6]، أي أن "كل إثارة عصبية تطالبنا بأن نبحث لها عن سبب وأن نتمثله لها"[7]، ليهمس لنا تَمَثُّلَنَا بعدئذ بأن "نفسر المصير كفعل، بفضل ميثولوجيا تصنع كائنا يشبه "أنا" je"[8] وقد "فُسِّرَ الـــ"فاعل" حسب وجهة نظرنا لدرجة أن الـــ أنا أضحت جوهرا وسببا لكل فعل، صارت **مؤلفها**[9]. ولأن تطور الإنسان يتم ببطء، مما يبين أن معرفته آخذة في التطور، وبلغة أخرى أن انعكاس صورة العالم في المرآة آخذ في الصفاء[10]، فإن الإنسان، حين تمثل القوى الأصلية بنفس الكيفية التي تجري بها الأمور في ضميره، فإنه اعتبر **عواقب الميكانيزمات الأكثر تعقيدا**، عواقب المخ، وكأنها عواقب مماثلة للعواقب الأصلية. ولأن هذا الميكانيزم المعقد ينتج المعقول في زمن قصير، فهو يفترض بأن العالم وُجِدَ منذ قليل: ولابد أنه لم يكلف الخالق وقتا كبيرا"[11]؛ وأكثر من ذلك، فقد خلق هذا الكون بنفسه ثم نسي، لدرجة أنه خلق له بعدئذ خالقا[12]؛ كما أوجد الفلاسفة عالمين: "عالم صحيح" و"عالم ظاهر"[13]، وربما كان ذلك إستمرارا "لاعتقاد الإنسان إبان العصور الأولى، ومنذ ألاف السنين، أنه اكتشف **عالما واقعيا ثانيا** من خلال الحلم، الذي نشأت منه الميتافيزيقيا وتَمَّ فيه فصل الروح عن الجسد وبدأ الإعتقاد بوجود

---

1 GS,354
2 FP/HTH 41[15] ; ibid. ,333
3 ibid.,.354
4 FP/HTH 41 [15]
5 VP,II ,LIII,593
6 LP., 80
7 VP,I,LII,245
8 VP,I,LI,153
9 ibid. ,145
10 LP,102
11 LP,8
12 VP,II,LIII,614
13 EH,avant-propos,2,p.94

الآلهة"[1]، ودفع به إلى الإعتقاد بأن السعادة مرتبطة بالحقيقة[2]، مثلما هو الأمر عند المسيحيين الذين يكمن معيار الحقيقة عندهم في "دليل الفعالية"، المبني على الفكرة القائلة بأنه "لما كان الإيمان يُوَلِّدُ الغبطة **فهو بذلك** صحيح"[3]. أي أنه حين وضع الإنسان نفسه القوالب أو التمييزات المصطنعة كالـ"فاعل"، "الـ "موضوع"، الـ"صفة"، التي يسقطها على كافة الأشياء الظاهرة[4]، ثم أخذ يعتقد أن ما يَسْكُبُهُ فيها موجود بذلك الشكل الذي اتخذه وهو في القوالب، ومن ثمة فهو يعود إلى العالم الحقيقي، مما وَلَّدَ الفكرة المسبقة الأخلاقية القائلة بأن "النظام والوضوح والطريقة ترجع إلى الوجود **الحقيقي** للأشياء، في حين أن الفوضى واللانظام واللامتوقع لا تظهر سوى في عالم كاذب أو معروف بالكاد– أي أنه خاطئ. وهنا تكمن الفكرة المسبقة الأخلاقية التي تأتَّت من أن الإنسان النزيه، الذي يستحق أن نثق فيه، إنسان نظام ومبادئ ومتعود على أن يكون إنسانا قابلا لأن يُتَوَقَّعَ وحَذْلَقِيٌ"[5] .

إن "الظاهر" هو الحقيقة الوحيدة للأشياء، الحقيقة التي تليق بها كافة المحمولات الموجودة(...)، والظاهر واقع [حقيقة]، الحقيقة التي تعترضنا كي لا نحول الحقيقي réel إلى "عالم حقيقي" تخيلي؛ وإذا أردنا إعطاء اسم دقيق لهذه الحقيقة فقد يكون "إرادة القوة" لتكون معينة من حقيقتها الداخلية وليس من طبيعتها الـبروتينية الشكل"[6]، وكل ذلك لأنه "لا حياة بإمكانها أن تستمر سوى بفضل التقديرات والمظاهر المرتبطة بمنظورها(...). وإذا أردنا(...) إلغاء "عالم الظاهر" نهائيا، وإذا كنتم قادرين على مثل هذه العملية، فإنه لن يبقى شيئا من "حقيقتـ"ـكم لأنه، أخيرا، لاشيء يرغمنا على افتراض وجود تضاد جذري بين الـ"صحيح" والـ "خاطئ "[7] ؟.

---

1 HTH,5
2 VP,I,LI ,214 ; VP,II,LIII,595
3 Anté.,50
4 VP,I,LI,145
5 VP,II,LI, 166
6 VP,II,LIII,592
7 Pbm, 34

4- الفن والمعرفة:

مثلما لاحظنا ذلك في نقاط سابقة، فإن نيتشه يعود بنا، حين يتناول موضوع الفن، إلى أولى كتاباته وخاصة NT ، والترسانة الهائلة من الأعمال الفيلولوجية التحضيرية لها، و Philo.ETG... ، أين تأخذ فلسفة الفن عنده شكل تعبير عن:

- إبراز أهمية الحياة بصفة عامة والإغريقية بصفة خاصة؛
- نقد العقل والسقراطية وعواقبها، وخاصة التشاؤمية والعدمية؛
- الحديث عن الإرادة والوجود ومحاولة تقديم تفسير جديد يتجلى فيه التميز والبطولة والعبقرية والتجاوز وبلوغ الحالة الديونيزية ....إلخ، لِتَضْحَى بذلك فلسفته "**فلسفة تجريبية**(...) ترغب في بلوغ النقيض الأقصى و**التأكيد الديونيزي للكون كما هو**(...) وتريد الدورة الخالدة: الأشياء ذاتها، المنطق ذاته أو اللامنطق نفسه، الذي تأخذه التسلسلات. حالة أقصى يمكن لفيلسوف أن يبلغها: موقف ديونيزي قبالة الوجود ....أي " محبة القدر" Amor fati"[1]. وهكذا يتخذ الفن شكل مظهر لإرادة قوة مُؤَكِّدَةٍ للحياة بانتصاراتها وانكساراتها، أي أن إرادة القوة تجد تعبيرها في الفن لدى الذي يكون "سيدًا على نَعَمِهِ ولاَئِهِ"، لدى البطل الذي يتجاوز أكبر آلامه وأكبر آماله[2]، لدى "صاحب أنقى إرادة: كل من يريد خلق من يتجاوزه"[3]، لأجل بلوغ الشعور المأساوي للحياة واعتبار الموت جزء منها. وفي ذلك عودة، من قِبَلِ نيتشه، إلى "سبيل الفهم الإغريقي للوجود، الذي يتصور الجميل كنمط للكائن(...)، ليضع ظاهرة الفن في المركز: لأنه فيه وانطلاقا منه نكتشف العالم"[4]. وتدل عبارة: "يقول الفن، هذا المغري الجميل،: تستحق الحياة أن نحياها، بينما يقول العلم أنها تستحق أن نعرفها"[5]، على أن نيتشه وضع الفن في مواجهة العلم ليصيغ، منذ شبابه، موضوعا محوريا في فلسفته ويعرضه كنقد وبديل لجميع "أشكال الكذب كالميتافيزيقا والأخلاق والدين والعلم"[6]، والتي لن يكون هدفها الأخير سوى التخريب[7]، لأن "الوعي آخر مرحلة في تطور المنظومة العضوية ومن ثمة فهو الأقل إكتمالا والأقل قوة في هذه المنظومة(...) ولو لم يكن مكان الغرائز، هذا المكان المحافظ، في غاية القوة مقارَنَةً بالوعي(...) فإن البشرية كانت ستنهار تحت وطأة أحكامها السخيفة(...)، وعيها !"[8]؛ و"لو كانت البشرية تتصرف حقا

---

1 VP,II, LIV,14
2 GS.,268
3 APZ., de l'immaculée connaissance, p.171, traduction modifiée
4 Eugen FINK: La philosophie de Nietzsche., trad. de l'allemand par Hans HILDENBRAND et Alex LINDENBERG..,éd. de Minuit., Paris., 1965., p.21
5 Hcph., p.148
6 VP,II, LIV,8,1
7 LP,124 ; CP,1, p.176
8 GS, 354 ; GS, 11

على ضوء عقلها، أي وفق ما **تعتقده** و**تعرفه**، فإنها كانت ستنقرض منذ وقت طويل"[1]. ألم تنته هذه البشرية بمعرفتها إلى التشاؤمية والعدمية، الناكرتين للحياة؟!

تعيدنا الملاحظة البسيطة للموضوع المحوري، المشار إليه في فلسفة نيتشه، أو النظر إلى الـ"حياة" كظاهرة جمالية[2]، إلى النقطة التي كشف فيها نيتشه عن خطأ الفصل بين العقل والجسد والذي إنْجَرَّ عنه ظهور طريقتين للتفسير:

ـ الأولى، وهي **طريقة** "**الشعب**"، التي تستند أساسا إلى اللغة ومنتجاتها ومنها بصفة أخص موضوع المعرفة، هذا الإفتراض الذي لا موضوع له، الذي بدأ بأفلاطون وانتهى بالعقيدة الأساسية للمسيحية، التي تقول بأن "الله روح"، مما هَدَّدَ كل علم متعلق بالجسد، ومن ثمة بتطوره[3]. وسواء تحدَّثْنَا عن المعرفة بصفة عامة أو عن شكلها الأقل فعالية، أي الحقيقة[4]، فإن الأمر يتعلق دائما بخرافة، إبتدعها الإنسان حين رغب في معرفة **ماهية الأشياء في ذاتها**، متناسيا أن التعرُّفَ هو "الدخول في علاقة مع شيء ما"، أي أنه كيفية في الـ**ـملاحظة، في التدليل، في جعل العلاقات واعية**[5]. إن المعرفة لهي الحكم، بيد أن هذا الأخير هو **إعتقاد** بأن الشيء موجود بهذه الكيفية أو بتلك، ومن ثمة فهو ليس بمعرفة[6]. ثم إن المعرفة لا تفوق الإيمان أهمية حين يتعلق الأمر بخير الإنسان، فحتى أثناء إكتشاف حقيقة ما، في الرياضيات مثلا، فإن المتعة التي نشعر بها ستكون نتيجة لِثِقَتِنَا المطلقة، ومن ثمة فإنه حين يكون لدينا إيمان، فإنه بإمكاننا تجاوز الحقيقة[7]، مادام الذي يقرر في نهاية المطاف هو قيمة ذلك بالنسبة للحياة، و إلا بِمَ نفسر إستمرار عيش نوع من الكائنات الحية بدون الحقيقة، مثلما أشرنا إلى ذلك سلفا ؟ ؛

ـ الثانية وهي **طريقة العدد القليل**، والتي تستند إلى الجسد وترتبط بالإرادة والحياة، وتُنِمُّ عن تفسير أو تقدير يرتبط بالمستقبل، عن رغبة في المزيد من القوة وفي تجاوز الحالة الراهنة. ونيتشه نفسه واحد من هؤلاء، فقد فهم أن المعرفة من صغار المُتَعِ[8]، وأن "المسرَّات البشرية الأرفع والأنبل، تلك التي تحتفي فيها الحياة بتجلِّيها الخاص، ليست ممكنة سوى للرجال الأقل ندرة والأكثر كمالا؛ وحتى هؤلاء فإنهم لن يبلغوها سوى حين يكونون قد عاشوا، هم وأجدادهم، حياة تحضيرية طويلة لهذا الهدف، دون وعي منهم"[9]. وتبعا لما سلف، يظهر مدى إرتباط إرادة القوة ببقية الأفكار الجوهرية في

---

1 VP,I,LII, 262
2 FP/HTH,II 30 [51] ; VP,II,LIV,546 ; NT,5, p.39
3 VP,I,LI, 112
4 GS,110
5 VP,I, LI175
6 ibid.,189
7 VP, II, LIII, 562
8 VP,II,LIII,117
9 VP,II,LIV,557

فلسفة نيتشه، والتي، إنطلاقا منها، يقدم لنا شرحه للظاهرة الفنية التي تعود فيها فكرة العبقري*، مثلما نادى بها الكثير من الفلاسفة من قبله ومنهم كانط، لتظهر في شكل حديث عن السيادة والأصالية والديونيزية ومحبة القدر(الضرورة) *amor fati* ...،إلخ، وهي الأفكار التي يعبر بواسطتها عن الحقيقة والوجود، وفيها "يبلغ الموضوع الجمالي في عينيه مصاف مبدأ أنطولوجي أساسي(...) فقد صَيَّرَ الفن أورغونا للفلسفة واعتبره الدرب الأكثر جدية والأكثر أصالة، الذي يؤدي إلى الفهم الأكثر أصلية"[1].

يشترط نيتشه توفر شرط فيزيولوجي أولي: **النشوة**، كي يضحى الفن ممكنا ويكون هنالك فعل أو تأمل جمالي ما. وأهم شيء في النشوة هو الشعور بازدياد القوة وبلوغ الملء[2]، وذلك ما يذكرنا بإرادة القوة التي يوضح فيها أن درجة الشعور بالحياة والقوة لدينا هي التي تعطينا مقياس الوجود والواقع. وعليه يظهر الفن كـــ"أكبر منشط للحياة وثمالة حياة وإرادة حياة"[3]، وفيه "يستمتع الإنسان برؤية نفسه كاملا"[4]، لأنه "يُكمِّل الوجود ويولِّد الإتقان والملء. الفن في منشإه تأكيدٌ، رحمةٌ، تأليةٌ للوجود (...) ولا وجود لفن متشائم"[5]. كما أنه "لا يقود إلى التشاؤم ولا إلى التفاؤل، بل إلى الشكوكية الفحلة": إنه "يعلمنا محبة الحياة مثلما نحب إمرأة تخوننا، والتي نظل نعترف لها بجمالها رغم خيانتها"[6]. إنها "الظاهرة الأصلية" في الفن الديونيزي، التي يُقنع فيها المأساوي بأنه حتى البشع وغير المنسجم، لعبة جمالية تلعب فيها الإرادة مع ذاتها في الملء الخالد لمسرَّتِهَا[7]؛ وفقط "النفوس البطولية هي التي تؤكد نفسها في القسوة المأساوية: لأنهم في غاية الصلابة التي تسمح لهم بأن **يستمتعوا** بالمعاناة (...). الشيء الذي يعطي **الفنان المأساوي عظمته** هو كون غريزة الجمال عنده تُلِمُّ بالعواقب البعيدة ولا يكتفي، كالأحول، بالوقائع القريبة؛ إنه يؤكد الإقتصاد العام ،للكون، الذي يبرر الأشياء المُخيفة والقبيحة والمُرِيبَة وأكثر من ذلك"[8].

يأخذ أعلى شعور بالقوة والضمان تعبيره في عمل **بأسلوب كبير**- كما هو الأمر لدى المهندس المعماري، لأن الإرادة تستند إلى ذاتها ولا تحتاج إلى أدلة أو شهود- حيث يتجلى أكبر فعل للإرادة، التي تجد نَشْوَتَهَا الأكبر في إرادتها في أن تكون فَنًّا[9]، أي أن"ما يصنع **الأسلوب الكبير** هو سعادة

---

* "الحالة العبقرية للإنسان هي تلك التي يقدر فيها على حب شيء وعلى السخرية منه في آن واحد". (VP,II,LIV,600)

1 Eugen FINK., op. cit., p.21
2 Cré.id., divagation d'un « inactuel »,8
3 VP,II,LIV,460
4 VP,II,LIV,350 ; Cré.id., divagation d'un « inactuel »,9
5 VP,II,LIV,461
6 Sarah KAUFMANN : Nietzsche et la scène philosophique., op. cit., p. 126
7 Mazino MONTINARI : Friedrich NIETZSCHE., traduit de l'italien par Paolo d'IORO et Nathalie FERRANT., PUF., Paris., 2001., p.64
8 VP, II, LIV, 462
9 Cré.id., divagation d'un « inactuel »,11

المرء بسيادته على **سعادته وتعاسته**"[1]، ومن ثمة فإن خلاص الإنسان لا يكمن في **المعرفة** بل في **الإبداع**[2]، لأن"مفعول العمل الفني هو إثارة الحالة التي تنتج الفن، أي الثمالة [النشوة]"[3].

---

1 VP,I,LI, 11
2 LP., 84
3 VP,II,LIV,174

1- الحياة وإرادة القوة: ما أن نبلغ الأساس الذي بني عليه نيتشه فلسفته ونكتشف طابعها كفلسفة للحياة، حتى يصبح من الجائز لنا القول بأن فلسفته لم تتجاوز حدود كونها محصلة لتطور الفلسفة السابقة لها وفاصلة أوجدها النقد الموجه لتاريخ الفلسفة- الذي نجم عن التقدم الهائل الذي شهدته أوربا القرن التاسع عشر في جميع مجالات الحياة والمعرفة وخاصة المعرفة التجريبية - ومن ثمة فإنه كان بمقدور كل فيلولوجي محنك أن يبلغ طريقة نيتشه حتى ولو لم يكن قد إطلع على فلسفته؛ وأعتقد أن إلتقاء فلسفة نيتشه بفكر دوستويــفسكي مثلا، لَتُبَيِّنُ لنا أهمية أعمال نيتشه كإبداع فني وأدبي .

تحت فكرته، القائلة بارتباط الحياة بتأكد الإرادة عبر التقدير، تظهر موضوعات نيتشه الرئيسية: الحياة وإرادة القوة والعودة الأبدية، كثلاث لحظات، تُرجع كل واحدة منها إلى الأخرى ليتخذ الكل إنسجامه[1]، تعكس مدى وفاء نيتشه لأولى كتاباته، فعبارة: "فلنوصي كلنا بتعليم واحد مفاده بأن لا وجود لحياة أفضل من تلك التي لا نقدرها بثمن"[2]، مثلا، تبين أهمية التجربة الفردية كنقد للنظام الذي تضعه الفلسفات السابقة سلفا لبلوغ الـــ"حقيقة"، كنقد لفصل الجسد عن العقل، كنقد لكل دوغمائية، نبعت من ميل الإنسان الشديد إلى التعميم، تحاول خلق وحدة أو تتناول الموضوعات كوحدة، وفي ذلك تجلي لنمط تفكير "القطيع" وذوقه.

تأخذ فلسفة نيتشه طريقها في التجسيد كفلسفة منفصلة عن الفلسفات التي سبقتها، من خلال فكرتها الرئيسية، المشار إليها أعلاه، وهي الفكرة التي تنقلنا إلى الفيزيولوجيا وعلم النفس: "فقد ظل نيتشه يؤمن بأن عالم الرغبة والإرادة والشغف، يعلمنا الحقيقة والحياة بشكل أعمق مما يعلمنا إياه عالم الصفاء المنطقي والعقلانية السقراطية"[3]، ولذلك فإنه "قَصَدَ بفرضية إرادة القوة، قطع المستوى الإفتراضي للتفكير من الأسفل ليقدم لنا، وبمعنى ما، العالم كما هو"[4]. فما هي إرادة القوة؟

يظهر لنا نقد نيتشه للفلسفات السابقة له، كمحاولة لـــ"إعادة ربط الإنسان بطبيعته مثلما تُفهم جسديا"[5]، بعدما أنتج بفرضية الفاعل، معرفة أبعدته كثيرا عن الواقع. فلكي "يقدر المرء على التفكير والاستنتاج، لابد من **افتراض وجود الكائن***.

لا يتوفر المنطق على صيغ سوى لما يظل دائما مطابقا لنفسه، ولذلك فإن الإعتقاد سيكون بدون دليل مقنع عن الواقع: فـــ"الكائن" يدخل ضمن منظورنا. الـــ"أنا" باعتبارها "كائنا" لم يمسه المصير

---

1 Picard CLAUDE : La pensée du retour éternel dans la philosophie de Nietzsche (MA thesis, Université Laval,1990)., National library of Canada., résumé, p.1

2 UIHV, 2, p.105

3 Geneviève BIANQUIS : Préface à la traduction de **NT**., éd. Gallimard., Dijon., 1949, p.2

4 G.M. Morgan., op.cit., p. 260

5 Biswas MELLAMPHY NANDITA : Nietzsche's philosopher of the future : eternal return as bodily experience (PhD thesis)., University of Toronto., 2004., résumé, p.1

* ومن ذلك كانت فكرة الشيء في ذاته.

والتطور"[1]، ومثل ذلك، ابتداع "نظرية الإرادة أساسا لغاية العقاب، بمعنى من "رغبة في إيجاد المتهم". كل علم النفس القديم، علم نفس الإرادة، نشأ من رغبة الكهان، الذين كانوا على رأس المجتمعات القديمة، في منح أنفسهم **حق** تسليط العقوبات أو إعطاء الله مثل ذلك الحق(...) ومن ثمة **كان من اللازم جدا** أن يُتصوّر كل تصرف على أنه مراد وأن أصل كل تصرف جرى تصوره على أنه يكمن في الوعي"[2]؛ وهكذا صار "العالم يبدو لنا منطقيا لأننا بدأنا **بجعله** منطقيا"[3]، ولو لم نجعل من الطبيعة كوميديا لما آمننا بالله[4]. و"إجمالا، من المشكوك فيه أن يقدر الــ "فاعل" على إثبات نفسه لنفسه: لابد له من أرضية خارجةُ ليستند إليها، وهذا السند هو ما نفتقر إليه"[5]. وعبر هذا النقد ينقلنا نيتشه إلى أرضية كل تفسير عنده، ويبين لنا أن "كل من **المعرفة** و**المصير** يستبعد أحداهما الآخر"[6]، ويتساءل عما سنربحه إذا قمنا بشيء لإرضاء العالم دون إرضاء أنفسنا؟[7]، وعن جدوى الحقيقة إذا لم نعتبر الحياة كشيء طيب تجب المحافظة عليه، لأنه حينها ستفقد جميع تطلعاتنا معناها (مصلحتها) ؟[8] ألا يكمن أهم هدف لدى البشرية في قياس قيمة الحياة؟ ألا تنتظر ظهور أعلى ذكاء، لأنه وحده قادر على التحديد النهائي لقيمة أو عدم قيمة الحياة ؟[9] وهذه أسئلة تعيدنا إلى أولى كتاباته وتؤكد على الحياة وعلى الطابع الحيوي لفلسفته. فبشأن السؤال الأخير مثلا، تحدث عن أنه يُقدر "فيلسوفا ما، حين يكون في الحالة التي يجعل فيها من نفسه مثالا (...)، وعلى المثال أن يكون معطى بالحياة المعاشة وليس فقط بالكتب"[10]، وأيضا عن أن "مهمة البشرية تكمن في أن تظل تعمل باستمرار على إنتاج عظماء الناس(...) وليس جمهورا من النظراء"[11]؛ وهكذا إلى أن ينتهي إلى قوله: "توصلت إلى أنه لابد لأكبر جزء في التفكير الواعي وأن يُنسب إلى النشاطات الغريزية، حتى ولو تعلق الأمر بالتفكير الفلسفي(...). في جزئه الأهم، فإن التفكير الواعي لفيلسوف ما، هو تفكير تقوده، بكيفية سرية، غرائز وتجره بقوة في سُبُلٍ محددة. وخلف كل منطق وكل حرية حركته، تقف تقديرات أو، بلغة واضحة، مطالب فيزيولوجية تهدف إلى حفظ نمط حياة معين"[12]، أي أن العقل الواعي l'esprit–intellect–conscient صار **وسيلة** الجسد المُفسِّر **غير الواعي**"[13]، وذلك ما جعل نيتشه يتحدث عن علم النفس كمورفولوجيا و**نظرية عامة لإرادة القوة**[14].

---

1 VP, I, LI ,138
2 Cré.id., l'erreur du libre arbitre, 7
3 VP, I, LI, 135
4 FP/HTH ,II,(1878-79) 27[40] , traduction modifiée
5 VP,I,LI,141
6 VP,I,LI,138
7 FP /HTH, II, 37 [1]
8 ibid., 29 [7]
9 FP/HTH 20[12] , traduction modifiée
10 SE, 3
11 Ibid., 6
12 Pbm,3 ; ibid., 5
13 A, 109 ; Eric BLONDEL : Nietzsche, le corps et la culture., PUF., Paris., 1986., p.282
14 Pbm, 23

يعترف نيتشه بأن "الإرادة أمر **معقد** وأن وحدتها شفوية verbale بحتة"، لأنه يتحدث عن الإنسان كَمَكْمَنٍ لشتى الغرائز* – الغرائز التي تعني خاصيَّات في معظم الأحيان[1] – كغرائز الفيلسوف مثلا، والتي منها: الشك، الإنكار، الترقب، التحليل، الغريزة المغامرة في البحث والخبرة عنده، حاجته إلى المقارنة والتعويض، حاجته إلى الحياد والموضوعية، رغبته في كل شيء "دون عناء أو غضب"[2].

ولأنه يتحدث أيضا عن الإنسان كتعددية، فإنه ذكر أنه "كان من الضروري أن يموت مئات الناس قبل أن تتعلم هذه الغرائز العيش مع بعضها البعض وتشعر بأنها مجتمعة، بمثابة وظائف لقوة عضوية واحدة، في إنسان واحد!"[3]، كما قد قدم لنا نيتشه عدة أمثلة عملية عن تعدد الغرائز، كذلك الذي نجده في **A,119** أو ذلك الذي شرح فيه فعل الإرادة، والذي قال عنه أنه "يتضمن جملة مشاعر: شعور الحالة الأصلية، شعور الحالة النهائية، شعور الحركة نفسها التي تؤدي من هذا إلى ذاك(...). يجب اعتبار جملة مشاعر كمكونات للإرادة، بيد أن الفكر، وفي درجة ثانية، يدخل ضمن ذلك أيضا، لأن كل فعل إرادة يخفي فكرا يقوده ولا يجب علينا أن نعتقد أنه بمقدورنا فصل هذا الفكر عن الرغبة vouloir، لأن الإرادة ستنهار مباشرة بعد ذلك"[4]. وهكذا تظهر "الذات [الأنا] البشرية كجملة رغبات وانفعالات وغرائز، ولا وجود لملكة عقلية منفصلة تُعلِّم الحقيقة بهدوء: فالتفكير تلاعبٌ بين الشغفات، ولكل شغف فكرته المسبقة ومنظوره الخاص به الذي يحاول بسط سيطرته"[5]؛ وذلك ما يدل مثلا أنه في الوقت الذي نعتقد فيه أننا نشكو من عنف غريزة ما، فإن الأمر يتعلق في العمق بغريزة تشتكي من غريزة أخرى، لأن خاصية التفكير عندنا notre intellect تضحى وسيلة عمياء في يد **غريزة أخرى**، هي خصم الغريزة العنيفة التي تعذبنا[6].

ومن خلال ما سبق، نفهم أن الحياة، ومن ثمة الجسد، أي الغرائز أو دوافع النشاط البشري بكافة أشكالها، هي محور فلسفة نيتشه، وليس جعل الفلسفة علما مثلما أشار إلى ذلك في قوله:

---

* "غرائزنا قابلة لأن تُرَدَّ إلى إرادة القوة" (VP, I, LII, 19)

1 Patrick WOTLING: Le vocabulaire de Nietzsche., éd. Ellipses., Paris., 2001., p. 33-34

2 GS,113 ; GM,III

3 GS, 113

4 pbm,19 ؛"لم تطلق" actionner الحركات بواسطة "سبب" من الأسباب(لأن هذا ما يُعد عودة إلى مفهوم الروح القديم)؛ إنها الإرادة في **حد ذاتها** ولكنها ليست لا كاملة ولا خالصة" (VP, I, III, 385).
"قال لي بنفسه أن فكرة إرادة القوة جاءته في خضم الحرب الفرنسية البروسية، في أوت 1870، حين رأى، و هو يعمل في الإسعاف، فرقا من جيشنا الجرماني الرائعة، وهي تسرع بالقرب منه، جاهزة لمواجهة الحرب والموت، مجيدة في اعتزازها بالحياة، بشجاعتها في النزاع، معبرة بشكل تام عن عرق وجب عليه أن ينتصر أو أن يندحر. حينئذ شعر لأول مرة بكيفية حية للغاية، بأن أقوى إرادة في الحياة وأعلاها قد تجلّت، ليس في تفاهة الصراع من أجل الوجود، بل في إرادة الصراع، في إرادة القوة والسيادة". Frau Förster Nietzsche:The lonely Nietzsche., translated by Paul V. Cohn., London William Heinemann., 1915., Chap. XXIII

5 G.M. Morgan., op.cit., p.261

6 A,109

"على الفلسفة في ألمانيا أن تقلع عن أن تكون "علما خالصا"[1]. ولما كانت الحياة تعني حياة جميع أنواع الكائنات الحية، فإن قيمة الحياة هي التي تُعرض نفسها علينا، بحيث يقدمها لنا نيتشه على أنها إرادة القوة، أو أن هذه الأخيرة هي مبدأ كل حياة[2]. وتبين لنا عبارة: "عموما، أن يعيش المرء هو أن يكون في خطر"[3]، طابع الصراع في الحياة. وبلغة أخرى: أهمية نوع حياة كل فرد في كل تفسير عنده، حيث تظهر الحياة عموما كـــ"نمو، ديمومة، تراكم قوى، عظمة: وحيث تغيب إرادة القوة فهناك أفول"[4] .

– **ارتباط الحياة بإرادة القوة:** تعود فكرة إرادة القوة (WZM) إلى منتصف سبعينات القرن التاسع عشر رغم أن نيتشه تحدث عن مضمونها قبل ذلك في كثير من المرات*. وتعني الإرادة التي تجنح دائما نحو العظمة مثلما تدل على ذلك الأداة Zur (نحو)[5]. وقد هدف نيتشه، من وراء اقتراحها، إلى تقديم وسيلة لعرض المصير الظاهر، التجربة الفريدة التي يغيب فيها الفاعل...الخ[6]، بالكيفية التي تجعل من إرادة القوة والفيزيولوجيا ينتميان معا، وكمرادفين، لواقع واحد[7]، وكذا من أعماله فكرا "ينتظم فعلا حول ثلاث لحظات محددة هي: حياة، إرادة القوة، العودة الأبدية؛ ترجع كل واحدة منها إلى الأخرى ليتخذ الكل انسجامه"[8].

- **إرادة القوة كزيادة:** رغم أنه أخذ فكرة الإرادة عن شوبنهاور، وهي الفكرة ذاتها التي كرّستها الداروينية بطرحها لقانون البقاء، مما جعله "يكتشف قوة الحياة غير التاريخية"[9]. إلا أن نيتشه قدم لنا نظرية تُنم عن فلسفة نسقية، تمد بجذورها إلى الميتافيزيقيا، نستشفها من الكثير من أقواله كـــ:"أتريدون إسما لهذا الكون، حلاً لجميع هذه الألغاز؟ (...)، **هذا العالم هو عالم إرادة القوة ولا شيء آخر**؛ وأنتم أيضا لستم شيئا آخر بغير إرادة القوة"[10]؛ وذلك ما يؤكده زرادشت بقوله : "إقتفيتُ آثار كل حي خطوة بخطوة، وسِرتُ في مسالكه الأكبر الأصغر كي أعرف ما الذي يميزها (...). حيث عثرت على الحي، فهناك أجد إرادة القوة، وحتى في إرادة الخادم، لَمِستُ إرادة التحول إلى سيد"[11].

---

1 CI,III,SE,5, p.53

2 GS,349 ; Pbm,259 ; CW., épilogue., p.53؛ "إرادة القوة هي الفعل الأخير الذي يمكننا أن ننزل إليه، ذهننا وسيلة" (VP,I,LI,19)

3 CI,III,SE, 5

4 Anté.,6

* مثال: "وفي العمق، تتفجر إرادة متهورة وتظهر وكأنها تبحث عن كافة المنافذ وعبر كافة الكهوف والأعناق عن التفجر في وُضْح النهار." (RWB,2) ؛ أنظر أيضا: 78-1876 [63] FP/HTH 23

5 Vladimir BIAGGI., op. cit., p.64

6 Eric BLONDEL., op. cit., p.72

7 Rehberg ANDREA : "The overcoming of physiology"., The Journal of Nietzsche Studies., Issue 23., Spring 2002

8 Picard Claude., op. cit., p.1

9 Michel HAAR : Nietzsche et la métaphysique., Collection Tel., Gallimard., Paris., 1993., p.71

10 VP,I,LII,51

11 APZ., du surpassement de soi, p.157–158

تُفهم إرادة القوة على ضوء القيمة، باعتبارها "الكمية الأكبر من القوة التي يقدر الإنسان، وليس البشرية لكونها وسيلة أكثر مما هي هدف، على تجسيدها"[1]. ولما كانت القيمة كامنة في الحياة، بل إنها "ليست شيئا آخر بغير الحياة، أي أنها علاقة بالحياة أو شكل آخر للحياة وداخل فيها"[2]، فإن "العيش vivre بالتحديد هو رغبة المرء في أن يكون شيئا آخر غير الطبيعة، أي أن الحياة تكمن في الحكم juger، الظلم، الحد، الرغبة في الإختلاف"[3]، وذلك ما يعني أننا "لا نصادف في الحياة سوى إرادات **قوية** وإرادات **ضعيفة**"[4]، لا نصادف فيها سوى صراعا قاسيا بين تلك الإرادات بالكيفية التي تجعل من القسوة ضرورة لنمو إرادة القوة[5]، مما يجعل من فعل الحياة: "الإبعاد المستمر عن الذات لما وَشَكَ على الموت. أن نحيا ؟ ... أن يكون المرء قاسيا، أن يكون غير مشفق حيال كل ما يشيخ ويضعف فينا وحتى خارجنا .

أن نحيا ؟ هو إذن أن نرحم الآيلين إلى الموت والشيوخ والبؤساء ؟ إنه القتل المستمر"[6]؛ "إنه تجريد الغير، تجريح وهيمنة على كل غريبٍ وأضعفٍ، إضطهاده، فرض شكله عليه بالقوة، إحتواؤه واستغلاله على الأقل وفي أفضل الأحوال"[7]. و بهذا المعنى فإن شكلا معينا من الحياة هو الذي يضفي قيمة ما، أو العكس، على ما يخدمه أو لا يخدمه، لأنه إذا تساءلنا مثلا بشأن ما تعنيه أحكامنا القيمة، بشأن لمن تؤول مصلحة هيمنتها ؟ فإن الجواب يكون: لمصلحة الحياة[8]. وطبعا الجهة المُفَسِّرَة هي شغفاتنا*، أما التفسير في حد ذاته فهو عرض لحالات فيزيولوجية محددة ولمستوى فكري محدد بالأحكام السائدة[9]، ومثال ذلك أن "المنظوريات في حد ذاتها تشكلت من تواترات في حاجات القوة"[10]، وأن الفلسفة غريزة طاغية وإرادة قوة في شكلها الأكثر روحانية، طموحٌ لــ"خلق العالم"، لوضع السبب الأول"[11] .

إن إرادة القوة هي "الشكل العاطفي البدائي الذي تطورت منه بقية المشاعر"[12]، "وليس **صحيحا** أن الإنسان يبحث عن اللذة ويتفادى الألم(...)، لأن ما يريده الإنسان، ما يريده أصغر جُزَيء في تَعَضّي حيٍّ، هو **زيادة القوة**(...). الألم، الذي هو معوق لإرادته للقوة، أمر عادي، مقدار عادي لكل

---

1 VP,II,LIII,442؛ "ما هي كمية الحقيقة التي يعرف عقل ما كيف يتحملها، يعرف **المخاطرة** بها ؟ ذلك ما أخذ تدريجيا يتحول لديّ إلى معيار حقيقي للقيم."(EH avant-propos., 3)

2 Yvon QUINIOU., op. cit., p.199

3 Pbm,9., traduction modifiée

4 Pbm, 21

5 Anté.,7 ; GS,26 ; Pbm,44

6 GS,26

7 Pbm,259

8 VP,I,LII,146

* "حاجاتنا هي **التي تفسر الكون** (...) كل غريزة هي نوع من الطموح إلى الهيمنة، ولكل واحدة فيها منظوريتها الخاصة بها والتي تحاول أن تفرضها كمقياس لبقية الغرائز الأخرى". (VP,I,LII,133)

9 Idem

10 VP,I,LII,133 ; Morgan., op.cit., 260

11 Pbm, 9

12 VP,LII, 42

ظاهرة عضوية. كما أن الإنسان لا يبحث عن كيفية تفاديه، بل هو في حاجة إليه باستمرار. كل نصر، كل إحساس باللذة، كل ظاهرة تفترض مقاومة جرى الإنتصار عليها"[1]. وهكذا فإن "إرضاء الإرادة ليس بسبب اللذة بل إنه أمر كون الإرادة تريد أن تتقدم وتصبح سيدة على كل ما تصادفه أمامها. كما أن الشعور باللذة يكمن بالتحديد في أن تبقى الإرادة بغير إرضاء [متعطشة]، في أن لا تتمكن من إرضاء نفسها إن لم يلاقيها لا خصم ولا مقاومة"[2]، ومن ثمة فإنه "ليست القوة، بل ثبات الإحساس المتفوق هو الذي يجعل الإنسان [مثلا] متفوقا"[3].

حين نعود إلى أخلاق السادة وتمجيد نيتشه للطائفة الأرستقراطية لنربطها بموضوع إرادة القوة، فإننا نجد فلسفة نيتشه قد جاءت كدعوة لعيش الإنسان لملء حياته، بمعزل عن الأخلاق، ليظهر بذلك "نيتشه كمدافع قوي عما يمكننا أن نسميه "الفرد الوجودي" l'individu existentiel ضد الفرد "الذي يصنع نفسه" والذي يجعل نفسه متميزا عن طريق اكتشاف مواهبه الخاصة وتنميتها"[4]، وفي هذا يظهر التميز والاختلاف كمعنى لنوعية الحياة التي يريدها الإنسان، وفي الوقت ذاته كتعبير عن طابع الصيرورة في كل شيء وكتجاوز، من قبل نيتشه، لكلٍّ من شوبنهاور وداروين. ففي معرض نقده لمفهومي "رغبة العيش" vouloir–vivre وإرادة البقاء، اقترح نيتشه قوة حيوية شاملة (يجب التفكير فيها، وفي الآن نفسه، على أنها تقع خارج الأشياء وفوق الأشياء وفي الأشياء !)[5]– تشبه الشيء في ذاته وتذكرنا بعبارة، كتبها في شبابه: "وحدها الإرادة لا تفنى"[6]، مما يضفي على مفهوم إرادة القوة بُعدا أنطولوجيا – وقال: "لكي نحصل بذلك على قوى حيوية فردية، لأنه ما دام الإنسان غير موجود، فإن قوّته الحيوية الفردية غير موجودة أيضا وإلا ماذا عساها تكونه ؟ إنها ليست شيئا آخر بغير إرادة البقاء في الحياة، بغير غريزة الحفظ، فهل هذا صحيح ؟ [7]

الإجابة هي أن "ما هو موجود لا يمكنه أن يرغب في الوجود(...) ومن ثمة فلا وجود لإرادة للوجود. يجب القول: إرادةُ وجودٍ أطول، أعلى أو مختلفة، لأن الإرادة هي تمثُّل شيء نُضفي عليه

---

1 VP,LII, 390

2 ibid.,38

3 Pbm, 73

4 Solomon ROBERT C. : Nietzsche on fatalism and "free will"., The Journal of Nietzschean Studies, Issue 3, Spring 2002 ; Juric Tanja MIRJANA : the aesthetics of ethical subjectivity : ethics and aesthetics in the work of I. Kant, F. Nietzsche and TH. Adorno (PhD thesis, University of Toronto, 2005)., Library and archives, Canada., 2006 ., résumé, p.1

5 FP/HTH23 [12]

6 LP,19 ؛ "إرادة خالدة" تريد"، عبارة ذكرها نيتشه في:APZ., avant le levé du soleil, p.231

رغم أن نيتشه لا يفصل بين العالمين الظاهري والباطني، وذلك ما يجعل من الظاهر والواقع والجوهر شيئا واحدا، إلا أن عرضه لفكرة العودة الأبدية يدفعنا إلى التساؤل عما إذا لم يكن نيتشه قد فكر في "وجود قالبي" لجميع الموجودات، وإلا فما الذي سيخضعه الإنسان المتفوق لإرادته ؟

7 FP/HTH 23 [12]

قيمة ما"[1]، و بالتالي"على الفيزيولوجيين أن يفكروا مليًّا قبل أن يقرروا بأن غريزة الحفظ تشكل الغريزة الرئيسية لدى كل كائن عضوي. إن ما يريده كل كائن حي هو **بسط** قُوَّتِه. إن الحياة نفسها هي إرادة القوة، كما أن غريزة الحفظ ليست سوى إحدى نتائجها غير المباشرة الأكثر وقوعا"[2]. "إن إرادة البقاء هي تعبير عن حالة ضيق، عن حَدٍّ لغريزة الحياة الأساسية الحقيقية، التي تجنح نحو توسيع للقوة(...)، لأنه في الطبيعة لا **يسود** الضيق بل الوفرة وحتى التبذير إلى حد الجنون. إن الصراع من أجل البقاء ليس سوى **استثناءً**، حدًّا مؤقتا لإرادة القوة"[3]، وأكثر من ذلك، فإنه "ليس صحيحا أننا نرغب في الوجود بأي ثمن، لأننا لا نرغب في وجود حيواني مثلا، مثلما يفعل شوبنهاور لكي يُدَلِّلَ على الطابع العام لفكرته"[4]. "لنوضح المسألة جيدا ونضع "قوة" مكان "سعادة" فردية **(**وجب على كل حي أن يسعى من أجلها**)**: "إنه يَكِدُّ من أجل **القوة**، من أجل الإستزادة في القوة"؛ ليست المتعة سوى عَرَضًا للشعور بالقوة المكتسبة، الوعي باختلاف **(**لا يبحث الحي عن المتعة، إلا أن المتعة تظهر حين يبلغ هدف مجهوده؛ إن المتعة لَتُرافق الفعل ولا تثيره**)**[5]، ومثال ذلك نجده في نقد نيتشه للإشتراكية من خلال قوله: "هؤلاء المالكين يؤمنون كنفس واحدة بهذه الحقيقة الوحيدة القائلة: إذا لم نملك شيئا فنحن لاشيء. بيد أنه في هذا تكمن أقدم غريزة، الغريزة الأكثر سلامة. أُضيف بأنه من اللازم إبتغاء أكثر مما لدينا كي نَضْحَى أكثر مما نحن. إنها العقيدة ذاتها التي تدعو إليها الحياة، عقيدة التطور. الحيازة تريد المزيد من الحيازة، **النمو** في كلمة واحدة، إنها الحياة في حد ذاتها"[6].

– **الحياة كـــعودة أبدية :** كثيرة هي المفاهيم التي تتلاقى عند فكرة العودة الأبدية، والتي تجد رمزيتها في جملة بسيطة في زرادشت: "كل مسرة تريد الخلود"[7]. فالبشرية، التي قلنا عنها أنها تسير عن غير وعي نحو ظهور الإنسان المتفوق، تكون بظهور الإنسان المتفوق، وفي الآن ذاته، قد بلغت ذروتها وظهيرتها*، ومن ثمة تكون إرادة القوة قد بلغت حدًّا لن تعد تريد فيه غير ذاتها[8]، مثلما تدل على ذلك عبارة: "الظاهر بالنسبة إليّ هو الحياة والفعل في حد ذاته"[9]، التي حين نربطها بـــإرادة القوة، فإنها تدل على أنه لا وجود لأي قانون ولا لأي جوهر، بل إنها تطرح فكرة وحدة

---

1 FP/A 3[91]
2 Pbm,13
3 GS,349
4 FP/HTH 23 [12]
5 VP,I,LII,42
6 VP,I,LI,439
7 APZ., l'autre chant de danse ,3, p.327
* الظهيرة هي اللحظة التي يكون فيها الظل قد بلغ أقصر مدى له، وذلك ما يعني نهاية أطول خطأ عاشته * البشرية؛وكذا بلوغ هذه الأخيرة ذروتها" (Cré.id., comment, pour finir, le « monde vrai » devient fable, p.31)
8 Hans-Georg GADAMER : NIETZSCHE, l'antipode, le drame de Zarathoustra., trad. de l'allem. par : Christophe DAVID., éd. Allia., Paris., 2000., p.16
9 GS,54

قوى الحياة ومحدوديتها وتجعل صيرورة الكون بلا غاية[1]، وذلك ما يجعل إرادة القوة تدل، حين نكون قد "تخلَّصنا من العالم الحقيقي، ومن ثمة نكون قد تخلَّصنا أيضا من عالم الباديات"[2]، "على فجائية كل حياة"[3]. وإذا عدنا إلى فكرة نسبية "الحقائق" لدى نيتشه– مثلما يؤكد ذلك بطريقته وبلغته، وعبارة "قوي" و"ضعيف" مفهومان نسبيان"[4] كمثال على ذلك– حيث تكمن ضرورة كافة الأشياء وكذا استمرارية ميلاد التفسيرات الجديدة، فإننا نلاحظ أنه لما كان كل تفسير يتحدد بالقوة المُفَسِّرَة، التي إنتهت إليه، فإن كل قوة مفسرة ستضحى بذلك تجربة جديدة، وذلك ما دفع بكارل لوفيث إلى اعتبار إرادة القوة كمحاولة لتفسير جديد للعالم[5]، أو مثلما قال نيتشه، بلوغ "التمثل الدقيق لطبيعة وحدتنا المثالية"[6]، لأن "كل حياة **عضوية** تفترض وجود خاصية التمثل"[7].

يحذرنا نيتشه في الكثير من الفقرات، كـ: **FP/GS 11[158] ; FP/GS 11[157] ; GS,109** مثلا، من اعتبار العالم ككائن حي أو كآلة أو إضفاء معاني أخلاقية عليه، أو إضفاء هدف له .... إلخ، ثم يقدم لنا العالم كما يراه هو، حيث ينتهي إلى أنه إرادة قوة وعودة أبدية: "هذا العالم قوة هائلة بلا بداية ولا نهاية، كَمٌّ ثابت من القوة، صلب كالبرونز، لا يزداد ولا ينقص، لا يتآكل ولكنه يتحول، رغم أن حجمه ثابت،(...) هو حبيس الـــ"عدم" الذي هو حَدُّهُ، بلا أي شيء عائم ولا تبذير، أو أي شيء ممتد إلى مالا نهاية له ولكنه مغطى كقوة محددة في مجال محدد(...) قوة حاضرة في كل مكان، واحدة ومتعددة كلعبة قوى وموجات قوة، تتراكم عند نقطة ما حين تتناقص عند أخرى، بحر من القوى الهوجاء المتدفقة باستمرار، في تحول أبدي وفي عودة منتظمة مرة كل سنة هائلة، مد وجزر لأشكاله، من أبسطها الى أكثرها تعقيدا، من أهدئها، من أثبتها، من أبردها، إلى أضرمها، إلى أعنفها، إلى أكثرها تناقضا، لتعود بعدئذ من تعدديتها إلى بساطتها، من لعبة المفارقات إلى الحاجة إلى الإنسجام، مؤكدة بذلك وجودها في انتظام الدورات والسنوات هذا، ممجدة نفسها في قداسة كل ما وجب عليه أن يعود أبدا كمصير لا يعرف إشباعا ولا قرفا ولا تعبا. هذا هو عالمي الديونيزي الذي يخلق نفسه بنفسه ويدمرها بنفسه وباستمرار، عالم الشهوات المزدوجة هذا، هو ذا "ما وراء [ي] خير وشر"، الذي لا هدف له، إلا إذا كانت سعادة إتمام الدورة هي الهدف، لا رغبة له، إلا إذا كانت لِحَلَقَةٍ ما النية في اللَّف حول نفسها باستمرار وفقط حول

---

[1] FP/ GS 11 [157] فكرة قال بها أيضا هارتمان Hartmann (Paolo d'IORO : L'éternel retour, genèse et interprétation, art. internet disparu du Web)

[2] Cré. id., comment, pour finir, le « monde vrai » devient fable, p.31

[3] Karl LOWITH : Nietzsche et sa tentative de récupération du monde., op.cit., p.58

[4] GS,118

[5] Idem؛ توقع نيتشه أن يُنظر إلى فكرته على أنها تفسير ولكنه لم يعط البديل واكتفى بالقول: " لنفترض أن هذا أيضا ليس سوى تفسيرا، أليس بالضبط ما تتهيأون للإجابة به عنى؟ – طيب ، أحسن ...."(Pbm,22)

[6] VP,I,LII,230

[7] ibid.,118

ذاتها وفي محورها(...). هذا العالم هو عالم إرادة القوة ولا شيء آخر"[1]، وهذا هو "قانون الحياة، قانون "انتصار على الذات" محتوم في منشأ الحياة، الذي يقضي بأن تنهار كافة الأشياء العظيمة من تلقاء نفسها بواسطة فعل "الإلغاء الذاتي"[2].

استطاع نيتشه، بطرحه فكرة إرادة القوة، من أن يجعل من الحياة مصيرا[3]؛ وبإخضاعه إياها إلى عنصري الزمان والمكان، من أن يثير من جديد أسئلة خطرة: فالجسد السليم مثلا، كَمُعْطَى لاأدري ومنطلق يُنِمُّ عن قدر من الكفاءة والحرية، من القوة أو إرادة القوة، لن تكون منظوراته سوى انعكاسا لإرادة قوَّته ولن تكون حياته سوى إنتقالا للحياة من شكل إلى آخر، مختلف، بحيث تضحى قد تجاوزت عوائق إعترضتها وبسطت هيمنتها، خدمة لــ "مصلحة حيوية"، أو تحقيقا للإختلاف والزيادة، وهذه هي "إرادة الحياة"[4]– أو "إرادة الإرادة وحلقة العودة المتضمنة لجميع الإرادات وجميع الإختيارات"[5]، التي يقضي شرحها إفتراض وجود ميزة ما في الآتي، وجود " إفتراض فعَّال" fiction efficace[6]، وفي ذلك يظهر طابع التعميم، حتى ولو كان محتواه مصيرا، ومن جهة أخرى تبرز النظرة الغائية، لأن قيمة التميز والإختلاف تكمن في ما هو آتٍ حتى ولو كان تدميرا أو إنتحارا، مادامت إرادة القوة في حاجة مستمرة إلى المقاومة والخصوم .

إن نيتشه، الذي يجمع بين الفاعل والموضوع في شكل مؤقت من الحياة وهي صائرة، قد حاول الحديث عن "واقع" بغير تمثُّل، وهو ما تسمح فقط اللغة بالتعبير عنه، لأن "إرادة الإرادة" لن تكون في نهاية المطاف سوى ضربا من الوهم[7]. فهل من "المعقول" قول ما ليس تمثلا، ما ليس معرفة ولا خطأ" ؟[8]، ألم يؤكد نيتشه على أن "كل لغة هي ميتافيزيقيا في مبدئها" ؟[9] كيف لنا أن ندرك أن إرادة القوة مبدأ يقع خارج كل تمثل ؟

دعنا الآن من هذه المعرفة التي لا جدوى منها، الفكرة التي تروق نيتشه كثيرا، ولكن بِمَ سنتميز لاحقا ؟

---

1 VP,I,LII ,51

2 GM,III,27

3 Antonia BIRMBAUM : Nietzsche, les aventures de l'héroïsme., éd. Payot et Rivages., Paris, 2000, p.239

4 GS,349 ; PBM,259

5 Gadamer., op.cit., p.17

6 Jean GARNIER., op.cit., p.74

7 Gadamer., op.cit., p.17 دافع كيسلر عن كون إرادة القوة لا تعني عند نيتشه "إرادة الإرادة" (Mathieu Kessler : l'esthétique de Nietzsche., PUF., Paris., 1998., p. 60 et suivante.)

8 Giorgio COLLI : Après Nietzsche., trad. de l'italien par Pascal GABELLONE., éd. de l'Eclat., Paris., 1987., p.65

9 E. Blondel., op.cit., p.43

2- وسائل التفسير عند نيتشه:

ترتسم أمام كل من يحاول أن يقف على طريقة نيتشه، علامة إستفهام كبيرة تُخفي سؤالا جريئا: لاشك في أن فلسفة نيتشه تنطوي على تناقضات، وعلى تناقضات كبيرة وأساسية ؟[*]. يُثابر البعض ويعيدون قراءاتهم بتأنٍ وينتهون إلى التصريح بأنهم ماداموا واقعين تحت تأثير التفكير المنطقي، فإنهم لن يتوصلوا إلى قراءة نصوص نيتشه قراءة "صحيحة" وما عليهم سوى أن يكونوا واقعيين ويقولوا لأنفسهم وللناس: "لقد ألَّفَ نيتشه هذا، ولابد أن يُقرأ"[1]. ومن جهة أخرى، إختار البعض وَجْهَتَهُمْ من البداية وصبُّوا جَمَّ نقدهم على "تناقضات نيتشه مع نفسه، تقريبا في كل واحد من مبادئه الديكتاتورية بشكل عنيف. فهو يقول في البداية شيئا ثم نقيضه، والشيئان بنفس القدر من العنف، وغالبا في الكتاب نفسه، وغالبا في الصفحة ذاتها"[2]. كما دفعت الحيرة، في الوقوف على منهج لدى نيتشه، بالبعض إلى اعتبار أن الطبيعة المجازية والإستعارية الرمزية والميثولوجية لفكر نيتشه جعلته في مأمن من دحض الغير، لأن النقد لا يجد شيئا مستقرا يمكنه أن يتناوله[3]. وطبعا لو أردنا تعداد مواقف أغلبية من بحثوا في "طريقة" أو "طرق" نيتشه لانتهينا، كما ذكرنا في البداية، إلى القول بأن "لكل واحد نيتشاه"، ولَكُنَّا قد عجزنا عن شرح أي شيء أو تقديم نيتشه بكيفية مفيدة على الأقل لحياة فلسفة التاريخ في بلادنا. لقد سبق لنا وأن أشرنا في العنصر **1** من الفصل الأول، وبناءً على قراءتنا الشخصية، إلى أن جميع أعمال نيتشه كتاب واحد، ومن ذلك كان موقفنا بأن فلسفته نسقية [منظومة] مهما قال العكس[**]، أو حتى لو وصفها البعض بأنها ميتافيزيقيا[***]، كبقية المنظومات التي سبقته.

---

[*] مثال ذلك: Shrift Alan D. : Nietzsche, his philosophy of contradiction and the contradictions of his philosophy (review), in Journal of the history of philosophy, vol.38, N°3 July 2000., The J. Hopkins University Press., excerpt.

[1] Philippe CHOULET et Hélène NANCY., op.cit., p.11

[2] Max NORDAU : Dégénérescence., Tome 2., trad. de l'allemand par Auguste DIETRICH., Ancienne librairie Germer BAILLIERE et Cie., Félix Alcan éditeur., Paris., 1894., p. 309

[3] Alfred FOUILLE : Nietzsche et l'immoralisme., Félix Alcan éditeur, Paris, 1902., p. 287

[**] لدينا العشرات من الأدلة على أنه ظل يقول بأشياء وينجز العكس أو يخالف ذلك كله تماما، أو كما قال عنه **ريتشارد سن**: "الذين انتقدهم كثيرا هم غالبا من أخذ منهم أفضل الهام" (John RICHARDSON : Nietzsche's new Darwinism., Oxford University Press., NY., 2004., p.18) فضلا عن استعماله للمنطق،(أنظر الفصل الثالث وقد شرحت فيه هذه النقطة).

[***] انطلاقا من افتراضه، الذي يقضي باعتبار الميتافيزيقيا كنظير للأنطولوجيا، من خلال النظر إلى "ماهية" أو "صيرورة" الأشياء، وبلغة أخرى، محاولة الميتافيزيقيات رؤية ووصف الأشياء في طابع ليس صحيحا فحسب بل كونه أساسيا لها، خَلُصَ **ريتشاردسن** إلى أن "الميتافيزيقيا تحتاج إلى منظومة ما، لأنها تحتاج إلى تبيان كيف تمكنت الحقائق الأولية من ولوج بقية وجهات النظر الأخرى، مما سيساعدنا على رؤية وفهم كيفية كونها صحيحة، ولذلك فالميتافيزيقيا تدَّعي: (1) المنتظم (2) الحقيقة (3) بشأن ماهية [الحقيقة المنتظمة بشأن الوجود]". ولذلك هَدَفَ **ريتشاردسن** إلى "محاولة تبيان فكر نيتشه كمنظومة آراء إنتظمت حول أنطولوجيا: حول تفسير الكائن being والماهية essence". (ibid., p.4)

توقفنا القراءة المتأنية لمؤلفات نيتشه على وجهين للتحليل عنده: فمن جهة يشرح بكيفية يبدو فيها للقارئ وكأنه ينجز بذلك نوعا من اللامبالاة أو الموضوعية الصرفة، التي ينفيها عن نفسه دائما؛ ومن جهة أخرى، يشرح بغرض تأكيد طريقته، التي تجد معناها في اختفاء "الإنسان الأخير" وميلاد "الإنسان المتفوق"– وغالبا ما تحوم حول هذا الشرح سُحُبُ الفن أو النظرة الكونية– وشيئا فشيئا نجد أنفسنا أمام السؤال المُحَيِّر،أو علامة الإستفهام، التي أشرنا إليها سابقا بشأن المعيار الذي يريدنا نيتشه أن نميز به الصحيح عن الخاطئ وخاصة في هذه الجملة على سبيل المثال: "الغريزة التي تُخطئ مؤكدا في كل شيء، نقيض–الطبيعة وقد صار غريزة، **الإنحطاط** الألماني وقد غدا فلسفة: **هذا هو كانط !**"[1]. ألا يكون نيتشه بهذا قد وقع من جهته هو الآخر في ميتافيزيقيا اللغة، وقواعد اللغة ؟ لقد ذكرنا مدى أثر فقه اللغة في نيتشه، إلا أن ذلك لم يكن بالمبرر الكافي لجعله طابعا لفلسفته برمتها، لأنه حين تكون "الحياة والحيوية كمعيار"[2]، أو حين تضحى مصيرا في جميع مؤلفاته"[3]، لن يكون من السهل على أحد أن ينطلق من الجزء لشرح الكل لأنه:

أ- لا يمكن للحي أن يكون في الآن نفسه موضوعا وقاضيا؛

ب- الخطأ الذي قد يقع فيه الباحث الذي لا ينتبه إلى أن الأخلاق ظلت دائما مرجعية كل من يفصل النظري عن العملي، المعرفة عن الإعتقاد، تقسيم الإنسان إلى خاصيات facultés ؛

جـ- كافة أشكال التفسير منظورية.

وتعكس هذه النقاط مدى إيمان نيتشه بتوارث الصفات المكتسبة، ومن جهة أخرى قوله بعدم وجود كائنين متطابقين بيولوجيا أو موجودين متناظرين تماما، أي إيمانه بفكرة المصير وكون كل شيء صيرورة. الفكرة التي يمكننا أن نشرح بها موقفه المعارض لكل سَسْتَمَةٍ، منطق، قانون، غائية، حتمية، جدل، سببية، موضوعية ...إلخ. إن التعامل مع نيتشه، في إطار محاولة للوقوف على طريقة تفسير أو أكثر عنده، لَيُشْبِهُ كثيرا التعامل مع أية مسألة فيزيائية، حيث لابد للباحث أن يسبق حل المسألة بوضع أولا المعطيات نُصْبَ عينيه، حتى لا تختلط عليه الأمور أو تضيع منه بعض المعطيات؛ ولأن، على حد تعبير **هيلر** Heller، الإجابة على السؤال المتعلق بمعرفتنا لنيتشه، لن تكون بنعم أو بلا، لأن الذي يسألنا مثل هذا السؤال يكون كَمَنْ يطالبنا بأن نقول له: نعم، أولا، نعرف روما*، فلنبدأ إذن بهذه المعطيات:

1– **أعكس تُصِب:** مثلما ذكر في سيرته الذاتية EH، حاول نيتشه فصل تاريخ الفلسفة (والتاريخ بِرُمّتِهِ أيضا، لأنه تنبأ بحدوث صراع بين الأفكار، حيث ستكون فلسفته إحدى أهم أطراف ذلك

---

[1] Anté.,11

[2] Oswald KULPE., op.cit., p.118

[3] Antonia BIRMBAUM., op.cit., p.239

* *"Do you understand Nietzsche?" is like asking: "do you know Rome?" The answer is simple only if you have never been there* »(Eric HELLER : the importance of Nietzsche., University of Chicago Press., 1998., p.142)

الصراع) إلى شطرين*، وقد تَأَتَّى له هذا الشعور من إدراكه أن قلب وجهة ما ظلت تقول به البشرية قبله، في اتجاه معكوس، باعتباره خطأ دام ألفيات ونجم عن جملة أخطاء، جزئية وأساسية تُتِمُّ عن طريقة تفسير تؤكد أن "الإعتقاد **الذي يسمح بالبقاء** هو الذي إنتصر ودام؛ ليس الأكثر صِحَّةً ولكن الأكثر فائدة". فالبشرية التي أساءت الظن بالجسد وأغفلته في تفسيراتها، وأَوْلَتِ العقل أهمية كبرى، وآمنت بميتافيزيقيا اللغة إلى درجة أنها حَنَّطَتْ الواقع بالمجردات والمفاهيم وخلقت بها عالما آخر ... الخ، لن تكون سوى مخطئة ومريضة ولن يكون تاريخ تفسيراتها سوى تاريخا لافتخار الشعور على اللاشعور.

تبين لنا بعض مؤلفاته الأولى، أن عمل نيتشه، وطريقته، أخذ يتثبَّت تدريجيا، من خلال بعض الموضوعات الأساسية كالإنسان والحياة والطبيعة، ومثال ذلك ملامسته لموضوع تفاخر الشعور على اللاشعور في هذه الفقرة: "أين يتوقف الحيوان وأين يبدأ الإنسان؟ هذا الإنسان الذي يهم الحياة لوحده! كلما طالب واحدٌ بالحياة كسعادةٍ، كلما عجز عن إلقاء نظرة إلى أعلى من أفق الحيوان، إن لم يكن يريد بمزيد من الوعي ما يبحث عنه الحيوان بدافع. غير أنه هكذا تسري الأمور بالنسبة لنا جميعا طوال الجزء الأكبر من حياتنا: فنحن لا نُبْرِح عادة هذه الحيوانية، ونحن حقيقة هذه الحيوانات التي تبدو أنها تعاني بغير سبب"[1]. ولاشك في أن مثل هذه الأسئلة، التي طرحها في هذا النص وفي غيره، هي التي قادته إلى القول بأنه توصل إلى أن "أكبر جزء في التفكير الواعي لابد وأن يُنْسَب إلى النشاطات الغريزية، حتى ولو تعلق الأمر بالتفكير الفلسفي(...). في جزئه الأهم، فإن التفكير الواعي لفيلسوف ما، هو تفكير تقوده، بكيفية خفية، غرائز وتجره بقوة في سُبُل محددة. وخلف كل منطق وكل حرية حركته، تقف تقديرات، أو بلغة واضحة، مطالب فيزيولوجية تهدف إلى حفظ نمط حياة معين"[2]. ومن وسيلة حفظ الحياة هذه، أي الإعتقاد الأكثر فائدة، بلغ نيتشه معنى الحياة وبيَّن الأرضية الطبيعية لفلسفته من خلال طرحه الـ "أقصى تمجيد للحياة"[3]، كمقياس لقيمة الحياة، وفي الآن نفسه كتجاوز واضح للداروينية، بل وتجاوز لـ "الطيب والخيِّر" و"العدمية" والإنسان الأخير، كآخر ثمار تطور أشكال التفكير التي سبقته والتي تُرِكَ فيها ظهور الرجال للصدفة[4]. وقد رأى أن "محاولات الإنفلات من العدمية، دون قلب القيم القديمة، تُنتج الأثر العكسي وتجعل المشكلة أكثر حدة"[5]، خاصة وأننا "نتغذى ونعيش على أخلاقية الأزمنة السابقة"[1]، "نعيش في فترة تقف فيها جميع تصورات الحياة جنبا إلى جنب، ولهذا فهذه الفترة هي الأكثر

---

* تحدث نيتشه أيضا عن كونه ممن وصلوا الخط الفاصل بين شكلين مختلفين للوجود (NT,19,P148)

1 CI,III, SE,5,p.53

2 Pbm,3

3 VP,II,LIII,432

4 VP,II,LIII,132

5 ibid.,7

1 VP,II,LIII,127

تعليما لنا، لهذا فهي الأكثر مرضا، معاناة من الآلام التي تتضمنها جميع التوجهات"[1]، ومن ثمة فنحن نتميز عن الفترات السابقة في كوننا نعيش في عصر **المقارنة**، أي أننا وعي التاريخ بذاته[2].

لقد تولدت فكرة قلب القيم لدى نيتشه من هذا الوعي بواسطة:

أ – **نقد الماضي وتبيان أنه تاريخ لأطول خطأ**، لأن الفلاسفة لم يذهبوا إلى ما وراء حفظ الحياة، فجاءت فلسفتهم تمجيدا للعقل، المبني بصفة عامة على منتجات اللغة. فبدلا من رؤية وسائل ملاءمة العالم لغايات نفعية (إذن "منهجيا" بهدف **تزوير** مفيد) في المنطق وخواص العقل، فإن الناس اعتقدوا أنهم عثروا فيه على معيار الحقيقة وحتى على الواقع. وفي الحقيقة فإن "معيار الحقيقة" ليس سوى **الفائدة البيولوجية لمنظومة التزوير هذه**[3]. وإذا تناولنا على سبيل المثال معنى كلمتي "صحيح" و"حقيقة" في "لغة الشعب" فإننا سندرك بسرعة أن ما يتم اعتباره "صحيحا" هو ما يمكن رَدُّهُ إلى حقائق يعترف بها الجميع وفق إجراءات تفكير عامة، لأن الصحيح، في لغة الشعب دائما، هو ما تمكن البرهنة عليه، وذلك ما جعل الحقيقة ذا معيار جماعي[4]. وإذا عدنا إلى موضوعي اللغة والأنتروبومورفيزم، فإننا سنفهم جزءا هاما من مبررات نيتشه لرفض هذا المعيار الجماعي للحقيقة، ذلك أن الحقيقة بهذا المعنى "قد تكون نوعا من الإعتقاد الذي صار ضرورة حيوية"[5]. كما أن كلمات اللغة لا تزال تظهر لدى الشعب وكأنها ليست إشارات، بل حقائق متعلقة بالأشياء التي تدل عليها[6]. أما الجزء الآخر من المبررات فَمَرَدُّهُ إلى حساسية نيتشه لكل مُتَأَتٍّ من القطيع، من العمومي أو المبتذل الذي يجعل من كل تعريفٍ أمرا جزافيا. إن قوله "لا تُسَوُّوا أبدا بين غير المتساوين"[7]، لا ينطبق في العمق على البشر فحسب، بل على حقيقة الأشياء كلها في فلسفته، التي هي علاقة التفسير بالصيرورة.

ب– **رد النقد إلى نقطة واحدة:** وهي جهل الفلسفة، السابقة له، لأهمية الجسد وفي كثير من الأحيان تجاهلها له أو إساءة الظن به، مما جعل الفلاسفة ينطلقون في تفسيراتهم من نتائج السيرورات واعتبارها أسبابا، كأن يجعل المرء من حالته الفيزيولوجية الراهنة، والتي هي نتيجة، سببا يفسره بقوله مثلا: لقد جاءت وعْكَتِي بسبب "خطيئتي"، "وسواس" ...الخ[8]. لقد نسي هذا الإنسان أنه "**إجمالا**، كل ما يبلغ الوعي ظاهرة نهائية، نتيجة وليس سببا لأي شيء؛ كل ما يتتالى

---

[1] ibid.,122

[2] ibid.,297

[3] VP,I,LI,211

[4] ibid.,114 ؛ أو لِنَقُلْ "عمومي"، الكلمة التي لا تدل بتاتا على قيمة ما بل تظل دائما ثابتة ومتساوية مع ذاتها. (NT,11,p.100)

[5] VP, I, LI,139

[6] ibid., 112

[7] Cré.id., divagation d'un "inactuel", 48

[8] VP,II,LIII,147

داخل الوعي ذُرِّيٌّ صرفٌ، ونحن حاولنا فهم الكون وفق المبدأ **المعكوس** وكأن شيئا لا يفعل فعله وأن لاشيء واقعي وأنه فقط التفكير والإحساس والرغبة !..."[1]

إن الــ"عقل" وسيلة و**أداة** في خدمة الإرتقاء المستمر للحياة[2]، وفي ذلك دليل على تشابه الإنسان بالحيوان، لأن الذي يقرر في نهاية المطاف هو قيمة السلوك بالنسبة إلى الحياة، وإلا بِمَ نفسر قدرة الكائنات الحية الأخرى على العيش دون لا معرفتها ولا امتلاكها للحقيقة ...![3]؛ ثم ألا "يبدو أن الإنسان لا يقدر على العيش بها لكون جهازنا العضوي قد تكيَّف مع نقيضها ؟ فكل وظائفه العليا وإدراكات حواسنا وكافة الأحاسيس عملت على الخطأ القديم الذي تمثَّلته، بل، وأكثر من ذلك، صارت الإفتراضات القديمة، حتى داخل المعرفة، معايير نُقدر، بناء عليها، الـــ "صحيح" و"غير الصحيح"، حتى في ميدان المنطق الخالص الجِدُّ مُنْزَوِيَّة"[4]. أليس هذا توسطا للعقل بين براءة الإنسان وحواسه ؟ لقد جاءت نصيحة زرادشت ببراءة الحواس[5]، لتؤكد أن "العقل ُطوِّرَ على أساس حِسَّوِي، على **الأفكار المسبقة لدى الحواس،** أي على الإعتقاد بصدق أحكام الحواس، مضافة إليه المعطيات التي شكل منها رجال "الخير"، والعدميون بصفة عامة، ضميرا زرعوه في عقول الناس للحيلولة دون إخضاع أية فكرة للمعاينة والاختبار[6].

جــ- **الأزمة الناجمة عن تأكد الحاجة إلى الحقيقة كقوة تحفظ الحياة** : تعيدنا هذه النقطة إلى عنصر "الاعتقاد كأرضية" في موضوع الأنسنة والتي يمكننا أن نشرحها بواسطة:

1 – التساؤل بشأن "ما يُرغمنا على إفتراض وجود تضاد جذري بين الـــ"صحيح" والـــ"خاطئ" ؟ [والقول] ألا يكفي التمييز بين درجاتٍ في الظاهر، وبتعبير ما بين نوع من الألوان والتلميحات الواضحة إلى حد ما، القاتمة إلى حد ما– أي بين مختلف الـــ"قيم"، وهذا حتى نستعمل لغة الرسامين ؟"[7] .

2 – إذا تمعننا وبتعبير شعبي في موضوع القناعات مثلا، فإننا نجدها "عَدُوَّاتٌ للحقيقة، أكثر خطورة من الكذب"[8]، لأنها في أصلها آراء نجمت عن انفعالات بَلْوَرَها **كَسَلُ العقل**[9]، مثلما تدل على ذلك الآراء العامة، التي لم تكن في الأصل سوى مجموع كسل الأفراد[10]. ولذلك فصاحب القناعات كمن يُسيء فهمنا بالجملة ولا جدوى من محاولة إقناعه بأن موقفه ينطوي على تعميم خاطئ طال الكثير من الأمور الجزئية فينا والتي لا تستحق منه ما يعتقده بشأنها[11]. وتاريخ "البحث

---

1 VP, I, LI,95
2 VP,I,LII,95
3 VP,I,LII,308
4 GS,110
5 APZ., de la chasteté, p.72
6 APZ., des contempteurs du corps, p.42 ; VP, I, LI, 346
7 Pbm,34
8 HTH,483
9 ibid.,637
10 ibid., 482
11 OSM, 346

المنهجي عن الحقيقة، في ذاته، نتيجة لأزمنة تصارعت فيها القناعات فيما بينها(...). ولو لم يهتم كل واحد بـــ"حقيقتـــه"، أي بالإبقاء على حقه، لما وُجِدَت بتاتا طريقة بحث؛ غير أنه بهذه الكيفية تقدمنا، الخطوة تلو الأخرى، نحو اكتشاف المبادئ غير القابلة للدحض"[1]، رغم أن حقائق الإنسان، في آخر تحليل، هي أخطاءه التي لا تدحض[2]. إن "الإنسان، قبل كل شيء، هو الحيوان **الذي يحكم** qui juge؛ بيد أنه في الحكم jugement يكمن اعتقادنا الأقدم والأثبت. فكل حكم يتضمن تأكيدا واعتقادا أساسيا؛ اليقين بأن شيئا موجودا بهذه الكيفية وليس بغيرها، وأن الإنسان "يعرف" حقيقةً.

ما هو الشيء الذي أُعتبر ضمنيا على أنه صحيح في كل حكم ؟ – إنه يكمن في كوننا لدينا الحق في **التمييز** بين الفاعل والمفعول، بين العلة والمعلول–(...)، وفي العمق، الإعتقاد في العلة والمعلول، في الشرط والمشروط، أليس حتى حالة خاصة في الإعتقاد الأول والأهم، في اعتقادنا الأصلي بوجود الفعل والفاعل(باعتباره تأكيدا بأن كل مفعولٍ نشاطٌ وأن كل مشروطٍ يقتضي شرطا، وأن لكل نشاط فاعلا agissant، أي فاعلا sujet)[3]. وهكذا، فالحكم يقضي بالإعتقاد بأن هذا أو ذاك موجود بهذه الكيفية ويكشف بذلك عن أننا صادفنا "حالة مطابقة"، أي أنه يفترض حدوث مقارنة أنجزت بواسطة الذاكرة[4]. ومثال ذلك، إستناد المنطق والرياضيات إلى فرضيات، كفرضية تساوي الأشياء وهوية الشيء في ذاته، في نقاط زمنية مختلفة، ووجود خط مستقيم حقيقي ودائرة حقيقية وعظمة مطلقة في الطبيعة[5].

"إن علما ما لَيَفْتَرِضُ بالضرورة فلسفةً، "إيمانا" أوليا يعطيه وجهةً، معنًى، حدًّا، طريقة، حقًّا في الوجود"[6]، و"أنه لا وجود لعلم "غير مشروط". إنه يفترض بأن تكون **الحقيقة** مهمة إلى درجة التأكيد على أن "**لا شيء يهم** أكثر **من الحقيقة**"(...). ولكن ما هي الإرادة المطلقة للحقيقة هذه؟ أهي إرادة **عدم السماح بتغليط** [الآخرين لنا] ؟ أهي إرادة **عدم تغليطنا** [للآخرين] ؟ يمكن أيضا لإرادة الحقيقة أن تفسر نفسها بالكيفية التالية(...): "**لا أريد أن أخدع نفسي**" هو تعميم للحالة الخاصة: "**لا أريد تغليط** [أحد]"، ولكن لماذا عدم التغليط [لا يجوز تغليط أحد] ؟ ولكن لماذا لا نسمح بأن نُغَلَّطَ؟"[7]. وفي موضوع الأخلاق: "لماذا تعتبر"هذا" خيرا بدلا من شيء آخر؟ "لأن ضميري يقول لي ذلك، والضمير لا يقول شيئا لا أخلاقيا أبدا، لأنه هو الذي يحدد ما يكون أخلاقيا !" .ولكن لماذا تسمع صوت ضميرك؟ من أعطاك الحق في الإعتقاد بأن حكمه معصوم؟ ألا يوجد ضمير لاختبار هذا **الإعتقاد؟** ألم يسبق لك وأن سمعت بالضمير العقلي؟ بضمير يقبع وراء "ضمير"ــك؟ إن لِحُكمك، القائل بأن "هذا خير"، منشأٌ في غرائزك، ميولك ونفورك، تجاربك وما لا تجربة لك فيه:

---

1 ibid.,634
2 GS, 265
3 VP,I,LI,132
4 VP,I,LI,139
5 VP,I,LI,99 ; HTH,11
6 GM,III,24
7 GS,344

"كيف نشأ هذا الحكم ؟" هذا سؤال عليك بطرحه ثم، بعدئذ مباشرة، هذا الأخر: "ما الذي يدفعني بالتحديد إلى طاعة هذا الحكم؟" لأنك بمقدورك أن تتبع أمره (...) بألف كيفية مختلفة"[1]. وباختصار، فإن الإستمرار في طرح هذا النوع من الأسئلة، سيجرنا إلى الأرضية الميتافيزيقية للعلم، إلى معادلة سقراط القائلة بأن عقل= فضيلة= سعادة[2]، – وأن الفلسفة تكون صحيحة حين تُسعد الإنسان أو تجعله فاضلا[3]– أي إلى الأرضية التي تعني فيها كلمة **صحيح** أن ما يقوله "الخَيِّرَ" و"الإنسان الأخير" في صالح بقاء "العدد الأكبر"، أي في صالح بقاء الميتافيزيقيا والأخلاق الناكرة للحياة ولِمَعْنَاهَا على حد تعبير زرادشت:

"أعيدوا لي الفضيلة الطائرة إلى الأرض، إلى الجسد وإلى الحياة: كي تعطي معناها للأرض، تعطيها معنى بشريا !"[4].

"تريد الحياة أن ترتفع وتتفوق على ذاتها وهي تسمو بنفسها"[5]؛ وكيف لها أن تتفوق على ذاتها إذا كان "ما يخدم مصلحة **القطيع**، ما يفيده بالدرجة الأولى– والثانية والثالثة– هو أيضا المعيار الأقصى لكل فرد" ؟[6]، إذا كانت نظرية دعاة الأخلاق تقول بأن "لا سعادة يمكنها أن تولد سوى من إلغاء الشغفات، من سكوت الإرادة!"؟[7]

إجمالا، وإذا نظرنا بشيء من التعمق في بعض العبارات، التي تزدان بها مؤلفاته، من نوع: "باستثنائي أنا، من يعرف الدرب المؤدي إلى خارج هذا المأزق؟"[8]، أو: "لاشك في أنه لابد من العودة إلى ألفيات ماضية لإيجاد من يحق له أن يقول لي: "إنها فكرتي أنا أيضا"[9] ... أو غيرها، فإننا نجد أن التميز ظل شغل نيتشه الشاغل والطابع الذي عمل على إضفائه على فلسفته، باعتبارها تهدف إلى بلوغ الحالة الديونزية، متجاوزة "مستوى الطبيعة الوثنية"[10]، التي رآها فيها البعض، أي بلوغها مستوى فنيا رفيعا يمكننا أن نرمز له بعبارة: أليست أنبل الأشياء، أصلبها[11]، يميزها حتى عن الأعمال الفنية التي يكون النوع البشري مقياسا لها* ويجعل منها ذوقا (سنعود إلى هذه النقطة لاحقا). ومنذ شبابه، فهم نيتشه أنه "لا يمكن لأية ميزة أن تظهر سوى وسط التعارض"[12]، وأن "بلوغ العُلَا، غاية لجميع الأعمال العظيمة"[13] وأن "المخلوقات الدنيا تكون دائما

---

1 GS, 335
2 Cré.id. ,le problème de Socrate, 10 ; VP,I,LI,72
3 PBM,39
4 APZ., de la vertu qui donne, 2
5 APZ., des tarentules, p.138 ; APZ., du surpassent de soi, p.159
6 GS, 116
7 Ibid., 326
8 EH., CW,2
9 ibid.,APZ,3
10 A. Fouillée., op.cit., p.202
11 A,541 ; APZ., des Vielles et des nelles tables, 29, p.306
* "يمتلك الشعب حقا شيئا يمكننا أن ندعوه تطلعات فنية، بيد أن هذه الأخيرة، بسيطة وسهلة التلبية؛ وفي العمق،تكفيهم فضلات الفن". (OSM,169)
12 EJ., Fatum et histoire, p.733
13 ibid., p.730

في **غاية التبعية** للمخلوقات المبدعة، ومن ثمة ليس الكل سوى تقليدا واستعمالا للقيم التي حددها كبارالمبدعين"[1]. وحتى في اللغة، فإن الكلمات من ابتكار الطبقات العليا، وهي لا تشير إلى مدلول بل تفرض تفسيرات، أي أن الدلالات تفسيرات تحاول أن تبرر نفسها[2]. كما تفطَّنَ مبكرا إلى أن "العظمة وجهة"[3]، وأن الإنسان الحقيقي هدف تبلغه الطبيعة[4]، وذلك ما يدل على أنه تفطَّنَ أيضا باكرا إلى الأزمة التي بلغتها البشرية والفلسفة في عصره وأخذ يتحدث عن قلب القيم*. ولقلب القيم، انطلق نيتشه، في ما أسماه **باتريك دانو**"هرمينوطيقا الحياة"[5]، من كلمات متقاربة في معانيها، كالهدف والمعنى والقيمة، وتنطوي على طبيعانية naturisme لا تخلو من الميتافيزيقيا (يُسميها **لوفيث: "طبيعية**، هذه **البيولوجيا الميتافيزيقية**"[6]) وتستند إلى جملة أفكار أساسية منها:

- أن "الأنانية هي الواقعة الوحيدة والفريدة"[7]؛

- أن "طريقة الحقيقة لم تُبْتَكر لأجل أسباب الحقيقة، بل **بدوافع القوة، الهيمنة**"[8]، إلى جانب "أنه إلى الحد الدقيق الذي تُرغمنا فيه فكرة العقلانيين المسبقة على اللجوء إلى الوحدة والهوية والديمومة والماهية والسببية والموضوعية والموجود ، فإننا نرى أنفسنا مقيدين بشكل ما في الخطأ، **مجبرين ومرغمين** على الخطأ"[9]؛

- أن التقدم عنده طبيعي[10] وعند غيره معرفي[11]؛

- الحياة هي إرادة القوة[12] ، أن هذه الأخيرة هي الحرية وقلب القيم[13]، وأن "الحرية هي امتلاك إرادة المسؤولية على ذاتٍ. الإبقاء على المسافة التي تعزلنا على الآخرين"[14]، وأن الإنسان المتفوق هو الذي يغير وجه الوجود[15]، وهو هدف ستبلغه البشرية يوما، خاصة وأنها تعمل برمتها، عن غير وعي، لتحقيقه[16]. ولإحداث مشروع الإنسان المتفوق، بيَّن أن:

---

1 VP,II,LIV,146

2 Michel FOUCAULT : Nietzsche, Freud, Marx., Colloque de Royaumont., p.190

3 HTH,521

4 CI,III,5,P.55

* "إن درجة جديدة من الثقافة سوف تقلب مباشرة كل منظومة الانشغالات البشرية". جملة لإيمرسون أوردها نيتشه في:CI,III,8, p.95

5 Daneau PATRICK : Perspectivisme et herméneutique chez Nietzsche., (MA thesis at Université Laval., National Library of Canada, Ottawa1997)., student abstract

6 Karl LOWITH : intervention, traduite, a propos de la communication de G. Marcel au colloque de Royaumont., p.117

7 VP,I,LI, 265

8 ibid.,190

9 Cré.id., la raison dans la philosophie, 5

10 Cré.id., la raison dans la philosophie, 48

11 Anté., 4

12 Pbm,13

13 Anté.,13 ; Cré.id., ce que je dois aux anciens, 5

14 Cré.id., divagation d'un « inactuel », 38

15 VP,II,LIII, 681

16 CI, III, 6 ; HTH, 521 ; VP,I,LII,80 ; VP,II, LIV,197

- "أثمن الاكتشافات هي الطرق"[1]، وأنه "لا توجد طريقة علمية واحدة ووحيدة والتي خارجها لا توجد أية معرفة"[2] ، كما أن كل "الطرق العلمية نتيجة بحث"[3]؛

- "لا بد من تحديد وزن كافة الأشياء من جديد"[4]، لأن "الحقيقة لا تسمح بوجود آلهة أخرى: يبدأ الإيمان بالحقيقة بالشك بشأن كافة الـــ "حقائق" التي ظللنا نؤمن بها إلى الآن"[5]؛

- "خُذُوا بنقيض ما يقوله هؤلاء [أهل العلم] وستكون لكم الحقيقة"[6]؛

- "ضرورة إنطلاق حوار بين الفلاسفة والفيزيولوجيين والأطباء، بشأن مشكلة قيمة التقديرات، التي جرت إلى الآن، لينتج تبادلا مثمرا من الآراء. ولا بد من توضيح كافة ألواح القيم، كافة الأوامر،التي تحدث عنها التاريخ والدراسات الإثنولوجية، ولا بد من شرح جانبها **الفيزيولوجي** قبل الشروع في تفسيرها **سيكولوجيا**، فضلا عن إخضاعها لفحص طبي(...). لا بد لكافة العلوم أن تشرع، من الآن، في إعداد مهمة فيلسوف المستقبل: التي تكمن في حل مشكلة التقدير وتحديد سلم القيم"[7]؛

- جديد موقفنا الفلسفي، قناعة تقضي **بعدم امتلاك الحقيقة؛** كافة من سبقونا "إمتلكوا الحقيقة"، بما في ذلك الشكّاكين[8]، ومن ثمة فالحقيقة بحث مستمر مثلما قال **ڤينكلر** WINKLER: "الإنسان حكيم ما دام يبحث عن الحقيقة ،إلا أنه بمجرد ما يدَّعي أنه وجدها، فها هو يصير مجنونا"[9]، أو **ليسينغ** LESSING من بعده[10].

---

1 Anté.,13-58-59
2 APZ,de l'esprit de pesanteur, 2, p.277 ; A, 423
3 HTH, 635
4 GS,269
5 OSM,20
6 GM, III, 23&24
7 GM, I, 17
8 VP,II,LIII, 565
9 FP/HTH 23[158]
10 NT,14., p. 119

3- المصير :

يتضمن قلب القيم، أساسا، التخلي عن المعرفة الموروثة والمبنية على العقل ومنتجاته والعودة إلى الجسد. فاللغة مثلا تنطوي على تعميمات كـــ"الكائن" والـــ"ماهية" والـــ"مطلق" والـــ"الهوية" والـــ"شيء" وغيرها من الرسوم الخيالية schèmes، التي ترجع إلى مرحلة قديمة في تطور الوعي البشري، حين كان الإنسان يحاول توقيف الزمن والقبض على المصير وسجنه في المفاهيم، إنطلاقا من إعتقاده بوجود حالات للتماثل والتطابق بين الأشياء، مما ولَّدَ لديه شعورا بوجود "الثابت" و"المطلق" و"المحايد"....إلخ، ومن ثمة إيمانه، بعد فترة طويلة من ذلك، بأن الـــ"أفكار" هي الواقع الحقيقي، اللامتغير والمقبول لدى الجميع، وأن كلمات اللغة هي حقائق متعلقة بالأشياء التي تدل عليها. غير أن تطور الحياة وازدياد تعقيداتها، زاد في حدة الحواس والإنتباه والحذر المنهجي وأفرز الشكوك بشأن الحقائق بالمعنى المطلق[1]. ومن ثمة يبدو أنه إذا أخذنا بعين الإعتبار عنصر المصير وربطناه بشكل جديد للمعرفة، يكون مبنيا على الفيزيولوجيا، فإننا لن نحصل سوى على فلسفة في صيرورة، يكون فيها "التعريف الأولي والأكثر أساسية، متضمنا الحقيقة لتكون مرادفا أو حوصلة لحالة الأمور الراهنة"[2]؛ مثلما تكون الهوية، هوية أي شيء، موضوعا لا نظير له، وفي هذا يفتخر نيتشه بأن ما يفصله عن كانط وأفلاطون وليبنتز هو كونه لا يؤمن سوى بالمصير حتى في الأشياء الروحية[3]. وإذا إنطلقنا من تفسير حاجة الميتافيزيقيا إلى منظومة، بحاجتها إلى تبيان كيفية تمكن الحقائق الأولية من ولوج بقية وجهات النظر الأخرى، مما سيساعدنا على رؤية وفهم كيفية كونها صحيحة[4]، ومن جهة أخرى إذا تذكرنا تحذير نيتشه من أصحاب الأنساق (المنظومات)، لأنهم يريدون أن يكونوا معنى لمخلوقات كاملة وجِدُّ قوية[5]، فإنه يمكننا القول أن نيتشه حقق فعلا القطعية مع أفلاطون، حين إستبدل مفهوم "كائن" بـــ"صيرورة" وبَيَّنَ أن "الثابت"، في الفلسفة التي سبقته، لا يتصالح مع "المصير" في فلسفته في الحياة، الحياة التي أَفْشَتْ له بهذا السر: "أنظر فأنا **من وجب عليها أن تتجاوز نفسها بنفسها**(...) لقد وجب عليَّ أن أكون معركةً ومصيرًا وهدفًا وتناقضًا في الأهداف: آه! الذي يكشف إرادتي، يكشف أيضا السُّبُل **المتعرجة** التي وجب عليها أن تسير عليها.

---

1 VP,I,LI,112

2 Robert ROACH : to love a tainted world : Nietzsche on truth and power., (MA thesis of arts., October 1999., Department of political sciences, Calagary), Alberta., p.2

أنظر أيضا Winchester, James J. : "Nietzsche, Naturalism and interpretation"., Journal of the of History Philosophy., vol.38, N° 4, October 2000., The John Hopkins University press., Abstract., p.606

3 VP,I,LI,112 ; VP,II,LIII, 306

4 John RICHARDSON : Nietzsche's system., Oxford University Press., NY., 1996., p.3

5 VP,I,LI,8 ; A.,318

مهما كان ما أخلقه ومهما كانت محبتي له، فإنه لا مناص من أن أكون خصما له وخصما لحبي: وذلك ما اقتضته إرادتي"[1]. وبذلك يجرنا نيتشه إلى الطابع المثالي في فلسفته، الذي ينقلب ضد التأكيد الذي نجده في عبارة: الحقيقة متضمنة في التفكير، الذي يعود أصل خواصه إلى الشروط التي تسمح وحدها بالتفكير وليس إلى الكائن[2]، أي إلى التحرر من كل شَرْطَيَّةٍ تفرضها الفلسفة. وبتعبير آخر إلى الكشف عن "حقيقة الحقيقة"[3] بهدف تبيان مَقْدَم الإنسان المتفوق كانتصار للحياة وكضرورة يأمر بها زرادشت نفسه: "أتعلم من هو الأكثر ضروريا في الجميع ؟ الذي يأمر بأشياء عظيمة.

من الصعب إنجاز أشياء عظيمة: بيد أن أصعب الأشياء هو الأمر بها (...). وحينها تحدَّثَ شيء ما فيَّ وكأنه يهمس قائلا لي: "إن أصمت الكلمات هي التي تجلب العاصفة. وإن أفكارا تسير على أرجل حمام هي التي تقود العالم"[4]. ولكي يبين نيتشه أن الإعتقاد هو ما ظللنا نريده وليس الحقيقة، ومن ثمة إفصاحه بتجاوزه هذه الأخيرة، تساءل: "**كيف تثبت الحقيقة نفسها** ؟ بالشعور بتعاظم القوة، بنفعيتها، بضرورتها، وباختصار: بمزاياها (أي بالشروط **المسبقة** التي تحدد الكيفية التي **يجب على** الحقيقة أن تكون عليها حتى نعترف بها). بيد أن هذا **فكرة مسبقة**، مؤشر على أن الأمر لا يتعلق بالـــ**حقيقة**.... ماذا تعني مثلا "إرادة الصحيح" لدى **لي غونكور**Les Goncourt ؟ لدى **الطبيعانيين** naturalistes ؟ نقد الـــ"موضوعية"؟ **لماذا** التعرف ؟ لماذا لا يوهم المرء نفسه ؟"[5]. وباختصار، فإن نيتشه بحث في قيمة الحقيقة كقضية وقدم لنا المعرفة المنظورية perspectiviste ،كمخرج لنقده للحقيقة، وفق الطوابع الثلاث التي تكون عليها، أي أنه قَدَّمَ:

- نقدا سيكولوجيا لإرادة الحقيقة؛
- نقدا إپستيميولوجيا لقابلية القبض على الحقيقة في ذاتها؛
- نقدا أنطولوجيا لوجود الحقيقة في ذاتها[6]، ومن ثمة يكون قد إستبعد وجود "حقيقة معيارية"[7]

*– **لا وجود لخير وشر، وكل شيء منظوري**: يستند نقد نيتشه لأشكال الفلسفة النسقية عموما وللعلوم بصفة خاصة، إلى فكرة المصير devenir، مما يجعل قوَّتَيْ الخير والشر مثلا، اللتين بُنيت عليهما معظم الفلسفات، مجرد "رموز"[8]، لـــ"أنه وجب على الحياة ألا تتوقف عن تجاوز نفسها بنفسها"[9]، أي

---

1 APZ., du surpassement de soi, p.159
2 K. Jaspers., op.cit., p. 215
3 R. Roach., op.cit., p..86
4 APZ., l'heure la plus silencieuse, p.207
5 VP, I, LI, 190
6 Armontrout Spencer, LEATH CATHLEEN : Interpreting Nietzsche on truth and perspectivism (MA thesis, submitted at the University of Alberta, 2003)., abstract
7 R. Roach., op.cit., p..85
8 APZ., de la vertu qui donne, I, p.102
9 APZ., des tarentules., p.138

أنه "لا وجود لخير وشر أبديين، فهما مُجْبَرَيْنِ على تجاوز نفسهما بنفسهما والتفوق عليها"[1]، لأن"التحريم النظري للتناقض ينطلق من الإعتقاد **بأننا قادرون** على صياغة أفكار، وأن الفكرة لا تدل فحسب بل تقبض أيضا على ماهية الشيء"[2]. ومن الناحية المنهجية يبين السؤال: "بمنظور **الحياة**، ماذا تعني الأخلاق؟"[3]، بشكل واضح، أرضية الطرح النيتشي، الذي لا يستند إلى الأخلاق، ونقده الذي يهدف إلى مستوى آخر من الأخلاق:

* لوقوع مقياس الأخلاق السابقة في النوع، بحيث لم تقدر البشرية بواسطته على تجاوز حد تحصين نوعها بالدرجة الأولى، مما أفرز الإنسان الأخير[4].

***أ- الأخلاق عملٌ أنْجَزَتْهُ اللاأخلاقية:**

1- لكي تكتسب قيم أخلاقيةٌ **السيادةَ**، لا بد من قوى لاأخلاقية لكي تساعدها.

2- يعود **ميلاد** القيم الأخلاقية نفسه إلى إنفعالات وحسابات لاأخلاقية.

ب- الأخلاق إنجاز للخطأ.

جـ- الأخلاق تدريجيا في تناقض مع نفسها (...)

د- فائدة الأخلاق للحياة:

1- الأخلاق مبدأ بقاء الجماعات الكبيرة، إنها"وسيلة" تنظم الأفراد". [5]

*- "من وجهة نظر الإقتصاد العام، كان كل ما جرت العادة على إعتباره لاأخلاقيا، متفوقا بشكل أساسي، [وسوف] يؤدي تطورٌ، يسير في معنى المِلْءِ المتصاعد للحياة، بالضرورة إلى تقدم لاأخلاقي"[6]، إذ يبن لنا تاريخ الأخلاق أن "الخير تحولٌ دائمٌ للشر [وأن] لكل إله شيطانٌ كأبٍ"[7]، وحتى في الفعل، فالله أكبر اللاأخلاقيين، ورغم ذلك يُصِرُّ على بقائه على ماهو، الإله الخَيِّرُ"[8].

*- لا وجود لأفعال أخلاقية أو لاأخلاقية[9]، كما أن التفسير الأخلاقي يسير **وراء** سلوكنا و**لا يقوده**[10].

*- وقوع الفلاسفة في أخطاء منهجية مما سمح باستمرار العمل بالمقياس الجماعي في تقدير الأخلاق. فقد نسوا مثلا **لماذا يُقَدِّرون** الصحيح والخَيِّرَ، ولا أحد فيهم حاول تجربة العكس[11]. ثم "أليس من الغريب نوعا ما مُطالبةُ وسيلةٍ مَا بأن تكون مكلفة بتوجيه النقد لملاءمتها الخاصة وكفاءتها الخاصة

---

1 APZ., de la vertu qui donne, I, p.102
2 VP,I,LI, 115
3 Ess. d'auto., NT,4
4 VP,II,LIV, 194
5 VP,I,LI, 246
6 VP,I,LIII, 480
7 ibid., 529
8 ibid., 481
9 VP,I,LI, 318
10 VP,I,LII, 216
11 VP,II,LIII, 566

بنفسها ؟ أن يكون العقل في حد ذاته، مكلفا بـــ"الإعتراف" بقيمته، بقوته، بحدوده؟ ألا يكون هذا لا معقوليا نوعا ما؟[1].

ولكن ألا يكون نيتشه قد أرسى، بنقده هذا، أسس أخلاق جديدة؟

تبين لنا الكثير من النصوص، ومنها، على سبيل المثال لا الحصر، قوله: "عليكم أن تقولوا "عدوا" وليس "نذلا"، "مريضا" وليس "خسيسا"، "مجنونا" وليس"خطاءً"[2]، أن نيتشه، ومثلما توضح ذلك لغة الفيزيولوجي هنا، عَرَضَ تقدير الحياة كبديل لمعيار ما هو خير أو شر في عالم العدمية والإنسان الأخير. ولما كان الفكر والدين والتاريخ السياسة ...، منتجات لعقل مفكر ورجل دين ومؤرخ وسياسي، فإن المعيار ظل واحدا، أي معيار القطيع. ولذلك فإن مقابلة ذلك المعيار بالإنسان المتفوق سيفضي إلى قيم جديدة.

بيد أن سؤالا آخر يطرح نفسه علينا، ويكمن في معرفة ما إذا كان السير نحو الإنسان المتفوق سيولِّدُ عالما لا أخلاقيا ؟ ما إذا كان عالم الإنسان المتفوق نفسه خاليا من الأخلاق؟

إن إقرار نيتشه بأن الأنانية هي الواقعة الوحيدة، لَيُبَيِّنُ لنا أن الفردية، التي يتحدث عنها في فلسفته، تنطوي على "تدرج"[3]، مثلما تشرح لنا عبارة: "يهدف توجهي إلى زيادة الفروق، حفر الفجوات، إلغاء المساواة، خلق جهابذة القوة (...)، خلق الإنسان المتفوق"[4]. ومن ثمة فإن الحديث عن وجود أخلاق لدى نيتشه، من قبيل حديثه عن اللامساواة، الأعداء والأصدقاء، الرجل و المرأة....إلخ*، لن يكون مفهوما سوى كوسيلة تفسير، قدمها لنا نيتشه، يمكننا فهمها على ضوء محاولتنا تفسير ما يميز الإنسان المتفوق عن الإنسان الأخير، وحديث كيسلر M. Kessler عن أن أخلاق نيتشه تكمن في انتزاع أمر خلق القيم من يدي الفيلسوف وجعلها بين يدي الفنان[5]، لا يعطينا أكثر من تفسير جديد رغم أنه يلقي بنا في جوهر فلسفة نيتشه، أي الإنطلاق من الحصانة، ضد الخطر، التي يبلغها النوع وتجاوز المعرفة بالإبداع والإنسان المتفوق، "لأن كل حياة تستند إلى الظاهر، الحيلة، الوهم، وجهة النظر، الضرورة، المنظورية، والخطأ"[6].

---

1 Ess. d'auto., A,3, p.89

2 APZ, du criminel blême, p.47

3 VP, II, LIII, 727

4 VP, II, LIV, 194

* أنظر مثلا: John RICHARDSON : Nietzsche’s system., op.cit., p.165 et suiv.

5 Mathieu Kessler : Nietzsche ou le dépassement esthétique de la métaphysique PUF., Paris., 1999., p.102

6 Ess. d'auto., NT., 5

لقد قدم نيتشه- من خلال طرحه السؤال بشأن عما إذا كانت الأخلاق "إرادة نكران للحياة"، غريزة تدمير خفية ومبدأ إنهزام، ومن ثمة خطر الأخطار، أم لا - مذهبه الجديد الذي قال عنه أنه "فني بشكل خالص، **مضاد للمسيحية**"، سماه **ديونيزي**[1].

*- **المتضادات:** يميل طابع كل فلسفة، بدأت معالمها تتوضَّح وتترسَّخ، إلى أن يكون وصْفَيًّا، لأنه عادة ما لا تشرح تلك الفلسفة سوى فكرة رئيسية واحدة، تدور في فلكها مجموعة أفكار جزئية. وتنسحب ملاحظتنا هذه أيضا على ثقافة المجتمع نفسها، بحيث يتحول العمق والمقدس الغامض...إلخ، إلى مجرد عودة للماضي وتقديمه بلغة العصر. وعلى هذا النحو، يمكننا إعتبار نيتشه إبنا لعصره، لم يذهب إلى أبعد من وصف حالة المجتمع الغربي وتقديمه لفكرته الرئيسية، ومثال ذلك: إيلائه الأهمية لكل موجود واعتباره ضروريا بواسطة لعبة الكبير والصغير[2]، قبل تقديمه إرادة القوة كعنصر فارقي لدرجة القوة[3] في ظاهري اللعبة. وذلك ما يؤكد أنه من تقدير الحياة ينبع الحكم على "المختلف"، مثلما جاءت عليه نصيحة زرادشت للقضاة: "على حكمكم بالقتل أن يكون، بالنسبة لكم أيها القضاة، فعل إشفاقٍ، لا إنتقاما. وإن حكمتم بالقتل فلكي تبرروا بأنفسكم الحياة.

لا يكفيكم التصالح مع من تقتولونه، ولْيَكُن حزنكم حبا للإنسان المتفوق: وبذلك ستبررون بقاءكم في الحياة!"[4].

يستند تقدير الحياة إلى إكتشاف نيتشه لطريقته من خلال النقد الذي وجهه للحقيقة والذي يشرحه لنا بكيفيات شتى، وخاصة بالطريقة السيكولوجية- التي نشم فيها رائحة فيخته، "الذي أراد جعل العالم منتوجا للأنا moi، أنا لا شيء آخر يُحتم عليها شيئا سوى تأكيدها لحريتها وقُوَّتِهَا، منتصرة على عالم البادئيات"[5]-، التي يبين لنا من خلالها كيفية إقحام إنسان الفلسفة التي سبقته لفاعلٍ تخيلي في تفسيراته، أو كيفية تقديم السبب التخيلي لنفسه للوعي قبل إدراك الإنسان للسبب الواقعي. فالذاكرة، باعتبارها رصيدا من الـــ"تجارب الباطنية" وتَعَوُّدٌ على التفسيرات القديمة المبنية على السببية الخاطئة، وعلى عواقب التخيلات السببية الخاطئة، هي التي تَحُول دون حدوث حالة براءة الحواس وتعمل على توجيه تحسسات الإنسان، من خلال إيجاد كيفية ما في ترجمة حالة جديدة للضمير إلى حالات تكون مألوفة لديها، أي في لغة **مفهومة** للفرد. ومثال ذلك: إيجاد الفرد لصيغة يُعَبِّرُ بها عن نوع من تتابع، يعود باستمرار، ويدعوها "إنتظاما" أو "قانونا"، يفسر بها حدوث الأشياء بكيفية من الكيفيات، معتقدا وجود مُشَرِّعٍ وراء ذلك ومتناسيا أن تفسير الواقع يتطلب الحياد، أو عدم مطاوعتنا لـــ"غريزتنا" التي تقضي

---

[1] Ess. d'auto., NT., 5
[2] Alfred FOUILLE., op.cit., p.288
[3] Gilles DELEUZE : Nietzsche et la philosophie., 4° éd., PUF/Quadrige., Paris., 2005., p.7
[4] APZ., du criminel blême, p.47
[5] Dieter HENRICH : La découverte de Fichte (conférence prononcée au Collège de France le 26/04/1966)., Revue de métaphysique, N°2, 1967., p.155

بأن نبحث لكل مؤثر عصبي عن سبب وأن نتمثله لها[1]. ورغم هذا كله، فإنه لا بد من تبيان المخرج الذي سينفلت عبره نيتشه نفسه من الوقوع في شبكة العنكبوت التي حاكها بنفسه، مادام يقدم لنا إرادة القوة كأرضية لكل تفسير؟.

يبين لنا نيتشه، من خلال بحثه في شرط الحياة- إنطلاقا من محاولة معرفة إلى أي مدى ستظل الحقيقة متحملة التمثل مادامت الحاجة إليها [إلى الحقيقة] **قد تأكدت** على أنها أيضا قوة تحفظ الحياة وأن فعل الحياة إصطدم بفعل المعرفة- أن التفسير السابق يستند إلى نوعية معينة من الحياة، نوعية أفضت إلى العدمية، إلى نقيض للحياة، ومن ثمة لا بد من تجربة جديدة[2]، يأخذ فيها الفرد التجارب الماضية بعين الإعتبار وأن يستبدل الضرورات السابقة بضرورات جديدة، يكون فيها البقاء وملء الحياة معيارا، ومنها قبول المتضادات لضرورتها للحياة؛ فأن يكون المرء غنيًا بالتناقضات، فذلك دليل على خصوبته وعلى كونه الأكثر حكمة[3]، إذ "يرتبط لدى كل عرق رجالي، قوي بقي قريبا من الطبيعة، الحب بالكره، العرفان بالحقد، الطيبة بالقلق، الفعل الإيجابي بالفعل السلبي، إرتباطا وثيقا"؛[4] والأمر كذلك بالنسبة للشعب أو الحضارة، مثلما تدل على ذلك عبارة: "إن العنصر التاريخي والعنصر غير التاريخي لضروريان بنفس القدر لصحة فرد أوشعب أو حضارة"[5]، التي يمكننا أن نجد أصولها في أولى كتابات نيتشه كقوله: "وهكذا يمكن تكثيف طبيعة بروميثي الإيشيلي Promethée eschylléen المزدوجة ومنشأها الديونيزي الأپوليني في هذه الصيغة الموجزة: "كل موجود فهو منصف وغير منصف، وقابل للتبرير بنفس القدر في الحالتين"، هنا يكمن عالمك**!** وهذا ما يسمى عالما**!**"[6]. وهكذا فكلمة "حقيقة" لا تدل في فكر نيتشه بالضرورة على نقيض الخطأ[7]، لأن **الإعتقاد في الحقيقة** واللاإعتقاد لَيْسَا سوى رَدَّيْنِ سيكولوجيين لكافة مشاعر القيمة السابقة[8]، والحديث عن إختلافات حيث لا وجود سوى لتباين في الدرجات، كالإختلاف بين الصحة والمرض[9]، بين صفتي "حسنة" و"سيئة"[10]، بين الحب والكراهية[11]، بين اللذة والألم[12] ...الخ، سبق لنا وأن أشرنا إليه.

---

1 VP,LI, 158 ; VP,I, LII, 245
2 GS, 110
3 VP,II,LIII, 478 ; Cré.id., la morale, une anti-nature, III, p. 34
4 VP,I, LI, 277
5 UIHV., I, p.99
6 NT, 9, p.93
7 VP,I, LII, 308 ; VP,I,LI, 194
8 VP, II, LIII, 6C
9 VP,II,LIII, 438 ; VP,I,LII, 533
10 VP,I,LII, 426
11 ibid., 423
12 ibid.,187

"إن الأسباب ذاتها التي تؤدي إلى إضعاف الإنسان، لَتَرْفَعُ النفوس القوية جدا والنادرة جدا إلى مستوى عظمة"[1]، وذلك ما يمكننا شرحه بالمنظورية والسيادة .

– **المنظورية والسيادة:** تتقاطع نقطتي السيادة والمنظورية في فلسفة نيتشه عند فكرة التميز وتظهر في شكل نقد جذري للمعرفة والصحيح والحقيقة، للكيفيات التي يتم وفقها بلوغ الصحيح والحقيقة، للموضوعية...إلخ، وتبين لنا ضرورة تفوُّق الحياة على نفسها باستمرار، حين نربطها بالإنسان المتفوق باعتباره وسيلتها في تفوُّقها في ذلك، أن القيم التي ساعدت لأطول مدة، كقيم المسيحية مثلا، لم تكن سوى "أنواعا للنسبية"[2]، تعكس كيفيات معينة في تناول الموضوعات، شَرَحَهَا نيتشه بإسهاب بموضوعات GM– أي: الخير والشر، الطيب والخبيث، المثال الزهدي...إلخ– أين نلمس الأرضية الطبيعية التي تستند إليها معظم تفسيراته، وبهذا المعنى يربطنا نيتشه بموضوع قلب القيم والعودة الأبدية. فقد ذكر مثلا: "نحن المفكرون المتحررون "قلبٌ لكافة القيم" وإعلانُ حربٍ حيٍّ وظافرٍ على مفهومي "صحيح" و"خاطئ" القديمين. إن ما نكتشفه الأثمن هو ما نكتشفه الأخير. بيد أن أثمن الإكتشافات هي **الطرق**. لقد جلبت كافة طرقنا وكافة شروط روحنا العلمية اليوم إلى نفسها، ومنذ ألفيات، أعمق إحتقار: وبسببها وجدنا أنفسنا مَقْصَيِّين من التعامل مع "شرفاء الناس"– وقد أُعْتُبِرْنَا "عدوا لله" ومُزْدَرٍ بالحقيقة، و"مسكون"[3]. وحين عاود الحديث عن **ميلاد المأساة** كأول قلب للقيم لديه وكنقطة إنطلاقه، فإنه تحدث عن الحالة الديونيزية، أين يتجلى "الرضا بالحياة إلى غاية أبعد وأضرم مشاكلها، الرغبة في الحياة مُضَحِيَّة وبمرح، بنماذجها الأكثر كمالا، خدمة لخصوبتها التي لا تنضب"[4]. وهكذا يتجلى لنا بوضوح، وعلى درجة كبيرة من الذوق الرفيع، الأساس الذي يكون فيه كل شيء ضروريا للحياة وذي أهمية في كل تفسير، ومثل ذلك أهمية اللامنطقي والخطأ والكذب[5]. وقد جاء ذلك من كون "عالم المصير غير قابل لأن يُصاغ في صيغة، "خاطىء"، "متناقض"[6].

إلى تاريخ ظهور فلسفة نيتشه، ساد اعتقاد في ضرورة حفظ النوع، وفي أقصى تقدير: في تحسينه، وذلك إعتقاد يعكس الأشكال الكلاسيكية للفلسفة، التي تجد تعبيرها في أوالية a priori كل معرفة، أي أن الإنسان ظل يبرر واقعه الراهن بواسطة الماضي، بواسطة أفكاره المسبقة، بواسطة تعامله مع الواقع بكيفية لا تُنِمُّ عن براءة الحواس. وبالنظر إلى حجم القوة الذي يتمتعون به، إلى الإستعمال المفرط لتلك القوة، فإن الأرستقراطيين يولون الأشياء قيمها ويعطون أنفسهم الحق في

---

1 VP,II,LIII, 278

2 Graig BEAM : Virtue beyond morality : Nietzsche's ethical naturalism(a thesis presented to the University of Waterloo for the degree of doctor of philosophy in philosophy)., Ontario, Canada., p.35

3 Anté., 13

4 Cré.id., ce que je dois aux anciens, 5

5 HTH, 31-32-33

6 VP,I,LI, 138

التصرف بكيفيات شتى تعكس مدى تمتعهم بالقوة، فإن الإنسان المتفوق كهدف للبشرية، ومعنى لوجودها في هذا العالم، سيكون بمثابة تجاوز للإنسان الأخير، لـــ"حقائق"ـــه وقيمة التي تصب كلها في تيار العدمية، تجاوز إرادي نحو ملء الحياة المرتبطة بتأكيد إرادة القوة. وبهذا المعنى لن تكون فلسفة نيتشه سوى مظهرا للذوق لأنها لأنها تجعل من الصدف المتميزة شيئا مرادا، إبداعا، تجعل من الإنسان المتفوق "من يُدِينُ بكل شيء لنفسه ولإرادته"[1]؛ ومن ثمة تبرز لنا من جديد عدة أفكار شديدة الإرتباط ببعضها البعض، من قبيل لا وجود للحقيقة، وهي الفكرة التي جعلت **دُلُوزْ** يعتبر المنظورية بديلا للحقيقة، أو السيطرة على الأرض بكيفية تتجاوز سير البشرية الطبيعي نحوها، أي السيطرة الإرادية، أو الموضوعية والسببية والمنطق الخ، وبتعبير آخر فإن نيتشه يعرض بديلا للواقع والفلسفة والوجود، بعد قلب القيم القديمة التي نبعت من رغبة الإنسان الجامحة في التعميم وجعلت التمثل الواضح أمرا مستعصيا[2].

يتجلى نقد نيتشه للفلسفة كنقد للإنسان الأخير والعدمية، التي تَحُدُّ من تفجر طاقات الإنسان بواسطة طوق القيم الخالدة الذي فرضته عليه وجعلته وكأنه يعيش في سجن حصين. فإذا تناولنا على سبيل المثال بعض الصيغ كـــ: الله خير، الحقيقة قيمة، العقل سعادة...إلخ، فإننا نجدها كلها تنطوي على تعميمات أو أنها تستند إلى فكرة الديمومة– وهذا ما يدل على إغفال أصحابها للمصير– ومن ذلك صارت القيم مبررات أخلاقية وحدودا لا يمكن تجاوزها، وتأكدت كـــ"حالة خاصة لإرادة القوة"[3]، يمكننا توجيه نقدين أوليين لها:

1- "لا وجود لظواهر أخلاقية، بل فقط تفسير أخلاقي للظواهر"[4]، كما أنه "لا يجب قياس ما هو "أعلى" و"أدنى" في الأخلاق بذراع [مقياس] الأخلاق: لأنه لا وجود لأخلاق مطلقة"[5]؛

2- ما ظل الفلاسفة يرونه عبر هذه النافدة، من جوانب العالم وبَدَا لهم جميلا إلى الحد الذي جعلهم يُصِرُّون على ألا ينظروا سوى من هذه النافذة، وحتى على محاولتهم منع الآخرين من القيام بمحاولتهم[6]، لا يعطيهم بتاتا الحق في الإستمرار في اعتقادهم ذلك لأنه هناك طرق شتى لبلوغ المعرفة، ومن جهة أخرى فإن إعتقادهم ذلك لا يعدو أن يكون أكثر من شرط لوجودهم، لوجود العدد الأكبر. وإذا أخذنا على سبيل المثال الموضوعية كمعيار لصدق الطروحات، فإننا سنلاحظ أن "الإنسان الموضوعي مرآة حقا: تَعوَّدَ على الخضوع لكل راغبٍ في أن يكون معروفا، ولا رغبة أخرى بغير

---

1 Georges-Arthur Goldschmidt introduction à **APZ**., p.XVIII

2 Turnali Aydan: Nietzsche and the later Wittgenstein., The Journal of Nietzsche studies., Issue 26, autumn 2003., p.55

3 VP,I,LI,210

4 Pbm, 108

5 A, 139

6 OSM, 359

المعرفة، على أن يكون"إنعكاسا"(...). إنه ليس نفسه سوى بالقدر الذي يقدر فيه على أن يكون موضوعيا: فعنده تلجأ الــ"طبيعة" والــ"طبيعي" إلى "شموليت"ــه الصافية. روحه المرآة، التي تسهر على أن تجعل نفسها ملساء دائما، لا تعرف كيف تؤكد ولا كيف تنفي، إنه لا يتحكم ولا يهدم(...) الإنسان الموضوعي وسيلة قياس ثمينة، وتُحْفَةُ مرايا، هشة وسريعة الذبول، يلزم ترتيبها وتشريفها؛ بيد أنه ليس غاية ولا مخرجا ولا إنطلاقة ولا رجلا إضافيا، يجد فيه **ما تبقى** من وجود شرعيته، ولا خاتمة– وأقَلُّ من ذلك، فهو ليس بداية وميلادا وسببا أوليا(...) إنه إناء(...) لا بد له من شكل ومحتوى كي يتشكل وفقهما؛ وبصفة عامة فهو إنسان بلا شكل ولا محتوى، إنسان "غير آبِهٍ"، ومن ثمة لاشيء آخر لدى النساء"[1]. إن إدعاء الموضوعية لَهُوَ لاشخصية أو إدعاء بالقدرة على البقاء **بعيدا للغاية،** ومن ثمة فهو رياء[2].

وفي مقابل ذلك، يعرض نيتشه التجربة الشخصية للذي يستند إلى حجم القوة الذي يمتلكه، لمن يعي حجم قوته الكامنة فيه، لمن تكون حقائقه تجربة معاشه، وفي النهاية لمن يأمر بحقائقه وبأشيائه العظيمة، على حد تعبير زرادشت، وبذلك يظهر تميز السادة والنبلاء وغيرهم من صفوة المتفوقين الذين يُوجِدُون القيم الجديدة:

"إنه حول موجدي القيم الجديدة يدور العالم، يدور بكيفية خفية،

بَيْدَ أن الجمهور والمجد يدوران حول الكوميديين: وذلكم مجرى العالم.

يجري كل ماهو عظيم، بعيدا عن السوق والمجد: وبعيدا عن ساحة السوق والمجد يقيم دائما مبدعوا القيم الجديدة"[3].

"في البدء كان المبدعون شعوبا ولاحقا فقط صاروا أفرادا، وفي الحقيقة فإن الفرد نفسه أصبح أحدث الإبداعات"[4].

"قديما كان المبدع يبحث عن رفاق و أبناء لأمله: بَيْدَ أن ذلك صار مستحيلا سوى إذا إبتدعهم بنفسه"[5].

يجرنا نيتشه بواسطة سلسلة أفكار معيارية نحو إكتشاف المبدع كفردية في غاية التميز، ومن جهة أخرى نحو ذروة فلسفته، أين يضحى الفن وحده قادرا على التعامل معها، حيث نكتشف مدى تأثره بقدماء الإغريق، فمثلا عبارة: "وهكذا تلعب النار الحية دائما، كالطفل والفنان، وتبني وتُهَدِّمُ بكل براءة"[6]، التي ساقها في حديثه عن لعبة **آيون** (الزمن والخلود) لدى هيراقليط، تنقلنا إلى قصيدة قصيرة في مطلع **GS** :

---

[1] Pbm, 207

[2] VP,I,LI, 42-55

[3] APZ, D. Mouches du marche, P 68-69

[4] APZ., des 1001 buts, p.79

[5] APZ., de la félicité malgré soi, p.223

[6] Phil. ETG., 7

" بلى أعرف من أين أتيتُ!
جوعان كاللهب،
أتأجَّجُ كي أحرق نفسي،
رمادٌ ما أتركه خلفي
أنا لهيب بالتأكيد"[1].

وفي هذه القصيدة نكتشف فلسفة المصير ومعايير ما يميز المبدع عن غيره من الفرديات الأخرى، من خلال إستعراض مجموعة أفكار من أعمال نيتشه في المرحلة الأخيرة:

1- **التجربة:** تكتسي الـ"حقيقة"، المتأتية من التجربة، أهمية قصوى في فلسفة نيتشه، لدرجة تجعل الذي يفهم نيتشه هو الذي يكون قد عاش تجربة مماثلة لتجربته[2]، رغم أن أصلية أعماله تبرز أكثر من خلال رفضه لجميع المؤمنين به ولجميع المنتسبين إليه، وتجد تلك الـ"حقيقة" معناها في عيش المرء لوجهي التفسير، إذ لابد [مثلا] من معرفة الصحة لأجل الحكم على المرض[3]، أو مثلما ورد في الفضيلة الواهبة: "ساعد نفسك بنفسك أيها الطبيب، وبذلك ستساعد مريضك أيضا، ولْتَكُنْ أفضل مساعدة له: أن يرى بعينيه من يشفي نفسه بنفسه"[4].

ويتفاخر نيتشه بكونه صاحب أعمق تجربة في هذا السياق بقوله: "إن كان هنالك شيء يشرح هذا الحياد، غياب التأييد هذا، الذي يميزني حيال قضية الحياة عموما، يكمن بلا شك في هذا الأصل المزدوج- لأعلى وأسفل سلم الحياة- الذي جعل مني في الآن نفسه **منحطا** و**بداية**. لديَّ من رفعة حاسة شم لمؤشرات الصعود والأفول ما لم يحدث وأن حاز عليه إنسان من قبل. أنا سيد في هذا **بكل جدارة:** أعرف الإثنين، أنا الإثنين(...). لقد تدربت لفترة طويلة على إعتبار المفاهيم والقيم **الأكثر سلامة**، انطلاقا من منظور مريضٍ، ثم وبشكل عكسي، وانطلاقا من الملإ والضمان الهادئ لحياة **ثرية**، النظر إلى أسفل، إلى العمل الخفي الذي تقوم به غريزة **الإنحطاط**. إنه من هذا حُزْتُ عل تجربتي الحقيقية، وإذا كنتُ قد صرت مُعَلما في شيء ما، فإنه في هذا الأمر بعينه، وإذا كانت هنالك قدرة ما بين يداي، فهي قدرتي على **قلب المنظوريات:** ولهذا فأنا موفق الآن، و هذا أيضا سبب أولي يجعل، ربما لي وحدي، من "قلب القيم" شيئا ممكنا(...) أنا النقيض تماما للــ**منحط** لأنني كنت للتو أتحدث عن نفسي"[5].

---

1 GS., 62 Ecce homo
2 EH, pourquoi j'écris de si bons livres, 1
3 VP,II,LIII, 438
4 APZ, de la vertu qui donne, II, p.104
5 EH, pourquoi je suis sage, 1

2- **معيار القيمة:** تبين لنا أمهات الأفكار التي دَوَّنَهَا نيتشه إبان مرحلته الأخيرة، أن الرؤية المزدوجة والعودة الأبدية جاءت كتتويج لفلسفته، مثلما جاءت إرادة القوة كمفتاح متصوَّرٍ لها[1]، مما يضعنا على عتبة سؤال خطير يدور حول فكرة إن كان نيتشه قد أراد تبرير جميع أفكاره وتفسيراته وتحليلاته بالطريقة المنظورية كي تضحى في النهاية مصيرا devenir؟ إن لم يكن نيتشه قد إصطدم بآخر علامة إستفهام تضع حدا لفلسفته؟ إن كان قد ترك لنا معيارا نفهم بواسطته معنى فلسفته ؟

أعتقد أن الكثير من الباحثين بلغوا هذا التساؤل ليفترقوا بعد طرحه، حيث تساءل البعض: "كيف يمكن لنظرة نيتشه أن تكون صحيحة حين يكون كل موجود، منظوريا ؟"[2]. ولم يختلف عنهم من تساءلوا عما إذا لم تكن المنظورية في حد ذاتها مطلبا منظوريا؟[3]، أو أولئك الذين تساءلوا عن أنه "في غياب الحقيقة والشغف الذي تنطوي عليه، كيف لنا أن نتفادى الفوضى، محاربة الإستعمال اللامحدود للقوة وكذا الوقاية من الإضطهاد؟"[4] إلخ. وقبل الخوض في الإجابة، تجدر بنا أولا الإشارة إلى المعطيات المتوفرة لدينا:

تظهر المنظورية كطابع لتسمية الحياة، انطلاقا من كونها طريقة لرفض الفلسفة "الأخيرة"، بكل ما تحمله في طياتها من "حقائق" ميتافيزيقية و"حقائق" مبنية على معرفة الشيء في ذاته...إلخ، إلا أن نيتشه يقدمها لنا في شكل رقصات* يلامس فهمها، لدى محدودي ومتوسطي الإطلاع على مؤلفاته، حدود الجنون، ومثال ذلك قوله: "لكي يكون المبدع نفسه الطفل المولود، عليه أن يكون أيضا الواضعة و أَلَمَ المخاض الذي تحس به الواضعة"[5]؛ أو قوليه التاليين: "الجرأة الجسورة، الحذر الطويل، الـــ"لاء" القاسية، القرف، الشِّقَاقُ في الحي،- من النادر رؤية كل هذا وقد التقى! بيد أنه من تلك البذور تنشأ الحقيقة !"[6]؛

"شجعانا، لا مبالين، ساخرين، شرسين- هكذا تريدنا الحكمة أن نكون: إنها امرأة ولا تحب أبدا سوى محاربا"[7].

ومن هذه الأمثلة نخلص إلى معيار القيمة، ونقدمه في نقاط:

---

1 Walter A. KAUFMANN : Nietzsche., Princeton University Press., NJ., 1950., p.99

2 John HARTMANN : Nietzsche's use ofmetaphor,http://www.geocities.com/Athens/1575/nmetaphor.html

3 G. Beam., op.cit., p. 39

4 R. Roach, op.cit., p. 87

* هناك الكثير من الفقرات التي تحدث فيها عن " رقصات"ــه ومنها بصفة أخص APZ، رقصات إذا ربطناها بموضوع المنظورية يكون بمقدورنا وصف فلسفة نيتشه بِرُمَّتِهَا على أنها فلسفة رقص.

5 APZ., sur les îles bienheureuses., p. 115

6 APZ., des.vieille et des nouvelles tables, 7., p.284

7 APZ., lire&écrire., p.51

- **التجربة المتميزة للغاية:** التي تجد تعبيرها في ما تقتضيه الفلسفة حسب نيتشه، أي في "العيش إراديا في الجليد وعلى القمم- في البحث، في الوجود، عن كل مثير للغربة والتساؤل، عن كل ما ظل إلى الآن مستبعدا من قبل الأخلاق. أنا مدين للتجربة الطويلة المكتسبة خلال مثل ذلك التوغل إلى الميادين **المحرمة** بأني تعلمتُ التفرّس بكيفية مغايرة عما هو متمني بلا شك، في الأسباب التي أدت إلى كل " أخلقنة" و"مثلنة" moralisé et idéalisé إلى الآن"[1]؛

- **امتلاك القوة:** لأنها هي التي تولي صاحبها حقوقا، ولكن لا بد للمرء أن يحوز على قدر من الشجاعة يتوافق مع قوته[2]، شجاعة في غياب الشهود[3]؛

- **المخاطرة:** "يحب الرجل الحقيقي شيئان: الخطر واللعب"[4]، وفي هذا الرمز يكمن المعيار الحقيقي للقيم، أي من خلال معرفة كمية الحقيقة التي يعرف عقلٌ ما كيف يتحملها، يعرف **المخاطرة** بها[5]. وفي الحقيقة تعكس إرادة المخاطرة هذه: ثقة المبدع في نفسه وقدرته على إبداع الأفضل وتجاوزه باستمرار. فـــ"الذي يبلغ مثله الأعلى، يتجاوزه من هذا الأمر نفسه"[6]، فضلا عن أنه "حين يضحى أمر ما واضحا، فإنه لن يعد يعنينا"[7]. وأكثر من ذلك فـــ"الذي تحترق روحه لأنه أَلَمَّ بكافة القيم(...)، الذي أراد، بالتجربة الأكثر شخصية والأكثر مغامرة، أن يتعلم ما الذي يشعر به فاتحٌ ومستكشفٌ للمثال الأعلى، أو فنان، أوقديس، أو مُشَرِّعٌ(...) أو إلهيٌ غريب على الموضى القديمة، لا يحتاج سوى لشيء واحد وأساسي: **العافية الكبيرة**، صحة لا تكفي حيازته لها، بل عليه أن يبلغها باستمرار لأنه سيغامر بها باستمرار، سيقامر بها"[8].

- **القفز إلى ما وراء الخير والشر:** كمؤشر على حرية نجمت عن كفاءة وعن فهم عميق للحياة والتاريخ، حياة يتعامل باستمرار بظلم معها لأنها لا أخلاقية في منشإها[9]، "حياة تستند إلى الظاهر، الحيلة، الوهم، وجهة النظر، الضرورة، المنظورية والخطأ"[10]؛ وتاريخ أخطاء وأرضيات خاطئة لا تقود سوى إلى العدمية، التي تَحُولُ دون تمكن الإنسان من وضع غاية محررة له"[11]. ومن ذلك كانت ضرورة تجاوز ارتباط الحاضر بالماضي وبناء علاقة جديدة بين المستقبل والحاضر، علاقة مبنية على كيفيات جديدة في تقدير القيم، علاقة تُنِمُّ عن ذوق رفيع لفيلسوف يُشَرِّعُ لما هو آت ويحب

---

1 EH, avant-propos., 3
2 EH, NT, 2., p.141
3 VP,II,LIII, 221
4 APZ., des petites vieilles., p. 88
5 EH, avant-propos., 3
6 pbm, 73
7 pbm, 80
8 EH., APZ, 2
9 Jaspers, op.cit., p.147
10 Ess.d'auto., NT, 5
11 Norman Palma., Nietzsche et le devenir du monde., op.cit., p.377

فضيلته مثلما تحب الأم إبنها دون انتظار أي جزاء على حبها، دون الخوف من أي إندحار. فضيلته هي ذاته الأغلى، تعطشه دوما لبلوغ ذاته والإنطواء للعودة إليها أبدا [1]! ، وهذا هو الفن الذي يريد، على حد قول ريغل Riegle تجسيد عالمه،[2] وهذه هي الديونيزية التي يختفي فيها كل فرق بين اللحظة والخلود وبين النسيان والاحتفاء بالحياة ...؛ وفي النهاية، هذه هي صراحة نيتشه التي نسميها مثالية، لأن الماديين والموضوعيين يعلَمون، من جهتهم أيضا، أن القيم السائدة في "عالمهم" من إبتداع الفرديات المتميزة ولكنهم لا يصرحون بذلك؛ هذا هو إيمانه الذي قال عنه: "نحن الذين ننتمي إلى إيمان آخر(...)، أين سنضع رجائنا ؟ في **فلاسفة جدد**، لأنه لا خيار لنا، في عقول في غاية القوة وكاملة كي تُمَهِّدَ لمجيء قيم مخالفة، كي تعيد تقدير القيم وتقلب الــ "قيم الخالدة"، في رواد ٍ ورجال ٍ من المستقبل، قادرين على إلصاق الزمن الحاضر بالسلسلة التي تُلزم إرادة ألفيات على دخول **دروب** جديدة، لتعليم الإنسان مستقبل الإنسان، مستقبلا سيكون **إرادته** التي يرتبط بها لكي يحقق إنجازا تربويا وانتقائيا ضخما، ومن ثمة ليضع حدًّا للسيادة المؤلمة للامعنى وللصدفة، التي سَمَّتْ نفسها "تاريخا"-لامعنى "العدد الأكبر" الذي ليس سوى آخر تعبير"[3].

وهكذا نبلغ فكرة السيادة بشكل جلي، السيادة التي تجعلنا نقف بين أن نحكم على "حقيقتنا" بأنها صحيحة وبين أن نستسلم للفوضى التي تحدث عنها رواتش R. Roach، والتي تعكس غموض المعيار الذي يتعرف بواسطته المتميز على القيم التي يصنعها في وسط مليء بشتى التصورات والمنظوريات. إنا نقول هذا بغض النظر عن الجانب الإيجابي في فكرة السيادة وعن التدرج الذي يعكس قدرة المتميز على القيادة ويجعل إنصياع وطاعة وانقياد الباقي أمرا طبيعيا .

وباختصار، تنبع مبادئ السيادة من الحياة بجميع وجوهها، وتعكس درجة متميزة من الشعور بالقوة، من الإستزادة في القوة مثلما تبين ذلك الجمل التالية:

- "بَجِّل أيضا الأشياء القبيحة واعترف بها، وحين تعجبك، تجاهل تماما كيف يمكن للمرء أن يخجل مما يعجبه؛ ذلكم هو مؤشر السيادة جملة وتفصيلا"[4]؛

- "معرفة المناقضة: تَحَمُّل التناقض مؤشرٌ كبير على الثقافة، ولا أحد يجهل هذا اليوم. البعض يعرفون أنه حتى الناس المتفوقين يتمنون ويثيرون هذا التناقض لكي يدلهم على موقع ظلمهم، الذي يجهلونه بغير هذا. غير أن معرفة المرء المناقضة والإحتفاظ بالضمير الحي وهو يحارب التعودات

---

1 APZ, des vertueux., p.127

2 Henri ZERNER : L'art., Faire de l'histoire., Vol.II., sous la direction de Jacques LE GOFF et Pierre NORA., Gallimard., Imp. Brodard et Taupin, La Flèche (Sarthe)., 1986., p.262

3 pbm, 203

4 VP,II,LIV,600 ; OSM,329

والعادات والورعات، لَفَنٌّ يتفوَّق على سابقيه، وهذا حقا أكبر ما في ثقافتنا، ما فيها من جديد وعجيب، إنه الطريقة المثلى لكل عقلٍ إنعتقَ"[1]؛

- "إنسانية في الصداقة وفي التحكم: "إذا إخترتَ الشمال فسأتَّبِعُ اليمين، وإذا اتبعتَ اليمين، فإني سأذهب شمالا"- إن مثل هذا الإحساس لَمُؤَشِّرٌ أعلى للبشرية في علاقتها الخاصة، وحيث لا وجود له ينتهي كل نوع صداقة وتبجيل أتباع وتلاميذ، لأن يصير نفاقا"[2].

وإلى جانب ذلك، ترتبط السيادة بالمنظورية ارتباطا وثيقا لأنها تستند إلى الإرادة، إرادة من يُقَدِّر،إرادة تقول باستحالة عزل الذات العارفة عنها [عن الإرادة]، كما أن المنظورية نتيجة لاستحالة بلوغ الشيء في ذاته، مثلما بين نيتشه ذلك بواسطة لعبة الكبير والصغير، والتي تكشف عن أن الإنسان لم يكن يدرس سوى العلاقات بين الأشياء، لم يكن يفعل أكثر من تقديم تفسيرات حتى ولو تعلق الأمر بالوضعيين الذين يقولون: "لا وجود سوى لوقائع فقط"[3]، حتى لو تعلق الأمر بأكبر رجال المنطق، الذين يبدو لهم هذا العالم منطقيا وينسون أنهم هم من جعله كذلك[4]، وذلك ما ينم عن رغبة الإنسان في وجود عالم أفضل، أو عالم حقيقي، ألغاه نيتشه، لكونه فكرة زائدة ولا فائدة منه، بمعية عالم البادبات في ذات الوقت لعدم توفر الأسس لمعرفة إن كان حقيقيا أم وهميا[5].

إن حاجة الإنسان هي التي تفسر الكون، وكل غريزة فيه هي نوع من الطموح إلى الهيمنة، ولكل واحدة منها منظوريتها الخاصة بها، وهي التي تحاول أن تفرضها كمقياس لبقية الغرائز الأخرى[6]. كما أنه في كل تقدير قيمي، يتعلق الأمر بمنظور محدد، حيث "يرى كل مركز قوة بقية الأشياء في منظوريته الخاصة به، أي وفق نمط **تقدير** معين، وفق كيفيات في التصرف والمقاومة"[7].

ويتضح ارتباط السيادة بالمنظورية أكثر في حديث نيتشه عما سماه "موضوعية" الذهن، حين قال: "بيد أن النظر بكيفية مغايرة، **الرغبة** في النظر بكيفية مختلفة، ليس تمرينا رديئا، إعدادا فاشلا للذهن لأجل "موضوعيتـــ"ـــه المستقبلية- وقد فُهِمَتْ هذه الأخيرة، ليس في معنى "التأمل اللامبالي" (لأنه هنا يكمن اللامعنى واللامعقولية"، بل كخاصية **تَحَكُّمِ** المرء في نَعَمِهِ ولائِهِ، جاعلا إياها تتصرف، عند الحاجة، بكيفية تستعمل هذا التنوع لأجل المعرفة حتى ولو تعلق الأمر بالمنظوريات والتفسيرات الانفعالية (...)

1 GS, 297
2 OSM,231
3 VP, I, L II, 133
4 VP, I, L I, 135
5 Graig Beam., op.cit., p.35 ; Cré.id., comment, pour finir, le “monde vrai” devint fable., 6° point
6 VP,I,LII,133
7 VP,I,LI,208

لاوجود سوى لنظرة منظورية، "معرفة" منظورية، و**كلما** دخلت حالتنا العاطفية في اللعب حيال شيء ما، **كلما** كان لدينا **المزيد** من العيون، شتى العيون لهذا الشيء، كلما كان "مفهومــ"ــنا بشأن هذا الشيء وكانت "موضوعيتــ"ــنا كاملة"[1].

أخيرا بقي لنا أن نتساءل بشأن تنوع المنظوريات، عما إذا لم تكن منظوريات نيتشه لا تتناقض مع الأنساق؟ وإلا ما جدوى حديثه عن اللامعنى واللامعقولية؟ ما جدوى إستعراضه للمهام الثلاث التي تحتاج إلى من يُعلِّمها للغير، أي تعلم **النظر** والتفكير والحديث والكتابة ؟[2] ما جدوى حديثه عن فلاسفة مُشَرِّعين؟.

1 GS,374 ; GM,III,12

2 Cré.id., ce qui manque aux Allemands,6., p.56

أ- التاريخ:

ما أن نبلغ موضوعات التاريخ والثقافة والحضارة حتى يأخذ وضوح ونسقية فلسفة نيتشه في التجلي بشكل كامل من خلال ارتباط عناصرها الرئيسية، وحتى الفرعية منها، ببعضها البعض حول موضوع الحياة، بجميع مرادفاتها وصفاتها épithètes الكثيرة، مما يجعلها فلسفة أُنجزت من مختصرات des raccourcis؛ وفي هذه الموضوعات أيضا، وحتى نستعمل تعبير نيتشه نفسه، نجد مكمن كل ما قبل تاريخ الأفكار الأساسية في هذه الفلسفة: كإرادة القوة والعودة الأبدية والرضى بالقدر،...إلخ، ونقف على المهمة التي أوكلها نيتشه لنفسه وللفلاسفة الجدد، والتي تلخص كل تاريخ البشرية وتجد تعبيرها في العديد من العبارات مثل:

"الآن والكان على الأرض– آه ! يا أصدقائي– هو ذا الشيء **الأصعب تحملا** بالنسبة لي: وكنت لن أعرف كيف أعيش لو لم أكن عرّافًا بما هو آتٍ"[1].

يظهر نيتشه في هذه العبارة، وفي مثيلاتها أيضا، مُلمًّا بتقسيمات التاريخ الرئيسية (ماقبل التاريخ، التاريخ القديم، الوسيط، الحديث والمعاصر له، تاريخ المستقبل) وحدًّا فاصلا بين الماضي والآتي، بين النماذج التي أوجدتها الصدف، أو تاريخ الصدف، والتاريخ الذي يريده أو حتى الذي يأمر به؛ بين الماضي والحاضر كتاريخ لقيمتي الخير والشر من جهة والقفز إلى ما ورائهما، إلى المستقبل حيث تسود قيم الإنسان المتفوق ويتجلى الإنسان المتفوق نفسه كتجسيد لإرادة قوة تجاوزت الصدف لتعطي الأرض معناها.

تبين لنا النقطة الأخيرة، أهمية الأرضية التاريخية التي تستند إليها فلسفة نيتشه في التاريخ، التي تهدف إلى تطويع التاريخ، وكذا المجهودات الهائلة التي بذلها في تقديم قراءات جديدة لأحداث صارت إلى زمنه "أشياء مألوفة " و"مقدسة" و"حقائق"، وفي استخدام "مِبَضَّع التاريخ"[2] لتوجيه النقد لشتى الكيفيات التي كُتِبَ بها النص التاريخي من قبله. وما كان هذا ليحصل لولا إمتلاكه لناصية الرؤية الثاقبة والبعيدة ولقدرته العجيبة على غربلة كَمٍّ معرفي وإثنولوجي وتاريخي عجيب عن شتى الثقافات وفي جميع الفترات، وهو بذلك، وفي هذا المعنى، أنتروبولوجي وفيلسوف تاريخ من الدرجة الأولى.

لن يمنعنا ما سلفت الإشارة إليه، ونحن في بداية الجانب العملي من البحث، من إبراز جوانب أساسية طالما أنكرها نيتشه في كتاباته، كتبرئة نفسه من الداروينية وتجاهله مرجعياته، كفلسفة شوبنهاور أو بوركارت...إلخ؛ وبذلك سنحاول توضيح بعض التساؤلات، التي طرحناها في الفصلين السابقين، من خلال إعطاء الكلمة لنيتشه لكي يقدم لنا درسا في التاريخ، من خلال وجهة

---

[1] APZ., de la rédemption., p.195

[2] UIHV,7., p.118

نظره هو، وحينها سنطرح "أغرب" سؤال في بحثنا كله والذي يقضي بإيجاد إجابة ممكنة لكيفية طرحه لتنبؤاته، التي رأى الجزء المتعلق منها بأوربا النور.

1)ـ نيتشه والتاريخ : لا شك في أن تخصص الفيلولوجيا يتطلب، من المنتسبين إليه، قدرا كبيرا من الإطلاع، خاصة وأنه يوفر لهم الوسائل الضرورية لذلك: كتعليمهم اللغتين اللاتينية والإغريقية. بيد أن ذلك لا ينتقص شيئا من نبوغ نيتشه المبكر، مثلما تدل على ذلك أولى محاولاته الفلسفية، والتي لدينا فيها من الأدلة ما يكفي لتبيان مدى أثر أفكار نيتشه الطالب في بفورتا Pforta على فلسفة نيتشه الكهل العبقري الهائم*، فقد كان واسع الإطلاع كأبناء عصره، ومنهم معلمه الأول شوبنهاور، وكتبه الأولى ملأى بمقولات وفقرات ومقتطفات أشعار لمفكرين من عصور شتى، والتي تأتي بعض فقراته أحيانا في شكل ردود أفعال مباشرة على قراءات جديدة قام بها[1]**، بيد أن الذي يهمنا في هذا السياق هو ما قرأه مما له علاقة بطروحاته وأفكاره في التاريخ والثقافة والحضارة، وكذا الشخصيات التي احتكَّ بها وتأثر بها، دون نسيان قدرته الكبيرة في الإقتباس والتي تُنِمُّ عن موهبة فذة.

فضلا عن كونه قدَّم العديد من المحاضرات عن الإغريق، أشار نيتشه إلى أهمية الكثير من المؤرخين والفلاسفة أمثال:

– بلوتارك Plutarque ، الذي عَدَّ أعماله ضمن تلك "التي تتنفس قوة بطولية" في زمانه[1]؛

– صالوست Salluste: الذي أيقض فيه الإحساس بالأسلوب وبالهجاء متصورا كأسلوب[2]؛

– ڤزينوفان Xenophane: "حياة خارقة كشاعر متنقل وصار بفضل رحلاته رجلا تعلَّم الكثير ولديه الكثير مما يمكن تعليمه؛ لقد استجوب وروى ولذلك عَدَّهُ هيراقليط من بين المؤرخين المُلِمِّينَ polyphistoriens، وبصفة عامة من ضمن العقول "التاريخية"[3]؛

– ثيوسيديد Thucydide: وذكره في سياق حديثه عن الإشارات المميزة للتاريخ القديم ومنها: "عدم وجود آلهة خطايا ولا حياء إجتماعي"؛ ولكونه "يستمتع بمختلف النماذج البشرية ويرى بأن لكل واحد جملة خاصة به من الرشاد ويبحث عن اكتشافها"، فإن نيتشه قال عنه بأنه "النموذج الذي أشعر بأني قريب منه"[4].

---

* من بين الموضوعات التي تناولها وعمره 18 سنة: "الفاتوم والتاريخ"، وسوف يعود إلى هذه الفكرة أثناء حديثه عن العودة الأبدية.

** بعد إطلاع نيتشه على كتاب Louis JACOLLOT : Les législateurs religieux (Manou, Moise, Mahomet), Paris , 1876 قَارَنَ بين الديانات الهندية وديانات التوحيد وكتب رسالة إلى غاست P. Gast في: 1888\5\31 يقول فيها: "لم يَبْدُ لي اليهود بعدئذ سوى عِرقًا من تشاندالا ممن تعلموا من **معلميهم** المبادئ(...) يظهر لي اليهود على أنهم "وسطاء" لم يبدعوا شيئا" . (Cré.id., Notes., p.129 –130)

1 LP.,34

2 Cré.id., ce que je dois aux anciens.,1

3 Phil.ETG ., 10

4 FP /A 6[383]

- زرادشت: "كان عليَّ أن أُشَرِّفَ **فارسيا، زرادشت،** فالفرس أول من **تصور** التاريخ في مجموعه. سلسلة تطورات يتبوأ كل واحدة منها نبي، ولكل نبي "**حازار**"ه son **Hazar**، ألفيته"[1].

وإلى جانب هذا العدد البسيط من الموتى، وأصدقاء نيتشه من الموتى، والذين سقنا أسمائهم على سبيل المثال لا الحصر، عاصر نيتشه أخصب فترة في الإنتاج الفكري والفلسفي. ففي زمنه اتضحت معالم الإشتراكية والداروينية وتقوَّى تيار التاريخية وظهرت الوضعية ...إلخ، إلا أن علاقته المباشرة مع المؤرخ الكبير جاكوب بوكارت Jacob Burckhardt كانت على قدرٍ كبيرٍ من الأهمية في نظرته للتاريخ عموما ولتاريخ الإغريق بصفة خاصة، وتكفي إطلالة سريعة على كتاب: "Considération sur l'histoire universelle" لملاحظة كم هو نيتشه مَدِينٌ له:

- "ينظر فلاسفة التاريخ إلى الماضي مخالفا للحاضر وفي عمق الأول مرحلة تحضيرية لحالة تطورنا الراهنة"[2]؛

- "في مجال العلم، لن نقدر على بلوغ التحكم سوى في النطاق الضيق لتخصص ما، وأنه من الضروري معرفة واحد [علم] على الأقل وبعمق"[3]؛

- "كل سقوط في التاريخ هو دائما انحطاط وإنهاك يعتري الباطن، وتكفي حينها هزة صغيرة خارجية لتهديم كل شيء"[4]؛

- "الفنون والفلسفة، هم أفضل الشواهد لدى كل عصر"[5]؛

- "سنعرض لاحقا أفكارنا بشأن الوجود المسبق للسعادة لدى المبدع"[6]؛

- علاقة الدولة والكنيسة بالثقافة [7]...إلخ.

سوف نلاحظ، من خلال بحثنا هذا، مدى تلاقي أفكار نيتشه وتطابقها أحيانا مع أفكار بوكارت، بل إن عددا منها سيذكره نيتشه حرفيا في كتبه كما هو الشأن بالنسبة للأوليين أعلاه. وباختصار، ولكي نختم هذا العنصر، نُذَكِّر بالفقرة التي عنوانها بـــ: "السباق إلى الجحيم"، والتي ذكر فيها أربعة أزواج من الرجال العظماء الذين يتفاهم معهم والذين قال بشأنهم: "أبيقور Epicure ومونتان Montaigne، غوته وســـبينوزا، أفلاطون وروسو، باسكال وشوبنهاور. معهم أشرح لنفسي حين سِرْتُ لِوَحْدِي منفردا لمدة طويلة، ومعهم أريد أن أعطي نفسي الحق أو أعتبرها مخطئة، وأنصت إليهم حين يولون الحق لبعضهم البعض أو يُغلِّطون بعضهم البعض أمامي، ومهما قلتُ وقررتُ وتخيلتُ، لأجلي ولأجل غيري، فإني لا أُثَبِّتُ نظري سوى على هؤلاء **الثمانية** وأرى عيونهم مُركزة عليَّ(...). يبدو لي هؤلاء جِدُّ أحياء"[8] .

---

1 VP, II, LIV,155
2 p.2 et 3
3 p.16
4 p.18
5 p.44
6 p.45
7 p.50
8 OSM .408

أ- **تناوله لموضوعات التاريخ:** كلما ذُكر نيتشه في علاقته بالتاريخ إلا وتبادر، إلى أذهان الباحثين في فلسفته، العدد الثاني من لاآنياته الأربعة والذي خصصه لـــ:"**عن فوائد ومضار التاريخ على الحياة**"، كما ترتسم أمامهم تلك المصطلحات التي ضَمَّنَهَا إياه كـــ "الحس التاريخي" ، "اللاتاريخية" non-historicité، "القوى اللاتاريخية والمافوق التاريخية forces non historiques et supra-historiques...وغيرها، بيد أن الإمعان في جميع أعمال نيتشه لَيُبَيِّنُ لنا بالمقالات والفقرات والأفكار والمفاهيم حجم الكتابة التاريخية والأنتروبولوجية التي تنطوي عليها. وقد أصاب حين لمَّح إلى كونه الوحيد، من بين فقهاء اللغة، الذي اكتشف التاريخ القديم Antiquité في جميع الأشياء الأساسية، والذي ظل اكتشافه حِكْرًا على فنانين وسياسيين وفلاسفة[1]؛ وذلك ما يبين إطلاعه المبكر على تاريخ الإغريق، والذي سوف يشكل كنموذج للثقافة الرفيعة والقيم العالية، "أوليته" a priori و"فكرته المسبقة" و"ما قبل تاريخ فلسفته" كلها، رغم أنه سعى إلى تجاوزها بأفكار العودة الأبدية وبراءة المصير والرضى بالقدر، أي بما يمكننا أن نسميه بالمهمة التي أوكلها نيتشه لنفسه والتي تأَتَّتْ له من ملاحظتين أساسيتين:

1- اكتشافه للإغريق: لقد سمحت له سعة إطلاعه بأن يُنَمِّيَ في ذاته ذوقا أرستقراطيا مثلما كان لتأثير صداقته مع ڤاغنر وبوركارت عليه، وخاصة من خلال أهمية شوپنهاور بالنسبة لهم كلهم، أهمية كبرى في تناوله قضايا شتى بمنظور الفن والمعنى...الخ، والنظر إلى الماضي كله بنظرة مُشَكِّكَة، حيث إنتقد مثلا أولئك الذين "يَكِدُّونَ لكي يُبَيِّنُوا إلى أي مدى إستطاع الإغريق اكتشاف جيرانهم الشرقيين والتعلم منهم، وإلى أي مدى كان متنوعا ما أخذوه منهم"[2] ؛ وقد اعتبر أن مثل ذلك الإجتهاد لم ينتج لأصحابه، "من الناحية التفصيلية، سوى اليسير جدا". وبلغة متعالية، وضَّحَ بأن ذلك "كان بالفعل مشهدا غريبا، حين وضعوا ما يُدْعى معلمين شرقيين إلى جانب ما يفترض أنهم تلامذتهم الإغريق؛ ومؤخرا قاربوا بين زرادشت وهيراقليط، بين الهنود والإلياتيين، المصريين وأومپيدوكل Empédocle، وذهبوا إلى حد إعتبار أناكساغور Anaxagore ضمن اليهود وفيثاغور Pythagore ضمن الصينيين" [3]. وهكذا وضع نيتشه أصبعه مباشرة على ما سوف يسميه في UIHV بالمرض التاريخي .

2- انتباهه إلى فكرة أنه إذا استخلصنا من الوقائع ما علق بها من مشترك، الأشكال الأساسية للتجريدات الأخيرة، فإننا لن نتوصل إلى حقائق، لأنه لم يتوفر إلى الآن سوى التعميم كسبيل وحيد لبلوغ الحقيقة[4]؛ فمن خلال تناوله لموضوعات تاريخية، من زاوية الفن بشكل رئيسي، والتي ستجد تعبيرها في اللاآنيات الأربعة، أدرك أن التعميم في التاريخ تمييع للأشياء وتجاوز لخصوصية المتميز، فردا كان أم شعبا أو حضارة، ومنذئذ أخذ يتحدث عن عدم وجود قوانين تاريخية ويعمق

---

1 FP/HTH 19[4]
2 PhilETG,1,p,13
3 ibid,p,14
4 UIHV,6,p .132 ; VP, I, LI, 200

فكرته عن "إنتاج العبقري" كـ"انعتاق من التقاليد واختلاف في الرأي، لأن الفكر الحر هو الذي يصنع التاريخ"[1]؛ وبهذا المعنى تكون انطلاقته مستندة إلى إطار تاريخي، لأن الإغريق مثلا سيشكلون نموذجه المفضل، بل إننا لا نكاد نميز بينهم وبين نيتشه نفسه حين نعود إلى الرد الذي قدمه إلى الفلاسفة المشار إليهم أعلاه في النقطة **1**. فقد كتب يقول: "لقد تمثلوا [أي الإغريق] تماما الثقافة الحية لدى الشعوب الأخرى، وإذا كانوا بعيدين فلأنهم عرفوا بدقة، ومن أجل الرمية إلى أبعد ما يمكن، جمع الرمح من المكان الذي تخلَّى عنه فيه شعب آخر. إنهم رائعون في فن التعليم المفيد. ومثلهم، **علينا** بالتعلم من جيراننا جاعلين ما نحصل عليه من معرفة في خدمة الحياة، كسندٍ وليس في خدمة المعرفة الواسعة".[2] و"بالفعل فقد ابتدعوا **أكبر نماذج العقل الفلسفي**، لدرجة أن الفترة التي تَلَتْهُم كلها لم تبدع أي شيء مهم بمقدوره أن يضاف إلى ما ابتدعوه"[3].

سوف يشكل تفسير تميز الإغريق، كنموذج ظهر له، محور فلسفته في التاريخ والحضارة؛ فما المعنى الذي سينتهي إليه التاريخ عنده؟ وإلى أي مدى بيَّن فيه بنصوصه أنه صاحب نظرة متميزة، هو الذي "يميل لِعَضِّ اليد التي تغذيه"[4]، وشكَّكَ في كل التاريخ البشري.

ما نحن في حاجة إلى التذكير به في هذا السياق، هو ذلك الإطار التاريخي الذي تنطوي عليه فلسفته. فقد بدأ علاقته المباشرة مع التاريخ، في مرحلته الأولى، بجملة دراسات على قدر كبير من الأهمية بالنسبة لمساره اللاحق، ومنها: "التاريخ والفاتوم" و"UIHV"، واللذين تتقاطع فيهما نظرة نيتشه مع جملة عناوين له، تعود للفترة ذاتها،وهي: "الفلسفة في العصر المأساوي للإغريق"، "كتاب الفيلسوف"، "ميلاد المأساة"، "داڤيد شتراوس"، "شوپنهاور معلم"، "ريشار ڤاغنر في بيروت"...إلخ؛

وكلما شرع نيتشه في الإفصاح عن أفكاره الأساسية إلا واتخذ من المرجعية التاريخية أرضية له، إذ غالبا ما نقرأ له فقرات تبدأ بكلمة "تاريخ" أو لجوئه إلى التاريخ كحجة، مثلما تدل على ذلك عبارات: "فَلْنُلْقِ بنظرة على التاريخ" و"أقول أنه من وجهة نظر التاريخ"[5]، "ندرك بالتفحص التاريخي"[6]، و"لْنَسْأَلِ التاريخ" [7]، "بإمكاننا أن نتعلم من التاريخ"[8]، "نحن في حاجة إلى التاريخ"[9]، "التاريخ علم العلاجات"[10]، " تُقَوِّي الدراسات التاريخية أهليتنا لمثل ذلك التصوير"[11]، "الدحض التاريخي دحض نهائي" [12]...الخ .

---

1 FP/HTH 19 [89]
2 Phil.ETG,1,p.14
3 idem
4 John Richardson : Nietzsche's new Darwinism., op.cit., p. 18
5 GM,II,11
6 GM,III,9
7 GM,III,21
8 HTH,224
9 OSM, 223 ; CI,II
10 VO, 188
11 HTH, 274
12 A, 95

وإذا تتبعنا مثلا مصطلح "الحس التاريخي"، الذي تحدث عنه في CI,II، فإننا نكاد نجده في جميع مؤلفاته اللاحقة مثل: GS,83 ; HTH,274 ; GM,2,2 ; Pbm,224 ; Cré.id., la raison dans la philosophie . وبتعبير ما، يمكننا اعتبار **أصل الأخلاق**، إلى جانب **سيرته الذاتية** و**المسيح الدجال**، أفضل كتب نيتشه في التاريخ، هذا الكتاب الذي وعد فيه بتقديم دراستين لا تختلفان عنه كثيرا، نظرا للحماس الذي أخذ منه أثناء إنجازه GM، هما: "تاريخ العدمية الأوربية" و"إرادة القوة: محاولة لقلب كافة القيم"[1]، وكل ذلك إلى جانب كتب أخرى كــ: "Cré.id."، الذي قال عن عنوانه أنه "يعني في ترجمته: قريبا ستزول حقائق الماضي" [2]. وليس قريبا فحسب، بل لقد ضَمَّنَ الكتاب نقدا لجملة موضوعات في إطار ما أسماه "تاريخ أطول خطأ".

وإذا انتقلنا إلى الجانب الثقافي، فإننا نجد في نيتشه أنتروبولوجيا من نوع متميز يمكن الرمز له بعبارة: " لقد رأى زرادشت الكثير من الشعوب و البلدان"[3] ، أو بكلمة "المسافر"[*]، التي نجدها في CI,III,1 ; APZ ; GS ;VO... الخ، ويدلان فعلا على تَنَقُّلِه بين قيم العالم، الذي خلف من ورائه آثارا مكتوبة أو تحدث عنه المؤرخون والرحالة والإثنولوجيون... الذين خلفوا بدورهم آثارهم المُدَوَّنَة، وهذه نقطة أخرى تبين لنا مدى اعتماد نيتشه على الوثائق التاريخية، رغم أننا نرى فيه شخصا يعتمد على نوعية معينة من التفسيرات، ومن جهة أخرى تُظهر لنا هذه النقطة أيضا الأرضية التاريخية كمنطلق لنيتشه في تفسيراته. وأكثر من ذلك، فإن ملاحظتنا لمصاحبة بعض الموضوعات الأساسية له في أعماله (ومثال ذلك نقده لشتراوس وفاغنر، كرمزين مثلاً لواقع يرفضه) ثم رفضه لكل التاريخ البشري، من خلال قوله مثلا: "قبلي كان كل شيء مقلوبا "رأسا على عقب"(...) حقائق كل الأزمنة و"مثاليتها"[4]، وهذا ما نلمسه من خلال نقده لها في جميع كتبه، يكشفان لنا عن نقطة أخرى في فلسفته في التاريخ والحضارة.

ب- **نماذجه:** نستدل من إشارة زرادشت، في حديثه إلى أهل عصره في بلاد الثقافةـ حين قال: "أنتم عقيمون ولذلك ينقصكم الإيمان؛ بيد أن الذي وجب عليه أن يُبدع فهو من كانت لديه دائما أحلامه بالحقيقة وبإشاراتها في النجوم،- وقد كان له إيمان بإيمانه"[5] ــ بأن الإيمان عنده مرتبط بالآتي وليس بالماضي. وهذه عبارة مكثفة أخرى تلخص لنا فلسفة نيتشه برمتها وتؤكد معيارية الحياة التي يقابل بها سلسلة الرموز، أحادية الإيقاع تلك، المتمثلة في سقراط أو الإنحطاط الإغريقي، بولس أو المسيحية، لوثر أو الإصلاح، الثورة الفرنسية أو الإشتراكية أو الديمقراطية... أو كل ما نسميه معرفة، ويجد بدوره أقسى نقد له في عبارة: "ماذا عسانا نقوله؟ حاجتنا إلى

---

1 GM,III,27
2 EH., Cré.id., p.177
3 APZ, des 1001 buts., p.77
* في GS,380، يظهر الــ "مسافر" مؤرخا وبشكل واضح ومفهوم.
4 EH., Cré.id., p.177
5 APZ., du pays de la culture., p.167

المعرفة، ألا تكون هذه بالتحديد هي الحاجة إلى ما هو معروف من قبل ؟"[1]. ما الذي تخفيه هذه العبارة بغير الجمهور أو العدد أو القطيع وما إلى ذلك من النعوت التي سَلَّطَها نيتشه على الشعوب؟ وبتعبير آخر، ها هي مشكلة الثبات تُثَارُ من جديد! وها هو منطلق منهجيته – التي فصل بواسطتها تاريخ الإغريق القديم إلى شطرين: ما يراه عصره صحيحا، ويبدأ من سقراط؛ وما يراه هو حيا، وينتهي عند "هذا السقراط"– يُلْقِي بتباشيره الواضحة ! وهاهي، في غاية الوضوح، الظروف التي دفعته إلى القول: "لماذا لا ننجح نحن في الحصول من الإنسان على ما يحصل عليه الصينيون من الشجرة"– أن تُنْبِتَ ورودا في غصن وإجاصَّات في غصن آخر؟"[2] ، ونعني ملاحظته لتاريخ الشعوب، لتاريخ الفترات الزاهية في الثقافات، للشروط المنتجة لها، ومن ثمة انتهاءه إلى القول بأن: "ميزتنا أننا نعيش في عصر **المقارنة**، وبمقدورنا إجراء حساب تراجعي مثلما لم نقم بذلك من قبل أبدا. نحن وعي التاريخ بذاته"[3]. ما الذي تعنيه المقارنة والحساب التراجعي عند نيتشه إن لم تكن عودة من يقارن إلى الجسد وإلى النماذج المتميزة التي تُنِمُّ عن حياة صاعدة؟ إن المقارنة، التي سترتبط بالذاكرة و"الأحداث" التاريخية مثلما سنعرف ذلك قريبا، وبناء على ما تقدَّم في الفصلين السابقين، لَهِيَ إستخدام لغة الفيزيولوجيا (والبيولوجيا) وعلم النفس والأنتروبولوجيا للوقوف على ما يسمح بتقدير الأشياء، على ما يجعل إنسانا ما، وثقافة ما، تقدر قيما دون أخرى؛ ومن جهة أخرى، على ما يدل على أن لتلك الثقافة ولذلك الإنسان قيما جمالية تعكس حجم القوة الكامنة فيه.

يظهر كل تبجيلٍ، أو كل حرية وإرادة قوة ونعمٍ قيل للحياة، كــ "مقام مشترك" لنماذج نيتشه، التي يقابل بها نماذج الإنحطاط والتفسخ، بالكيفية التي ينقسم فيها التاريخ إلى قسمين، وتأخذ فيها كلمة التاريخ معنى طريقة كشف وملاحظة ونقد القيم في الزمان والمكان، ثم قيمة ذلك بالنسبة للحياة، وذلك ما ينقل النص من مستواه الفيزيولوجي والسيكولوجي والأنتروبولوجي إلى مستواه الفني، حيث يضحى إبداعا. وهكذا يكون نيتشه قد إنطلق من ميلاد المأساة لِيَرْوِي لنا قصة فكرة آتية ، لن تكون شيئا آخر بغير الإنسان المتفوق و"الأعراق المتفوقة(...) التي لديها الشجاعة على رؤية الأشياء كما هي: **المأساوية**"[4]. غير أن السؤال الذي يفرض نفسه علينا بشأن كل ذلك هو: بِمَ سنعرف إن كان نيتشه قد توصَّل إلى منهجه ذلك نتيجة بحثه في الحياة، بما في ذلك حياته هو، أم في تاريخ نموذجه الإغريقي؟ وبتعبير آخر: هل تمكَّنَ نيتشه فعلا من تجاوز "تشاؤمية التاريخ"، مثلما تحدث عنها شوبنهاور في الفقرتين35 و51؟[*] ذلك ما سنلاحظه من خلال تعرضنا بالحديث إلى نماذج متباينة كالإغريق ونابوليون والنهضة والإشتراكية.

---

1 GS,355
2 VP,II,LIV,180
3 VP,II,LIII,297
4 VP ,II,LIV,359
* A. Schopenhauer., Le monde comme volonté et représentation., vol. I., §35 et §51

2)ـ **نقد أشكال التاريخ:** بالنظر إلى ما قد يثيره UIHV، باعتباره أهم كتاب لنيتشه حول التاريخ، من تشابك في المفاهيم، حين يتم تناول أصناف التاريخ الثلاث التي جاء بها بمعية التاريخية وبقية الأشكال الأخرى التي كتب بها التاريخ إلى القرن التاسع عشر، "قرن الحساسية التاريخية عن جدارة"[1]، فإن تبسيط التساؤل بشأن القضايا المشتركة لتلك الأشكال وعرضها في نقاط، يوفر لنا إمكانية تفادي ذلك التشابك أوحتى الخلط، ومن ثمة لن نتناول في نقد نيتشه ، أو لن نتناوله سوى من زاوية المنهجية.

أ ـــ **تاريخ الجماهير**: يجد ما يُضمِرُهُ وما يُعْلِنُهُ نيتشه من عِداء للعدد تعبيره أيضا في موضوع التاريخ ولدى نوعية المؤرخين الذين يكتبونه والذين نال منهم بانتقاداته الكثيرة إلى أن صاروا في نظره على تلك الصورة التي يرى عليها الإغريقي كل غريب عن ثقافته، أي برابرة. وفعلا فقد ظهرت "البشرية" كموضوع تاريخي منسجم لفكرة قديمة تجددت باستمرار إلى أن بلغت شكلا منظما على أيادي رجال "مدرسة التاريخ القوية للألمان من هردر Herder إلى Hegel هيغل"[2] .

يقدم لنا المؤرخون الذين سبقوا نيتشه، الذي أعلن نفسه مؤرخا عدة مرات[*]، أشكالا متنوعة من النصوص التاريخية التي تدور حول الجماهير وتسعى لإسعادها من خلال بحثها عن "الحقيقة". وقد كان ذلك البحث هو الذي أوصل المؤرخين إلى فكرة التاريخ العلمي، بعدما مَرَّ بـــ:"إرادة الحقيقة"، هذه القضية الشائكة التي تستند أساسا إلى الأخلاق و"الإيمان المسيحي، الذي كان أيضا إيمان أفلاطون، والذي يكون بموجبه الله حقيقة والحقيقة إلهية."[3]

يبدو أن مَقْتَ نيتشه للجماهير، ووصفها بالأسفار[4] والعبيد[5] وحتى الحيوانات[6]...إلخ، قد تأتَّى له من اطلاعه على تاريخ قدماء الإغريق، حين حاول فهم تفوقهم وعبقريتهم، حيث وقف على حقيقة تاريخية مفادها أن العبودية ضرورية لإنتاج العبقري[7]. ومن ذلك كان حقد الشيوعيين والإشتراكيين، وسليلتهم الشاحبة من عِرْق الليبراليين الأبيض حسب رأيه، على الفنون وعلى التاريخ القديم الكلاسيكي؛ من كون إنتاج عالم الفن قد جرى فهمه من قبل القدماء، الإغريق، على أنه نتيجة للعبودية ومن ثمة وجبت زيادة بؤس العدد الكبير لصالح عدد محدود من الأولمبيين[8]. وبهذا المعنى تكون الجماهير أكبر عائق أمام تفتح الحياة الصاعدة ويظهر "إنسان المستقبل"، مثلما

---

1 R. Doran :Nietzsche: Utility, Aesthetic, History., Comparative Littérature Studies,vol.37, N°3., The Pennsylvania State University., PA., 2000., p.321

2 VP,I,LI,264

* مثال: "نحن مؤرخون رأسا على عقب" (VP,II,LIII, 306)

3 GS,344

4 Cré.id., maximes et traits ,14

5 5P5L,L'Etat chez les Grecs, p,183

6 PBM,202 ؛ (يبلغ قرف نيتشه من هؤلاء أحيانا حد الشتم مثلما نجد ذلك في تعبيره المجازي عن كون من ابتدعوا العوالم الأخرى قد خرجوا من دُبُر العالم (APZ, des vieilles et des nouvelles tables, 14, p.291)

وأحيانا تتحول هذه الشتائم إلى شيء طبيعي: أي نفايات العالم. (VP,I ,LII,93)

7 .GS,377 ; NT,18., p.137 ; CP, l'Etat chez les Grecs., p. 182 ;184 ;190

8 CP., l'Etat chez les Grecs., p.183

يراه الأفظاظ ورؤوس الإشتراكية المسطحة، **تفسخا عاما للإنسانية**، أي تَبْهِيمًا للناس وقد حُطُّوا إلى مستوى أقزام تتمتع كلها بالحقوق نفسها ولها الحاجات نفسها[1]. وتبين العديد من إعلانات زرادشت مدى خوف نيتشه من الجماهير كقوله: "لا أريد أن أُخلط مع دعاة المساواة هؤلاء(...) لأنه هكذا تحدَّثَ **إليَّ** العدل: "الناس ليسوا سواسية"، لا يجب عليهم أيضا أن يتساووا !"[2]؛ أو، على لسان مختار التسول: "لأن الساعة قد حانت، كما تَعْلَمْ جيدا، لأكبر وأرهب وأبطأ وأطول إنتفاضة للسكان والعبيد: إنها تعظم وتعظم !" [3]...الخ.

إذا تأملنا مليًّا جملة الفقرات التي انتقد فيها نيتشه الجماهير، فإننا لا نجد لها تبريرا في تخوفه من سيادتها فحسب بل إننا نجد لها تفسيرا في غاية الإرتباط بالمهمة التي وضعها على عاتقه، لأن المقصود من نقده هي فكرة الإنسانية في حد ذاتها، أو التاريخ بِرُمَّتِه، والذي يرى فيه مجرد سيادة للامعنى وتاريخا طويلا من الصدف[4]، لم تتمكن البشرية من تجاوزها عن طريق الأخلاق، باعتبارها أفضل ما أنتجته، وذلك ما يمثل "استقرارا" أو "تمديدا" لشكل معين من الوجود.

"إليكم تعليمي: المجتمع البشري محاولة، بحث طويل: بيد أن ما يبحث عنه هذا المجتمع هو من يأمر[يقود]، إنه محاولة يا إخوتي ! وليس "عقدا"[5]، مثلما يرى جون جاك روسو. إنه فقط حين يكون للبشرية هدف موحد، فحينذاك يمكنها أن تضع لنفسها قانونا أخلاقيا، لأنها لا تزال تَنْقَادُ وِفْقَ القانون الأخلاقي المعلق **فوق** إرادتها[6]. ومما جعلها أيضا مجرد فكرة فقط، هو كون كل شعب "يحدد مسبقا قيما، وإذا أراد أن يبقى وجب عليه ألا يحكم[على الأشياء] مثلما يحكم عليها جاره (...) وفي أعلى كل شعب، عُلقت لوحة بشرائع: أنظر إنها لوحةٌ بجميع انتصاراته على نفسه، إنها صوت إرادة قوته"[7]، وفي ذلك تكمن "روح الإنتقام، التي ظلت إلى اليوم أفضل تفكير لدى الإنسان (...) [لأنه] حسب الأخلاق، فإن الأشياء مرتبة، انطلاقا من الحق والعقاب، وِفْقَ نظام .آه ! أين هو إذن الشيء الذي يُحَرِّرُ من المجرى غير المؤكد للأشياء وكذا عقوبة أمر الوجود ؟ "، هكذا يدعو الجنون .

"أمِنَ الممكن أن يوجد خلاص إن كان هنالك حق أبدي ؟ آه ! صخرة "كان" خرساء: ومن الضروري أيضا أن تكون جميع العقوبات أبدية ! " هكذا يدعو الجنون.

لا وجود لفعل يمكن مَحْيُهُ: فكيف بالعقاب يصبح إلغاء العقاب ممكنا ؟"[8]. وهكذا يظهر نيتشه، ومثلما تقضي ذلك المهمة التي أوكلها لنفسه وللفلاسفة الجدد، كمؤرخ للبشرية، وقف على حقيقة

---

1 Pbm,203
2 APZ, des tarentules, p.138
3 APZ, le mendiant volontaire., p.382
4 APZ,de la vertu qui prodigue,2,p,104
5 GM,II ,17 ; APZ , des vieilles et des nouvelles tables,25., p.302
6 A ,108
7 APZ, des 1001 buts., p.77
8 APZ, de la rédemption., p,197-198

ماضيها حين رَدَّهُ إلى الصدفة لكي يقضي في الوقت نفسه على كل هدف مزعوم لها[1]، ويقدم لنا منهجا جديدا في تفسير التاريخ– ينتقد فيه كل من يرى في الجماهير صانعة للتاريخ، يعقد عليها آمالا أو يفسر بها أية أحداث– مبني على تطورية جديدة:

"وتحدث زرادشت إلى الشعب بهذه الكلمات:

" **أُعَلِّمُكُمْ الإنسان المتفوق،**

الإنسان شيء وجب التفوق عليه، فما الذي قمتم به لتجاوزه ؟

إلى الآن، خلقت الكائنات شيئا بمعزل عنها: وأنتم تريدون أن تكونوا جَزَرًا لهذا المد الهائل، بل وتفضلون العودة إلى الحيوان بدلا من تجاوز الإنسان ؟

ما القرد بالنسبة للإنسان؟ موضوع سخرية أو عار مؤلم. إنه هذا بالضبط ما وجب على الإنسان أن يكونه بالنسبة إلى الإنسان المتفوق: موضوع سخرية أو عار مؤلم.

لقد عَبَرْتُم طريق دودة الأرض إلى الإنسان وكثيرة هي الأشياء من الدودة لا تزال باقية فيكم.

في ما مضى كنتم قردة، واليوم أيضا لا يزال الإنسان أكثر قردية من أي قرد آخر"[2].

ــ **صانع التاريخ:** تبدو حِدَّةُ نقد نيتشه للجماهير وكأنها تَخِفُّ حين يتحدث عن رفعة الثقافة (كالإغريقية مثلا) أو عن الجماهير كهوية، يعلق عليها آماله في السير نحو معنى الأرض (أوربا مثلا كمجموعة شعوب سائرة نحو الوحدة والسيطرة على الأرض) أو كمادة أولية، مثلما تظهر عليه البشرية في هذه العبارة: "أسير وسط الناس وكأني وسط قِطَعٍ من المستقبل: من هذا المستقبل الذي أراه"[3]. وهذه ضرورة تفرضها اللغة وكذا سياق الحديث نفسه ولا تغير شيئا من تاريخ الجماهير، كدور ينم عن التقليد والانقياد للعادة والمألوف وتكريس الواقع وحتى المسكنة...الخ– وكل ذلك بالرغم من أننا قد نلتمس، في بعض الأحيان، قدرا من الأهمية للجماهير لدى نيتشه، مثلما يدل على ذلك قوله: "كانت الحرب الدينية إلى الآن تقدما كبيرا أحرزه الجمهور: لأنها تثبت أن الجمهور قد بدأ يتعامل مع الأفكار باحترام"[4]– ومن ثمة "فإن الفعل المحدد في كل مرة هو انعتاق حيال التقاليد، اختلاف في الرأي، إن التفكير الحر* هو الذي يصنع التاريخ[5]، ليُظْهر بذلك تاريخ الشعوب كفترات وأزمنة تتحدد بتلك الفرديات، أو ما أسماه نيتشه بـــ:"الجسر

1 APZ, avant le lever du soleil., p.231
2 APZ, prologue de Zarathoustra,3., p.7
3 APZ, de la rédemption., p.195
4 GS,144
* إستخدم نيتشه الكثير من الدلالات على صناع التاريخ، كالعبقري (SE,3, p.35 ;Phil.ETG, 1, p.15)؛ الإنسان الحقيقي ، الفيلسوف (SE,5,p.55-60) ؛ العملاق (UIHV, 9,p.155)؛ القديس، الفنان، الفيلسوف (SE,5,p.56)
5 FP/AHTH 16 [82] ; FP / HTH 19 [89]

الخفي بين عبقري وآخر[1]، بيد أنه علينا أن نتوقف أولا عند ما يعيبه نيتشه على الجمهور قبل الحديث عن أولئك الـــ"**حازار**"ات؟

تكفينا إطلالة سريعة على بعض كتاباته الأولى، التي تناول فيها قضايا متعلقة بالتاريخ، كي نفهم أن موقف نيتشه من الجمهور لم يحد عن الصورة الأولى التي كَوَّنَها لدى نفسه. ففي "نحن الفيلولوجيون" مثلا، التي كتبها خريف 1874[2]، نقرأ: "معظم الناس ظهروا إلى العالم عرضيا ولا نرى فيهم أدنى ضرورة لنوع راق؛ إنهم يشتغلون على هذا وذاك كما أن مواهبهم متوسطة، يا للغرابة ! طريقة عيشهم تبين أنه من النادر جدا وأن يفكروا في أنفسهم". وسوف تأخذ تلك الفكرة في التأكد لديه من كتاب وفقرة لأخرى، غير أننا نلمسها بشكل منظم في UIHV وفي ثلاث نقاط:

أولا: "تعطي الجماهير صورة مشوشة عن عظماء الناس، مسحوبة على ورق رديء وبألواح مستعملة"[3]، أي أنها تسيء دائما فهم العظمة[4]. ومن ثمة "فهؤلاء ليسوا نتاج الجمهور، رغم أن الجمهور انعكاس لهم"[5]؛

ثانيا: "تُظهر الجماهير مقاومة لعظماء الناس"[6]، أي أنها تؤكد لنا النقطة السابقة وتعيدنا إلى موضوع الحقد، حقد الضعفاء على السادة وعلى تميزهم في كل شيء، ذي الأصل* الطبيعي، لأن "ظهور **الرجال** الحقيقيين، قفزة فرح للطبيعة لأنها تكون بذلك قد بلغت هدفا"[7]، ومن ثمة فالذي "يعرف كيف يقود هو ذلك الذي جعلت منه الطبيعة "سيدا"، الذي يُظهر نفسه قويا في عمله وسلوكه"[8]، الذي يكفيه أن يسجل وجهته، كالمجرى المائي الكبير والغزير، حتى تتبعه عدة روافد بالضرورة[9]. إنه واحد من "القوى الأكثر وحشية، التي تبدأ أولا بشق الطريق بواسطة التهديم، بيد أن فعلها يكون ضروريا، رغم ذلك، كي تتبت لاحقا أعرافا أكثر عذوبة وتبني فيه. إن هذه الطاقات المرعبة، التي نسميها شَرًّا، لهي المهندسات المعمارية ورائدات الإنسانية"[10]، التي تنتج ثقافة أرستقراطية، تتبني دائما على الشعور بالتفوق[11]. أما الجمهور،

---

1 LP,17 ؛ هنا أيضا استخدم نيتشه عدة صيغ مثل :"العمالقة يتحاورون فيما بينهم عبر مجالات التاريخ القاحلة" (UIHV., 9,p.155 ; Phil.ETG.1, p.15) ؛"الفيلسوف الذي يقدر على جَرِّ شعوب كاملة وراءه بالمثال الذي يعطيه بنفسه ".(SE,3,p.29)

2 WPh,12., p.5

3 §9, p.157

4 APZ., des mouches de la place publique., p.67

5 LP, 17

6 UIHV, idem

* كثيرا ما نجد هذه اللغة الطبيعية في كتابات نيتشه، ومثلما وجدنا الطبيعة فرحة في هذه العبارة فإننا نجدها منتحرة في هذه الأخرى: "الموت الطبيعي هو إنتحار للطبيعة".(VO,185)

7 SE,5., p.55

8 GM, II,17

9 HTH, 521

10 HTH,246

11 A,201

وفضلا عن حديثنا السابق عن كونه من يتمرد ويقلب القيم الأرستقراطية السائدة، فيظهر في هذا السياق كمن لا يعي حقيقة وجوده أو ما يحدق به مما هو آت. ومثل ذلك: ظهور الإصلاحات الدينية في ألمانيا، حيث الكنيسة الأقل فسادا، قبل غيرها من المجتمعات المسيحية الأخرى التي بلغ فيها فساد الكنيسة أقصى حدوده. لقد كانت تلك الإصلاحات دليلا على اشمئزاز صعبٍ من أدنى بداية للفساد[1]. ولدى هذا الشعب أيضا، نجد كيف جنحت محبة الأشياء الجاهزة لأن تكون محبة لكل ما كان جاهزا في الماضي فقط قصد السماح للعقل والفؤاد بأن يجدا ثانية فيضهما وعدم ترك المجال للنظرات المقبلة والمجددة.

وشيئا فشيئا بلغت "المعرفة الشاملة والنهائية" درجة كبيرة من الخطورة زمن كانط، الذي سعى لـــ: "إعادة فتح طريق الإيمان عن طريق تثبيت حدود للمعرفة"[2]. ثم ما هي المسيحية إن لم تكن "انتفاضةٌ لكل زاحفٍ على الأرض على كل ما له ارتفاع؟"[3]. فمن بدايتها، "تبعت المسيحية من عروق يهودية (...)، وتمثل الحركة **المناهضة** ورد الفعل على كل أخلاق التربية élevage والعرق والإمتياز: إنها الديانة المعادية للآرية بكل **جدارة**"[4]. فلنلقي بنظرة على القصة التي يحكيها الكتاب المقدس مثلا، "قصة عقلٍ مليءٍ بالخرافة مثلما هو مليءٌ بالدهاء، تاريخ الداعية بولس(...)، بدون هذا التاريخ الفريد، بدون إضطرابات وصواعق مثل ذلك العقل، مثل تلك الروح، فإنه لم يكن لِيُوجَدَ عالم مسيحي؛ بالكاد كُنَّا سنسمع الحديث عن طائفة يهودية صغيرة مات زعيمها على الصليب. صحيح أنه لو فهم الناس هذه القصة في وقتها، وقرأوا، قرأوا **حقيقة**، كتابات القديس بولس، ليس كما يُقرأ وحي "الروح القدس"، بل باستقامة عقل حر وتلقائي، دون أن يفكروا في تعاساتهم الشخصية- خلال15 قرنا لم يوجد مثل هؤلاء القراء- فإنه يكون قد مرَّ زمنٌ على القضاء على المسيحية"[5]. وباختصار، فإنه "في كل الأوقات، لم يكن الإيمان بل الإنسلاخ عن الإيمان (...) هو الذي أهان العبيد وأثارهم ضد ساستهم"[6] ؛

ثالثا : كون الجماهير تؤدي دور وسائل لدى عظماء الناس، أما الباقي فليذهب إلى الجحيم أو إلى الإحصاء[7]. تمثل هذه النقطة أيضا شرحا للأولى باعتبار"أنه حول مبدعي القيم الجديدة – يدور العالم"[8]، أي أن التاريخ، باعتباره تبدلا في القيم، تبدلٌ للمبدعين[9]. ومثلما رأينا ذلك سابقا، فإن "إنسان العامة، في كافة الطبقات الدنيا ومنذ الأزمنة الغابرة، لم **يكن** سوى ما **صاره**؛ ولأنه لم يتعود أبدا على تحديد القيم بنفسه، فإنه لا يعطي نفسه أية قيمة أخرى غير تلك التي يضفيها عليه

---

1 GS,148
2 A, 197
3 Anté.,43
4 Cré.id., ceux qui veulent amender l'humanité, 4
5 A ,68
6 Pbm,46
7 UIHV,9., p.157
8 APZ., des mouches de la ..., p.68
9 APZ, Des 1001 buts., p.79

سادته (لأن خلق القيم حق للسيد)"[1]، وذلك ما يعني أن كل أوليغارشية تنطوي في ذاتها دائما على رغبة في **الطغيان**، انطلاقا من تطلع الأقوياء إلى الإنفصال والضعفاء إلى التوحد،[2] ومن ثمة فإن التدرج في المراتب هو أساس كل حركة في التاريخ. ومثلما يقتضيه "پاتوس pathos المسافة"[3]، فإن كل ترقية للنموذج البشري ظلت إلى الآن إنجاز مجتمع أرستقراطي وسيظل الأمر كذلك دوما؛ وبلغة أخرى، فإنها ظلت إنجازا لمجتمع تدرجي يؤمن بِسُلَّمٍ تدرجي طويل وباختلاف القيمة من إنسان لآخر ويكون في حاجة إلى شكل عبودية ما"[4]. "والحال هذه، لا يجب على أرستقراطية معافاة أن تشعر بأنها تؤدي دورا وظيفيا للملكية أو للجماعة، بل أن ترى في هذه وفي تلك **معنى** لها وأعلى مبرر لها، ولذلك وجب عليها القيام بواجب التضحية، بدون عتاب ضمير*، بجمهور من **الكائنات** البشرية وتجعل منها، لأجل مصلحتها، أناسا في حالة منحطة وناقصة، عبيدا، وسائل"[5]، ومُستعمَرين[6]. ثم ألا يحكي لنا التاريخ أن "الساعة التي تكون فيها الجماهير جاهزة للتضحية، تعود دائما، [ولذلك] يستعمل كبار الفاتحين دائما لغة الفضيلة المثيرة للعواطف: فهم لديهم دائما حولهم الجماهير، التي توجد في حالة حماس ولا تريد سماع سوى اللغة الأكثر حماسا"؟[7]. طبعا نحن لا نعني بهذه الفقرة تشبيه "صناع" التاريخ بالكوميديين، الذين "يدور حولهم الجمهور والمجد"[8]، بل فقط الإشارة من جهة إلى عدم تمييز الجمهور بين النبيل والكوميدي لعدم فهمه لهما، مما يجعل منه دائما وسيلة طيِّعَة؛ ومن جهة أخرى، إلى توضيح ما يعنيه نيتشه بعبارة سيادة اللامعنى، رغم الأهمية التي قد تظهر عليها بعض الفئات.

نصل الآن سؤال نيتشه المرتبط بإضفاء المعنى على التاريخ وهو: "أين إزدهرت النبتة البشرية بشكل رائع إلى الآن؟"، السؤال الذي أَلْحَقَ به نقطة منهجية مفادها "أن الدراسة المقارنة للتاريخ ضرورية للإجابة على هذا السؤال"[9]، وذلك ما أردنا العودة عبره إلى النقطة التي توقفنا عندها منذ قليل. فبعدما تعرفنا على محور التاريخ قبل نيتشه أحداثا ونصًّا، إرتأينا أن نشير إلى تقاطع موضوعي التاريخ والثقافة في فلسفته للتاريخ، من خلال مقابلته الفائدة، كرمز للتاريخ مثلما أرادته الأخلاق، بالذوق كرمز آخر يرتبط أساسا بالمستقبل، أين تجد أفعال الإنسان المتفوق

---

1 Pbm,261
2 GM,III,14
3 idem
4 Pbm,257
* تجد هذه الفكرة ذروة تعبيرها في هذه الفقرة: "عن التعامل الواجب ممارسته على الشعوب الفضة.- "بربريةُ" الوسائل، لا شيء فيها تعسفي أو اختياري، هذا بديهي، بمجرد ما نجد أنفسنا، ومعنا كل حسِّيتنا الأوروبية، أمام ضرورة إخضاع برابرة- في الكونغو وفي غيره " (VP,I,LII,500)
5 GM,III,14 ; Pbm,260
6 ibid,561 ; idem
7 A,189
8 APZ., des mouches marché., p.68
9 VP,II,LIV,16

تعبيرها في الشغف بالحياة القصوى إلى درجة "الشجاعة في غياب الشهود"[1]، أو الحالة الديونيزية. فما توصلنا إليه الدراسة المقارنة، المشار إليها، هي الإستفادة من حوار الذرى أو العبقريات فيما بينها أو ما يضحى في الثقافة سلسلة من أسمى اللحظات لدى كل جيل[2]، أي، وهنا يتحول نيتشه إلى فيلسوف لتاريخ البشرية وثقافتها، ابتداع مهمة للإنسانية مما يفصل تاريخها إلى شطرين: شطر ميتافيزيقي بصفة عامة، لأنه عبارة عن ألفيات من الكذب والتآمر وقد جُعِلاَ في خدمة إرادة القطيع الثائر على الأقوياء، وشطر آخر يمثل **الحدث الهائل على الأبواب**[3] وإمكانية حدوث قفزة فرح الطبيعة سالفة الذكر؛ وبتعبير آخر، مقابلة النص التاريخي كصفحات كثيرة من التفاصيل غير المجدية بالقليل من المعرفة التاريخية المرتبط بالحياة، مثلما كان عليه الأمر إبان القرن الثامن عشر، الذي "يملك من التاريخ أقلاًّ ولكنه يعرف أفضل [من القرن التاسع عشر] ما الذي سيفعله به"[4]، وهذه هي الحالة اللاتاريخية non historique وقد بدأت تكشف عن نفسها.

لا تمثل "**الشبعة**"، مثلما نفهمها في الدارجة الجزائرية، عند نيتشه منطلقا لكل ثقافة يافعة فحسب بل شرطا لكافة أشكال الكتابة التاريخية، وذلك ما يعني أن المثقف حين يتربَّى في **روح تاريخية**، وخاصة مثلما جرى الحديث عنه في **SE**، لن يخرج بأية دروس من التاريخ الذي يتعاطاه باستثناء ما يوافق رغبته في أن يكون مؤرخا: أي مجرد أشياء مألوفة وعديمة القيمة من تلك التي يمتلئ بها العالم دائما، وبذلك فبإمكانه أن يطَّلع على فترة من الفترات لمئات المرات ولكنه لن يخرج في النهاية سوى جوعانا وعلى حالته الأولى قبل إطلاعه عليها، لأن **التاريخ لن يعطيه سوى المعرفة التي يكون هو جدير بها** [نحن من سَطَّرَ الجملة]: فهذا تُسَرِّب له عملا قامت به دولة، وآخر علاقة ديبلوماسية وثالث تاريخا [من تاريخ اليوم] أو إبيتيمولوجيا أو حتى عقدة طَيِّعَة من القضايا ولكن أبدا قضايا كبرى، أي قضايا غير مريحة، خصبة، لاتاريخية وخالدة[5]. ومن هذا نفهم أن بعض الشروط، التي رآها نيتشه ملائمة لميلاد العبقرية الفلسفية، هي أيضا شروط ضرورية لكتابة التاريخ– مما يجعل تقريبا من يصنع التاريخ هو أيضا من يكتبه – يقابل بها ما أسماه "فلسطينية" philistinisme (ثقافة حقيرة)، وهذه الشروط هي: "الحرية الفحلة للطباع، المعرفة المبكرة بالرجال، التعليم الذي لا يهدف إلى تكوين عالم، غياب كل ضيق وطني، كل إلزام على تحقيق القوت، التبعية للدولة – وباختصار، الحرية ودائما الحرية"[6]، التي تسمح للإنسان بأن يكون ضد وخارج التيار. وهكذا يظهر "فقط الأشخاص السعداء جديرون بكتابة التاريخ"[7]، وتُفَسَّرُ من جديد بعض "القوانين" مثلا، التي توصَّل إليها بعض المؤرخين من قبيل "أن **الفساد** الذي يعود

---

1 VP, II, LIII, 221 ; APZ., de l'homme supérieur, 4., p. 409
2 VP II, LIV, 272
3 VP, II, LIV, 1
4 FP/HTH, 30[186]
5 5P5L,4., p.194
6 SE,8,p.82
7 FP /HTH 1[122]

إلى الوثنية هو الذي عبَّدَ الطريق لمجيء المسيحية"[1]، أو أن "فساد الكنيسة لا بد وأن يكون سببا للإصلاح"[2]، مجرد كذبتين تاريخيتين كبيرتين تُنِمَّانِ عن حالة المؤرخين الذين إنتهوا إليهما، أي أن الضعف هو الذي يقف وراء مثل تلك التفسيرات، لأن التفسير الذي يجعل من الغرائز آفاتا، أي ما يدل على **انتشار الأخلاق** لدى البشرية القديمة، كان قد سبق في ظهوره المسيحية وأن هنالك حاجات قوية إقتضت من أصحابها أن يتَخَفُّوا وراء قناع روحي للدعوة إلى إصلاح الكنيسة[3].

وفي الأخير، وحتى لا يفهم البعض بأن إسهاب نيتشه في حديثه عن بعض الأسماء البارزة في التاريخ قبله، من قبيل بولس مثلا، قد يعني أنه يولي أهمية ما لأي دورٍ للعامة في التاريخ، نذكر بأن نقد نيتشه لأشكال التاريخ، التي سادت قبله، ينطوي على دعوته إلى ثقافة جديدة وذلك ما نلمسه مثلا في قوله: "**إن تفسخ السادة والطبقات الحاكمة** هو الذي تسبب في أكبر فوضى في التاريخ، [فمثلا] بدون القياصرة الرومان والمجتمع الروماني ما كان لجنون المسيحية أن ينتصر"[4].

ب ــ مشكلات منهجية: لا تظهر مسائل كالسببية والحتمية والغائية وبصفة عامة العلم، أو مفاهيم كالظاهرة والشيء في ذاته...إلخ، لدى نيتشه على أنها نقاط مشتركة في جميع الكيفيات التي جرى وفقها تفسير الماضي فحسب، بل يكتسي معناها أهمية قصوى في تاريخ الثقافات البشرية أيضا، ذلك أن العلم مثلا – ومعظم فروع المعرفة سَعَتْ بداية من منتصف القرن التاسع عشر لأن يكون لها طابعا علميا بما في ذلك التاريخ والكيفيات التي تُتَنَاول بها موضوعات الثقافة والحضارة– "ينطلق من مبدأ قائل بأن ما يُعَدُّهُ موضوعيا فهو بالتأكيد كذلك وبصفة مطلقة"[5]؛ كما أنه إنطلاقا مما عرفناه إلى الآن، بالعودة إلى ما قبل تاريخ تلك المسائل، لن يظهر لنا محتوى الثقافات سوى في شكل تاريخ للتقنيات والأساليب التي اتبعها الإنسان في صراعه مع وسطه الطبيعي والبشري[*]، مثلما سنرى ذلك لاحقا. وقد جاء نقد نيتشه لمثل تلك المسائل ضمن "حملته الشعواء" على ما ظل يسمى حقيقة، وبصفة أعمق على أنماط الحياة التي قادت البشرية، وفق "تطور أحادي الشكل تقريبا **للعقل والشعور**"[6]، نحو قيم الإشفاق أو "التطبيق العملي للعدمية"[7]، أي نحو "الحضارة المُسَوِّيَة" civilisation niveleuse ؛ بيد أن سؤالا أساسيا، صار مألوفا لدينا لمرافقته لنا في جميع مراحل البحث تقريبا، يعيد طرح نفسه من جديد وبكيفية جديدة وهو: إذا فصلنا السببية والمنطق مثلا عن جملة تلك القضايا، المرتبطة بالمنهجية، التي إنتقدها وتساءلنا بشأنهما عما إذا لم يكن نيتشه نفسه قد اتبع المنطق واستعمل السببية في جزء من تفسيراته على الأقل؟

---

1 VP,I,LI,387
2 ibid, 427
3 VP,I,LI, 387&427
4 VP,II,LIII,34 ; Pbm,46
5 O.G.OEXLE., op.cit., p.15

* أو العبيد المعذبون من قبل الميمات (M) الثلاث: كيفيات التفكير، الظرف، الموضى manière de penser, moment et mode (SE, 6., p.65)

6 FP/ HTH 32 [24]
7 Anté,7

إن قراءتنا لجملة فقرات في هذا السياق مثل: Cré.id., la raison dans la philosophie,5 أو Cré.id., les quatre grandes erreurs أوPbm,16 أو144 LP,139 à لَتَكْشِفُ لنا عن نقطتين أساسيتين:

– أن نقد نيتشه لتلك المسائل جاءه في البداية من الفيلولوجيا التي سمحت له بأن يتناول اللغات كوثائق تاريخية أو كأعراض لحالات فيزيولوجية، ومن ثمة كدرب مؤدي إلى التساؤل عن معنى شتى المفاهيم التي تتضمنها وذلك ما سمح له، أثناء تناوله موضوع الإرادة بالتفصيل، بأن يقول بأنه "ليس لدى الشعب بشأن الطابع الأكثر خصوصية في الإرادة سوى كلمة واحدة"[1]، أي إرادة. ومن ذلك جاء نقده لشوبنهاور*، الذي ولَّدَ لديه شعورا فياضا بالقوة والتفوق وحَفَّزَهُ على مقابلة **التطابقية** أو **التفكير أحادي الشكل****، لدى سابقيه، **بتأكيديته.** ورغم ذلك فإن تناول نيتشه للمسائل المشار إليها، يُظهره في بداية الأمر وكأنه تناول موضوعات متصلة بالمعرفة أكثر مما تظهره على أنه يقدم نقدا لها، لأنه سبق لنا وأن أشرنا إلى إمكانية وقوع نيتشه نفسه في أحبولة اللغة، وربما ذلك ما جعل هانس غدامر مثلا يقول بشأن إرادة القوة والعودة الأبدية كطابعين للشيء نفسه بأن: "إرادة القوة لا تريد شيئا ما ولكنها تريد نفسها بنفسها هي إرادةُ إرادةٍ وحلقة العودة التي تتضمن جميع الإرادات وجميع الإختيارات، جميع التسربات والآمال، تظهر بأنها ضرب من الوهم"[2]؛

– أن نقده ذلك يكتسي طابع دراسة سيكولوجية وخاصة بحكم تناوله فيها مثلا موضوعات كالذاكرة والذِّمَامة casuistique، الشديدة الصلة بالتاريخ، مما جعله يدخل علم النفس في دراسة الحضارة والتاريخ بل ويصف كل من وُلِدَ عالم نفس بالإلهي المُعدِّ سلفا للنفوس[3].

كما يكشف عن أن "النفس البشرية وحدودها، المدى الذي استطاعت التجارب البشرية السابقة أن تبلغها، أعماق وأبعاد هذه التجارب، كل التاريخ **السابق** للنفس وافتراضاتها التي لم تنضب بعد، ذلك هو الميدان المُعِد لتسللات الذي وُلِدَ عالم نفسٍ، هاوي الـــ"صيد الوفير"[4]. ولأن السببية أهم نقطة سنركز عليها، فلا بأس من تقديم مثال عن كيفية كشف نيتشه، بواسطة علم النفس، عن مدى ارتباط معرفة الذات بالسببية وبسيادة القيم الأرستقراطية. ففي خلال المرحلة الوسطى لإنتاجه، ذكر أنه "لا تكفي الملاحظة المباشرة للذات لِتَعَلُّم معرفة النفس: فنحن في حاجة إلى التاريخ لأن الماضي ينشر فينا موجاته الألف، ونحن لسنا أي شيء آخر بغير ما نشعر به في كل لحظة من

---

1 Pbm,19

* بلغ نقد نيتشه لمعلمه شوبنهاور حده الأقصى في هذه العبارة: "أخطأ شوبنهاور في هذا مثلما أخطأ في كل شيء". (EH, NT, p.139)

** التي تعني أيضا الإنكار .

2 Hans-Georg Gadamer., op. cit., p.16&17

3 Pbm, 269

4 Pbm,45

هذه الاستمرارية. هنا أيضا، حين نرغب في النزول في نهر ما تملكه طبيعتنا في الظاهر من أكثر أصلية وأكثر شخصي، لابد لنا من تذكر مُسَلَّمة هيراقليط: "لا يمكننا أن ننزل في النهر ذاته مرتين". هنا حقيقة لاتزال حية وخصبة عن ذي قبل حتى ولو أُهملت، والأمر كذلك بالنسبة لهذه الحقيقة الأخرى التي يقتضي فيها فهم التاريخ، البحث عن الآثار الحية لفترات تاريخية – أي أنه لابد من السفر، مثلما كان العجوز هيرودوت يسافر، والذهاب إلى الأمم– لأن هذه الأخيرات ليست سوى **طبقات** ثابتة **لثقافات** قديمة يمكننا أن **نحط** رحالنا عندها"[1]. ومن أهمية ما سلف، روى لنا نيتشه إحدى تجاربه الشخصية في قوله: "قدر من التعليم التاريخي والفيلولوجي، مع فطنة فطرية وحساسة بشأن المسائل السيكولوجية، غَيَّرَا بِعُجَالة مشكلتي إلى هذه: في أية ظروف إبتدع الإنسان لاستعماله هذين التقديرين: الخير والشر **وأية قيمة لهما في ذاتهما؟**"[2]، ثم قدم لنا تفسيره التالي: "إبان أطول فترة في التاريخ الإنساني، التي نسميها ما قبل التاريخ، كانت قيمة أو غياب قيمة فعل ما تَنْجَرُّ عن نتائجه ولم يكن الناس يولون أي إعتبار للفعل في ذاته ولدوافعه، ولكن وكما هو الحال في صين أيامنا هذه، ينعكس تميز أو عار الأطفال على الآباء؛ إنها الفضيلة– التي تنسحب على الماضي للنجاح أو الإخفاق– التي تؤدي بالأفراد إلى الحكم على فعل ما على أنه خير أو شر. لِنُسَمِّي هذه الفترة: الفترة ما قبل الأخلاقية للبشرية. لقد كان الأمر "أعرف نفسك بنفسك" لا يزال مجهولا إلى وقتئذ، وعلى العكس من ذلك فإن الإنسانية توصلت، خلال العشرة آلاف سنة الأخيرة، تدريجيا إلى ذلك في عدة مناطق واسعة من الأرض، أي إلى الحكم على قيمة فعل ما ليس حسب عاقبته وإنما حسب سببه: وكان ذلك حدثا كبيرا...وتدقيقا مؤكدا للنظر والحكم ونتيجة غير واعية لسيادة القيم الأرستقراطية وللإيمان بفضيلة الـــ"مولد" ومؤشرا مميزا لفترة يحق لنا أن نصفها **بالأخلاقية** بأتم معنى الكلمة. كان ذلك خطوة أولى نحو معرفة الذات. فبدلا من النتائج، السبب: يا له من قلبٍ للمنظور! قلبٌ، بدون شك، لم يُتوصل إليه إلا بعد صراعات طويلة وعدم تأكدات طويلة. بيد أنه إنبثقت سيادة خرافة جديدة ومشؤومة وتفسير ضيق للغاية: [حيث أخذ الناس] يعزون أصل فعل ما، بالمعنى الصارم للكلمة، **للنية** التي ينجم عنها؛ وقد اتفق الجميع في اعتقادهم [بأن قيمة فعل ما تكمن في قيمة نيته وصارت النية تنطوي على السبب وعلى كل ما قبل تاريخ الفعل؛ إنه في منظور هذا الحكم المسبق [فقط] كفَّ الناس، وإلى زمننا الأخير هذا تقريبا، عن المدح والذم والحكم الأخلاقي والتفلسف"[3].

رغم إنطواء هذا المثال على كل فلسفته تقريبا، إلا أن نيتشه، حين يتناول الثقافة، لن يتوقف عنده كحد أقصى في تعمقه في دراسة أصل التقديرات الأخلاقية، بل سيطرح الأسئلة التي توصله إلى الأرضية التي تقبع فيها الحالة التي سيقابلها بالشجاعة والحالة المأساوية ونعني بها الخوف،

---

[1] OSM,223

[2] GM,I,3

[3] Pbm,32

مثلما سيلي شرح ذلك، ليكون بذلك قد جعل من علم النفس مفتاحا لفهم الثقافة وتفسير التاريخ البشري وليكون أيضا قد فتح إمكانية جديدة في منهجية البحث التاريخي والأنتروبولوجي*.

نعود من هذا المثال إلى سؤالنا، الذي لا يزال ينتظر منا إجابة وافية، لنقول مبدئيا أن نيتشه إكتشف في اللغة وثيقة تاريخية غنية جدا لدراسة الماضي، وما اكتشافه لإقحام الإنسان لفاعله التخيلي في أدنى أحكامه، مثلما عرفنا ذلك في الفصل السابق، سوى واحدة من النتائج التي توصل إليها من خلال ذلك واعتبارها أساسية في نقد ما سمي حقيقة قبله، وعليه فإن إجابتنا لن تكون كاملة قبل استعراض بعضا من انتقاداته لمسائل المنهجية.

1- السببية: يكشف لنا نيتشه، من خلال عشرات الفقرات التي تناول فيها موضوع السببية، مدى "تعقد" الإنسان[1]، وكذا عن صيرورة نشأة وسائل سعي الإنسان لبلوغ الـــ"الحقيقة"، أو ما سمي لاحقا بـــ"إرادة الحقيقة والمعرفة"، بواسطة نقطتين مرتبطتين إحداهما بالأخرى:

- مقارنة بالغرائز كأدلة guides مُنَظِّمَةٍ وغير واعية، يظهر الوعي كأضعف وأرعن عضو نشأ لدى الإنسان، عقب الطلاق العنيف مع الماضي الحيواني، حين وجد نفسه مكبلا في أغلال المجتمع ومجبرا على العيش وفق متطلبات حياة القطيع[2]؛

- بالرغم من أن كيفية التفكير السليم هي أعلى تقدم أحرزه الإنسان، إلا أنه لم يتعلم ذلك سوى مؤخرا فقط، بحيث لا يزال ذلك التعلم لم يثبت سلطته بعد[3]، لأن الغرائز القديمة لا تزال على قدر كبير من القوة، مثلما تدل على ذلك الحرب التي أُعلنت عليها. وفي هذا المعنى فـــ"الذكاء، الوضوح، الصلابة، المنطق، أسلحة ضد وحشية الغرائز"[4]، وأية أسلحة ؟!

توضح النقطة الثانية جيدا الأرضية التي قابل عليها نيتشه المعرفة التأملية** بالتجربة المعاشة، ومن ثمة الأساس الذي انطلق منه في نقده. فتاريخ السببية، مثلما تلخصه لنا عبارة: "بيد أن التفكير شيء والفعل شيء آخر وثالثٌ هي صورة الفعل ولا مَنْفَذَ بين الكل لعجلة السببية"[5]، هو عملية أَخْرَجَنَةُ الإنسان لعالمه الباطني وإضفائه على الأشياء أو ما يمكننا أن نسميه أنسنة للواقع أو "حقيقة". ولنقد الـــ"حقيقة" بجميع أشكالها الدينية والميتافيزيقية والعلمية، إستعمل نيتشه شتى المعطيات البيولوجية والتاريخية، من تلك التي عثر عليها أو استخرجها من اللغة والأحلام...إلخ، فجاء نقده عميقا وشاملا لشتى الأسس التي بني عليها النص التاريخي، من قبل شتى "مدارس"

---

* لم يسبق نيتشه فرويد فحسب بل أيضا مارغريت ماد وروث بانديكت وجميع الأنتروبولوجيين الأمريكان الذين يمزجون علم النفس بالثقافة في دراساتهم الأنتروبولوجية.

1 FP/A 10[E93]

2 GM, II, 16

3 HTH,271

4 VP,I,LI,66

** مثال ذلك قوله: "عاد الفلاسفة الألمان إلى أول وأقدم درجة في التأمل لأنهم كانوا يكتفون بالمفاهيم بدلا من الشروح مثلما كان يفعل مفكرو الفترات الحالمة" (A,197)

5 APZ, du criminel blême., p.47

التاريخ*، بل وسبق كارل بوبر نفسه، هذا الفيلسوف الفريد من نوعه، في الإشارة إلى الكثير من الأسس التي بنى عليها نقده لتيار التاريخية**، غير أن نيتشه يجعل بنقده ذلك كل من يقرأه يتساءل مع نفسه عما إذا كان يفهم فعلا ما يقرأه لنيتشه بعدما عرف أنه طال بنقده كل شيء تقريبا؟ وإذا كان قد فهمه، ألا يعود ذلك لكونه قد استعمل لغة سابقيه وفَسَّرَ الأشياء على طريقتهم، مثلما يدل على ذلك حديثه عن "السببية الحقيقية"[1] و"السبب الطبيعي"[2] مثلا؟ ربما لو ذهب إلى أبعد من ذلك لما كان لأحد أن يفهمه! وهل ذهب فعلا إلى أبعد من ذلك؟.

يرى نيتشه أن "ميثولوجيا كافة الشعوب وسحرها وخرافتها ومبادئها الدينية وشريعتها، مَنْجَمٌ لا ينضب من الأدلة الدامغة على أن التفكير الخاطئ كان في قديم الزمان هو القاعدة"[3]، كما أن "كافة الوظائف العليا وإدراكات الحواس وجميع الحواس عملت على الخطأ القديم الذي تمثَّلته"[4]، ومثال ذلك: عالم الحواس الذي يناقض نفسه لكون الإنسان لا يعرف الحواس سوى بواسطة حواس، ومن ثمة فتلك المعرفة تنتمي إلى عالم التغليط[5]، مثلما عرفنا ذلك من قبل. و"أكثر من ذلك، فقد صارت الإفتراضات القديمة، حتى داخل المعرفة، معايير نُقَدِّرُ بها، بناءً عليها، الــ"صحيح" و"غير الصحيح" حتى في ميدان المنطق الخالص"[6]؛ لأنه "حين نكون قد درسنا عن قرب تاريخ علمٍ معينٍ، فإننا نكتشف في تطوره مؤشرات تسمح بالقبض على نوعيات السيرورات العامة التي تشكلت وفقها الــ"معرفة" في كل الأوقات: فقديما مثل اليوم، ظلت الفرضيات غير الناضجة، التخيلات، الإستعداد الأحمق للــ"إيمان"، غياب الحذر والصبر، هي التي تتطور في أول الأمر، وفقط لاحقا تتعلم حواسنا، أو لا تتعلم كلية أبدا، كيف تكون أعضاء معرفة وفية ورفيعة وحذرة(...). ففي حضور الأحداث غير المألوفة جدا [مثلا]، نبتدع الجزء الأكبر منها ونكون بالكاد قادرين على عدم الإسهام كــ"مبتدعين" لأية ظاهرة، وذلك ما يعني أننا أساسا وفي كل الأوقات **تعوَّدْنَا على الكذب**"[7]. نلاحظ في هذه الجملة الأخيرة أن نيتشه لا يحتاج تماما إلى ذكر الكذب، لأنه بإشارته إلى التعوُّد، يكون قد قال كل شيء وكشف عن "المعرفة " أو "الحقيقة" التي تتأتى من المشترك والعمومي والتي سيشرحها بــ"الأخطاء الأربعة الكبرى"[8]، أين نجد حصيلة نقده وكأنها

* شمل نقد نيتشه الجوانب الثلاث لمشكلة التاريخية، أي: 1- ممارسة علم التاريخ لأجل ذاته كــ"وضعية عملية لعلوم العقل في البحث التاريخي"؛ 2- النسبية التاريخية؛ 3- سيرورة الأرخنة الأساسية لفكرنا بالمفهوم الترولتشي. (O. G. Oexle., op.cit., p.17)

** كارل بوبر: بحثا عن عالم أفضل،ترجمة أحمد مستجير،الهيئة المصرية العامة للكتاب،(ب.م.)،1996، ص، 171 مثلا

1 HTH,97

2 A.,35 ; Anté.,15

3 HTH,271

4 GS, 110

5 FP/A 10 [E93]

6 OSM,190 ; GS,110

7 UIHV, 3., p.113 ; Pbm,192

8 Cré.id., les 4 grandes erreurs., p.38-43

تقول لنا بأن ما ظللنا نعتقد أنه يميزنا عن الحيوانات، أي لغتنا، هو الذي سهَّلَ لدينا الميل إلى الرجوع إلى ثروتنا اللغوية ومعاجمنا، أي إلى ذاكرتنا، علَّنَا نجد فيهما التعبير اللائق لوصف ما نصادفه من حالات جديدة، لنكون في النهاية قد ابتدعنا عالمنا المائي الذي يستعصي علينا العيش خارجه.

لقد تمكن الإنسان، نتيجة جملة أخطاء مرتبطة بإغراءات اللغة (وأخطاء العقل الأساسية التي تلتصق بها)، التي تعتبر كل مفعول مشروطا بسبب كافٍ، بـ"فاعلٍ"[1]- الذي وفقه إبتدع مفهوم **الشيء** الذي يقحمه في فوضى الأحاسيس[2]– وبقواعد اللغة كخلطه بين المبني للمعلوم والمبني للمجهول[3]...الخ، من إكتساب "غريزة سببية"، **جعلته** يعتقد أن كل تقدم هو تقدم نحو الوعي وكل تراجع فهو تراجع نحو اللاوعي (وقد أُعتبر كنظير لسقوط إلى مستوى **الحاجات** والمشاعر- إلى الحيوانية)[4]. تلكم هي "حقيقة" الإنسان الأولية، إعتقاده الذي صار مألوفا ومُتَجَذِّرًا بفعل الممارسة[5]، الإيمان نفسه الذي يستند إليه كل علم ويجعله يقول: "**لاشيء** أكثر **أهمية من الحقيقة**"[6]، كل علم تستند إليه الميكانيكا ليعتقد أصحابها بأنها "علم القوانين الأولى والأخيرة"[7]...إلخ.

إن الإنسان لَيُخطىء في طريقته في التفسير بالمقلوب، كأن يفسر مثلا ما حَلِمَ به للتو إنطلاقا مما يُدْخِلُهُ بسرعة من مؤثرات خارجية، تبلغه أثناء النوم، في نسيج حلمه[8]، أو أن يفصل الرعد عن ضوئه لكي يعتبر بعدئذ البرق **فعلا** خاصا ومظهرا لفعلٍ يسميه رعدا[9]، أو أن يميز نفسه عن الفعل acte، وكأنه هو مؤلفه، ثم يُسقط هذه الصيغة على كل شيء[10]، أو أن يفصل بأخلاقه، أثناء الحديث عن حرية الإختيار، القوة عن آثار القوة وكأنه وراء الإنسان القوي يوجد جوهر substrantum **[موضوع]** محايد **يكون حرا** في إبداء القوة أو عدم إبدائها[11]، أو، باختصار، يفسر إنطلاقا من الواقعة le fait مفعولا ما ومنه كائنا ما، متناسيا أنه يقف وراء ذلك[12]...إلخ. ومن عواقب أخطائه تلك، يكون الإنسان قد أخطأ أيضا في حديثه عن النية والحرية والمسؤولية[13] والحتمية والغائية[14]...إلخ .

---

1 VP,I,LI,158 ; VP,I,LII,245 ; GM,I,13
2 VP,I,LI,159
3 A,120
4 VP,I,LI,87
5 VP,I,LII,302
6 GM,III,25 ; GS,244
7 GS, 373
8 HTH,13
9 VP,I,LI,140; GM,I,13
10 VP,I,LI,154
11 GM,I,13
12 VP,I,LI,140
13 Pbm,32 ; HTH,39 ; Cré.id., l'erreur du libre arbitre,7 ; VP,I,LII,154 ; Cré.id., les 4 grandes erreurs., VP,I,LI,142 ; p.40
14 Cré.id., l'erreur du libre arbitre,8 ; VP,I,LI,159 et 318

الواضح في ما سلف أن نقد نيتشه للسببية يستند إلى فكرة المصير، أي إلى الفكرة القائلة بأنه لا وجود لأشياء، أو سيرورات، متطابقة تماما بل إن كل واحدة منها فريدة من نوعها، بما في ذلك الفعل باعتباره كل شيء[1]، رغم أن المحايد منا يشعر بتحقُّقِ نوع من الوحدة للفاعل في السيرورة المتجهة دائما صوب الآتي. ومن جهة أخرى، يتأكد لنا إرتباط الفاعل لدى نيتشه بتفسيره البيولوجي والفيزيولوجي، الذي يستند بدوره إلى فكرة إرتباط البيولوجي بالمكتسب أو ما يمكننا أن نصفه بتداخل ما قبل التاريخ مع التاريخ، مثلما تدل على ذلك عبارة: "تستجيب كمية محددة من القوة بدقة لنفس كمية الغريزة، الإرادة، الفعل- وأكثر من ذلك، ليست الحوصلة شيئا آخر بغير هذه الغريزة، هذه الإرادة، هذا الفعل نفسه، ولا يمكنه أن يظهر مغايرا سوى بفضل إغراءات اللغة."[2] أو في عبارة: "إن إنسانا كاملا، "فانٍ سعيدٍ"، لَيَكُون **مُجْبَرًا** على القيام ببعض التصرفات ويتراجع غرائزيا أمام تصرفات أخرى ولَيَنْقَلُ النظام، الذي يجسده فيزيولوجيا، إلى علاقاته مع الناس والأشياء"[3]. وحتى لا نتساءل عن عالمنا الذي خلقناه، نشير إلى أن الجملة الأخيرة تكشف لنا مرة أخرى عن ارتباط خاصية التفكير بالغرائز، وذلك ما يعني دمج نيتشه لفرضيته عن إرادة القوة بتصرفات ذلك "الفاني السعيد" قصد تقديم ما يسمى بـــ"عالم الظاهر". وطبعا سيقفز سؤال جديد إلى عيوننا بشأن كيفية تعامل نيتشه مع ذلك القلب renversement، الذي قامت به البشرية في نظام السببية ومع تلك الــ"ذهنية المُتَيَّمَة بشكل فضيع"؟[4]. الإجابة بسيطة ما دمنا قد سبق لنا وأن أشرنا إلى قلب نيتشه للقيم، أي ما يعني في هذه الحالة: قلبه لما ظل مقلوبا– الأمر الذي لا يعني بالضرورة عودة إلى الــ"حقيقة"، رغم أن "تكذيب الحقيقة المطلقة لا يُعَدُّ تكذيبا مطلقا للحقيقة"[5]، مثلما لَمَّحْنَا إلى ذلك من خلال إشارتنا إلى أمثلة تدل على لجوء نيتشه نفسه إلى التفسير السببي لشرح موضوعاته– أي ما نستشفه من بعض الفقرات كقوله مثلا: "ألم نبلغ اليوم بَعْدُ النقطة التي يجب علينا فيها بالضرورة أن نتفق على قلب ونقل القيم مرة أخرى بفضل تفكير جديد بشأن أنفسنا وبشأن تعميقٍ جديدٍ للإنسان ؟ أَلَسْنَا على عتبة فترة من اللائق وصفها، سلبيا أولا، بالخارجة عن الأخلاق extra-morale ؟ اليوم، وعلى الأقل نحن اللاأخلاقيون الآخرون، توصَّلنا إلى الشك في أن قيمة فعل ما تكمن بالذات في ما فيها من **غير نية** non intentionnel وأن كل نيتها، ما يمكننا أن نحصل عليه، نعرفه، معرفة بواسطة العلم، ينتمي أيضا إلى سطحها وقشرتها... التي **تخفي** من الأشياء أكثر مما تُظهره ؟ باختصار، إننا نعتقد بأن النية ليست سوى إشارةً وعرَضًا يتطلب

---

1 GM,I,13

2 idem

3 Cré.id,les 4 grandes erreurs, 2., p39

4 Cré.id., la raison dans la philosophie, 5

5 G.A. Morgan., op.cit., p.256 ؛ كتاب EH هو أكثر كتب نيتشه حديثا عن الحقيقة، وفيه نجد ما يعنيه بكلمة حقيقة حين يتحدث إلى قرائه؛ فلأنه "وقف في وجه الكذب الذي دام ألفيات عدة" فهو "أول من **اكتشف** الحقيقة " لأنه "أول من أحس(...) بالكذب على أنه مُغَلِّطٌ". (EH., pourquoi je suis un destin,1., p.187)

التفسير أولا، إشارة ... محملة بكثير من المعاني ولا معنى لها خاص بها لوحدها: إننا نعتقد بأن الأخلاق بالمعنى التقليدي، أخلاق النوايا، كانت فكرة مسبقة وحكما مبكرا وربما مؤقتا وشيئا من نظام علم التنجيم والألشيميا، ولكن لابد على أية حال من تجاوزه"[1].

جـ ـ الثيوديسيات المتسترة: هي النقطة التي تلتقي عندها الأخلاق والديانات والعلم والتاريخ العلمي ...، والتي تكشف لنا عن تطور فكرة سعي الإنسان، منذ سقراط، لجعل حركة التاريخ مظهرا للعقل وصيرورة تتم في اتجاه تحقق غائية محددة، مما يخفي مميزات تلك العناصر في تيار التاريخية، أو "الثقافة التاريخية"[2]، بصفة عامة أو "الحاجة إلى فهم كل شيء"[3]، ويجعل من الفلسفة ذاتها الإمتداد الأوسع لمفهوم "تاريخ"[4] ومظهرا لمعرفة تشاؤمية آيلة إلى العدمية والإنحطاط، مثلما تدل على ذلك النتيجة التي إنتهى إليها نيتشه من خلال نقده لفرضية الـ"كائن" [الموجود]: أي إعتبار "الحقيقة"، "الله"، الـ"عالم الأفضل"، الـ"عالم الحقيقي"، "الشيء في ذاته"...إلخ، أحكاما تآمرية على الحياة[5]. في هذه النقطة أيضا– التي أفصح فيها عن تخوفه من عصره، ورغم شدة تأثره به، كزمن للشعوب[6]، والذي هو إمتداد لما ظل "الناس يخشونه" تقريبا، أي الإنسان الجديد بالحياة[7]– يكشف نيتشه عن فلسفته بكيفية أوضح عما عرفناه عنه إلى الآن، وكأن الأمر يتعلق بظروف ميلاد **GS**، في تاريخ ظهور أعماله، لأن الأمر يتعلق هنا أساسا بطرحه فكرة تكليف البشرية بمهمتها التي "يتوقف عليها مصيرها"[8] وتضفي المعنى"الحقيقي" على وجودها؛ ومن جهة ثانية لانطواء عبارة "الثيوديسيات المتسترة"، وفي هذا السياق، على أفكار أساسية منها: التطور ومفرداته: كالتكيف وإرادة البقاء والإنتخاب الطبيعي، التقدم بشتى أشكاله، التاريخ العلمي ومفرداته: كالتوقع والحتمية والموضوعية ...إلخ. بيد أن ما تكشف عنه فلسفته من جهة ثالثة، أي ما فتئنا نُلَمِّحُ إليه بأسئلتنا من حين لآخر، هو إتباع نيتشه نفسه منهج معظم من انتقدهم لدرجة أن فلسفته ستظهر هنا كصدى، ولكن بكيفية مقلوبة، لكانط وهيغل وليبينتز وداروين وشوبنهاور وكونت...إلخ. وباختصار، قابَلَ نيتشه التوقع العلمي، كهدفٍ تصبو تلك الثيوديسيات لتحقيقه، بإمكانية بلوغ معنى الحاضر عن طريق "تخصيب الماضي مع الحمل بالمستقبل"[9]، بغرض تجاوز الماضي وكذا وهْمَ الـ"كائن"، لأن لقوله مثلا بأن "المسيحية منظومة ورؤية

---

1 A,103 ; Pbm,22 ; Pbm32

2 UIHV, 8., p.143

3 VP,I,LII,274

4 VP,I,LI,112 ؛ في الحقيقة فإن نيتشه أشار فقط إلى أن الفلسفة حين تكون علمية وغير دوغمائية فإنها لن تكون بالنسبة له سوى الامتداد العريض لمفهوم "تاريخ"، ولأننا لاحظنا أنه يفسر كل شيء بإرادة القوة فإننا عممنا فكرته باعتبار إرادة القوة أساس فلسفته بما في ذلك فلسفته في التاريخ.

5 VP,I,LI,210

6 GS,351

7 Anté.,3

8 VP,II,LIV,472

9 APZ., des vieilles et des nouvelles tables,3., p.281 ; VP,II,LIII,367

منسجمة و**شاملة** للأشياء، إذا انتزعنا منها مبدءً أساسيا، كالإيمان بالله، فإننا نُهَدِّمُ بذلك كل البناء"[1]، دلالة كبيرة على تفطنه إلى إمكانية تخريبه كل ثيوديسيا، تستند إلى التوقع وتكون لصالح الجماهير، فقط بواسطة طرح فكرة الإنسان المتفوق كاستثناء[*] وكموضوع نشاط دائم، أو أنها ستتخرب تلقائيا من جراء ذلك، ومن ثمة يكون قد قابل الثبات بالمصير.

1- وضوح القرن الـــتاسع عشر : لجملة الفقرات (التي تعود إلى سنوات1867-1869) حول موضوع التاريخ والتي تنطوي على أفكار أساسية، تندرج ضمن المادة التي سيخرج منها UIHV بسنوات بعد ذلك، أهمية قصوى من حيث كونها محاولة لمواجهة تيار التاريخية الجارف، وخاصة عقب الدفع الكبير الذي أعطته إياه التحولية والتطورية والوضعية وغيرها، وهي بذلك وثائق تعكس بالفعل إنشغال نيتشه بما يحدث في عصره. ومن ضمن ما تناولته تلك المحاولة: أفكار "التقدم" والجماهير ومهمة المؤرخ وعلاقته بالفن إلخ، مثلما نقرأه في هذا النص: "على المؤرخ الـــ"عضوي" أن يكون شاعرا، وعلى كلٍّ فإنه من الضَّرَرِ ألا يكون كذلك. ليست قوانين التاريخ من ميدان الأخلاق. الـــ"تقدم" ليس بقانون تاريخي في أي شيء: لا التقدم الفكري ولا الأخلاقي ولا الإقتصادي... كما أن القوانين التاريخية لا توجد سوى للعقل القادر على إغفال ما يوجد من جدٍّ خاصٍ(...)، إذن فمهمة المؤرخ تقضي بالتعرف على حاجيات الجماهير العريضة والتي غالبا ما تكون حاجيات زرعتها العقول القوية"[2]. وفي نص آخر كتبه بعد نحو سنة من ذلك، بين 1868-1869، تناول نيتشه علاقة التاريخ بالحياة: "ليس كل ماضٍ بجديرٍ بالحفظ في الكحول أو على الرِّقِ؛ ولكن أين يكمن معيار قيمته؟ إن كل ما لم يفقد فاعليته لَجَدير بالحياة (ولابد من استبعاد تماما كل ما ليس تاريخيا سوى في الظاهر كاللغات مثلا، التي هي في الحقيقة منتجات للطبيعة). ليس للماضي كله سوى قيمة وحيدة، وبالتحديد قيمة تقديم الدليل على أنه كان لمرة وحيدة"[3]. ما يلمحه أي باحث، إطَّلَعَ على اللاآنيات الأربعة، من خلال قراءته لهذين النصين، هي أرضية التساؤلات الأساسية في فلسفة التاريخ لدى نيتشه والتي ستتدعم من جانبين أساسيين: بحثه الفيلولوجي المعمق، وخاصة ما تعلق منه بالإغريق، ومطالعاته الكثيرة في كتب الفيزيولوجيين والتطوريين، لأنه إلى هذين الميدانين ستستند أقوى إنتقادات نيتشه؛ إذ فيهما إطَّلعنا على مشكلة الـــ"فاعل" والغرائز وكيف ربطهما نيتشه بتقدير الحياة لكي يعبر عن المصير والنشاط الدائم، أو للتعبير عن الحياة "كفاعل وموضوع ذلك النشاط"[4]، عن الحياة كإرادة قوة.

---

1 Cré.id., divagation d'un « inactuel », 5

* جاكوب طوب هو الذي عبر بأسلوب جميل عن فكرة معروفة جدا لدى فلاسفة العلم بقوله "يحدث الإستثناء خرابا في علم الطبيعة لأنه يستند إلى التوقع"، ونحن لم نفعل أي شيء في المتن بغير استخدام هذا التعبير الجميل بطريقة مناسبة لسياق حديثنا.

2 Nietzsche: HKW III, 324 in Charles Murin : Nietzsche problème (généalogie d'une pensée)., PUMontréal/Vrin., Paris., 1979., p.270

3 Ibid., HKW,V,188., idem

4 Y. Yovel., op.cit.,p.187

طبعا قبل بلوغه فكرة إرادة قوة كان نيتشه قد لاحظ عنصر القوة في التاريخ والثقافة ولذلك تحدث عن مهمة التاريخ في التوسط بين عمالقة شتى العصور، بغرض إثارة يقظة العظمة وتدعيمها باستمرار[1]، وكذا عن أن "التاريخ لا يتسامح سوى مع الشخصيات القوية، أما الضعفاء فيأتي على خنقهم"[2]؛ وكل ذلك لكي يقدم لنا فكرته عن الإنتقاء (أو التاريخ) كـــ"وسيلة لتخزين كمية هائلة من القوى البشرية(...) بهدف الزيادة المستمرة للقوة"[3]، ومن ثمة ليقلب النظرة التقليدية ،التي تنطلق من الحاضر لتجد ثقتها وإيمانها في الماضي، إلى شكل جديد من الإيمان، الذي يعقده الإنسان على الآتي الذي يريده. وكما نلاحظ فقد تعمَّدْتُ وضع كلمة التاريخ مباشرة بعد كلمة إنتقاء لتبيان أن تفسير تاريخ البشرية كله بإرادة القوة لن يقدم لنا في آخر تحليل سوى تاريخ الإنسان المتفوق. وهذه واحدة من أهم الأفكار التي تضمنتها UIHV، والتي نجد لها أصولا في مثل الفقرتين السالف ذكرهما، حيث جاءت متضمنة نقدا للقرن التاسع عشر ومبرزة أهم درس في التاريخ بهذه الصيغة: "لا، فهدف البشرية لا يمكنه أن يكمن في نهايتها بل فقط في نماذجها المتفوقة."[4]

تدل عبارة "نهاية البشرية" على كيفية تناول نيتشه لعصره بمنظور طبيب الحضارة، الذي يُشخص في عصره "مرضا ومؤشرا على الأفول"[5]، أي أنه يمزج بين الفيزيولوجيا والثقافة لينقلها إلى مستوى آخر في شرحه، مما يشرح لنا بذلك مباشرة نتائج نقده للسببية من خلال قوله مثلا: "الإنسان مرض **للإنسان، مريض من نفسه:** نتيجة للطلاق العنيف مع الماضي الحيواني"[6] ولتطور "الذكاء، الوضوح، الصلابة، المنطق [كـــ] أسلحة ضد وحشية الغرائز"[7]، أي ما اعتقد القرن التاسع عشر أنه حقق به قفزات عملاقة إلى الأمام. لقد لخَّصَ نيتشه تشخيصه للمرض الأوروبي في عصره من خلال قوله: "بيولوجيا يُجَسِّدُ الإنسان الحديث **تناقض القيم**، فهو يجلس على كرسيين ويقول بنفسٍ واحدةٍ: **نعم** و **لا.** أَتَجِبُ الدهشة من تحول الغلطة fausseté إلى لحمٍ وحتى إلى عبقرية، بالتحديد في أيامنا هذه ؟"[8]؛ "شلل الإرادة: أين لا نصادف اليوم، العاجز هذا! وفي أي لباسٍ...، في أية بذلة! لقد خيَّطنا لهذا المرض أجمل ألبسة الكذب، فالجزء الأكبر مثلا مما يُعرض اليوم في الواجهات باسم الـــ"موضوعية" والـــ"روح العلمية" والـــ"فن لأجل الفن" والـــ"معرفة الخالصة واللامبالية"، ليس سوى شكوكية مُجَمَّلَة وخمولا مُقَنَّعًا"[9]. "إنه من **هذه** الحداثة كنا مرضى– من هذا الهناء المتعفن، من هذا التراضي الوقح، من قذارة الـــ"نعم" والـــ"لا" الحديثين "الفضولية" هذه. هذا التسامح وسعة القلب، التي تغفر كل شيء لأنها " تفهم" كل شيء"[10].

---

1 UIHV,9., p.155
2 UIHV, 5., p.125
3 VP,II,LIII
4 UIHV,9., p.155
5 EH., les inactuelles.,1., p.145
6 GM,II,16
7 VP,I,LI,66
8 CW., épilogue., p.55
9 Pbm,208
10 Anté,1

باختصار، فقد كان نيتشه يرى "إنحطاطا" أين يرى المنظِّرون الإجتماعيون الحديثون تقدما"[1]، وذلك ما يعني أن نيتشه بجعله الحداثة مرادفا للمرض، يكون قد كشف عن مشكلة واقعية وعملية ورفض فلسفة التاريخ كإطار تظهر فيه شتى الدراسات وكأنها تبحث في قضايا علمية بحتة. ومادام الأوروبي وحده هو الذي جعل من نفسه فيلسوفا للتاريخ، ينطلق من ماضٍ، حافظ عليه بكيفية واعية، بغرض تحقيق تحكم واعٍ في المستقبل، بدلا من أن يبقى شاعرا ملحميا ووقائعيا ونبيا وسياسيا[2] إلخ، فإن نيتشه يكون قد جعل من أوربا الإطار الجغرافي والفلسفي المنطقي الذي خرجت منه فلسفة تاريخ معنى الأرض، أي الفلسفة التي ستجعل من أوربا سيدة للعالم[3]، ومن الإنسان المتفوق إبْنًا لإرادة فطاحل فلاسفة مستقبل أوربا، فلسفة ستعطينا معادلة واضحة، حين نَتَّخذ من الجسد (الفيزيولوجيا) خيطا موصلا بين شتى فترات التاريخ البشري، يظهر فيها إغريق ما قبل سقراط وبعض الصدف السعيدة كمحاولات والإنسان المتفوق كنجاح لها للعودة إلى الطبيعة:

ما قبل التاريخ (الجسد) = إغريق ما قبل سقراط + بعض النماذج (وهي نماذج قيست بالمعيار الإغريقي) = تفاؤل بمقدم الإنسان المتفوق (كحالة ديونيزية).

ومقابل ذلك: التاريخ = الروح = السعادة = سقراط + المسيحية ومشتقاتها = انحطاط.

ما نلاحظه في هذه المعادلة هو بروز درجة ما من الأهمية للوعي في فلسفة التاريخ عند نيتشه، أو ما أسماه البعض "إنتقاءً إصطناعيا"[4]، وذلك ما يجعلنا نتساءل: إذا كان الـــ"كائن" مجرد فكرة والـــ"هوية مجرد هذيان"[5] عنده، فهل انتقد "الكائن" لعدم وجوده فعلا أم أن ضرورة مقابلته بالمصير هي التي تقتضي منه ذلك؟ فإذا تعلق الأمر بعدم الوجود الفعلي لما سمي "كائنـــ"ـــا قبله، فما جدوى نقده ؟ لماذا لم يشرع مباشرة في عرض معالم فلسفته عن المصير؟ ألا يكون نقده لهذا العالم قد نشأ من اللغة والكلمة تماما مثلما نشأ العالم، عالم سفر التكوين، من اللغة والكلمة؟

لاشك في أن لفكرة شيلنغ Schelling عن طموح اللاوعي لبلوغ حالة الوعي، بعد عبورها الطبيعة كلها[6]، أثر في ميلاد فرضية إرادة القوة عند نيتشه. بيد أنه لا هذه ولا تلك تعطينا الإجابة الوافية قبل حديثنا لاحقا عن الذاكرة.

الفكرة الثانية، التي تنطوي عليها تلك المعادلة، تكمن في ما يمكننا أن نسميه بشيء من المبالغة: مالتوسية نيتشه، والتي تجد تعبيرها في كل فلسفته عبر عبارات من قبيل: "القول بأن هناك **تطور** عام للبشرية، حماقة؛ ولا يجب تمني حدوث ذلك"[7]، وتطرح علينا تساؤلا آخر حول السبب الذي يجعل الحياة تنقلب على نفسها أكثر مما تقفز فرحا بإنجابها رجالا حقيقيين وبلوغها

---

1 Robert J. ANTONIS : Nietzsche's antisociology : subjectified culture and the end of history, The American Journal of sociology, vol. 101, N* 1, (jul.1995)., p.1

2 Alfred Daumais : Une autre philosophie de l'histoire, celle d'Ernst TROELTSCHE., Laval théologique et philosophique, 60/1(février 2004)., p.105

3 GS,362

4 Barbara Stiegler., op.cit., p.103

5 FP 11[132] ; FP 25[403]

6 J. Le Rider : La vie, l'histoire et la mémoire…, op.cit., p.170

7 VP,II,LIV,144

بذلك واحدا من أهدافها؟[1]. ألا يكمن عيب نيتشه في اعتقاده أن ما وَفَّرَتْهُ له العلوم في عصره كافٍ للحكم على ضوئه بخطأ كل ما يستند إلى أرضية علمية؟ من حسن حظه أنه رفض "الذرة"[2] قبل أن يسمع بهيروشيما. ربما لم تكن "ذرته" سوى التعبير الصريح عن وقوعه في شباك قواعد اللغة! نأمل أن تستند تفسيراته التاريخية إلى واقع تاريخي وليس، كما يبدو لنا، إلى هذه اللحظة، إلى شتى الفلسفات التي انتقدها، لأنه في النهاية لن يكون نيتشه، الذي "يخطط" للهيمنة على العالم بواسطة أوربا، "لإنتاج" الإنسان المتفوق، لبلوغ الحالة الديونيزية ...، سوى مفكرا يقدم لنا فلسفة عملية للتاريخ الآتي، وذلك ما سنحاول معرفته في هذا العنصر.

2-التطورية، مفرداتها ومشتقاتها : "كان الناس في القديم يعتبرون التطور والتغير والمصير كأدلة على الطابع المغلط للظاهر وكدليل على وجوب حدوث شيء يؤدي بنا إلى أن ننخدع. وعلى العكس من ذلك، فإنه إلى الحد الدقيق الذي ترغمنا فيه فكرة العقلانيين المسبقة على اللجوء إلى الوحدة والهوية والديمومة والماهية والسببية والموضوعية والموجود، فإننا نرى أنفسنا بشكل ما في الخطأ، **مجبرين ومرغمين** على الخطأ"[3]. ما السؤال الذي سينتهي إليه المرء، بعد زوال حالة الإندهاش التي تثيرها لديه مثل هذه الفقرة، بغير الإعتقاد بأنه لابد لكتب نيتشه، التي لم يطلع بعد عليها، وأن توفر له بديلا عن هذا العالم المرفوض جملة وتفصيلا ؟! غير أن القارئ، الذي يكون من فئة الشكوكيين الذين لا ينتظرون، قد يتسرع في التساؤل بشأن الأرضية والمعايير التي استند إليها نيتشه حين قال :"**مجبرين ومرغمين** على الخطأ"، لكي يميز الخطأ عن غيره؟ .

إلى الآن تعرفنا على نقطتين أساسيتين ومرتبطتين في فلسفة نيتشه:

أ- **الاعتقاد كأرضية:** بالرغم من أنه في العمق تكون كافة أفعالنا شخصية وفريدة بشكل لا يقارن، وبالرغم من رغبة كل واحد منا في فهم نفسه فرديا قدر الإمكان ورغبته أيضا "في معرفة نفسه"، إلا أن الإنسان يتعلم كيف يكون واعيا فقط حين يكون حيوانا إجتماعيا، أي أنه لا يعي سوى ما هو غير فردي فيه، ما هو "وسيلة" فيه. ولما كانت طبيعة **الوعي الحيواني** تريد من العالم، الذي بإمكاننا أن يكون لنا وعي فيه، أن يكون عالم سطحٍ وإشاراتٍ، عالما مُعَمَّمًا ومبتذلا، وأن يضحى بذلك كل ما صار واعيا، سطحيا ويصير تعميما، فإن ازدياد الوعي خطر. إننا لا "نعرف" (وبالأحرى نعتقد أننا نعرف، يتهيأ لنا) سوى ما هو مفيد أن نعرفه في مصلحة القطيع البشري والنوع، وحتى ما سمي هنا "فائدة"، ليس في نهاية المطاف سوى إعتقادا، لعبة تخيلٍ[4].

من أين نشأ هذا الإعتقاد الذي صرنا نسميه "حقيقة" ؟ من "هذا التقدير: "أعتقد أن هذا أو ذاك، هو هكذا". ما يجد تعبيره في هذا الحكم هي **الشروط الضرورية لبقائنا ونمونا**"[5]، وفيه تكمن "خطيئة

1 SE, 5, p.55
2 GM,I,13
3 Cré.id., la raison dans la philosophie,5
4 GS,354
5 VP,I,LI,192

العقل الأصلية، **الغباوة التي لا تفنى:** أي الصيغة، التي نجدها في مادة كل ديانة وكل أخلاق، القائلة: "إفعل هذا أو ذاك، إمتنع عن هذا وذلك وستكون بذلك سعيدا وإلاَّ ..."[1]، وبذلك فإن "كافة **أعضاء المعرفة** عندنا **وجميع حواسنا** لا تتطور سوى في خدمة بقائنا ونمونا. إن **الثقة** في العقل وفي أصنافه، في الجدل ومنه في المنطق، لا تثبت أي شيء سوى في صالح **فائدته** للحياة وليس لصالح الـ"حقيقة"(...) إننا نُسْقِطُ الشروط الضرورية لبقائنا في شكل **صفات ضرورية للكائن**، ولأنه لابد لنا وأن نكون ثابتين في اعتقادنا لكي نزدهر، فإننا إستلزمنا من ذلك أن العالم الـ"حقيقي" لم يخضع لا للتغيير ولا للمصير بل هو موجود"[2]؛ وباختصار، فإن التفكير الواعي لدى الفيلسوف نفسه، باعتباره واحدا من أكبر العارفين في المجتمع، مُرْشَدٌ أيضا بواسطة غرائز تجعله يسير بالقوة في مسالك محددة، وذلك ما يعني أن متطلباتًا فيزيولوجية تصبو لحفظ نمط حياة معين[3]. ماذا يعني كل هذا ؟ كيف لنا أن نميز الإنسان عن الحيوان ؟ الفيلسوف عن عامة الناس ؟ ؛

ب- **القوة:** توفر لنا هذه النقطة جزئيا إمكانية الإجابة على مثل تلك الأسئلة من خلال انتقالنا إلى لغة نيتشه الفيزيولوجية، أين نجد أن "من لديه القوة يتجاوز كثيرا العقل"[4]، ومثل ذلك: الناسك المتفرِّد والبهيمة المفترِّسة، اللذين تمكَّنَا من تجاوز ضرورة الإتصال الرهيبة وضغط الحاجة إليها[5]؛ تلكم هي النتيجة التي توصَّل إليها نيتشه وجعلته يوجه خطابه الى أهل عصره قائلا: "إن القوة هي التي تهم قبل كل شيء، وبعدها فقط تأتي الحقيقة ولكن بعدها بكثير، أليس كذلك أعزائي أُنَاسَ اليوم؟"[6].

لقد صار الآن بحوزتنا جزء من الإجابة، ويتلخص في كون العقل وظيفة، إلا أن الجزء الآخر يدفعنا إلى التساؤل عما إذا لم يتعلق الأمر فقط بنوع من التفسير؟ وبسرعته المعهودة، لا يتوانى نيتشه في التأكيد، من خلال نقده، على عاملين حاسمين يندرجان ضمن فلسفته في الحضارة باعتبار أن "هدف الثقافة هو تشجيع ميلاد الإنسان الحقيقي ولاشيء آخر"[7]:

1- الخوف: من أين جاء أمر كون البنكي يفكر مباشرة في "الأعمال" مثلما يفكر المسيحي في "الخطيئة" والشابة في حبها ؟ الإجابة تكمن في الإنتصار التدريجي لصنف معين من التفسيرات السببية على **بقية** الأسباب والتفسيرات. ولكن ما هي مميزات الصنف المنتصر؟

يوصل التعمق في أصول غريزة السببية إلى شعور الإنسان بالخوف من كل جديد وغريب ومجهول، وتلك بداية لظهور الخطر والقلق والإنشغال، تدفع به غريزيا إلى البحث عن مخرج من تلك الوضعيات الصعبة، المخرج الذي يجده في هذا المبدأ: مهما كان التفسير فهو خير من ألا

---

1 Cré.id., les 4 grandes erreurs,2., p.39
2 VP,I,LI,192
3 Pbm,3
4 Cré.id., divagation d'un « inactuel », 14
5 GS,354
6 OSM,226 (لا يعني هذا أن OSM ظهر قبل GS أو .Cré.id)
7 SE,5., p.60

يوجد أي تفسير على الإطلاق*، أي أن أول فكرة، يتضح من خلالها المجهول على أنه معروف، تجلب الراحة والإطمئنان والرضى لدرجة الإعتقاد "أنها صحيحة"[1]. و"لأن الخوف يريد أن يكتشف من هو الآخر، ما يعرفه، ما يريده، فإنه أدى إلى تقدم المعرفة العامة بالناس"[2] مثلا: ومن ذلك الخوف نفسه كان الحذر الذي ينصح الناس بالتظاهر بحيازتهم للتقديرات القيمية المكتسبة على حساب تقديراتهم الشخصية؛ وشيئا فشيئا تضحى هذه الفكرة طبيعتهم الثانية[3]. وهذه واحدة من النقاط التي تذكرنا بعلم النفس كمورفولوجيا لإرادة القوة، والتي سبق فيها نيتشه فرويد، وتجد تعبيرها على لسان الساحر حين قال: "فعلا فالخوف هو الشعور الأساسي والموروث لدى الكائن البشري. كل شيء يجد تفسيره بالخوف: خطيئة أصلية كانت أم فضيلة أصلية.

من الخوف أيضا نبعت وكبرت فضيلتي، المسماة: علما(...). مثل ذلك الخوف الطويل والقديم، الذي صار رفيعا، مُرَوْحَنًا، مُتَفَكَّرًا، هو ما يبدو لي أنه أصبح اليوم يسمى **علما**"[4]. وبتعبير آخر، فإنه "**بجانب** الضمير السيئ، ظل كل علمٍ يظهر إلى الآن"[5]؛

2- **القسوة:** لأننا سنعود بالشرح إلى هذه النقطة، فإنه تكفينا فقط الإشارة إلى أننا نجد القسوة في مبدأ كل حضارة[6]، كما أن "كافة الديانات هي، في تحليل أخير، منظومات قسوة"[7]. والأمر كذلك بالنسبة لجوهر الدولة والمنظومات القانونية...إلخ[8]، أو مثلما لخَّصَهُ زرادشت في حديثه مع حيواناته بقوله: "فعلا فالكائن البشري هو الحيوان الأكثر قسوة، فقد ظل إلى الآن لا يشعر بحالاته الأفضل على الأرض سوى في المآسي، مصارعة الثيران وصلب الأحياء؛ أنظروا إليه كيف وجد في ابتداعه للجحيم، جنته على الأرض"[9].

نصل، بعد هذه الإشارة إلى فترة الخوف كأطول فترة عاشتها البشرية[10]، إلى النقطة التي انتقد فيها نيتشه الفلاسفة والتي يراها سببا للتقدم، ونعني بها علاقة الفرد بالحياة، التي تكشف لنا عن صنفين من الفرديات:

- الشكل الذي يمثل الخط الصاعد، الذي يكمن هَمُّ الفرد فيه، في حفظ نفسه وفي الحصول على شروط حياة **قصوى**، مما يجعل بذلك الحياة تتقدم خطوة أخرى؛

- الشكل الذي يمثل التطور الهابط والإنحطاط والتفسخ المزمن والمرض، أي الطفيلي الذي يعيش عالة على النموذج الكامل[1].

---

* هناك عدة جمل يؤكد بها نيتشه هذه الفرضية: A,474 ; GM,III,I ; Anté.,24

1 Cré.id., les 4 grandes erreurs,2., p.42-43

2 A,309

3 A,104

4 APZ, de la science…, p.431

5 APZ, des vieilles et des nouvelles tables., 7., p.284

6 5P5L : L'Etat chez les Grecs., p.183

7 GM,II,3

8 ibid,5 et 17

9 APZ, le convalescent,2., p.312

10 A,250

السؤال الذي يفرض نفسه الآن هو: هل يشرح لنا هذا الوصف شيئا عن سبب تميز الشكل الأول من الفردية عن الشكل الثاني؟ .

يبدو أن قول نيتشه بأن: "التطلع إلى التميز(...) هو تطلع إلى الهيمنة"[2]، و"أن نحسن أو نسيء إلى الغير فذلك ما يعني أننا نفرض هيمنتنا عليهم"[3] ، لن يعدو أكثر من تقديم تفصيل آخر لما سلف ويبقى سؤالنا بغير جواب مقنع، وذلك ما سنحاول إيجاده في فترة ما قبل التاريخ النيتشية، التي وَضَّحْنَا معالمها من خلال تعرضنا بالحديث إلى خمس نقاط أساسية:

- حديث نيتشه بلغة تطورية واضحة، هذه اللغة التي لا نجدها في "تطوريته" الخاصة به فحسب بل في النقد الذي يوجهه للتطورية التي سبقته أيضا، ومن ثمة فإننا نؤكد مرة أخرى أنه ليست لنيتشه سببيته (أو تفسيره السببي) الخاصة به فحسب، بل أيضا تطوريته التي سيلي الحديث عنها؛

- يعيدنا نيتشه، بحديثه عن الخوف والقسوة، حين يحاول التمييز بين درجاتهما لدى الفرديات، إلى مبادئ السيادة والإختلاف والتي نرمز إليها بالفقرة التالية، التي ستفيدنا لاحقا في تحليلنا: "بالنسبة إلى العقل الحر، كم يبدو له **تغيير** الرأي في ذاته محتقرا بقدر بسيط! وكم يمجد- بالعكس من ذلك- **خاصية** تغييره لرأيه، خاصية نادرة وراقية وخاصة إذا احتفظنا بها إلى سن متقدمة! كما أن عزتها (وليس جبنه) تذهب إلى حد قطف الثمار الممنوعة لـــ"احتقار كونه محتقرا" *spernere se sperni* وكذا إحتقار الذات *spernere se ipsum*، بعيدا عن التوقف عند خوف المتفاخرين وغير المكترثين!"[4]؛

- نقده للعلم، وسوف نلاحظ كيف سيستند نيتشه نفسه إلى المعايير العلمية؛

- صناعة الذاكرة، المقارنة أو الذاكرة الإنتقائية؛

- فلسفة التطور أو التقدم أو الحضارة.

ما نلاحظه على هذه النقاط: أن نيتشه يكون، من خلال حديثه عن التطورية، قد قدم لنا بواسطتها أفضل مفتاح لفهمه، لموافقته الرأي أو لانتقاده، لأنه إذا كان الفلاسفة يتخفُّون، يكذبون، يستندون إلى تاريخ الأكاذيب ...الخ، فإنه لدينا في الواقع (الغطائين النباتي والحيواني مثلما يسميه) أفضل وسائل التحقق إذا أسندناها إلى منطقه هو.

*- **ما أعابه نيتشه على التطورية**: بالنظر إلى أصولها القديمة، التي تعود إلى قدماء الإغريق، وعلى انطوائها على فكرة التقدم، بمعنى التفاؤل، فإنه يمكننا إدراج التطورية، كمفهوم عام وتيار فلسفي وبيولوجي يعكس محاولات متجددة لفهم الحياة، ضمن التاريخية، خاصة وأن فهم نيتشه لها يندرج ضمن هذا السياق من الشرح، مثلما بيَّنَ ذلك بنفسه من خلال قوله بأن "التطورية" لِقْيَةَ

---

1 Cré.id., divagation d'un « inactuel », 33

2 A,113 ؛ يتضمن الاختلاف، الحقد.(Pbm, 263)

3 GS,13

4 A,55

الألمان ومساهمتهم في مجال الصيغ الفلسفية"[1]، وهي بالضبط "لِقْيَةَ هيغل المدهشة، الذي هزَّ كافة التَّعَوُّدَات المنطقية، الحسنة والسيئة، حين تجرَّأ على الإعلان بأن الأفكار الخاصة تنشأ **الواحدة** فيها من **الأخرى**: لقد هيأ هذا المبدأ العقول الأوربية لآخر حركة فلسفية، الداروينية– لأنه بدون هيغل، لا وجود لداروين. أيوجد ما هو ألماني في هذا التجديد الهيغلي، الذي كان أول من أدخل فكرة الـــ"تطور" في العلم ؟[2]. وبقوله بأن "الفلسفة التطورية لهيغل [هي] تصيير التاريخ فلسفة"[3]، ثم تحذيره لنا من "المبادئ الغائية الزائدة، كغريزة الحفظ (التي ندين بها إلى تناقض سپينوزا)"[4]، يكون نيتشه قد كشف عن أرضية نقده للتطورية، بل واستعماله لغة تتساوى عبرها الفلسفة بالتاريخ أثناء حديثه عن "تاريخ الإنسان المتفوق"[5]، وذلك ما يجعله يُخلط هو الآخر بين الفيزيولوجيا والثقافة، مثلما أشرنا إلى ذلك من قبل، ويقدم لنا فلسفة تطورية جديدة تعكس إرادته في التميز، هذه الإرادة المصاحبة لكافة أعماله والتي تسمح لنا برسم جدول مطول بالأفكار التي ينتقدها والبدائل التي يعرضها لنا، لدرجة تأكيدنا على كون فلسفته التطورية تلك مجرد ردود أفعال فلسفية تعيش من الموضى والأفكار الأصيلة بغرض قلب التيار. لقد ذكرنا منذ قليل أسماء داروين وسپينوزا وهيغل مثلا، بيد أن فقرات أخرى تكشف لنا عن أعمق من ذلك، عن انتقاد متستر لشوپنهاور في التطورية، مثلما نجد ذلك في A,108 مثلا.

مع زيادة أهمية نيتشه مع مطلع القرن العشرين، ظهرت بعض الدراسات المتخصصة لتبين أن اللاَّماركية Lamarckisme نظرية في التطور البطيء بفعل تكيف الكائن الحي، مباشرة وبطريقة وظيفية، مع الوسط وكذا بوراثة الصفات المكتسبة، ومن ثمة فإن معظم من ينتقدون التطورية في نيتشه لا يعرفون أنهم يوجهون نقدهم للاَماركيةٍ مُخصَّبَةٍ بفكرة الإنتقاء أو الإنتخاب الطبيعي[6]. وقد مَسَّتْ تلك الدراسات حقا نقطة أساسية ولكنها تظل ناقصة ما لم تفهم طريقة التفسير النيتشية المبنية على إرادة القوة، والتي تجعل من نقد نيتشه للتطورية دراسة لمعاني اللاماركية والداروينية وغيرها[*]، أي ضرورة الرجوع دائما إلى الحياة القصوى كمعيار، ومن ثمة لابد من إزالة مثل ذلك الغموض من خلال استعراض النقاط التي انتقدها نيتشه دون تمييز البيولوجي فيها عن الثقافي.

---

1 Pbm,244

2 GS,357

3 VP,II,LI,60

4 PBM,13

5 VP,II,LIII,479

6 Claire RICHTER : Nietzsche et les théories biologiques contemporaines (thèse pour le doctorat présentée a la faculté des lettres de l'université de Paris, Mercure de France., 1911,p.7&234

* نجد الكثير من الفقرات التي تدل على فهم نيتشه للداروينية، في أولى كتبه مثل: "الإنسان حسب داروين، كائن طبيعي من أقصاه إلى أقصاه، كائن إرتقى إلى البشرية بعدما إتبع قوانين أخرى غير هذا المبدأ الشتراوسي: ناسيا في كل لحظة بأن الأفراد الآخرين في نوعه لهم الحقوق ذاتها التي يتمتع بها هو، شاعرا [من الشعور] بأنه الأقوى وعاملا تدريجيا على إختفاء الأفراد الأكثر ضعفا ؟"(DS,2, p.50)

أ- **التكيف والصراع من أجل البقاء:** لم ينكر نيتشه فكرة التطوريين القائلة بإمكانية تَحَدُّر الإنسان من قردٍ، مثلما نقرأ ذلك في الفقرة الثالثة من مستهل زرادشت أو في قوله بأن "القردة بابتداعها القسوات تكون قد مَهَّدَتْ لِمَقْدَمِ الإنسان"[1]، أو في غيرها من الفقرات الأخرى؛ وحتى حين قال بأنه بوضع القرد، بمعية بعضٍ من نسلٍ حيوانيٍّ لا يقل ترهيبا، في مدخل الطريق المؤدي إلى إثارة الشعور بسيادة الإنسان، عن طريق تبيان أصله الإلهي[2]، فإنه لم يكن يقصد رفض الفكرة، بل إثبات غياب إرادة الإنسان في ذلك التحدُّرِ، إذ ربما ستكون درجة التفوق، التي يمكن للبشرية أن تبلغها، في النهاية، أدنى عما كانت عليه في البداية ![3]. وهذه فكرة تذكرنا بمستهل "الحقيقة والخطأ بالمعنى الفوق أخلاقي"، والذي نجد ما يوجزه في فقرة أخرى تعود إلى سنة 1888: "الإنسان نوع حيواني مَزْهُوٌّ صغيرٌ محسوبٌ وقته لِحُسْنِ الحظ. الحياة على البسيطة: لحظة، حلقة، إستثناء بلا عاقبة، بلا أهمية بالنسبة للطابع العام للأرض"[4]. ومن جهة أخرى فـ"الإنسان كنموذج، ليس بتاتا في تقدم؛ نتمكن فعلا من بلوغ نماذج راقية ولكنها لا تبقى، مستوى النوع لا يرتفع، [كما أن] الإنسان كنوع لا يمثل أي تقدم إذا قارنَّاه بأي حيوان آخر.

لا يتطور مجموع عالم الحيوان والنبات من الأدنى إلى الأرقى...، بل الكل يتطور في آن واحد في جميع الإتجاهات، حابل بنابل، بصراع الواحد ضد الآخر"[5]. وتُبْرِزُ الفكرة الأخيرة جوهر الرفض النيتشي للتطورية مقرونا بتلميحٍ إلى مشروع الإنسان المتفوق، والذي نجده مُعَبَّرٌ عنه فيAPZ بصيغ كثيرة مثل:

"يتساءل اليوم أكثر الناس إنشغالا: ما الذي سنفعله لحفظ الإنسان ؟

غير أن زرادشت يتساءل، وهو الوحيد: ما الذي سنفعله لتجاوز الإنسان ؟"[6]. كما نلمس أيضا فكرة التجاوز تلك في موضوعات شتى مثل: "الزواج: هكذا أُسمي إرادة اثنين لخلق الواحد الذي يفوق من خلقاه"[7].

وهكذا لا يظهر نقد نيتشه للتطورية بسبب أخطاء أصحابها وعيوب النظرية فحسب، بل لكونها تعكس فكرة "الثبات"، الجد مرتبطة بالقيم السائدة في عصره. فإذا أخذنا مثلا "خاصية التكيف" كعنصر انتقده في التطورية، فإننا نجده يرى فيها إفرازا لتسرب إشمئزاز عصره من كل ما يأمر ويريد أن يتحكَّمَ، مزاج الديمقراطيين و"تصف الفوضوية" الحديثة، مظهر التعقلية الأكثر رفعة، إلى العلوم الأكثر دقة وسيادتها على الفيزيولوجيا والبيولوجيا[8]، لأن "خاصية التكيف" نشاط من الدرجة

---

1 GM,II,6
2 A,49
3 idem
4 VP, II, LIII, 110
5 VP,I,LII 152
6 APZ, de l'homme supérieur, III, p.407
7 APZ, de l'enfant et du mariage, p.94
8 GM,II,12

الثانية ومجرد "رد فعلية" réactivité[1]؛ كما أنه لا يعدو أن يكون أكثر من تفسير. فقد جرت "ملاحظة التكيف السعيد لبعض الكائنات مع شروطِ حياةٍ جدُّ خاصةٍ ثم كان [بعدئذ] الإعلان بأنه تم التوصل إليه بواسطة **تأثير المحيط**[2]. "لقد **بالغ** داروين[*] **بجنون** في الحديث عن الـــ"ظروف الخارجية"، لأن الحياة ليست تكيفا للشروط الباطنية مع الشروط الخارجية، بل هي إرادة القوة.
إن أهم شيء في الصيرورة الحيوية هي بالتحديد قوة التشكيل هذه، التي تخلق أشكال "الداخل"، التي **تستعمل، تستغل** الـــ"ظروف الخارجية"... تتمثل جزء متزايدا من الواقع الخارجي. ليست الأشكال الجديدة، التي أعطيت أشكالها من الداخل، مخلوقة لأجل تحقيق غاية ما، ولكن في صراع الأجزاء، يمكن لشكل جديد أن يبقى لمدة طويلة دون أن تكون له أية علاقة بفائدة جزئية ما، دون أن يتقن نفسه بواسطة الإستعمال"[3]. وهكذا سَرَّبَ نيتشه بدوره فكرة كون العقول الحرة هي التي تصنع التاريخ و"النفوس القوية والخبيثة، الأكثر قوة والأكثر نبلا، هي التي أدت إلى حدوث أكبر تقدم حققته البشرية إلى الآن"[4]، بواسطة نظرية إرادة القوة، إلى نقده للسبنسرية التي ترى أن الحياة "تكيف داخلي، فعَّالٌ دائما، مع ظروف خارجية"[5]، أي إلى الفيزيولوجيا، فتظهر تلك الفكرة على أنها تعبير عن تجسيد لحد أقصى من القوة من خلال قوله: "غير أنه من هذا نكون قد تجاهلنا منشأ الحياة، إرادة القوة؛ نُغْمِضُ عيوننا عن الغلبة الأساسية للقوى على نظام مفاجئ، عدواني فاتح، إغتصابي، مُحَوِّلٌ ويعطي باستمرار تفسيرات جديدة وتوجيهات جديدة، وقد كان الـــ"تكيف" في البداية قد أخضع لتأثيرها. إنه هكذا ننكر سيادة الوظائف الأكثر نُبْلا في التعضّي، وظائف تتجلي فيها إرادة الحياة نَشِطَةً ومُكوِّنة"[6]. وبذلك يكشف لنا نيتشه عن مشروعه، الذي سماه "تحرير الماضي في الإنسان"[7]، والذي قصد منه مقابلة "الغرائز السائدة والذوق السائد، اللذين لا يزالان يفضلان التعامل مع الصدفة المطلقة وحتى مع اللامعقولية الميكانيكية"[8]، بـــ: "نقطة مهمة في الطريقة التاريخية"[9]، والتي قال بشأنها زرادشت: "هذا إشفاقي على ما مضى، أراه فعلا ماثلا بدون حماية، لمتعة، لفكرة وجنون كل جيل آت، يفسر كل ما كان وكأنه جسر يؤدي إليه! قد يأتي طاغيةٌ، شريرٌ، ملؤه الحيلة، والذي بقفزته وبِقَرَفِهِ يُرْغم الماضي ويجبره بالقوة على أن يستحيل له
0

---

1 GM,II,12
2 VP,I,LII,152
* نلاحظ هناك خلط نيتشه بين تطورية داروين وتحولية لامارك وسبنسر.
3 VP,I,LII,63&79
4 GS,4
5 GM,II,12
6 GM,II,12
7 APZ,des vieilles et des nouvelles tables., 3., p.281
8 GM,II,12
9 idem

جسرا وإيذانا ورسولا وصيحة ديكٍ"[1]. طبعا هذا الشرير هو نيتشه نفسه، الذي يكمل صورته بقوله: "لن نمحي من روح إنسانٍ ما أحب أجداده أن يضعوه فيه من أحسنٍ وأثبتٍ"[2].

ألا يعني هذا كله أن نيتشه لا يتحدث عن التكيف ؟ طبعا نعم مادام قد مزج البيولوجي بالثقافي، غير أنه لا يقدمه سوى كصيغة أخرى لتفسيرات الكائن الحي وكمظهر لـــ"عمل إرادة القوة"، وذلك ما يدفعنا إلى التجرؤ مثلا على القول بأننا نجد في كتابه "جينيالوجيا الأخلاق" أوضح تعبير عن التطورية في هذا المعنى. وإذا أردنا تقديم أمثلة على ذلك، فإننا نجدها في الآتيين بأوضح تعبير أيضا:

- "في العمق، ليست كل أخلاق سوى شكلا رفيعا للإجراءات المتخذة من قبل كل حياة عضوية بغرض **التكيف** ومن ثمة **التغذي** و**كسب القوة**"[3]؛ ولنكرر مرة أخرى قول نيتشه: "أن نحسن أو نسيء إلى الغير، فذلك ما يعني أننا نفرض هيمنتنا عليهم"[4]. من جهة أخرى، لم ينكر نيتشه الصراع من أجل الوجود، لأنه "عمليا سبق له وأن حدث أحيانا"، أي أنه لا يمثل "سوى **إستثناءً**، حدًّا مؤقتا لإرادة الحياة"[5]، ما دام الطابع العام لا يكمن **بتاتا** في الندرة والمجاعة بل في الثراء والوفرة وحتى في التبذير العبثي- فحيث يوجد صراع فهو صراع من أجل السلطة...ولا يجب خلط مالتوس بالطبيعة"[6]. إن "الغريزة الأساسية للحياة الحقيقية لَتَجْنَحُ نحو **توسيع القوة**، التي غالبا ما تهدد حفظها لذاتها وهي قوية بهذه الإرادة"[7]. ومن جهة أخرى، يرفض نيتشه فكرة الصراع تلك مثلما هي على شكلها "التقليدي"، لأنها لا تبدو على أنها "وجهة النظر الوحيدة التي يمكن تفسير التقدم أو زيادة قوة العرق والفرد انطلاقا منها"[8]. ولشرح ذلك، شَبَّهَ نيتشه النوع البشري بالكائن الحي، الذي تزداد قوة جسده عقب إصابة أحد أطرافه بمرضٍ ما، ليشترط "مساهمة عنصرين مختلفين: أولا، زيادة القوة الثابتة بواسطة إتحاد العقول ضمن مجموع الإعتقاد والشعور؛ ثم إمكانية بلوغ غايات أعلى بفعل ظهور مخلوقات في حالة تفسخ وإثر حدوث حالات وَهْنٍ وجروح في هذه القوة الثابتة"[9]. وهكذا إنتهى نيتشه إلى القول بأن "**المخلوقات الأقوى تحافظ على النموذج الثابت** والأضعف تساهم في تطوره"[10]، وبأية كيفية **!!**[*]

---

[1] APZ.,des vieilles et des nouvelles tables.,11,p.287 ; VP,II,LIV,218

[2] Pbm,264

[3] VP,I,LII ,425

[4] GS,13

[5] VP.I,LII.40; GS,349

[6] Cré. id., divagation d'un « inactuel », 14

[7] GS,349

[8] GS.,4 ; HTH,224 ;VP,II,LIII,404

[9] VP,I,LI,395 ; Idem

[10] idem

[*] تجد هذه العبارة أوضح تعبير واقعي لها في السياسات الإستعمارية مثلا، حين كان الفرنسيون يوقفون عملياتهم العسكرية ضد أهالي الجزائر كلما انتشرت وسطهم الأوبئة؛ وإن دراسة سنوات المجاعات والأوبئة التي فتكت بهؤلاء إبان ستينات القرن التاسع عشر لتعطينا أرضية كل تفكير أحمق حول كون

هذه الفكرة ليست بالبتة بريئة لأننا نجد فيها تمهيدا لقوله: "فليسقط الضعفاء والمعتوهين!(...) ويجب حتى مساعدتهم على ذلك"[1] مادامت "الحياة نفسها لا تعرف أي تضامن ولا أية "مساواة" بين الأطراف السليمة والأطراف المتفسخة في جهازها العضوي؛ لابد من إلغاء الأخيرة وإلا سينهار الكل، سيكون **الإشفاق** على المنحطين، "المساواة" بين المتفسخين، أسوأ لا أخلاقية، **تَعَدِّيًا على الطبيعة** وقد رُقِّيَ إلى مصاف الأخلاق!"[2]. ومن هذه النقطة كان الحديث عن تميز المتميزين وكأنه يتحقق رغما عن كافة الظروف، أي أن "روحا غليظة تتحمل الجروح وشتى الخسائر أفضل من روح نبيلة: فالمخاطر المحدقة بالثانية أرفع بدون شك، وهناك إحتمال كبير في أن تنهار وتغرق نظرا لتعقد ظروف وجودها"[3]، ويضاف كل ذلك إلى طبيعة المتميز الذي يظهر بإسرافه وكأن غريزة الحفظ توقفت، لأن ضغط القوى الطافحة، الذي لا يقاوم، يمنع عليه كل إحتياط[4].

ينتقد نيتشه أيضا فكرة "الصراع من أجل الحياة"، من حيث كون أصحابها، وخاصة داروين، لم ينتبهوا إلى أهمية العقل؛ "**فللضعفاء المزيد من العقل**(...) أي: الحذر والصبر والخداع والتَّخَفِّي والسيطرة على الذات وكل ما هو إيمائي (مضاف إليه الجزء الأكبر من الفضيلة المزعومة)"[5]، ومن ثمة فـ"حقيقة الصراع من أجل البقاء هو **نقيض** للصراع الذي تقول به مدرسة داروين(...) لأن[نيتشه] لا يرى في كل مكان سوى سيادة وبقاء من يعرضون الحياة وقيمة الحياة للخطر"[6] الصراع الذي "سينتهي على حساب الأقوياء"[7]، مثلما نجده مُعَبَّرًا عنه في العديد من العبارات مثل: "في مفهوم الإنسان الطيب، يؤخذ جانب كل ما هو ضعيف ومريض ومُشَوَّهٌ ومضطرب وكل **مرشح للإنقراض**، أي قانون **الإنتقاء** معكوس"[8]، وهكذا إلى أن تضحى الإرادة الإلهية مرادفا لشروط حفظ قوة رجل الدين[9]، "**لبقاء** نوعٍ بشري فقيرٍ، مُجْهَضٍ نصفيًّا أو كليًّةً. وإذا كان هذا النوع هو الــ"عدد الأكبر" فهناك **خطر**"[10].

== مئات آلاف جثث الأهالي قد ساهمت في محافظة الأقلية الأوروبية على "النموذج الثابت" ذلك، على "الإنسان–الحيوان الأليف، الحيوان القطيعي، الحيوان المريض، المسيحي..."! (Anté,3)

1 Anté,2

2 VP,II,LIV,252، أحسن نقد يمكننا توجيهه إلى نيتشه: هذه العبارة في حد ذاتها نقد لنيتشه لننظر إلى الواقع فماذا سنرى!!

3 Pbm,276

4 Cr. id., divagation d'un inactuel, 44

5 ibid .,14

6 VP,I,LI,395

7 Cr. id., divagation d'un inactuel, 14

8 Anté,11 ; EH, pourquoi je suis un destin,8., p.195

9 Anté,26

10 VPI,LI,306

ينسحب أيضا أساس نقد نيتشه على فكرة **إنتخاب الأكثر جمالا،** التي تظهر مبالغٌ فيها إلى درجة تجاوزها الغريزة الجمالية للعرق البشري لأن الملاحظ، حسب نيتشه، أن الكائنات الأكثر جمالا تتزاوج مع المخلوقات المحرومة جدا، الأكبر مع الأصغر[1]، القديس مع الإوزة[2].

أخيرا، تجدر الإشارة إلى أنه بإخضاعه الصراع من أجل البقاء للتفسير بإرادة القوة- والذي نجمت عنه المقولة الشهيرة: "حتى ولو بدا غريبا، فإنه علينا دائما بحماية الأقوياء من الضعفاء، السعداء من تعساء الحظ، المعافين من المتفسخين والمعتوهين"[3]- فإن نيتشه أشار إلى الطفرات كعامل مهم في تطوريته[*]، والتي جاءته على ما يبدو من المصدر ذاته الذي تأثر به داروين، مثلما يدل على ذلك قوله: "تُعَلِّمُنَا خبرة مربي المواشي بأن الأنواع التي تتلقى تغذية أوفر وتكون موضوع مزيد من العناية والإهتمام، تجنحُ بسرعة إلى الإبتعاد الأوضح عن نموذجها من خلال إنتاج أكبر عدد ممكن من التَّشَوُّهَاتِ والفضاعات (وكذا آفاتاً فضيعةً أيضا)"[4]. كما رأى أنه "ليس الضحك والحكمة السعيدة وحدهما كافيين بل المأساوي ولامعقوليته السامية أيضا جزء من الوسائل الضرورية لحفظ النوع!"[5]، أي أنه في اختلاف وظيفة الغرائز السيئة والحسنة تكمن فائدة حفظ النوع[6].

ب- **الإرتقاء والتقدم:** مثلما نلاحظ، فإن نيتشه لم ينتقد التطورية في جانبها الذي يمثل النتيجة، التي إنتهى إليها التطوريون من خلال بحوثهم، فحسب، بل انتقدها أيضا في جانبها العملي، الذي أدى إلى الإنتقال بين الجانبين البيولوجي والثقافي. إذ بقوله بأن التخوف من "الإنسان الأغنى من حيث القيم الرفيعة والجدير بالحياة(...) خَلَقَ الرغبة في ترقية و**الحصول** أخيرا على الصنف المخالف"[7]، يكون قد كشف عن إيمانه بوراثة المكتسب، مما يجعل "ترقويته" عبارة عن أسس لثقافة إنتقائية-يفضل نيتشه تسميتها فلسفة في بعض الأحيان- تشبه ما يمكننا أن نسميه فلسفة عملية، تجد تعبيرها الواضح في قوله مثلا: "كم نحن بعيدون عن رؤية كيفية إلتحاق الملكة الفنية والحكمة العملية للحياة بالفكر، عن رؤية كيفية تَشَكُّل منظومة عضوية عليا يظهر أمامها العالم والطبيب والفنان والمُشَرِّعُ، مثلما نعرفهم الآن، وكأنهم أشياء قديمة لا تكفي!"[8]؛ وعليه فإن عنصر الإرتقاء يثير دفعة واحدة سيرورة إرتباط بين عدة مسائل ترتبط بمنهجية البحث وتقودنا إلى نقد نيتشه للعلم، ومنه إلى نقد التاريخ الذي يطمح لأن يصير علما، مثلا عبر قوله: "إن الإشفاق

---

[1] VP,I ,LII,152
[2] APZ, de l'enfant et du mariage., p.94
[3] VP,I,LI,395
[*] يرى شاصار أن: "نيتشه طرح نوعا من نظرية التحول قبل دوفري De Vries وبعد نايجلي Naegeli في ذات الوقت الذي أخذ ينتقد فيه التفسيرات الداروينية واللاماركية". (P. Chassard., op.cit., p.42)
[4] Pbm,262
[5] GS,1
[6] GS,4
[7] Anté.,3
[8] GS,113

يناقض في مجمله قانون التطور الكبير، أي قانون **الإنتقاء**"[1]؛ هذا القول الذي نرى فيه، نتيجة توصَّل إليها نيتشه من خلال نقده لجانبي التطورية وكذا مظهرا لتساؤلنا عما يَحُولُ دون إعتبارنا إنتقائية نيتشه الصارمة تلك على أنها إرادة قوة؟ على أن الفلسفة، ولارتباطها بمشروع الإنسان المتفوق، ليست تاريخا للآتي؟ ليست حتمية له؟ وفي النهاية ليست سوى محاولة لنقد الحداثة بمنطق وموضوعية العلوم الحديثة نفسها، حتى أثناء عكسه وقلبه كيفيات التفسير فيها؟ ذلك ما سيظهر لنا مثلا في موضوع الإرتقاء هذا من خلال الإنتقال بين الفيزيولوجي والثقافي أو الفلسفي.

تسهل علينا قراءة Antéchrist- الذي يُسَوِّي فيه نيتشه بين الطبيعة والواقع (فقرة 15 مثلا)، ليقدم لنا معيار الخطأ عنده مثلما هو موضَّحٌ في قوله: "لقد نمت **المسيحية** على أرضية **خاطئة**(...) [وهي] تشكل المعاداة القاتلة للواقع"[2]– فَهْمُ التقدم كتجاوز للقيم المسيحية و"عودة" إلى الطبيعة في الآن نفسه، رغم أن نيتشه يؤكد بأنه لا يقصد من تلك العودة السير إلى الوراء*، بل **الصعود** إلى الطبيعة العليا، إلى الطبيعي الذي يجعل الإنسان كاملا[3]، كما قدم لنا بعض المؤشرات على الطبيعة العليا هذه، الـــ"أكثر طبيعية" أو التقدم[4]، حين رأي أن "الإنسان أخذ يصير أكثر عمقا، أكثرا حذرا، أكثر "لا أخلاقية"، أكثر قوة، أكثر ثقة في نفسه"[5]. ولكن ألا يعني هذا أن نيتشه لا يفعل أكثر من وصف نتائج التطورية بلغته المليئة بالأفضليات superlatifs ؟ .

يرى نيتشه أنه حين يأخذ "قسوة الطبيعة"، كشرط للتطور، بعين الإعتبار، فإنه لا يجد الطبيعة قاسية حيال أبنائها الأكثر ذكاء فحسب، بل إنها تحب وتحمي "**الوضيعين**"[6] أيضا، وحين نضيف إلى ذلك كون"الضعفاء يتفوقون أكثر فأكثر على الأقوياء: لأن معهم العدد و**لأنهم أذكى**"[7]**، فإننا نفهم نقده للداروينية من خلال قوله: "إن الأنواع لا ترتقي بالإتقان"[8]. ومن جهة أخرى حديثه عن تعاسة البشرية وسبب بطء تقدمها، الذي يراه كامنا في الإهتمام بما **يُحَمِّسُ** و**يثير** على حساب ما يغذي[9]. وهكذا يقدم لنا نيتشه رأيه قائلا: "من جهتي، يبدو لي أن **التقدم** الحقيقي هو الشعور بالـــ**مزيد**، إحساس[الكائن] **بأن يصير أقوى**، مع إستثناء الصراع"[10]، لِيُظْهر لنا بأن "القول بأن **الأنواع** تمثل ارتقاء"[11]، هو فقط تعبير عما "لا يمثل سوى **مستوًى**[مادامت] لم تتم البرهنة، ولو في

---

1 Anté.,7
2 Anté.,27

* سبق لنيتشه وأن أشار إلى الرجوع إلى الوراء بقوله: "برجوعنا إلى الأصول، نجعل من أنفسنا سرطانا بحريا. ينظر المؤرخ إلى الوراء: وأخيرا ينتهي به المطاف أيضا إلى **الاعتقاد** بالتقهقر" .(Cré.id., Maximes et traits., 24)

3 GS,371 ; Cré.id., divagation d'un «inactuel »,48
4 VP,LII,520
5 Idem
6 VP,LI,395

** لا تناقض في ذلك لأن نيتشه يميز هنا بين ذكاء العدد وذكاء الفرد المتميز.

7 APZ, des 3 maux, I., p.263 ; Cré.id., divagation d'un « inactuel »,14
8 idem
9 Pbm,199 ; FP/A 4[237]
10 VP,I,LII,72
11 VP,I,LI,395

حالة واحدة، على أن التعضيات العليا تخرج من التعضيات الدنيا"[1]، وفي ذلك تكمن أرضية تطورية نيتشه– المبنية على الإختلاف السائد في الفرد مثلما عرفنا ذلك أثناء حديثنا عن الجسد– والتي تختلف عن أرضية التطورية الأخرى، التي لا تذهب إلى أبعد من الجد، الذي معه يتوقف الزمن[2]، أي بلوغ الإله كعلة لجميع العلل.

ومن الناحية الثقافية والحضارية، يرى نيتشه بأن"البشرية لا تمثل بتاتا تطورا نحو الأحسن والأقوى والأسمى بالمعنى المعتقد حاليا، فالــ"تقدم" ليس سوى فكرة حديثة، أي خاطئة، إذ يبقى أوروبي اليوم [القرن التاسع عشر]، في موضوع القيمة، دون أوروبي النهضة"[3]، والعقل الألماني في 1888 دون نظيره في 1788...الخ. ويتساءل نيتشه: كيف لنا ألا نتعرف على أن مجيء المسيحية كان حركة إنحطاط ؟ أن الإصلاح الألماني زيادة في الوحشية المسيحية؟...، أن الثورة الفرنسية خربت غريزة التنظيمات الإجتماعية الكبرى؟[4]، وفي الأخير، يعرض نيتشه تعريفه للـــ"تقدم" الحديث قائلا: "يجب الذهاب من الأمام، أريد أن أقول: التقدم رويدا رويدا من الإنحطاط"[5]. ما يوقفنا في هذا العنصر، هو إستعداد نيتشه للتضحية بالبشرية، التي قال أنها "ليست حتى موجودة"[6]، ككتلة لأجل ازدهار نوع فريد من الرجال **الأقوياء**، وستكون تلك التضحية مستقبلا ما سوف يعرف بالتقدم[7]، مما سيجعلنا نتساءل عن المعيار الذي يجعلنا نفهم به بأن ما فكر فيه نيتشه هو فعلا مشروع نبيل وليس حماقة، وأن هناك "فرق" بين المأساوي والحماقة، لا يكمن خاصة في اتخاذ المرء من رغباته وأحاسيسه حقائق!.

3- **المرض التاريخي:** لما صرنا إلى الآن نعرف أن العلم يستند دائما إلى **إعتقاد ميتافيزيقي**، مفاده أن لا شيء يفوق الحقيقة في قيمتها[8]، فإننا وبعدما أعددنا الأرضية لجملة المسائل المنهجية التي يثيرها موضوع "الإرتقاء"، سنتناول في هذا العنصر: نقد نيتشه للعلم ممزوجا بالمرض التاريخي، لأنه في النهاية، ومادام الطرح مبني على تفسيرات إرادة القوة، لن يتعلق الأمر سوى بمشكلات فيزيولوجية مثلما سنرى بعد قليل .

يمكننا أن نوجز تعريف العلم في جملة الدراسات السببية، المبنية على قواعد محددة، لشتى الظواهر، بغرض الوقوف على القوانين التي تسمح بتحقيق توقعات دقيقة خدمة لفائدة الإنسان، أو ما يعبر عنه عادة بعبارة السيطرة على الطبيعة، وفي كل ذلك تكمن موضوعية الباحث، الذي يقال عنه أنه يتحلى بالروح العلمية؛ تيار التاريخية يصبو من جهته لتحقيق بحثٍ يستجيب لمثل تلك المعايير، غير أن الإعتقاد الذي يستند إليه مؤرخو هذا التيار، لا يسمح لهم بذلك لتَمَيُّز العلوم

---

1 VP,I,LI,395
2 APZ,des vieilles et des nouvelles tables,7., p.287
3 Anté,4
4 VP,II,LIII,28
5 Cré.id., divagation d'un « inactuel »,43
6 VP,II,LIII, 28
7 GM,II,12
8 GS,344, ; GS,III,24

الطبيعية عن نظيرتها الاجتماعية، من حيث الموضوع والتقنيات وجملة شروط أخرى تناولها مثلا كارل بوبر بدراسة مستفيضة في أكثر من مؤلفاته*. على كلٍّ، ففي هذه النقطة بالذات تظهر أهمية نقد نيتشه من حيث كونه لا ينتقد التاريخية بالإستناد إلى الأسس العلمية، مثلما يفعل كارل بوبر مثلا، بل إلى إرادة القوة، مما يظهر لنا موقفه من العلم والتاريخ على أنه يستند إلى فكرة كونهما منتجين لنوعية معينة من البشر، وفي ذلك ربطٌ للتفسير بالهدف الحيوي الأقصى. فحتى قبل ظهور فرضية إرادة القوة مثلا، كان نقد نيتشه للعلم والعلماء يستند إلى:

– أسبقية الفيلسوف، بمعنى العقل الحر، على العالم– وهي الفكرة التي ستصاحبه في جميع أعماله– وعبارته التالية واضحة بهذا الشأن:"لن يصبح العالم فيلسوفا(...). ليس الفيلسوف مفكرا عظيما فحسب بل إنسان حقيقي أيضا، ثم متى رأى الناس عالما تحوّل إلى إنسان حقيقي؟"[1]؛ كما أن زرادشت يسمي حقيقيا: "من يذهب إلى صحارى لا وجود لله فيها، ومن حطَّم قلبه المُمَجِّدَ"[2] ؟؛

– لا توجد المعرفة المتعلقة بغاية الثقافة، أي بإنتاج العبقري، لدى العالم[3]. "فمن وجهة نظر فيزيولوجية، يستند العلم إلى الأسس ذاتها التي يستند إليها المثال الزهدي: فكل واحد منهما يفترض نوعا من **الإفتقار إلى الطاقة الحيوية**"[4]، وأفضل دليل على ذلك: أن "فتراتًا سعيدة حقًّا لم تكن في حاجة إلى العالم ولا تعرفه بتاتا، وفترات مريضة بعمق وكئيبة، إعتبرته وكأنه الإنسان المتفوق والجدير بين الجميع، والذي بَوَّأَتْهُ المكانة الأولى"[5]؛ وحتى حين يجري الحديث عن "انتصارات رجال العلم الشهيرة، فهي بلا شك انتصارات– ولكن على ماذا ؟ فالمثال الزهدي لم يهزم بتاتا، بل بالعكس فقد تقوى"[6]؛

_ علم مقاس الجمهور العريض[7]: مع انحطاط الإغريق، ظهر سقراط العامي، جَدُّ ورمز العامة وثقافتها[8]، كـــ"أول مُعَقْلِنٍ أو، في جميع الأحوال، من يجعل التفكير العقلي شعبيا؛ أول من يفتح عهد التفكير"[9]. وانقسم العالم بشأن مشكلة الـــ"إيمان" والـــ"معرفة"، أو بالأحرى مشكلة الغريزة والعقل[10]، وقضايا أخرى لا تقل أهمية عنها. وبالنظر إلى الدور الذي لعبه أفلاطون والمسيحية وعواقبها، كالفكر الديمقراطي من بعده مثلا، رُدَّت الفلسفة إلى الحد الذي يجعل منها "نظرية معرفة"، بعدما تَمَّ الإعلان عن إستقلال رجل العلم عنها[11]، وصار **الإنسان النظري**، المتسلح

---

* مثال ذلك : Misère de l'historicisme., trad. de l'anglais par Hervé ROUSSEAU., Lib. Plon., 1965

1 SE, 5., p.80

2 APZ, des sages illustres, p.14

3 SE, 5, p.72

4 GM, III, 25

5 GM, III, 25 ; SE, 5, p.72

6 HTH,635 ; GM,III,25

7 UIHV,7., p.141

8 NT, p.136 ; HTH, p.261 ; LP,191,195,196

9 A. H. J. Knights., op.cit., p..55

10 Pbm,191

11 Pbm,204

بوسائل المعرفة الأكثر قوة والذي يعمل في خدمة العلم، مثلا أعلى للعالم[1]، وذلك ما لا يعني أن العلم حقق إكتفاءه الذاتي واستقلاليته من خلال خلقه للقيم بنفسه، فما جعل منه يلتقي بالمثال الزهدي، من خلال مبالغتهما المشتركة بشأن قيمة الحقيقة، هي حاجته إلى قيمة مثالية، إلى قوة خلاقة يقدر على استخدامها وتعطيه **الإيمان** بنفسه[2].

تكشف لنا عودة خاطفة إلى موضوع السببية على أن العلم لا يزال يعمل تحت وقع اللغة ولم يقدر على التخلص من "الأفعال". فالفيزيائيون مثلا، حين يقولون بأن "القوة تحرك la force actionne"، لا يفعلون شيئا أكثر من جعل الظاهرة ذاتها علة ثم معلولا لهذا السبب[3]؛ ويمكننا الذهاب إلى أعمق من ذلك، إلى أرضية كل تفسير سببي وكل تفكير منطقي في جميع الثقافات، فنجد الإنسان، في تفكيره العلمي والموضوعي، وهو يقدم أوالياته وأشياءه المعروفة، التي يحتفظ بها في ذاكرته وكأنها هي السبب الذي يفسر به، أي أنه كثيرا ما يبحث عن **سبب مطمئن**، مُخَلِّصْ ومريح، يجعل له المجهول معروفا[4]، وربما في ذلك تكمن غريزته في إتباع أقصر الطرق[5] لبلوغ هدفه "مباشرةً وبحد أدنى من القوى والمجهودات"، أي بكيفية منطقية. ثم أليس المنطق بدوره **وسيلة تهدئ، وتعطي الثقة**[6]؟ [نحن من سَطَّرَ العبارتين الأخيرتين] ألا يكون العلم قد إلتحق بالمجتمع والدين من حيث جعله **وحدة شكل الشعور** غاية له، ومن ثمة وقوفه ضد التفرد وضد الذوق الذي هو شرط **لواحدٍ**[7]؟ لاشك في أن نيتشه يلقي بنا، بطريقة تفكيره هذه، في ميدان علم النفس، أين نجد نظرته إلى "العلم على أنه الأنسنة الوفية قدر الإمكان للأشياء، نتعلم وصف ذواتنا بدقة متزايدة حين نصف الأشياء وتتابعها"[8]، ومن ثمة فإن "هدف العلم يكمن في تعريف شعور الإنسان، وليس الفرد، حيال كل شيء، وحيال نفسه(...). سعي الجميع لإيجاد الأشياء التي لابد من الإتفاق بشأنها لأنها من طبيعة الإنسان"[9].

أ- **الغائية:** يظهر مدى تأثر نيتشه بســبينوزا في هذه النقطة، المرتبطة مباشرة بفكرة التطور، من خلال توصله إلى أنه "لو كان للتطور العالمي هدفٌ فإنه يكون قد بَلَغَهُ، بيد أنه لا غاية له في الواقع، كما أن كل فلسفة وكل فرضية علمية(الميكانيزم مثلا) تطرح غاية ضرورية، مدحوضة بهذا الأمر الأساسي"[10]. طبعا لا يمكن لمثل هذا الطرح أن ينطبق على نيتشه نفسه مادام قد قدم

---

1 NT,8,P136
2 GM,III,25
3 GM,I,13
4 Cré.id., les 4 grandes erreurs,2,p.42-43
5 A,547
6 GS,370
7 VP,I,LI,162
8 GS, 112
9 VP,I,LI,162
10 VP,I,LI,221

فكرة الإنسان المتفوق كبديل و"العودة الأبدية كوسيلة ترويض وانتقاء"[1]؛ وبصفة عامة، يمكننا تناول موضوع الغائية من ثلاثة جوانب:

1- الجانب المنهجي: يمثل الإله، كعلة لجميع العلل، أساس كل تفسير سببي قبل نيتشه، مثلما تبين ذلك عبارة :"هجينٌ موقفنا تجاه الله، أعني حيال نوع من عنكبوت الأمر والغائية الذي يتخفّى وراء نسيج السببية الكبير"[2]، فقد ظل الناس يعتقدون أن كل شيء وُجِدَ لأجل غاية خاصة به كالعينين بغرض الرؤية والقرنين بهدف نطح الأعداء ...الخ، مما جعل نيتشه يسخر من ذلك الإعتقاد بقوله: "ولأجل ماذا وهبتني السيدة الطبيعة رِجْلَيْنِ؟ لكي أرفس بحق القديس أناكريون Anachréon وليس فقط لكي أهرب"[3]. ويمثل التفسير الغائي مرحلة ثالثة في تاريخ البشرية، لأن الإنسان بدأ أولا بتقدير قيمة أو انعدام قيمة فعلٍ ما انطلاقا من نتائجه، ثم حسب عاقبته وانتهاء بِعَزْوِهِ أصل فعلٍ ما **للنية** التي ينجم عنها[4]، ومن ذلك كان الإبتداع الرومانسي الذي أَلِفَ إستعمال كلمة "تقدم" حين يتحدث عن غاياته[5]، غير أن الـ"غاية" لا تُظهر نفسها عادة للعقل سوى حين يكون كل شيء جاهزا لأن يتحقق، أي بعدما **تصبح التصرفات ممكنة قبل أن تُراد**[6]، بل إن الغوص، إلى أعمق من ذلك، يكشف عن الإعتقاد الذي تستند إليه فكرة الغائية. فمثلا يدل القول بأن "ما تمكن البرهنة عليه فهو **صحيح**"، فضلا عن كونه تعريفا جزافيا لكلمة صحيح **ولا يمكنه أن يبرهن على نفسه**،على أن الأمر يشبه القول: "لابد لهذا أن يكون صحيحا، لابد وأن يسمى صحيحا"، و ذلك ما يدل على أن خلفية هذا الصحيح موجودة في مفيد. وطبعا يستلزم القابل للبرهنة، كل مشترك بين العقول، أي المنطق، ومن ثمة الرُّسُوُّ على مقياس مفيد وصالح للعدد الكبير[7]، أي أن منشأ الـــ "حقيقة" هو دائما حكم ينطوي على **شروط بقاء ونمو النوع**[8].

2- الجانب الطبيعي: "بالمعنى البيولوجي الداروني، تعني كلمة "مفيد": ما يظهر على أنه مفيد في الصراع ضد الغير"[9]، غير أنه "حين نثبت أعلى فائدة لشيء ما فإنه لن نكون قد تقدمنا خطوة نحو شرح أصل هذا الشيء بعد؛ وهذا ما يعني أنه بالمنفعة لن نجعل أبدا ضرورة الوجود قابلة للفهم، بيد أن الحكم المخالف هو الذي ساد إلى اليوم(...). لنتذكر تفكير كريستوف كولومب: خُلِقَتِ الأرض لأجل الإنسان؛ إذن إذا كانت هنالك أراضٍ فلابد وأن تكون مأهولة"[10]. إن "فائدة عضو ما لا تشرح نشأته بل بالعكس فإبان أطول جزء من الزمن، الذي تتشكل فيه ميزة ما، فإن الفرد لا يستفيد منها، لا تخدمه، وخاصة في صراعه مع الظروف الخارجية وضد أعدائه. وفي النهاية ما

1 VP,II ,LIII,19
2 GM,III,9
3 GM,III,26
4 PBM,32
5 HTH,24
6 VP,I,LII,250
7 VP,LII,114
8 VP,I,LI,192
9 VP,I,LII,72
10 A,37

هو الـــ"مفيد" ؟ يجب طرح السؤال: "مفيد لأي شيء"؟ مثلا، ما يخدم ديمومة الفرد قد يعيق ويوقف تطوره في الوقت نفسه، ومن جهة أخرى فإنه بإمكان عيبٍ ما، تفسخٍ ما، أن يكونا على فائدة عالية مادامًا يُنشطان أعضاء أخرى[1]. وهكذا شكك نيتشه في أن تكون هذه البشرية "المصارعة"، التي سينتجها يوما معنى إنتقاء النوع، أرفع من **الصينيين***، وطالب بالإنعتاق من الأخلاق التي تريد خدمة غايات النوع[2].

3- الجانب الفلسفي: عكس ما اعتقده البعض**، تحدث نيتشه مبكرا عن أنه "فقط الفيلسوف*** يمكنه أن يطمح في بلوغ هدفه لأنه لا يعرف بتاتا أين سيمكث إن لم يكن على أجنحة كافة الفترات وهي مبسوطة عن آخرها"[3]، وفي هذا تتقاطع الفلسفة والتاريخ وتكمن أرضية المشروع النيتشي، الذي يرى أن كل شيء في صيرورة وأن الإنسان لا يزال في تطور[4]، ومن ثمة فإنه من المستحيل جدا "اكتشاف سبب التطور بواسطة بحث يخضع هو الآخر للتطور(...) لأنه لا يمكن لإرادة القوة أن تكون نتيجة لـــ"مصير"[5]، مثلما يستحيل أيضا تفسير مجموع التطور بالإعتماد على المثل العليا القديمة[6]، التي من ضمن ما تستند إليه: "خطيئة الفلاسفة الأصلية" المشار إليها آنفا.(...)، انطلاقهم من الإنسان الحالي ثم الإعتقاد ببلوغ الهدف، بعد القيام بالتحليل(...). بيد أن كل ما يعرضه الفيلسوف عن الإنسان، ليس في العمق سوى شهادة على الإنسان في فترة وجيزة ومحدودة جدا(...)، فكثيرا منهم يستعملون، عن غير علمٍ منهم، آخر أشكال الإنسان كما نتج تحت تأثير ديانات معينة وكأنه شكل ثابت وجب الإنطلاق منه"[7]. ومن جهة أخرى، فإن "وصف ما هو كائن، لا يعلمنا أي شيء بشأن أصله، مثلما أن تاريخ الأصل لا يخبر أحدا بشأن ما هو موجود، [ولذلك] فالمؤرخون، من جميع الأصناف تقريبا، يخطئون بشأن هذه النقطة لأنهم ينطلقون من معطيات حاضرة ثم ينظرون إلى الوراء، بيد أن [الشيء] الواقعي الحاضر شيء **جديد** ولا يمكن إستنتاجه؛ لا يوجد أي كيميائي بمقدوره أن يسبق بالقول ما يجب عليه أن ينجم عن إتحاد مادتين إن لم يكن

---

1 VP,I,LII,63

* أنظر VP,II,LIV,180 ص ،118 من هذا الفصل

2 VP,II,LIV,184

** منهم ماتيو كيسلار الذي يرى أنه بعد قطيعته مع ريشار فاغنر وفقدانه مؤقتا لأمله في "نهضةٍ تكون ألمانيا رأس حربتها" بواسطة "القوة التي يمارسها الإبداع الفني على الحضارة" ، فإن نيتشه وجَّهَ مجهوده نحو الفلسفة إلى أن "تمكَّن من توضيح قضايا فلسفية مستقلة عن كل اعتبار جمالي خاص"(: Mathieu Kessler L'esthétique de Nietzsche., PUF., Paris., 1998., p.239-240)

*** أشرنا في موضوع اللغة إلى أن نيتشه سمى نفسه، مبكرا أيضا،"آخرفيلسوف"، طبعا لاحقا سيظهر هذا الفيلسوف فنانا أيضا أو رقاصا مثلما هو زرادشت.

3 Phil.ETG,8

4 Anté.,14 ; VP,II,LIV,168 ;184 ; Pbm,62

5 VP,I,LII,67

6 ibid. ,170

7 HTH,2

يعرف ذلك مسبقا"[1]. إننا "نلاحظ أن كل جسم في الكيمياء يمد قوته إلى أبعد ما يقدر عليه؛ وهكذا ينشأ واقع ثالث. لا يمكننا أن **نستلزم** مميزات طفل حتى من المعرفة الدقيقة "لأبيه وأمه، لأن هذه المميزات هي عواقب ينتجها واقع ثالث علينا. بيد أن عواقب الأول وعواقب الثاني– أي صفاتهما، لا يمكن جمعها بالكيفية التي تعطي"عواقب الثالث"[2]. وهكذا يجرنا نيتشه مباشرة إلى الحديث عما يسمى بالقانون العلمي، المنطق، الجدل، ...الخ، غير أنه لابد من التساؤل أولا بشأن معنى كلام نيتشه السابق في النص التاريخي ؟

يرى نيتشه، الذي ختم حديثه عن الغائية بقوله: "نحن من ابتدع مفهوم الـــ"غائية": وفي الحقيقة **لا وجود** للغاية"[3]، أن الهيغلية والتطورية والقدرية، ميولٌ عدمية وفشلٌ لآخر المحاولات التي بُذلت لإقحام العقل والألوهية في التاريخ[4]، أي "النظر إلى الطبيعة وكأنها دليل على الطيبة والعناية الإلهيتين، جعل التاريخ يُفَسَّرُ بأسباب إلهية وكدليل ثابت لنظام أخلاقي للكون ولهدف غائي؛ تفسير قدرنا مثلما كان يفعل الرجال التُّقَاةِ لمدة طويلة، وكأن يد الله ممدودة في كل مكان، تُحرم وتهب كافة الأشياء لأجل هناء روحنا"[5]. هذه هي الفكرة التي تناولها نيتشه بالنقد، في لاآنياته الأربعة، والتي كشف فيها عن المرض التاريخي الذي أصاب ثقافة عصره عموما وثقافة بلاده بصفة خاصة. فقد أشار إلى "المنورين الألمان"[6] والى حقراء الثقافة[7]، من أمثال دافيد شتراوس والشتراوسيين[8] ...إلخ، على أنهم "تربُّوا على المذهب الهيغلي عن الواقع–العقلي réel-rationnel ، بمعنى"تأليه النجاح"[9] أو كتابة التاريخ "في معنى متفائل"[10]، هذا المعنى الذي يعكس حالة رضى وبلادة hébétude أمثال شتراوس على التاريخ، في حالته الراهنة، وسعيهم لتحويل كافة المعارف، التي لا تزال تهدد رضاهم وبصفة خاصة الفلسفة والفيلولوجيا الكلاسيكية، إلى شُعَبٍ تاريخية[11]. كما تقنَّع هؤلاء وراء الألبسة الرثة لجينيالوجيي القرد وامتدحوا في داروين واحدا من أكبر خُدَّام البشرية، رغم أنهم، ومثلما تثبت ذلك كتابات شتراوس نفسه[12]، لا يفعلون أكثر من كتابة "ما يجعل التاريخ دائما ثيوديسيا مقنعة"[13]، وذلك ما يعني أن التاريخ مستمر في تقديم الخدمات ذاتها التي كان يقدمها إبان القرن التاسع عشر: "لعب دور مُنَوِّم ضد جميع قوى الهز bouleversements والتجديد"[14].

---

1 VP,I,LII ,82

2 A.,340 ; ibid,85 ؛ أعتقد أن نيتشه قدم لنا في هذه الفكرة، الأرضية النظرية للهندسة الوراثية.

3 Cré.id., l᾽erreur du libre arbitre, 8

4 VP,II ,LIII,82

5 GS,357

6 RWB., III, p.111

7 DS.,I., p.28

8 DS,VII., p.51

9 idem

10 RWB,III., p.111

11 DS,I., p.28

12 DS,VII., p.49

13 UIHV,8., p.144 ; RWB,III., p.111

14 RW,III., p.111

تكشف هذه السلبية في ألمانيا مثلا، عن "كيفية جنوح محبة الأشياء الجاهزة نحو التحول إلى محبة لكل ما كان جاهزا في الماضي، إلى السماح فقط للفؤاد والعقل بأن يجدا ثانية فَيْضَهُمَا وعدم ترك الفرصة للنظرات المقبلة والمجددة"[1]، وكل ذلك يجعلنا نتساءل بشأن هذا التفاؤل التاريخوي الكاذب وهذه الثقة العمياء في "أكبر الكذابين: النجاح"[2]؟ ، نتساءل بشأن ما جعل "معظم المؤرخين يعتقدون آليا أن الأشياء جيدة للغاية وهي على حالتها الأخيرة"[3]؟، وأخيرا نتساءل كيف تمكنت فكرة "الأرواح التاريخية" esprits historiens، القائلة بأن "السعادة تنتظرهم وراء الجبل"[4]، من أن تصير أرضية لتفكير المدرسة التاريخية، وأن تجعل المؤرخين يؤمنون بإمكانية إدراك الـــ"حقيقة" و"الله" كمصير إنطلاقا من ميلهم نحو المثل الأعلى؟[5].

لا تؤكد لنا مثل هذه الأسئلة سوى شيئين، أعتقد أننا شرحناهما بإسهاب، هما:

1- تحول العقل تدريجيا إلى سلطة، وذلك ما يمثل انتصارا لسقراط وأفلاطون في عصر نيتشه؛

2- رفض نيتشه لفكرة "إرادة البقاء" الداروينية كآخر أرضية نبلغها من خلال إجابتنا على الأسئلة السابقة. فهل يعني ذلك كله أن نيتشه إنفلتَ من الغائية ؟ ذلك ما سنحاول معرفته من خلال النقاط التالية :

ب- **القانون الطبيعي:** "ما هو القانون الطبيعي بصفة عامة عندنا ؟ في ذاته غير معروف لنا ولكن فقط من خلال مفعولاته، أي في علاقاته مع قوانين طبيعية أخرى ليست بدورها معروفة لدينا سوى كعلاقات(...) فقط ما نضفيه عليها، الزمان والمكان، أي أن علاقات التتابع والأعداد، هو ما نعرفه حقا عنها"[6]، ومن ثمة "من الكافي جدا اعتبار العلم على أنه الأنسنة الوفية قدر الإمكان للأشياء، [فنحن] نتعلم وصف ذواتنا بدقة متزايدة حين نصف الأشياء و تتابعها"[7]، وبتعبير آخر فإن قوانين الطبيعة خرافة[8]، ولا توافق أي "نَصٍّ"، أي أنها مجرد ترتيبات وتزييفات ساذجة أنجزها الفيزيائيون واعتقدوا أن كل شيء يجري فيها وكأنه لا وجود لهذا الـــ"كل شيء" سوى على ضوء تفسيراتهم و"فقه لغتـــ" ـــهم الرديئة[9]. لنفترض "أن أمر 2+2=4 وليس5، قرار، وذلك ما يعني ضربة نرد على حد تعبير ديكارت"[10]، وأننا "لا نملك من العلم سوى ذلك الذي يوافق قرارنا بقبول شهادة حواسنا"[11]، فهل تمنع أنْسَنَتُنَا للأشياء من أن يوجد عالم خارجنا تسطعُ فيه الشمس باستمرار

---

1 A,197
2 Pbm,269 modifié
3 RWB,III,p.111
4 UIHV, I, p.101
5 VP,I,LI, 241
6 VMSEM ,I ,216
7 GS,112
8 OSM,9
9 Pbm,22
10 Jacob TAUBES: La théologie de Paul., trad. de l'allemand par Mira KOLLER et Dominique SEGIARD., Seuil., Paris., 1999., p.125
11 Cré.id., la raison dans la philosophie, 3

وتتعاقب فيه الفصول الأربعة بلا انقطاع؛ تظهر وتختفي فيه كائنات لا تحصى على الدوام ...الخ؟ ما سبيلنا لمعرفة إن كان ذلك يحصل حقا خارجنا؟ إن كان يحصل بانتظام ؟

توقع نيتشه مثل هذه الأسئلة ورأى أنه على الذين يتحدثون عن التطابق مع القوانين الموجودة في الطبيعة أن يفترضوا بحرية إما أن الأشياء الطبيعية تتبع قوانينها، وفي ذلك دليل على وجود أخلاقية لدى الطبيعة، وإما استحضار فكرة ميكانيكي خلاق صنع الساعة الأكثر مهارة ثم زَيَّنَهَا بالكائنات الحية[1]؛ غير أن نيتشه لا يقدم لنا الإجابة الوافية التي ننتظرها منه، بل فقط رفضا منطقيا لكل غائية. لنطرح عليه سؤالا آخر: بِمَ نفسر التوقعات العلمية الدقيقة؟ بم نفسر حصولها الفعلي طبقا لحسابات ودراسات العلماء الذين سهروا على إعادة إنتاجها مخبريا ؟

يرى نيتشه أن"**توقعية ظاهرة ما** لا تكمن في أننا اتبعنا قاعدة أو استجبنا لضرورة ما ولا إلى كون قانون سببي قد جرى إسقاطه من طرفنا على كل واحدة من الظواهر، بل تكمن في **عودة** "**الوقائع المتطابقة**"[2]، كما أشار في فقرة أخرى، نرى أنها تنطوي على الإجابة الوافية، إلى أنه "يمكن لتاريخ أي "شيء" وأي استعمال أن يكون سلسلة متصلة من التفسيرات والتطبيقات الجديدة دائما، حيث لن تكون الأسباب في حاجة لأن تكون مرتبطة ببعضها البعض، ولكنها في بعض الظروف لا تفعل شيئا سوى أنها تتوالى وتعوض بعضها البعض حسب الصدف"[3].

ما الذي يقدمه لنا نيتشه في مناقشاته هذه بغير نقده لفكرتي "الشيء في ذاته" "الكانطية " و"العالم كإرادة" الشوبنهاورية وطرحه لفكرة "الصدفة" "لإنقاذ العالم"، مثلما عبر عن ذلك في قوله: "إننا ضروريون وجزء من هذا القدر ونشكل جزءً من كلٍّ، وإننا في هذا الكل. لا شيء يقدر على محاكمة، وزن، مقارنة، الحكم على كائننا، والحكم على كل شيء ... بيد أنه **لا شيء خارج الكل.** على كل إنسان ألا يكون مسؤولا وعلى نمط عالم الوجود ألا يُردَّ إلى **سبب أولي**، وعلى العالم، لا باعتباره **إحساسا** ولا باعتباره "روحا"، ألا يكون وحدة. إنه هذا وهذا فقط هو **التحرر النهائي**(...) نحن ننكر الله وفيه ننكر المسؤولية: **إنه في هذا**، وفي هذا فحسب، ننقذ العالم"[4]. ما نفهمه من هذه الفقرة هو التفسير بفكرة إرادة القوة بهدف تبيان أن "النقد لم يوجه بتاتا للمثل الأعلى، بل ظل فقط يتساءل بشأن الجهة التي يأتيه منها التناقض الذي يقع فيه"[5]. ولكن هل يعني هذا أن نيتشه ينكر القانون؟ كيف توصل إلى إعلان أسس فلسفته؟ هل له أن ينكر أيضا النتائج العلمية التي استند إليها؟* نشك في ذلك وسوف نقدم الدليل في حينه .

---

[1] OSM,9
[2] VP,I ,LI,154
[3] GM,II,12
[4] Cré.id., l'erreur du libre arbitre, 8
[5] VP,I,LI,241

* نذكر في هذا السياق مدى تأثر نيتشه بما كان ينشره البيولوجيون من مقالات في "المجلة الفلسفية لفرنسا والخارج"، أنظر مقال Ignace Haaz :Nietzsche, Ribot et les conditions biologiques de l'esprit., http://dogma.free.fr/txt/IH_Nietzsche.htm

جـ- المنطق: مثلما رأى هانس غادامر، فإن "الحالات القصوى ظلت تستهوي نيتشه دائما"[1]، وذلك ما نلاحظه على نقده حين ينكر أو لا يعترف بالإختلافات البسيطة*، غير المؤثرة بشكل محسوس في المجرى العام للأمور، والتي يُهْمِلُهَا العلماء في صياغتهم لنظرياتهم، لكي ينطلق من المطلق ويعلن أن لاشيء يتطابق بشكل مطلق مع شيء آخر، و مثال ذلك قوله: "لا ننجح في الآن ذاته في تأكيد ونفي الشيء ذاته: هذا مبدأ تجريبي ومثالي لا يعبر بتاتا عن ضرورة بل عن عجز بسيط"[2]؛ أو قوله أيضا: "ينطلق المنع النظري للتناقض من هذا الإعتقاد بأننا قادرون على صياغة أفكار وأن الفكرة لا تدل على الشيء فحسب بل تقبض عليه أيضا"[3]؛ بل وذهب إلى أبعد من ذلك حين تساءل عما إذا كان عدم القدرة على دحض فرضية ما سببا يجعل منها صحيحة ؟[4] وكل ذلك قبل أن يطرح واحدا من الأسئلة – التي نرى أنها دلالة على أنه يقع هو الآخر في شباك قواعد اللغة – التي تعكس مدى راديكاليته في كل نقد: "إذا كان لابد لطابع الوجود أن يكون خاطئا– وقد يكون الأمر كذلك– فماذا عساها تكون الحقيقة، كل حقيقتنا ؟"[5]. ما الجديد الذي أتى به نيتشه هنا أيضا بغير تذكير العلماء ورجال المنطق باستحالة وجود المطلق، باستحالة جعل النسبي مطلقا !.

يكشف نيتشه عن سبب وقوفه ضد كل تعميم، وبذلك عن "مشكلته" الشخصية، من خلال قوله بأن "الصحيح هو ما يمكن رده إلى حقائق معترف بها من قبل الجميع وفق إجراءات تفكير عامة، أي ما يعني افتراض وجود **حقائق معطاة سلفا**"[6]. ألا يحق لنا الآن أن نتساءل عن السبب الذي جعل داعية الإبداع هذا، نيتشه، يقف ضد "الإبداع"؟ وحتى لو كان "إبداعا" من نوع رديء أو متواضع، فهو الذي سمح لـــ"البشرية" ليس فقط بأن تُضاعف عدد أفرادها عدة مرات وتحافظ على نفسها، بل أيضا بأن تغزو الفضاء .

لاشك أنه هنا بالذات يكمن تخوف نيتشه، تخوفه من هيمنة القيم العدمية الناجمة عن تبجيل العامة للطيبة والعدل والمنطق ولباقي "صغيرات الفضائل". فقد رأى أن التفكير المنطقي شيء ينطوي على تفاؤلٍ[7] حالمٍ، لأن لا شيء أكثر ديمقراطية منه: فهو لا يُفاضل بين الناس ويرى حتى في ذوي الأنوف المعقوفة (اليهود) مستقيمي أنوف، وذلك ما جعل العلماء اليهود يولونه المكانة الأسمى لأنهم يعرفون أنه يجلب لهم النصر– رغما عن كراهية الناس لهم كعرق وكطبقة–

---

1 Hans-Georg GADAMER., op.cit., ., p.11 ؛ نيتشه نفسه أشار إلى هذا الأمر في الفقرة : Pbm,224 ، التي ذكرناها في عنصر **الوعي الكوني** من هذا الفصل.

* ومثال ذلك قوله: "تثير ضجة كبيرة حول أحداث لا معنى لها كالإغتيال. الصحافة إنذار خاطئ بالطوارئ، ودائم" FP/HTH 27[2]

2 VP,I,LI,115

3 idem

4 Ibid.,194

5 ibid.,110

6 VP,I,LI,114

7 VP,I,LI,114 & 99

باعتباره فنا يستعملونه، هم الذين لا يُصدقهم أحد، لإرغام غيرهم على تصديقهم[1]. كما رأى في الجدل سلاحا في أيدي اليائسين الذين يفتقرون إلى أسلحة أخرى[2]، وتشويهٌ للذوق وانتصار للعامة[3]. وفي هذا، ومعنى نقد نيتشه كله يدور حوله، تعود فكرته حول عدم كفاية التقليل من قيمة أخلاق الضعفاء للإنفلات من العدمية، إذ بدون احترام پاتوس المسافة واحترام التدرج، فإنه لا مجال للحديث عن الرفعة والارتقاء في ظل قيم التسوية nivellement، لأن القيم الرفيعة، التي تتوافق مع إرادة القوة، ستظل من حق السادة دائما .

د- **الموضوعية في التاريخ:** مثلما عرفنا أن الإنسان يختار نوعية معينة من الأسباب، يستخدم المنطق ويلجأ إلى الجدل كوسائل تهدئة يجد فيها راحته، فهو يرغب أيضا في الإفتخار في أن يجده الناس موضوعيا تماما ويتطابق كائنه مع تفكيره، لأن ذلك يمنحه الثقة والقوة[4]. غير أن تميز العلوم الدقيقة والطبيعية، عن نظيرتها الإجتماعية والتاريخية، يجعل إمكانية تصور فيلسوف أو مؤرخ يتحلى بقدر من الموضوعية أمرا مستعصيا وخاصة لدى نيتشه، الذي ينظر إلى كافة فروع المعرفة على أنها مظهر لحاجيات تفسر الكون وتعكس شتى الحالات البشرية. فهل يمكن الحديث، رغم ذلك عن الموضوعية في التاريخ، خاصة وأن ظاهر النقد النيتشي يوحي بأنه يشمل الجوانب الفلسفية والإجتماعية أكثر مما يشمل الجوانب العلمية بالمعنى الصارم؟ .

يندرج نقد نيتشه للموضوعية ضمن تشخيصه لمرض أصاب عصره، بعد امتداد تأثيرات إفراط الناس في تقديرهم للعلم إلى دراسة الماضي وتأكده في شكل **إرادة لجعل التاريخ علما**[5]، مما جعل "المعرفة تعجز عن الإنطلاق رغم أقوى ضربات جناحها"[6]، لأن الثقافة التاريخية السائدة ونوعية المؤرخين الذين حملت بهم، توسطوا بين التاريخ والحياة بالكيفية التي لم تعد هذه الأخيرة هي التي توجه وحدها معرفة الماضي[7]، وذلك "ما يعني أن التاريخ كان ينوي توفير مرآة وانعكاس للعالم وللحقيقة التاريخية الماضية، ومن ثمة، ومثلما قال رانكه Ranke عام 1824، تبيان "ما حدث فعلا"[8]. ويبدو لي أن مثل عبارة رانكة هذه، باعتبارها تلخيصا لنوايا التاريخ، مثلما كانت تقتضيه موضى القرن التاسع عشر، هي التي أثارت نيتشه أكثر من أية عبارة أخرى، لأنه لمس فيها رضىً بالوضع القائم وقطيعة مع كل رجاء وكل آت، مثلما تدل على ذلك عبارة: "إن كلمة الماضي هي دائما كلمة كاهن: لن تفهموها إلا إذا صرتم مهندسي المستقبل ومفسري الماضي(...). من اللائق الآن معرفة أنه لا يحوز على حق محاكمة الماضي سوى من يبني المستقبل"[9]. ما الذي

---

1 GS,349
2 VP,I,LI,70 ; Cré.id.,le problème de Socrate,6
3 ibid,5
4 HTH,608 modifié
5 UIHV,4., p.115
6 ibid.,8., p.143
7 ibid.,4., p.115
8 O. G. Oexle., op.cit., p.15
9 UIHV,6., p.135

تعنيه لنيتشه عبارات من قبيل: "تبيان ما حدث فعلا" ؟ ما هو مضمونها ؟ ما الأفكار التي تنطوي عليها ويمكنها أن تشكل بها إضرارا للحياة والمعرفة التاريخية؟

الواضح هنا أن الموضوعية، باعتبارها الطابع الذي أراده "المؤرخون العلميون" لِنَصِّهِم التاريخي "العلمي"، فضلا عن كونها الوعاء الذي تلتقي فيه عناصر العلم، هي المستهدفة* من قبل النقد النيتشي، ولذلك سنحاول تبسيط ذلك النقد في ثلاث نقاط :

1- الكثير من التفاصيل: أدت الرغبة في كتابة نص تاريخي ينطوي على معالجة موضوعية لشتى القضايا المدونة فيه إلى أن تتحول الموضوعية نفسها إلى هدف، لأن "الناس" يفهمونها على أنها تتطلب منهم الإلمام بجميع جوانب الموضوعات التي يدرسونها، أي "فهم كل شيء موضوعيا، عدم التأثر بأي شيء، عدم محبة أي شيء، فهم كل شيء"[1]، وذلك ما يفتح شهية الإطلاع ويزيد في حدة "الحمى التاريخية"[2] فتتدفق على الإنسان كميات هائلة ومتنوعة من المعارف، التي لا يكتبها المؤرخون و"عمال التاريخ"[3] فحسب، بل أيضا الصحافة. فمثلا، "ما أن تنتهي الحرب لِتَوِّهَا حتى تُحَوَّلُ إلى ورقٍ مطبوعٍ في مئات آلاف النسخ"[4]، لتضاف إليها أصداء تلك الحرب في الجرائد[5]، أو بواسطة الدراسات النقدية، التي كلما ازداد عددها كلما أُعتبر أن موضوعها قد أتى بثماره[6]. وباختصار، "إنتهى المطاف بالإنسان الحديث أن أضحت مَعِدَّتُهُ مليئة بِكَمٍّ معرفي هائل عسير الهضم"[7]، وصار بذلك موسوعة متنقلة لا يملك شيئا خاصا به، لأنه يضحى ذا أهمية كلما بَدَا عليه تأثره بشتى الفلسفات والديانات والمعارف الأجنبية ...الخ[8].

2- "أخذ الوقائع بعين الاعتبار"[9]: تعكس الموضوعية كمطلب، تأثير كل من الهيغلية والوضعية. فالأولى وبطرحها فرضية التطور الجدلي للفكرة **Idée**، تكون قد قدمت تاريخا يؤدي مباشرة إلى المؤرخ، وذلك ما لَمَّحَ إليه نيتشه بقوله: "لدرجة أن ذروة ومآل الصيرورة العالمية يلتقيان، بالنسبة لهيغل، مع وجوده البرليني، وكان بمقدوره حتى أن يَدَّعي بأن ما سيأتي من بعده(...) لن يكون سوى تكرارا زائدا"[10]؛ أما الثانية، فجاء رده عليها بقوله: "ليس من واجب المؤرخ أن يهتم بالوقائع

* تناول نيتشه الموضوعية بالنقد تحت تسميات شتى كالمعرفة في VP,I,LI,175؛ الحداثة والإنسان الحديث في كثير من الفقرات ....الخ.

1 GM,III,26 ; UIHV,8., p.148

2 UIHV., préface., p.94

3 ibid.,6., p.134

4 ibid.,5., p.122, modifiée

5 VP,II,LIII,169

6 UIHV,5., p.126

7 ibid.,4., p.116

8 ibid., p.117

9 UIHV,8., p.147

10 APZ., des vieilles et des nouvelles tables, 11, p.287 ; UIHV.,8., p147 ؛ نلاحظ هنا تشبيه نيتشه لهيغل بشوبنهاور لكي يبين وبكيفية متسترة (لأن نيتشه لا يزال إلى وقتئذ متأثرا بشوبنهاور) أن الهيغلية شكل آخر للتشاؤمية ومن ثمة فهي تؤدي إلى العدمية .

مثلما حدثت في الواقع ولكن فقط مثلما نفترضها أنها وقعت، لأنها هكذا أحدثت **مفعولها**. وكذلك الأمر بالنسبة لأبطاله المفترضين. ما هو موضوعه، الذي نسميه بالتاريخ العالمي، إن لم يكن آراءً مفترضةً بشأن أفعالٍ مفترضةٍ أدت من جهتها إلى آراء وأفعال تَبَخَّرَ واقعها بسرعة ولا تفعل فعلها سوى كبخار"[1]، وذلك ما يعني أنه "لا وجود لوقائع بل فقط **تفسيرات**، لأننا لا نقدر أبدا على ملاحظة واقعة "في ذاتها"[2].

الملاحظ هنا أيضا أن نيتشه أعاد توضيح شيء معروف، قَلَّمَا ينتبه إليه مؤرخ، مادامت أغلبيتهم تعتقد أن الواقعة موجودة في شكل وثائق ولِقِيٍّ أثرية...إلخ، وليست هذه الأخيرة شهادات على الأولى. غير أن هذا التوضيح، ورغم أنه يندرج ضمن حديث نيتشه عن"القوة الفنية"[3]، يطرح التساؤل التالي: بقوله بأن "كافة المؤرخين يروون قصة الأشياء التي لم توجد أبدا سوى في التخيل"[4]، ألا يكون نيتشه قد أعطى بذلك الحق لهيغل[*]، مع وجوده البرليني، حتى ولو تجاوزهما بفنه؟ ففي النهاية لن يفعل الفن أكثر من نفخ نسمات الحياة في فكرة من الأفكار السائدة لكي يَجْتَثَّ الواقع من جموده ؟ يبدو أن نيتشه فَكَّرَ في مثل هذا السؤال، مثلما يدل على ذلك قوله بشأن "نفاق **الروح العلمية**: (...) لا "تُزَوِّرُوا" الأشياء والأفكار- التي توصَّلْنَا إليها بواسطة طريقة أخرى- بواسطة ترتيبات إستنتاجية وجدلية مزيفة(...). لا يجب إخفاء أو إفساد الكيفية **الحقيقية** التي بَلَغَتْنَا بها هذه الأفكار"[5] .

3- نوعية معينة من المؤرخين: فتح نيتشه النار على المؤرخ الموضوعي ورأى "أنه ليس نفسه سوى بالقدر الذي يكون فيه موضوعيا"[6]، أي أنه "نوع من تجريد الواقع(...) وشكل بلا مضمون"[7]، "روحه المرآة لا تعرف كيف تؤكد ولا كيف تنفي. إنه لا يتحكم ولا يهدم ... الرجل الموضوعي وسيلة قياس قَيِّمَة وتُحفة مرايا هشة وسريعة الذبول، يجب ترتيبها وتشريفها؛ بيد أنه ليس غاية ولا مخرجا ولا إنطلاقة ولا رجلا إضافيا(...) ولا خاتمة ... وأقل من ذلك: فهو ليس بداية وميلادا وسببا أوليا ... إنه إناء، لابد له من شكلٍ ومحتوى حتى يتشكَّل وِفْقَهُمَا؛ (...) إنه إنسان "غير آبِهٍ" ولاشيء آخر لدى النساء"[8]، أي "خَصِيٌّ لا يفرق بين إمرأة وأخرى(...)، لا يهم ما يفعله بالقدر الذي يهم أن يكون التاريخ نفسه محفوظا في "موضوعيته" الجميلة، محمية من قبل أولئك الذين لا يستطيعون أبدا صنع التاريخ"[9].

---

1 A,307
2 VP,I,LII,133
3 UIHV,6., p.134
4 A,307
* في GM,357 ; GM,III,27 مثلا ، الأخلاق المسيحية هي التي تنتصر على الإله المسيحي في إطار السيرورة التي تؤدي في نهاية المطاف بإرادة الحقيقة لأن تصير واعية بذاتها.
5 VP,I,LI,55
6 Pbm,207
7 UIHV.,4., p.116
8 GM,III,27 ; Pbm,207
9 UIHV,5., p.125

هــ- **الحس التاريخي:** لم ينل هذا الموضوع نصيبه من الشرح الوافي، فباستثناء فقرتين(HTH,27 وPbm,224)، قدَّم له فيهما تعريفين مقتضبين بمحتوى واحدٍ تقريبا، فإن نيتشه لم يكن يُشِرْ إليه في بقية الفقرات الأخرى، التي يزيد عددها عن العشرين فقرة، سوى كإحدى مميزات عصره التي ما أن يذكرها إلا وينتقدها. ومثال ذلك، قوله عن مؤلفه "بمعزل عن خير وشر Pbm" بأنه: "**عمل لتدمير**(...) كافة تلك الأمور من قبيل "الموضوعية" الشهيرة و"التعاطف مع كل المتألمين" و"الحس التاريخي" ومعه خضوعه لذوق الآخرين وطريقته في الإنبطاح أمام "صغيرات الوقائع" و"روحه العلمية"[1]. كما يشير من جهة أخرى، ومن حين لآخر، إلى أهميته من خلال أقوال من قبيل: "ستسألونني عما يرتبط بالمزاج لدى الفلاسفة ؟... إنه على سبيل المثال غياب الحس التاريخي لديهم"[2]، أو "عيب الحس التاريخي هو خطيئة كافة الفلاسفة الأصلية "[3]...إلخ. فما هو هذا الحس التاريخي الذي تفاخر به القرن القرن التاسع عشر[4] كثيرا إلى أن صار فضيلة منتفخة للغاية، تهدد كل شيء تقريبا وكأنها آفة منتفخة جدا ؟[5].

ظهر مفهوم **الحس التاريخي** لدى الألمان[6] إبان القرن الـــتاسع عشر[7]- أي أنه "شيء جديد للغاية"[8]- بتأثير من الدراسات التاريخية[9]، وخاصة تأثيرات هيغل[10]- وربما لذلك سمّاه بـــ"الحاسة السادسة"[11]- والفضول الأركيولوجي[12]. وقد عرَّفه بأنه "القدرة على الكشف السريع لتدرج أحكام القيمة، التي بموجبها تكون أمة ومجتمع وإنسان ما قد عاش الـــ"غريزة الكاشفة" instinct divinatoire التي تقبض على علاقات أحكام القيمة، على العلاقة التي تربط سلطة القيم بسلطة القوى الفاعلة"[13]. ولكي يُدَلِّلَ على ما يشار إليه في عصره على أنه "الحس التاريخي الحقيقي"، رَمَزَ نيتشه للحياة البشرية بشجرة تمثل جذورها: الماضي، وأغصانها: إمتدادا للحياة، كما تمثل الأزهار والثمار: الإنسان والشعب ومستوى الثقافة، مثلما شرح ذلك بقوله: "الشعور بالعيشة الهنيئة التي تستقيها الشجرة من جذورها، سعادة معرفة أننا لسنا كلية إعتباطيين وطارئين، وإنما تَحَدَّرْنَا من ماضٍ نحن ورثته، الزهرة والثمرة، ومن ثمة فنحن مغفورٌ لنا وربما مبررٌ وجودنا"[14]. وقد قدم لنا نيتشه من هذا التشبيه، أرضية التعريف المشار إليه أعلاه والذي نرى فيه صيغة أخرى لهذه الأرضية، حيث رأى أنه "مؤشر على ثقافة عالية، أمر أن يتذكر الناس عن قصد ويرسمون

---

1 EH, Pbm, p.173-174
2 VP,I,LI, 40 ; Cré. id., la raison dans la philosophie,1
3 HTH,2
4 VP,II,LIII, 692 ; EH, les « inactuelles », 1., p.145. ; Anté,37
5 UIHV., préface., p.94
6 GS., 377
7 Pbm.,224 ; GS.,337 ; VP,II,LIV,619
8 VP,II,LIV,114
9 HTH,274
10 GS,357
11 GS,357 ; Pbm,224
12 GS,83
13 Pbm,224
14 UIHV,3., p.111

صورة حقيقية لبعض فترات تطورهم، التي يَعْبُرُهَا صغار الناس دون التفكير فيها تقريبا. (...) وللقيام بذلك الرسم، الذي لا يفهمه سوى القليل من الناس، من الضروري عزل تلك الفترات ببراعة.

تُنَمِّي الدراسات التاريخية، القدرة على هذا الرسم، لأنها تجبرنا باستمرار- حين يواجهنا جزء من التاريخ، من حياة أمة أو إنسان- على تمثل أفقَ أفكارٍ محددٍ وقوةً معينةً من المشاعر، هيمنة هذه وتراجع تلك. إن الحس التاريخي لَيَكْمُنُ في إمكانية إعادة البناء السريع، وخلال فُرَصٍ معينة، لمثل منظومات التفكير والمشاعر تلك، مثلما نعيد بناء أثر معبد انطلاقا من بعض الأعمدة وتصدعات الجدران التي ظلت صامدة صدفة"[1].

ثمة جملة أسباب تجعلنا نعتبر هذا التعريف، الذي أعطاه نيتشه للحس التاريخي، قاصرا وغير مقنع لوحده، ومنها :

- كون فلسفة نيتشه آخذة في التوضح والتنوع باستمرار مما جعل كل فقرة، أشار فيها إلى الحس التاريخي، غير مُلِمَّة بالنسبة لمن يرغب في وضع حوصلة لجميع تلك الفقرات ؛

- تمييز نيتشه بين نوعين من الحس التاريخي: النوع الذي ينتقده، وذلك الذي يراه هو صحيحا؛ بل ويمكننا القول مثلا بشأن **GS,357** أنها ليست الفقرة التي نفهم فيها هذا النوع الثاني فحسب، بل هي أيضا الإستخدام العملي له من قبل نيتشه نفسه؛

- غالبا ما يذكر نيتشه في نقده الحس التاريخي بمعية الثقافة التاريخية والموضوعية ...الخ، وذلك ما يزيد في صعوبة فهم الموضوع الذي لا يقودنا، بعد استعراضنا لنقده للتاريخية، سوى إلى أفكار نيتشه نفسه كالجينيالوجيا والفاطوم(القدر) والعودة الأبدية ؛

- تؤدي بنا النقاط المشار إليها، إلى القول أنه بالنظر إلى ما اطلعنا عليه إلى الآن من عناصر في فلسفته وما درسناه من فقرات عن الحس التاريخي، فإن نيتشه لم يقدم أي جديد بل كشف فقط عن إستمرار تخوُّفِهِ من :

- سيادة العقل بالمفهوم السقراطي أو الرغبة في **التعبير عن الحقيقة مهما كان الثمن**، مما قد يؤدي بالحس التاريخي إلى أن يخنق الفن كلية[2]، ولذلك "أمسى الحس التاريخي يُخْلَطُ بينه وبين معنى وغريزة كل شيءٍ تقريبا، بينه وبين ذوق وشهيَّات كافة الأشياء: وذلك ما يكشف بسرعة **عمومية** [من العامة] مثل ذلك الحس"[3]؛

- الجماهير: فالقرن الـــتاسع عشر فَقَدَ الحس الحاذق للتدرج وصار فخورا بـــ"حسه التاريخي"، الذي بفضله صار من المسموح به للرعاعي العرقان أن يتسلل، من خلال تعامله مع التاريخ بأسلوب شرطة التحقيق، إلى دائرة قديسي الحياة الأخلاقية وسادة العقل ويوجه شكوكيته الجارحة،

---

1 HTH,274

2 VP,II,LIV,114

3 Pbm,224

ليس فقط ضد ميزة الصف بين الأحياء بل بين الأموات أيضا، على أمل إحلال "المساواة" التي يحتكرها لوحدهم خدام الرأي العام على حساب جميع الأحياء[1].

غير أننا نستشف من مجموع تلك الفقرات، مؤشرين أساسيين عما يقصده نيتشه بمفهوم "الحس التاريخي" هما :

- فكرة "عيش الغريزة الكاشفة"، المشار إليها في البداية، مضافة إليها فكرة "تمثل الماضي" من قبل الأقوياء وتحويلهم لِحِسِّهِمْ التاريخي إلى دَمٍ يسري في عروقهم[2]. ومثال ذلك كيفية تعامل الرومان بكل عنف وكل سذاجة مع ما كان عظيما في تاريخ الإغريق، لدرجة أنهم بدوا وكأنهم يقولون لنا: "ألا يجب علينا تجديد ما كان قديما وسكنه بطريقتنا ؟ أليس من حقنا نفخ روحنا في هذه الجثة ؟ لأنها في نهاية المطاف ميتة، و كل ميت يكون قبيحا جدا !". لقد كانوا يتصرفون بضمير حي يُنِمُّ عن الإمبراطورية الرومانية، ولذلك لم يكونوا يعرفون كيف يستمتعون بالحس التاريخي[3].

يذكرنا حديث نيتشه هذا بإحدى الفقرات، في واحدة من أولى أعماله، أين قال: "لا قيمة لأي شيء بالنسبة لنا بغير السُّلَمِ الجمالي: **للعظيم فقط حقٌّ** في التاريخ، ليس في التاريخ الإيقوني ولكن في **التلوين التاريخي الخلاَّق والمنشِّط.** نحن نَدَعُ **القبور وشأنها** ولكننا نستولي على كل ما ظل حيا"[4]. ما نفهمه من هذا الحديث، الذي يعكس عودة أخرى من قبل نيتشه إلى موضوعاته الأولى، هو إرتباط الحس التاريخي بالفن، هذه الفكرة التي انتهى إليها من خلال إدراكه بأنه "حين تبلغ غريزة المعرفة مداها، فهي تنقلب ضد نفسها كي تبلغ مستوى **نقد المعرفة**"[5]، وفي ذلك دليل على أن الحياة هي التي تنتصر دائما وعلى أن المكانة الأولى لم تعد للمؤرخ بل للفيلسوف الفنان، لأن "الفنان يحتاج إلى ذاكرة غير وفية إذا أراد إعادة صياغة الطبيعة وعدم الإكتفاء بنسخها"[6]، ومن ذلك أيضا كانت دعوة نيتشه إلى **الرغبة في الوهم**[7]، أو، بتعبير ما، النسيان في لغة UIHV، أين نقرأ: "مثلما لا تتطلب كل حياة عضوية الضوء فحسب بل الظلام أيضا، فإن كل فعلٍ يقتضي النسيان(...) **إن هنالك درجةَ أَرَقٍ واجترارٍ و حِسٍّ تاريخيٍّ يجد الكائن الحي نفسه في ما ورائهم مُهتزا ومُدَمَّرًا في نهاية المطاف، سواء تعلق الأمر في ذلك بفرد أو بشعب أو بحضارة**"[8]، لأنه "حين يسود الحس التاريخي **بلا قيد** ويُنَمِّي كافة عواقبه، فإنه يَجْتَثُّ المستقبل من جذوره ما دام يقضي على الأوهام ويُحْرِمُ الأشياء الموجودة من الجو الوحيد الذي يمكنها أن تعيش فيه"[9].

---

1 VP,II,LIII, 692
2 UIHV,1., p.97-98
3 GS,83
4 LP,41
5 ibid,37
6 FP/HTH 17 [32]
7 LP,37
8 UIHV,1., p.97
9 ibid.,7., p.136

- الوعي الكوني: يُظهر لنا نيتشه أن التاريخ وحده يسمح لحوار ذُرَى البشرية في ما بينها، عبر مجالات الزمن القاحلة (المشار إليه في ص،122 هـ 1)، بأن يبدو وكأنه حقيقة، لأن تلك العبقريات لا تمثل أي إمتداد لأية صيرورة بل تعيش فقط آنية لازمنية simultanéité intemporelle [1]، أي أن لاشيء من إرادة الإنسان كان بإمكانه أن يجد مَصَبًّا واحدا لهذه الأنهار الغزيرة، لِيُظْهِرَ البشرية وكأنها صارت كتلة واحدة وترغب في أن تنجب ثمرتها"المقدسة" (الإنسان المتفوق)، الثمرة التي ستلغي التاريخ كله عن طريق جعل كل شيء ضروريا لأنها تجعلنا نفهم أن الإنسان لم يتمكن بِحِسِّهِ التاريخي من إكتشاف أكثر من "**الظواهر الأساسية لخاصية التفكير**"[2]، أي أن الحقيقة والخطأ- باعتبارهما أمران يتحددان بمعايير بشرية ولا يدلان على أنهما في تناقض[*]، بل يؤكدان على أنهما ليسا سوى لعبتين في التعبير الظاهري لإرادة القوة- حكمان ضروريان للحياة ضرورة الضوء والظلام لها، ولا إرادة تقف من ورائهما للذهاب بالبشرية بعيدا لشدة إرتباطهما بالماضي والحاضر، عكس العقول الحرة التي تصنع التاريخ من خلال قفزاتها الجبارة في المستقبل.

لكي يربط بين الذرى، التي لا تظهر كنتائج لتطور ما، فكر نيتشه في عدم الفصل بين العالم كنشاط والعالم كماضي لكي يبرر "إهدارات" الحياة أو إرادة القوة، من خلال جعلها أرضية لتجسيد "كُلِّيٍ" أعلى لإرادة القوة، مما يسمح بالمقارنة، ومن جهة أخرى لتكسير الصدفة- التي تعصف كعامل حاسم في التاريخ بكل مجهود بشري- كي يضحى مثلا توقع قدوم الإنسان المتفوق أمرا مُرَادًا.

نفهم من كل ما سبق أن نيتشه إنتقل إلى مستوى جديد من التفكير، في إطار ما سماه "الشعور بكيفية كونية"[5]، أين رأى أنه "يمكننا التعرف على **جميع القوى الفاعلة في التاريخ** إذا عَرَّيْنَا كل نوع من التيليولوجيا (الغائية) الأخلاقية والدينية. لابد وأنها القوى **ذاتها** التي تفعل فعلها في الظاهرة العامة للحياة العضوية. وهي أكثر بداهة في حياة النباتات منها في أي شيء آخر"[4]. ومعنى ذلك أن نيتشه حاول الإنفلات من الـــ"فكرة" **Idée** الهيغلية، وعواقبها المتفائلة والمتشائمة، لأنه فهم فعلا قول شوبنهاور- بأن "ما تؤديه ملكة التفكير للفرد يؤديه التاريخ للعرق البشري"[5]- وحاول تجاوزه، مثلما يدل على ذلك تعقيبه التالي: "إذا كانت هناك عبقرية، حسب ملاحظة شوبنهاور، في فعل التذكر بكيفية متناسقة وحية لما حدث لكم على أمل التطلع لمعرفة التطور التاريخي- الذي يُظهر دائما الأزمنة الحديثة على أنها أقوى من الأزمنة القديمة والذي، ولأول

---

1 UIHV,9., p.115
2 VP,I,LII, 200
* هذه هي لحظة موت الإله في APZ وGS، وبالمناسبة فإن "أبشع إنسان" في "هكذا تكلم زرادشت" ,.APZ l'être humain le plus laid., p.372 et suiv. هو الذي رمز به نيتشه إلى الحس التاريخي (أو التخفي من عار قتل الإله) FP/APZ,IV 31 [10]
5 VP,II,LIV, 613
4 VP,II,LIII, 469
5 Paul HAMILTON: Historicism., second published by Routledge., NY., 2001., p.113

مرة، حَطَّم الحدود القديمة بين الطبيعة والعقل، بين الإنسان والبهيمة، الأخلاق والطبيعة- فإنه بمقدورنا أن نتعَرَّفَ على التطلع إلى العبقرية في مجموع البشرية. إن التاريخ المتخيل كاملا سيكون وعيا كونيا"[1]، أي تأكيدا ديونيزيا ورضًى بالفاتوم(القدر) بالكيفية التي يظهر بها في هذه الفقرة : "ما يصدم أفكارنا المسبقة في العمق ويثير نفورنا هو الإتقان والنُّضْجُ النهائي للحضارة والفن(...) ربما ستجعلنا أكبر فضائلنا، الحس التاريخي، بالضرورة في صراع مع الذوق الرفيع (...) علينا أن نعترف بأن **القياس** غريب عَنَّا، حِكَّتُنَا هي حِكَّةُ اللامنتهى واللامحدود . وكفارسٍ على جوادٍ يتحزَّم، نتخلَّى عن كل شيء أمام اللامنتهى(...) ولا نتذوق طعم غبطتــ**نا** سوى حين يكتمل **إنهيارنا**"[2]. وهكذا صار بإمكاننا التساؤل عما إذا لم يكن نيتشه قد عاد مرة أخرى إلى فكرتي الإرادة والتمثل مثلما تصورهما شوبنهاور؟ وفي نهاية المطاف، بشأن ما يعنيه بـــ "الحس التاريخي" ؟ .

يُظهر الإكتفاء بالبحث في كيفية **حصول** كل شيء، الذي يعكس عجز الإنسان عن الإهتمام ببناء مثل أعلى، لشدة ارتباطه بالماضي والحاضر، بأن الشكل العلمي للتاريخ* ظل دائما وصفا بغير منظور أو شكلا فوتوغرافيا لواقعٍ منقضٍ[3]، لا يسمح بأن تكون للمؤرخ ناصية العمق والتفكير المُلِمِّ المبني على التساؤل المرتبط بالحياة والمستقبل، والذي يتعرَّف بموجبه على علاقات القوى في الثقافات ولدى الفرديات، أي ما يسمح له بتقديم تفسير هادف أو ذي معنى**. وباختصار، يعيدنا الحديث عن الحس التاريخي لدى نيتشه إلى ما قلناه في ص،129 ، حيث جرى ربط ما قبل التاريخي (الغريزي) بالتاريخي (الواعي)، عن طريق إعطاء علم النفس أهميته القصوى في النص التاريخي، بالكيفية التي يظهر فيها الحس التاريخي كمتضمن لجميع الأفكار الأساسية***– التي إنطوت عليها الفقرات التي انتقد فيها "الشكل الأول" للحس التاريخي- وكمتجاوز لها: أي الجينيالوجيا .

ولأن نيتشه يستبعد كل أوالية في تفسيراته، فإن تصوره لهدف للبشرية يجعل من الحس التاريخي عنده جينيالوجيا لفهمٍ كونيٍّ لهدفٍ أقصى للحياة والبشرية؛ وبتعبير مباشر: هو مستوى متميز من

---

1 OSM.,185

2 Pbm.,224

* ومعه بصفة عامة ما يجمع البعض على تسميته بالـ"تاريخ الخطي" Jacques LE RIDER: La vie, l'histoire et la mémoire dans la seconde considération inactuelle de Nietzsche., in : Littérature et Nation., n°21.,PUFrançois RABELAIS., Tours., 1999., p. 173 ; A. N. Levy., op.cit., p.108

3 VP,II,LIII, 71

** "الهدف هو دائما معنى" Heidegger :Nietzsche, II, p.50 وذلك ما يؤكده نيتشه في GM,II,12

*** جاءالحس التاريخي في الفقرات Anté,37 ;VP,II,LII,40&114 ;VP,I,LI,264 متضمنا فكرة: البصيرة والفطنة ؛ في 1UHIV, 7., p.139 على فكرة التاريخية؛ Cré.id., la raison dans la philo., الثبات؛ GS,83 التمثل؛ GS,337 الحكمة من التاريخ؛ NT,23 تخريب الأسطورة ...إلخ؛ قارن كل ذلك بمحتوى Pbm,211 مثلا .

تَمَثُّلِ الماضي، تأتّى من كيفية معينة من التساؤل، ويعكس تناغما بين فهمٍ لإرادة القوة وإرادة قوة مُفَسِّرَةٍ .

في خاتمة هذا العنصر، تظهر لنا الموضوعية وكأنّها مبدأ يتنافر مع إرادة القوة، وتظهر لنا هذه الأخيرة كافية لوحدها لضرب العقل وتاريخ العَرَضِ symptôme عرض الحائط، رغم أنّها لم تَعُدْ، حين نتمعن في موقفه من التطورية، فقط تلك القوة اللاأدرية الكامنة في كل شيء بل التطور ذاته، الذي تسمح لنا الجينيالوجيا والحس التاريخي وعلم النفس بفهمه. ثم ما الذي سنفهمه بغير غريزة الحياة الأولى وقد بلغت أعلى درجاتها من خلال صيرورة طويلة من التحولات والصدف؟!

3)ـ التاريخ عند نيتشه : يمكننا الإنطلاق من فكرة كون تطويع التاريخ، السيطرة على الزمن، وإضفاء المعنى على الوجود، هدفٌ لجميع الكيفيات التي كُتِبَ بها النص التاريخي، كي نبلغ سؤالنا المحوري في هذا البحث ونحاول تفسير كيفية توصل نيتشه إلى توقعاته، خاصة وأن نقده لا يوفر سوى إمكانية البحث في الطرق التي تجعل النص يدل على فهم صاحبه للقوى الفاعلة في التاريخ.
لقد عرفنا في هذا السياق نقطتين هامتين هما:

أ- بَيَّنَ نيتشه، من خلال طروحاته ونقده، كيف يضع يده على أشياء ظلت مجهولة لفترات طويلة جدا، وتعتبر طريقته في عكس المبادئ والـــ"حقائق" والـــ"قوانين"...، بغرض بلوغ "حقائقه"، واحدة من الطرق التي تعكس فعلا عمقه؛

ب- باعتماده على الفلاسفة، حتى ولو كان ينتقيهم وينتقي ما يستقيه منهم، واتخاذه لمواقف مؤيدة لبعضهم، يكون نيتشه قد قدَّم لنا دليلا على أنه لا فرق بين طريقته في التفسير وطرق هؤلاء على الأقل عند المستوى الذي يسبق فيه دفعه بالتساؤلات إلى حدودها القصوى .

وهكذا تسمح لنا النقطتان بطرح سؤالنا بصيغة جديدة: انطلاقا من وقوفه ضد كل التاريخ البشري واستعداده لتجاوز نموذجه الإغريقي، ألا يكون نيتشه، برفضه لكل أوالية، قد سعى إلى التخلص من شكل الذاكرة المرتبط بالماضي وقسوة الماضي قصد خلق ذاكرة مرتبطة بالوهم والمستقبل والوعد ؟ أعتقد أن التدليل على إتباع نيتشه لمنهج سلفه، دون نكران تجديداته، أفضل سبيل لبلوغ الإجابة الصحيحة .

أ– **الزمن:** حين لاَمَسْنَا في العنصر السابق، التصور الخطي للتاريخ كمشكلة، فإننا كدنا نتساءل عما إذا لم يكن نيتشه يمهد لطرح فلسفة عملية وأَجَّلْنَا الحديث عن ذلك إلى هذا العنصر، الذي يظهر فيه مدى تأثر نيتشه بالوضعية* واضحا: فما هو السبب الذي يدعونا إلى افتراض ذلك في موضوع الزمن بالذات؟

---

* فضلا عن كون أوغست كونت قد سبق نيتشه في القول بأنه "ليس الترتيب الكرونولوجي للفترات بترتيبها الفلسفي: فبدلا من القول: الماضي، الحاضر،المستقبل، لابد من القول: الماضي، المستقبل، الحاضر" A.comte : Appendice général de system de politique positive., Imp.,par Thunat et Cie., Paris., 1854 (plan des travaux scientifiques nécessaires pour réorganiser la société) ، فإن الحديث عن "الرضى بالحياة " قد **يكون**

يكتسي الزمن أهمية قصوى في فلسفة التاريخ عند نيتشه، فضلا عن كونه مَشُوبًا عنده بالكثير من العوالق ذي الأصل الإغريقي، مثلما يفهم ذلك كل مُطلع على "الفلسفة إبان الفترة المأساوية للإغريق"، وخاصة ص،27 وما بعدها. فمن كيفيات تناول نيتشه له، نفهم عدة عناصر: كالسببية والتوقع والخلود والمأساة والشعور الكوني ...إلخ. وفعلا، فقبل ميلاد فرضية إرادة القوة، أشار نيتشه الى أن "المستقبل هو الذي يُملي قاعدته على حاضرنا"[1]، مما يجعله يقلب قراءة الزمن التاريخي بالكيفية التي يضحى فيها "المستقبل والماضي شرطان للحاضر، "ما سيكون، ما عليه أن يكون، هو سبب ماهو كائن"[2]، ويطرح معاني جديدة للضرورة والحتمية، مثلما نفهمها من قوله: "كائن المستقبل الخالد، الذي لا يجد بَعْدُ الراحة أمام قُوَّتِه، المدفوع باستمرار بالمِهْمَازِ المُتَّقِدِ الذي يغرسه المستقبل في لحم الحاضر"[3]. وهذا هو الوجه الآخر للقوة اللاأدرية، التي نلمسها في فلسفة نيتشه كلما تعلق الأمر بالتفسير بإرادة القوة، والتي تشكل أرضية لأفكار من نوع الصدفة، الوعي الكوني، العودة الأبدية، إرادة القوة ...الخ. غير أن أهم نقطة، عرضها نيتشه بهذه القراءة الفلسفية للزمن، تكمن في إدخال عنصر المستقبل في نظام السببية كعامل أساسي لفهم التاريخ، وذلك ما يعني أيضا أن التاريخ لم يعد يشمل لدى نيتشه الفترات المعروفة فحسب، بل المستقبل أيضا:

أ- فترة ما قبل التاريخ أو التاريخ الطبيعي واللاشعور: وفيها نجد أرضية "تطورية" نيتشه ؛

ب- التاريخ:

1- الإغريق قبل سقراط، النهضة، الفرديات الجِدُّ متميزة، وبصفة عامة: نماذج نيتشه ؛

2- تاريخ المسيحية ومشتقاتها إلى غاية أجندة نيتشه ؛

3- تاريخ المستقبل: العدمية، الإنسان الأخير، الإنسان المتفوق....توقعات نيتشه؛ ولأن "الإرادة تريد المستقبل"[4]، فإن إرادة القوة توافق تاريخ المستقبل.

تتحدد الفترات التاريخية والفلسفية* لدى نيتشه بكيفيات شتى، مما يُظهرها في صيغ متنوعة مثل:

1) - الفترة كدورة كبيرة: مثلما تدل على ذلك الفقرة التالية: "كُنْتُ حاضرًا في كل ما أثار زرادشت، موسى، محمد، عيسى، أفلاطون، بروتوس، سبينوزا، ميرابو(...) إنه فيَّ فقط نضج وبان الجنين الذي إحتاج لأجل هذا إلى بضعة قرون. نحن أوائل الأرستقراطيين** في تاريخ العقل–

=== بتفسير ما يستند إلى الوضعية.(Giovanni PAPINI : Le crépuscule des philosophes., trad.de l'italien
(par : Juliette BERTRAND., Etienne CHIRON éditeur., Paris., 1922., p.245

1 HTH., préface,7

2 UIHV,6., p.135 ; VP,II,LIII, 18

3 GM,III,13

4 Karl LOWITH : Nietzsche, philosophie du retour éternel, trad. de l'allemand par Anne-Sophie ASTRUP., Hachette., Paris., 1998., p.148

* "أراد نيتشه أن يفكر العودة الكونية للشيء ذاته وفق ديناميكية التكثيف ولكنه لم ينجح لأنه لم يسيطرعلى "المفهوم التقليدي للزمن "كمكان" تجري فيه صيرورة الحياة ". (R. SAFRANSKI., op. cit., p.303)

** من هنا صارت لاآنية نيتشه مرتبطة بالماضي والحاضر بكيفية تنم عن الخلود مثلما نجد ذلك في قوله: "أنا من اليوم ومما مضى(...) بيد أنه فيَّ شيء من الغد ومن بعده ومن دوما". (APZ., des poètes., p. 179)

بالكاد بدأ يظهر الحس التاريخي"[1]. وتعتبر سيرة نيتشه الذاتية نموذجا لهذا النوع من الأفكار، لدرجة أن فكره يظهر فاصلا "يتلهَّى بكل ما استحال(...) مقدسا وخَيِّرًا وطاهرا وإلهيا...، أي ذلك الذي وضعه الشعب (...) في أعلى سلم قيَّمِهِ"[2].

2) - الفترة كدورة ثقافية: وقد تعني شعبا بعينه (الإغريق و اليهود مثلا) أو أفرادا (سقراط، محمد، لوثر، نابوليون...إلخ)، حيث تظهر كبريات الأفكار على أنها أكبر الأحداث[3]، أو أن العظماء أنفسهم هم الذين يظهرون على أنهم أحداث عظيمة[4]، ولا يكون محتوى تلك الأحداث أي شيء آخر بغير سيادة نمط تفكير وقيم وحياة (أي نماذج ثقافية) محدد.

3) - الأحداث كتأرجح جدلي بين قيم السادة والعبيد وكصراع، ومثال ذلك فترتي النهضة والإصلاح الديني في أوروبا؛ كما سبق لنيتشه وأن طرح "فكرة" التعارض الأپوليني–الديونيزي وقد أُسقطت على الميتافيزيقيا؛ التاريخ نفسه جرى تصوره كتطور لهذه الـ"فكرة"[5].

الجدير بالذكر أن نيتشه يرفض فكرة تحديد أعمار للبشرية- الفكرة التي إعتبرها في البداية إرتباكا لـــهزيود Hésiode، الذي تخيل تعاقب العصور وبحث عن كيفية تمثيلها بالذهب والفضة والبرونز[6]- لأنها تنم عن حالة انحطاط من يقولون بها، أي أولئك الذين يدفع بهم العجز إلى البحث عن راحتهم في تَذَكُّرْ ما كان وفي تمجيد الثقافة التاريخية، التي شبهها بالشيب الخلقي الذي ما أن يحمل فرد ما أعراضه منذ صباه حتى تظهر لديه غريزة الإعتقاد في **شيخوخة البشرية**؛ ويتساءل نيتشه: "ما هي إذن بضعة آلاف من السنين (وبتعبير آخر: مجال من أربعة وثلاثين جيلا متتاليا، قدر عمر كل واحد منها بـــستين عاما) حتى نشير إلى بداية هذه الفترة على أنها مرحلة "الشباب وإلى نهايتها على أنها "شيخوخة البشرية" ! ، و"من جهة أخرى يوجد **الإنحطاط** في جميع مراحل البشرية؛ وكل عصر يعرف نفايات وتفسخات. إن أمر التخلص من الأشكال المنحطة والفضلات لَيَدْخُلُ ضمن نشاطات الحياة"[7]. وبدلا من ذلك، "ألا يختبيء وراء ذلك الإعتقاد المُشِلِّ في بشرية آخذة في التداعي، سوء فهم لتصور ثيولوجي مسيحي موروث عن العصور الوسطى وفكرة النهاية المحدقة للعالم والحساب الذي ننتظره بكل خوف؟"[8]. طبعا هنا تكمن فكرة المعنى، التي سعى الإنسان إلى بلوغها من خلال فهم الحاضر والماضي وأدت به إلى إفتراض وجود دورات في التاريخ، و"جميع النظريات الدورية، سواء فكرة العودة ricorsi عند فيكوVico أو نظرية العودة الأبدية die ewige Wiederkunft أو نظرية باريتو Pareto، حول السبل الصاعدة والهابطة للنخبة، نبعت من إلهامٍ إغريقي، كما أن جميع النظريات الموجِّهة directional، سواء نظرية ماركس أو

---

1 VP,II,LIV,619
2 EH., APZ., p.165
3 Pbm,285
4 Pbm,245 ; HTH,521 Cré.id., divagation d'un "inactuel",44
5 EH., NT,1,p.140
6 GM,I,11
7 VP,I,LI,356
8 UIHV,8., p.143

كونت أو هيغل، نتائج لتكريس المبادئ الثيولوجية وللإستعمال المتستر لدوافع آخروية، سواء جرى التعارف عليها أو تلك المتسترة"[1] .

ب- **التفسير السببي:** فضلا عن السبب الطبيعي المرتبط بالفيزيولوجيا والمشار إليه سابقا، يمكننا اكتشاف ثلاث كيفيات على الأقل للتفسير السببي عند نيتشه وهي:

1- السببية وفق التفسير المألوف: ونتوصل إليها من خلال الإطلاع على مثل هذين المثالين:

- "الحروب المعاصرة الكبرى هي نتائج للدراسات التاريخية"[2]؛

- "يتعلم الناس، في التاريخ، المعرفة **الأفضل** للقوى **المحركة** وليس آراءنا "الجميلة" **!** الإشتراكية مبنية على التاريخ، الحروب الوطنية أيضا"[3].

2- قوانين ومبادئ وعِبَرٍ...تاريخية، مثل:

- "بعد تجولي عبر عدة أخلاق، رفيعة أو فَظَّةٍ، سادت أو لا تزال تسود على المعمورة، أدركتُ أن بعض الملامح تعود جميعها بانتظام ويرتبط بعضها بالبعض الآخر إلى درجة أنه في نهاية المطاف يَتَكَشَّفُ لي نموذجان أساسيان أكتشف فيهما اختلافا أساسيا: توجد **أخلاق سادة وأخلاق عبيد**"[4]. (هذا أوضح مثال يكشف مدى إتباع نيتشه للطريقة العلمية إلى غاية طرحه لهذا القانون، الذي نجد له العديد من الأمثلة في كتاباته مثل: HTH,283) ؛

- "لا يبنى المعبد إلا بعد **إزاحة المعبد القديم**، هذا هو القانون"[5]؛

- "تدل الطبقات دائما على إختلافات في المنشأ والعرق"[6]، و"كل أوليغارشية (والتاريخ كله هنا لِيُعَلِّمَنَا) تُخفي دائما، في ذاتها، الرغبة في الطغيان"[7]، و"حيث نُهيمن فهناك توجد جماهير: وحيث توجد جماهير فهناك حاجة إلى الإستعباد، وحيث يوجد الإستعباد فهناك يقل عدد الأفراد وتوجد غرائز القطيع والضمير في وجههم"[8].

3- التاريخ كمواعيد وعوامل وأسباب نوعية: يولى نيتشه في تفسيراته أهمية كبرى لـــ"عوامل التاريخ" ليعرضها لنا أحيانا وكأنها تراكم لكمية هائلة من القوة، الذي يشبه برميل البارود الذي ينتظر التفجير[9]، ثم يكشف لنا بعدئذ عما يشبه السبب النوعي أو الكافي من خلال أقوال من نوع : "من المسموح به لمؤسس ديانة أن يكون تافها- عود كبريت، لا غير**!**"[10]. وطبعا يستخدم نيتشه

---

1 Albert William LEVY: Philosophy and the modern world., Indian University Press., Bloomington., 1959., p.108 ؛ نيتشه نفسه يدرك هذا ، أنظر على سبيل المثال جملة أناكيسماندر بهذا الخصوص في : Phil.ETG,4., p. 2

2 A,180

3 FP/A 10D[88]

4 PBM,260

5 GM,I,24

6 GM,III,17

7 GM,III,18

8 GS,149

9 GS,360

10 VP,I,LI,359

"علاقة عود الثقاب ببرميل البارود"[1] هذه في تفسير التغيرات المفاجئة والهائلة التي شهدها التاريخ. فمثلا كان "التقدم سريعا والتراجع أسرع، وسير الآلة كلها [تاريخ الإغريق وحضارتهم] جدٌّ شديد، لدرجة أن رمي حجرة واحدة في عجلاتها تكفي لتدميرها؛ وسقراط مثلا كان واحدٌ من هذه الحجارة"[2]. بولس من جهته ألَّفَ مقطوعته الموسيقية على "سببٍ" بسيط، من خلال نسجه المسيحية من أحداث بسيطة: موت المسيح، مشاهدة المسيح بعد موته، اليهود هم قتلةُ المسيح[3] .

يمتزج هذا النوع من التفسير بإبراز أهمية الصدفة، مثلما نقرأ ذلك في هذه الفقرة: "لابد من صُدَفٍ سعيدةٍ وعدد من الظروف غير المتوقعة كي يتمكن إنسان متفوق، يرقد فيه حلٌّ لمشكلة ما، من التصرف في الوقت المناسب" [4].

وفضلا عن ذلك، تحدث نيتشه عن عوامل شتى في التاريخ كالتغذية والمناخ وأيضا عن الإستفادة من الإهتمام بالماضي ودراسته، حيث يظهر لنا اليهود، مثلما تحدث عنهم في A,205، نموذجا يُحتذى به .

جـ- وثائق تاريخية : لدى نيتشه قدرات هائلة على الإطلاع، وبلغات عدة، على الكثير من الوثائق، غير أن معظم ما يطلع عليه هي تفسيرات غيره لشتى الموضوعات والقضايا والأحداث، التفسيرات التي ما أن يهضمها حتى ينقلب عليها وكأن الأمر يتعلق بالهدوء الذي يسبق العاصفة الهوجاء؛ ولكونه فيلولوجيا، فإن اللغة أفضل مصادره التاريخية، وبسببها إكتست الجينيالوجيا وعلم النفس مكانة جدُّ متميزة عنده. ولم يُخطئ بلوندال حين إنتهى في بحثه إلى أن " تشخيص نيتشه الجينيالوجي ، فيلولوجي"[5]، وأن "الفيلولوجيا جينيالوجيا"[6]، وعليه فإلي جانب النصوص والآثار والإنسان والفنون[7]، والقوانين[8]، تظهر المفاهيم الحالية أيضا على أنها وثائق تاريخية تنطوي على معلومات قَيِّمَةٍ، مثلما تدل على ذلك الفقرات التالية :

- "قلق، حقد، حب، إشفاق، رغبة، معرفة، غبطة، ألم- ليست هذه سوى أسماء لظروف قاهرة"[9]؛
- "مصنع، سوق العمل، عرض، إنتاجية"، مصطلحات مستعملة للتعبير عن الأنانية"[10]؛

---

1 GS,360
2 LP,191,195 ; HTH,261
3 VP,I,LI,358
4 VP, II, LIII, 296 ; Pbm,274
5 E. Blondel., op.cit., p.44
6 Ibid., p.49 ؛ الجينيالوجيا "طريقةُ نقدٍ تُعرض نفسها كَفَنٍّ تفكيكِ الأعراض إلى ما لا نهاية له". M.Haar : Nietzsche., Encyclopédie de la Pléiade., Histoire de la philosophie., vol.III.,Gallimard., Paris.,) 1974.,p.313) وهي" في البداية، تحقيق تراجعي يهدف إلى الكشف عن المصادر المنتجة لقيمةٍ أو تفسيرٍ ما (أخلاقي ، ديني، أو غير ذلك) وكذا الدوافع التي كانت وراء ذلك؛ بعدئذ، هي تحقيق بشأن قيمة القيم التي جرى اكتشافها، وهكذا تضحى المرحلة الأولى من التحقيق شرطا يجعل الثانية ممكنة". (P. Worthing : Le vocabulaire de Nietzsche., Ellipse., Paris., 2001., p.32.)
7 OSM, 223
8 GS,43
9 A,115
10 UIHV,7., p.140

- "يبدو أن الإنسان لا يتصرف عموما سوى لأجل الحيازة: على الأقل اللغات التي لا تعتبر كل فعلٍ ماضٍ كَمَآلَ حيازةٍ، تسمح بهذا الإفتراض (تكلمتُ، صارعتُ، أهزمتُ، وهذا ما يعني: أنا الآن أحوز كلامي، صراعي، إنتصاري). كم يبدو الإنسان متعطشا ! عدم السماح بانتزاع الماضي منه، والرغبة في **الحصول** عليه أيضا هو الآخر"[1].

د- **الذاكرة والنسيان** : تجد الإرادة والتطورية والزمن والفن، بصفة خاصة، أوضح تعبير لهم في ميدان علم النفس وما قبل التاريخ في هذا العنصر تحديدا، كما لا تظهر الذاكرة كنقيض للنسيان في الصيرورة العامة للحياة بل واحدة من العناصر الأساسية الأربعة التي تتكون منها الذاكرة (مثلما سيلي شرح ذلك)، وخاصة حين يجري ربطها بالإرادة، بل يمكننا أن نتساءل، انطلاقا من كل ما عرفناه إلى الآن وبالإستناد إلى وظيفة الذاكرة، عما إذا لم تكن إرادة القوة نفسها نوعا من الذاكرة؟ عما إذا لم تكن ذاكرة لـــ"أنانيات" الكائنات الحية وللحياة نفسها؟ إن الأداة Zur (نحو بالألمانية)، التي نجدها في مفهوم إرادة القوة، لن تظهر لنا بأي معنى بدون الذاكرة، وحتى لو أثار قولنا هذا إشكالية العودة الأبدية، فإن هذه الأخيرة لن تعدو أكثر من لعبة تقوم بها إرادة القوة نفسها وقد إلْتَهَمَتْ المكان عن آخره، وذلك ما يشبه النسيان الإرادي؛ وعلى كلٍّ فإنه يمكننا تمييز نوعين من الذاكرة في فلسفة نيتشه:

1- ذاكرة مرتبطة بالماضي :

أ- الذاكرة البيولوجية: ويمكن الرمز لها بعبارة: "ليست الحياة العضوية نتيجة لمصير"[2]؛ بل إن عالم الذاكرة لَيَظْهَرُ شبيها بعالم الواقع، عالم ينطوي على "جميع تجارب كل حياة عضوية، تجارب حية تنظم نفسها بنفسها بواسطة أفعال متبادلة، يتصارع بعضها مع بعض، تختزل، تحوصل وتحول الوقائع إلى وحدات عديدة"[3]؛ وتظهر "أصغر خلية [على أنها] وريثة لكل **الماضي** العضوي"[4]، مثلما يظهر كل فعل على أنه وعاء "يتكرر فيه، مُختَصَرا، تاريخ المصير برمته"[5]، وذلك ما يبين أنه "لا وجود لعضوٍ خاصٍّ بالـــ"ذاكرة" [بل] جميع الأعصاب، في الساق مثلا، تتذكر تجارب سابقة"[6]، أي أنها لا ترتبط فقط بالمخ[7].

يمكننا أيضا أن نتحدث عن وجود عدة أزمنة في الذاكرة البيولوجية، يشرح كل واحد منها درجة معينة من مضمونها، ومنها: الموروث البيولوجي الأصلي، الغرائز، الغرائز التي جرت دَخْلَنَتُهَا حديثا، الأفكار التي تنتظر دورها عند الباب، الندم ...إلخ؛

1 A, 281
2 VP,I,LII,99
3 ibid,129
4 ibid,98
5 ibid,100
6 FP/A 2[68]
7 LP,92

ب- الذاكرة التاريخية: وتشمل النماذج الثقافية السائدة، بما في ذلك الموروث الحضاري، في شكل قوى يَنْصَاعُ لها الجميع، ومنها قوى العادة، اللغة، القيم الأخلاقية، الأعراف والقوانين، الدين...إلخ. ومثلما تنطوي الذاكرة الفردية على قدرة على التنظيم والغربلة الذاتية، تظهر لنا الذاكرة التاريخية أيضا على قدر كبير من الأهمية بالنسبة للمجتمع، ومن ذلك كان قول نيتشه: "على فترتنا أن تعتبر نفسها سعيدة لسببين: فمقارنة بالماضي، نحن نستمتع بكافة الثقافات وبمنتجاتها ونتغذى من أنبلِ دَمِ كافة الأزمنة"[1]؛

جـ- النسيان: خاصية مهمة للغاية في حياة الفرد والمجتمع؛ ترتبط بالماضي والحاضر والمستقبل لكونها تتم عن إرادة في جزء كبير منها، وفي ذلك يكمن سبب إدراجنا إياها ضمن أصناف الذاكرة.

يرى نيتشه أن النسيان في حالة الحضارة، تراخٍ للذاكرة لأننا نكتشف، في تفجرات الإنفعال وفي هذيان الحلم والجنون، كيف تعود الذاكرة إلى ما قبل تاريخ الإنسان[2]، كما أنه "لم يثبت وجود النسيان إلى الآن، فكل ما نعرفه هو أنه ليس بوسعنا أن نكرر التذكر"[3]؛ وأيضا "لا وجود للنسيان في العالم العضوي بل كيفية ما في اجترار المعاش"[4].

2- ذاكرة مرتبطة بالمستقبل: تجد القسوة، التي تقبع في مبدأ كل حضارة، أفضل تعبيراتها في الجزاء والعقاب، في المدح والذم، في الوعد والوعيد... وفي جميع الوسائل المماثلة، التي تنطوي عليها المنظومات القانونية والدينية والأخلاقية....إلخ، والتي تكشف عن استباق الإنسان للزمن من خلال إرادته في "تنويم المنظومة العصبية والعقلية كلها مغناطيسيا"[5]؛ عن سعيه لقمع وتلجيم إرادة الإنسان، من خلال إتباع وسائل جهنمية لصناعة ذاكرة له mnémotechnique. "لقد كان الناس يُلصقون الشيء بالحديد الأحمر كي يبقى عالقا بالذاكرة: وفقط ما لا يكف عن **إثارة الألم** يبقى في الذاكرة"[6]. ومثال ذلك: العقاب في شتى أشكاله، والذي وجد فيه المجتمع وسيلة ليس فقط للإنتقام بل شيئا **أكثر** من ذلك: ذاكرةً تجعل الجاني يتذكر دائما أنه بفعلته تلك سيكون مقصيا من الجماعة وفاقدا للمزايا الأخلاقية الخاصة بها، ومن ثمة فهو منبوذٌ من قِبَلِهَا[7]. وعلى النقيض من ذلك، تظهر حركة التاريخ والإبداعات الفنية وتحديد القيم وكل تَصَرُّفٍ يُنِمُّ عن قوة، كأدلة على "إنسلاخٍ" من كل ارتباط بالذاكرة، وعبارة: "يحتاج الفنان إلى ذاكرة غير وفية إذا أراد أن يعيد صياغة الطبيعة ولا يكتفي بنسخها"[8]، واضحة في هذا الشأن، بالرغم من أنه لا وجود لأي وعي لا يستند إلى

---

1 OSM, 179
2 A,312
3 A,126
4 VP,I,LII,97
5 GM,II,3
6 GM,II,3
7 VO,22
8 FP/A 17[32]

الذاكرة[1]. وقد سبق لنا وأن أشرنا إلى إرتباط البيولوجي بالمكتسب عند نيتشه بالكيفية التي يظهر فيها التمثل والتفسير والإستبعاد والتبسيط ....إلخ، وظائف للوجود العضوي؛ وباختصار، فإن "التجربة ليست ممكنة سوى بمساعدة الذاكرة، كما أن الذاكرة ليست ممكنة سوى إذا تَمَكَنْنَا من إختزال ظاهرة ذهنية، في شكل إشارة"[2]. إنه لا مجال للحديث عن خاصية التفكير بدون الذاكرة، لأن الذاكرة هي التي تجعل التجربة والمقارنة ممكنتين[3]، وبالمقارنة صار الإنسان وعيا للتاريخ بذاته[4].

يؤدي النسيان، هذا "الهضم السيكولوجي"[5]، بدوره وظيفة مماثلة لوظيفة الذاكرة، مما يُبين كون هذه الأخيرة إنتقائية. ففي بداية مشواره، ذكر نيتشه أن "الإنسان يريد الحقيقة في إطار محدود، الحقيقة التي تُمَكِّنُهُ من البقاء في الحياة(...). وفقط بفضل قدرته على النسيان، يكون بمقدور الإنسان الإعتقاد بامتلاكه الحقيقة على الدرجة التي ذكرناها"[6]، وإلى ذلك يستند المبدأ القائل بأن "كل كائن حي لا يمكنه أن يكون سليما وخِصبًا سوى في إطار أفقٍ مُحَدَّدٍ"[7]، هذا المبدأ المستوحى من الحياة والذي يؤكد على أن النسيان ضروري لكل فعلٍ ضرورة الضوء والظلام لكل حياة عضوية[8]. غير أن القدرة على النسيان ليست واحدة بالنسبة للجميع ولا تخص عبارة: "أغلق أبواب ونوافذ الضمير من حين لآخر(...) لكي تُقَدِّرَ، تتوقع، تستشعر"[9]، سوى فئة على قدرٍ كبيرٍ من القوة، لأن القوي وحده ينسى ما لا يقدر على التحكم فيه[10] ويتجاوز بإرادته، وباستمرار، إرتباطه بالماضي؛ وتلك درجة نسيانٍ مختلفة عن نسيان المتوحش الذي يتحدث عنه الرحالة والناجمة عن ضغط قصير في ذاكرته[11]، أو"نسيان" الحيوان والطفل، الناجم عن عدم الوعي بالزمن، وارتباط كليهما باللحظة[12]. تُذَكِّرُنَا اللحظة بالنقطة السادسة في تاريخ الفلسفة، مثلما لَخَّصَهَا نيتشه، والتي يظهر فيها منتصف النهار كلحظةٍ لأقصر إمتدادٍ للظل، نتيجة الإلغاء "الأوتوماتيكي" لعالم الباديات، عقب إلغاء العالم الحقيقي. وذلك دليل على بلوغ ذروة زرادشت ونهاية أطول خطأ[13]، أي إنسلاخ الإنسان من كل ماضيه بفضل إرادته الخلاقة، هذه الإرادة التي نجد أرضيتها الفلسفية في عدة مقولات، تعود إلى المرحلة الأولى في تاريخ الكتابة عند نيتشه، أين حاول تناول التاريخ في علاقته مع الفن، ومنها مثلا:

---

1 Giorgio COLLI : Ecrits sur Nietzsche., trad. de l'italien par Patricia FARAZZI., Ed. de l'Eclat., Paris ., 1996., p.39
2 VP,I,LII,289
3 VP,I,LII,112 ;244 ;295
4 VP,II,LIII,297
5 GM,II,1
6 VMSEM., p.209-210
7 UIHV,I., p.98
8 Idem
9 GM,II,1
10 UIHV,I., p.98
11 HTH,12
12 UIHV,I., p.95-96
13 Cré.id., Comment, pour finir, le « monde vrai » devint fable (Histoire d'une erreur)., p.31

- " الجو غير التاريخي الذي ينتج كل حدث تاريخي عظيم" ؛
- " إنسان الفعل(...) دائما بلا شكوك، محروم من الضمير، ينسى كل شيء باستثناء ما يريد إنجازه(...). لا يعرف سوى حق ما يجب عليه أن يُولَدَ الآن، كما أن كل رجلَ فعلٍ يُحب فعله كثيرا، أكثر مما يستحقه: ولا تتحقق أفضل الأفعال سوى بفيضِ حُبٍّ"[1]؛
- "يبدع الإنسان فقط حين يحب، حين يغمره وهم الحب، أي حين يؤمن بكيفية غير مشروطة بوجود شيء صحيح وكامل"[2].

من هذه الأرضية، تمكَّن نيتشه من الحديث عن الخلود، الذي توفره قوة الفن؛[3] من محبة الخلود[4]، الذي يتساوى مع اللحظة التي إستغرقها نومُ زرادشت في هذه الفقرة: "هكذا تكلم زرادشت ونهض من نومه أسفل الشجرة وكأنه إستفاق من نشوةٍ غريبةٍ: بَيْدَ أنه هاهي الشمس لا تزال تنصب تماما فوق رأسه. في الحقيقة يمكننا أن نستنتج أن زرادشت لم يستغرق في نومه وقتا طويلا"[5]. وهذه كلها أدلة على إلتقاء أودية "بمعزل عن خير وشر"، "العودة الأبدية"، "الفاتوم" ....إلخ، في نهر واحد إسمه: فلسفة نيتشه في الحياة وإرادة القوة. تلكم هي الرسالة التي تضمنتها هذه العبارة: "إن الذي لا يعرف كيف يجلس عند عتبة اللحظة، ناسيا الماضي كله؛ الذي لم يعرف الوقوف على نقطة واحدة كإلهة النصر، فإنه لن يعرف أبدا معنى السعادة، وأكثر من ذلك: لن يفعل أبدا أي شيء يجعل به غيره سعيدا"[6].

هـ– منافع ومضار التاريخ: يمكننا إضافة عبارة:"الذي أنا مدينٌ به للقدماء"، التي وضعها نيتشه كعنوان لإحدى عناصر كتابه "غروب الآلهة الكاذبة"، إلى الأرضية التاريخية التي يستند إليها فكره لتبيان أن نقده للحس التاريخي والموضوعية والتطورية ....وغيرها من الموضوعات الأخرى، لا يعني أنه لا جدوى من معرفة الماضي، بل يُعد التاريخ مُهَمًّا في حياة الفرد والشعب والحضارة. وقد قدم نيتشه ثلاثة تصورات للتاريخ، شارحا منافع ومضار كل واحد منها بالكيفية التي يظهر فيها دائما القوي وحده قادرا على الإستفادة من خدماته وتفادي العواقب الناجمة عن الإفراط في تعاطيه. والتصورات هي: تاريخ مَعْلَمِيٌّ histoire monumentale، تاريخ تقليدي (antiquarian h.) h. traditionaliste، تاريخ نقدي h. critique[7]. و"لا يكتسب أي واحد من التصورات الثلاث شرعيته سوى في تربة وفي ظل جَوٍّ خاصين، وفي ماعدا ذلك، يضحى طفيليا ومخربا"[8]؛ وبتعبير آخر: "يتسبب الإزراع غير الحَذِرِ لهذه الأنواع في تعاسات شتى: أي أن الفكر الذي يوجه النقد بدون أية حاجة والذي يصون بدون تقوى والذي يعرف العظمة دون أن يكون قادرا على أشياء

---

1 UIHV,I., p.99-100
2 UIHV,7., p.136
3 ibid,10., p.166
4 APZ., les 7 sceaux,1à7
5 APZ.,Midi., p.394
6 UIHV,I., p.96
7 UIHV,2., p.103
8 Ibid., p.109

عظيمة لَهُوَّ كالنباتات التي تعود إلى حالتها البرية والتي تتفسخ بمجرد ما تُجْتَثُّ من تربتها الأصلية"[1]. إنه"تبعا لأهدافه وقواه ونقائصه، يحتاج كل إنسان وشعب إلى معرفة معينة عن التاريخ، تكون أحيانا في شكل تاريخ معلمي وأخرى في شكل تاريخ تقليدي وثالثة في شكل تاريخ نقدي(...)؛ توجه تلك العلاقة دائما نحو الحياة لتكون بذلك دائما منقادة بواسطتها ومُهيمن عليها من قِبَلِهَا، وفي ذلك تكمن العلاقة الطبيعية التي ترتبط بواسطتها فترة ما، حضارة ما، أو شعب ما بالتاريخ: علاقة يثيرها الجوع وتنظمها شدة الحاجة وتتحكم فيها القوة التشكيلية الملازمة لكل جماعة: أي أن معرفة الماضي رُغِبَ فيها دائما بغرض خدمة المستقبل والحاضر وليس لإضعاف الحاضر أو بتر جذور مستقبل قوي"[2].

- **التاريخ المعلمي:** المستفيد الأول منه هو إنسان الفعل، القوي، لأنه غالبا ما يكون في حاجة إلى نماذج ومُعلمين ومُعَزِّينَ له، لا يمكنه أن يجدهم في حاضره[3]، كما يُمكِّن، هذا النوع من التصور، الإنسان من معرفة أنه مثلما كانت العظمة **ممكنة** في الماضي فلابد أن تكون كذلك مرة أخرى[4]. إن التاريخ المعلمي ليُقرب ويعمم ويميز بين أشياء مختلفة، كما يخفف دائما من تنوع الدوافع والظروف لكي يقدم صورة مَعْلَمِيَّةً، أي نموذجية وجديرة بالتقليد، عن **النتائج** effectus على حساب **الأسباب** causae لدرجة أنه، وبدون مبالغة، يمكننا تسميته- مادام يضفي، قدر الإمكان، الصفة التجريدية على الأسباب- مجموعة الـــ"نتائج في ذاتها"، أو الأحداث التي تكون لها دائما عواقب[5].

تكون للتاريخ المعلمي، حين يتحكم في التصورين الآخرين للماضي، عواقب وخيمة على الماضي، من جرَّاء التعميم الذي يتسبب فيه، مما يؤدي إلى ارتفاع عدد الـــ"نتائج في ذاتها"، المشار إليها أعلاه، ونسيان أو إحتقار أجزاء كثيرة من الماضي، بل سيحرض الشجاع على المجازفة والمتحمس على التعصب وتزداد كوارثه كلما وقع بين أيادي الضعفاء والهامدين[6].

- التاريخ التقليدي: ويفيد "من لديه ذوق الحفظ والتبجيل والذي يَلْتَفُّ بِحُبٍّ ووفاء نحو العالم، الذي جاء منه وتكوَّن فيه لِيُبَرِّئَ بورعه هذا، وبكيفية ما، نفسه من وجوده؛ إذ برعايته لما ظل موجودا، يحاول أن يحفظ للذين سيولدون من بعده، الشروط التي نشأ فيها هو بنفسه."[7].

يجد الإنسان التقليدي ضالته في هذا النوع من التاريخ، لأنه ضعيف وتضحى نفسه مملوكة من قبل التراث الذي يبني فيه عُشَّهُ[8]، غير أن الحساسية التقليدية، لشخص أو مدينة أو شعب بأكمله، لَمَحْدودةٌ دائما في نطاق ضيق للغاية ولا تنتبه تماما إلى أغلبية الظواهر، وأن القليل الذي تدركه

---

1 UIHV,2., p.109
2 UIHV,4., p.114-115
3 ibid,2., p.103
4 ibid., p.105
5 ibid., p.106
6 ibid,2., p.107
7 ibid,3., p.109
8 idem

منها تدركه عن قرب كبير جدا وبكيفية جزئية للغاية. إنها لا تقدر على قياس موضوعها وإنما تولي الأهمية ذاتها لكل شيء، وكثيرا من الأهمية لكل شيء على حدة، وهي بذلك تفتقر إلى أي سُلَّمٍ للقيم والنِّسَبِ، التي تأخذ العلاقات بين الأشياء بعين الإعتبار. يكمن الخطر هنا في أن كل قديم سيكون في نهاية المطاف مغطى بِلِحَافٍ موحد من التمجيد، مثلما سيكون كل جديد وما هو في طور الولادة مرفوضا؛ ولأنه لا يعرف سوى **حفظ** التاريخ وليس الحمل به، فإن هذا النوع من التاريخ قد يتقوَّى على التصورين الآخرين ويُشِلُّ بذلك الإنسان الفاعل[1]. وقد ينحط هو الآخر في اللحظة ذاتها التي يكون فيها منشطا ومؤججا بريح الحاضر الحية[2] .

- التاريخ النقدي: إذا لم تكن لدى الإنسان قوة تحطيم وتفكيك جزء من ماضيه، وإذا لم يستخدم قوته تلك في غايات أخرى من حين لآخر، فإنه لا يقدر على العيش. ولذلك لابد له أن يُجرجر هذا الماضي إلى المحكمة ويعرضه لاستجواب قاس ثم الحكم عليه في الأخير؛ والحال هذه، فإن كل ماضٍ يستحق المحاكمة، لأن كل ما يتعلق بالإنسان ظل خاضعا للقوة والضعف البشريين. وليست المحكمة هي التي تحكم هنا ولا حتى العفو هو الذي ينطق بالحكم بل الحياة، هذه القوة المظلمة، الجارَّة والمتعطشة إلى نفسها بشكل لا يَكِلُّ؛ حكمها دائما لا رحمة ولا إنصاف فيه، لأنه لم يستلهم من المصدر الصافي للمعرفة .

يسمح النسيان بإدراك حجم الظلم في الحياة، الذي يقضي حتى على الأشخاص والفترات التي تخدم الحياة، ومن ثمة تكون محاكمة الماضي، من قبل أولئك الأشخاص وتلك الفترات، خطرا على الحياة نفسها. إننا فعلا ثمرة الأجيال السابقة بضلالها وانفعالاتها وأخطائها وحتى جرائمها، رغم أننا ننبذ فيها كل ذلك[3].

إلى جانب أخطار أشكال التاريخ الثلاث، تحدث نيتشه أيضا عن الإفراط في التاريخ، عن كونه مضرا وخطرا على الحياة من خمس وجهات نظر:

- "ينطوي على تعارض بين الداخلانية والخارجانية ويضعف بذلك الشخصية؛
- يقنع فترة ما بأنها تمتلك الفضيلة الأكثر ندرة والعدالة بدرجة أرفع من أية فترة أخرى؛
- يشوش غرائز الشعب ويعيق نضج الفرد والمجتمع؛
- يزرع الإعتقاد، المضر دائما، في شيخوخة البشرية، الإعتقاد في تحول المرء نفسه إلى وريث وَصَلَ متأخرا؛
- يقحم فترة ما في موقف الإستهزاء تجاه الذات ومن ثمة في موقف الإستخفاف الأكثر خطورة"[4].

وضد الإفراط في التاريخ، قدم نيتشه المَصْلاَنِ التاليان:

1 UIHV,3., p.111-112
2 idem
3 UIHV,3., p.113
4 ibid,5., p.121

- القوى غير التاريخية: أي فن وخاصية **النسيان** والانزواء في **أفق** محدد؛
- القوى فوق التاريخية: أي تلك التي تحول نظر المصير وتحمله إلى ما يعطي الوجود ميزة الخلود والثبات، نحو **الفن** و**الدين**[1].

و- توقعات وتنبؤات نيتشه: ليس من باب التفلسف أن ندرج تاريخ المستقبل ضمن أقسام التاريخ في فلسفة نيتشه، ولكن ما تحقق من تنبؤاته ولا يزال يتحقق هو الذي دفعنا إلى ذلك؛ وأعتقد أنه في ذلك تكمن فلسفته في التاريخ والحضارة، ولابد لهذا الفرع المعرفي والحيوي أن يتضمن دوما هذا الجانب المرتبط بالمستقبل حتى يضحى للفلسفة عموما، وفلسفة التاريخ بصفة خاصة، معنى وتبتعد قليلا عن تلك التفاصيل المملة، التي ظلت تُملأ بها الصفحات لدرجة يصعب من خلالها تمييز تاريخ الفلسفة عن التاريخ أو عن فلسفته .

يدخل التنبؤ ضمن العمليات الذهنية الأكثر تعقيدا، نظرا للكم المعرفي الهائل الذي تُبنى عليه؛ وأعتقد أن قراءة فقرات لنيتشه وهو يقول فيها بأنه سيحدثنا عما سيقع مستقبلا، "عما لا يتوانى في الحدوث"، لا تجعلنا نرى في تأكيده ذلك وثقته في نفسه تلك، شيئا من قبيل الغرور ما لم نفهم على الأقل كم كانت مشاقُّهُ كبيرة وهو يتوصل إلى تنبؤاته وكم كان كيانه يَهْتَزُّ عن آخره وهو يقدم إبداعاته. وقد سبق له وأن أشار مرارا إلى ذلك بقوله مثلا: "الرجال المتنبئون يعانون كثيرا"[2]، أو على لسان زرادشت: "سلُوا النساء لتعرفوا أنه لا لذة في الولادة، بل إن الدجاجة لا تبيض ولا يبدع الشاعر إلا وهما متألمين[3]". غير أن هذا لا يعني أن كافة تنبؤات نيتشه تندرج ضمن أعماله الفنية، لأن ما تحقق منها، متعلق أساسا بالقرن العشرين وبموضوعات شتى، فما هي هذه التوقعات؟ بم نشرحها؟ كيف فسر نيتشه نفسه طريقته في التوصل إليها؟ أيعني ذلك أنه توصل إلى "قوانين" ما، يمكننا الإستفادة منها ؟

إذا حاولنا تفسير كيفية توصل نيتشه إلى توقعاته بطريقة شاملة وعامة، فإننا نجد:

1- أنه يقدم لنا تاريخ المستقبل في مَدَيَيْنِ، قريب وبعيد. في الأول كثير من التفسير المنطقي، أما الثاني فيظهر في صيغة فلسفة ميتافيزيقية، كتلك التي نلمسها في الفقرة VP,II,LIII,238، حيث "**يبقى** أولئك الذين يؤمنون بأن وجودهم قادر على أن يتكرر أبدا" وينقرض الباقون. وذلك ما يعني أن الـــ"حقائق"، التي ظل الإنسان يؤمن بها، ليست سوى فرضيات واعتقادات مألوفة وجدٌ متجذرة في الإنسان بواسطة الممارسة، يكفي عدم الإيمان بها لكي ينهار النوع كله، ومن ثمة فإن عرض نيتشه لمشروع الإنسان المتفوق يهدف أساسا إلى مخالفة ذلك، أي إلى جعل "الحقيقة قادرة على إثبات نفسها بواسطة وجود الإنسان !"[4]؛

---

1 UIHV,10., p.166
2 GS,316
3 APZ,de l'homme supérieure,12., p.414
4 VP,I,LII,302

2- أن مستقبل البشرية سيتخذ، على المدى البعيد، شكل مهمة يلقيها "الفلاسفة–الفنانون" على عاتقهم. فإلى نيتشه، ظل المَثَّالون (الفلاسفة) يتعاملون مع مادة جاهزة (الإنسان)، أما الفلاسفة–الفنانون فسيكونون من سيشرع في صنع تمثال البشرية إنطلاقا من صقل ذواتهم[1].
وكما نلاحظ فإن القوة هي أرضية هاتين النقطتين، فضلا عن كون الأرضية نفسها حوصلة لأهم ما جادت به وجدَّدَتْهُ الفلسفة الألمانية من أمهات الأفكار، باعتراف نيتشه نفسه، ونعني بها:
"أ)- فكرتي المصير والتطورية؛ ب)- فكرة قيمة الوجود"[2]. غير أن شرح ذلك موجود في أولى كتابات نيتشه، ومَشُوبٌ بتأثير الإغريق وشوبنهاور من خلال حديث نيتشه عن العبقرية بلغة فنية، مما جعل فلسفته عن المستقبل نوعا من **الحدس** مثلما نقرأ ذلك في قوله: "يُعبر هيراقليط عن فخر وجلالة الحقيقة، ولكن عن حقيقة يقبض عليها بواسطة الحدس دون أن يبلغها عن طريق تسلقه سلم حبال المنطق"[3]. وغير بعيد عن ذلك، سوف يتحدث نيتشه عن فكرة ستشغل باله طوال ما تبقى من عمره، عن كون "العظمة مستقلة عن الوسائل"[4] و"عن النجاح"[5]. وتدريجيا ستظهر "الإرادة خالقة"[6] وستوفر الإستزادة في القوة، إمكانية النسيان، أي الإنسلاخ من الماضي والحاضر والقفز نحو المستقبل، مثلما سبق لنا وأن قدمنا هذه النقطة .

لا يعني ما قلناه للتو أنه من الممكن إدراج تنبؤات نيتشه كلها ضمن مجهوده الفني وفلسفته في الجمال، لأنه يكفينا قليل من التمعن في جزء كبير منها لكي نجد لها تفسيرات مقبولة ومنها تفسيرات نيتشه نفسه، رغم أنه حاول مرةً الحديث عن المُتَنَبِّئِينَ مثله كنوع من المخلوقات المتميزة بخاصية التنبؤ- وأعتقد أن نيتشه حاول مرارا التحكم في هذا الأمر وجعله جزء من طبيعته*- كتلك التي نجدها لدى الحيوانات ومنها القردة مثلا، التي تتنبأ بالوقت وتغير الطقس وبالخطر المحدق بها، حيث يمكن ملاحظتها وهي تتصرف مع بداية تغير الطقس بالطريقة نفسها التي تتصرف بها حين يُدَاهِمُهَا عَدُوٌ ما[7]؛ وعليه فإنه يمكننا إدراج معظم تنبؤات نيتشه ضمن تلك التي تستند إلى ماضي موضوع التنبؤ، والتي يظهر فيها نيتشه كـ"عصفور منبئ، يكفيه **النظر إلى الوراء** لكي يروي ما هو آت"[8]، وبالتالي لا غرابة في أن نجد لدى نيتشه مثلا:

---

1 VP,II,LIV,119
2 VP,II,LIV,233
3 Phil.ETG,9
4 RWB,1., p.198
5 UIHV,9., p.158
6 APZ., de la rédemption., p.198
* أعتقد أنه هنا بالذات تكمن إحدى مؤشرات العبقرية، وقد تفطن نيتشه لهذا وكان يتحدث عن نفسه كسابق لزمنه وأنَّ كُتُبَهُ سوف تجد لاحقا من يقرأها مثلما سوف تُدَرَّسُ فلسفته في الجامعات ...، وهذا ما تحقق بعد وفاته.
7 GS,370
8 VP,I,LI,22

ـ توقعات محسوبة منطقيا ورياضيا كقوله: "يتطلب تطور الإنسان في البداية آلاف السنين من أجل تشكيل النموذج ثم تكفي بعدئذ عدة أجيال، في النهاية إنسان واحد يمر خلال وجوده بعدة فرديات"[1]؛

ـ توقعات منطقية كقوله مثلا: "سيتراكم لدى بشرية القرن القادم [القرن العشرين]، ربما بواسطة الهيمنة على الطبيعة، الكثير من القوة التي تفوق [الحاجة إلى] إنفاقها(...) مشاريع ضخمة سوف ترى النور، من تلك التي لا نتجرأ حتى على الحلم بها الآن"[2]. و"مثلما هو مؤكد بأنه ستكون هناك يوما ملاحة جوية، فستكون هنالك أيضا لغة جديدة للجميع، لتلعب في البداية دور وسيلة الإتصال في التجارة ثم في العلاقات الفكرية"[3]. "سوف نسير نحو عصرٍ للهندسة العمرانية أين سيتم بناء الجديد بهدف الخلود، مثلما كان الرومان يفعلون. سوف يجري إستخدام الشعوب المتخلفة في آسيا وإفريقيا إلخ ... ، وسوف تأخذ شعوب العالم في الإختلاط"[4]؛

ـ تنبؤات ليست لنيتشه وحده، بل صارت حديثا للمتميزين مثله في عصره ومنها: سير المجتمعات الأوربية نحو الوحدة والإشتراكية والديمقراطية ....إلخ؛ غير أن الملفت للإنتباه في تنبؤاته، هي دقة الوصف التي يتميز بها عن غيره، مما يجعل تنبؤات هؤلاء مجرد أفكار حالمة لا غير، ومن جهة أخرى ما يثبت أهمية العبقرية في كل إستشراف مستقبلي. ويمكننا أن نعتبر الفقرة 292 في VO نموذجا لتنبؤات نيتشه، التي رأيناها كلنا كيف تحققت تماما مثلما تصورها.(أنظر الملحق (1) ص،240)

ـ تنبؤات مبنية على منهج الفيزياء ونظرية التطور، مثلما نلمس ذلك في عدة فقرات مثل: VP,II,LIV,232 ; FP 19 [60] ; Pbm,208 ; GS,362 ....إلخ . ولغلق سلسلة النقاط هذه، نشير إلى أن نيتشه تحدث في A,250 عن اليهود بالكيفية التي يُظْهرهم فيها كشعب إستفاد من تجاربه الماضية وصار "بناءا دائما *aere perenius*"[5]، وذلك ما يؤكد أن نيتشه اتبع منهج سلفه وعصره رغم كل ما تميز به .

يوفر ما تحقق من تنبؤات نيتشه للأجيال التي جاءت من بعده، إمكانية الحديث عن تاريخ المستقبل، بعد أن صار ماضيا، وتقديم شرح له انطلاقا من عوامل العصر ذاتها، التي استند إليها نيتشه، وذلك ما يوفر إمكانية التساؤل بشأن الأسباب التي تَحُولُ دائما دون تفطن المؤرخين إلى عوامل وشروط وأسباب شتى التطورات التاريخية قبل حدوثها، أي، وبتعبير آخر، ما يحول دون دراسة مجمل التاريخ البشري انطلاقا من توقعات كل جيل على حدة قصد معرفة ما الذي ينفلت من الإنسان كلما حاول إستشراف المستقبل، مثلما سنُبَيِّنُهُ من خلال المثال التالي:

---

1 VP,II,LIV,180
2 FP/A 4 [136]
3 HTH,268
4 FP/A 4 [136]
5 Pbm,251

أ- أمثلة عن تنبؤات نيتشه التي رأت النور واستند فيها إلى ما وَفَّرَهُ له عصره من معطيات:

- الوحدة الأوروبية؛
- إنتصار الديمقراطية؛
- ظهور قوى جديدة على الساحة الأوروبية كالروس واليهود؛
- إندلاع حروب كبيرة و ثورات جماهيرية كثيرة؛

ب- الحديث عن المستقبل بلغة الماضي: تحدث نيتشه عن القرن العشرين بالكيفية التي تُظهره كتجسيدٍ لفرضيته عن إرادة القوة، من خلال إشارته إلى "تباشير وحشية وتشبيب القوة" كإحدى ملامح هذا العصر[1]، والتي تدل على أن "الهيمنة على الأرض ستكون فكرة القرن العشرين الثابتة"[2]، مما يؤدي إلى "حروب لم يعرف لها التاريخ مثيلا"[3]، تنتهي بانتصار أوربا وبإيجادها لـ**معناها** ولـ**عقلها**[4].

***- العوامل التي إستند إليها نيتشه:**

- التقدم العلمي وتطبيقاته: تسمح حرية المواصلات لِنُخَبٍ متميزة ومن **طبيعة واحدة** بأن تتجاوز أوطانها الأصلية، من خلال اللقاءات التي تنشأ بينها والتي تؤدي بهم إلى التفكير في مشاريع أوربية[5]؛ وبتعبير آخر، ستؤدي التجارة والصناعة وتبادل الكتب والرسائل وجملة الثقافة الرفيعة كلها وسرعة تغيير المكان والبلد وحياة الترحال، التي هي حياة من لا أرض له، بالضرورة إلى ضعف وفي النهاية إلى تهديم أمم أوربية[6]. "إن تنوع اللغات هو الذي حال، بصفة خاصة، دون رؤية ما يحدث في الواقع، أي إختفاء الملامح الوطنية وظهور الإنسان الأوربي"[7].

- الأزمات المرتبطة بالإشتراكية: باعتبارها "مذهبا لتغير كيفية حيازة الملكية"[8] و"**طغيانا** أقصى للحقيرين والحمقى، أي العقول السطحية والغيَّارين وذوي الشخصيات الكوميدية، فإن الإشتراكية نتيجة للأفكار الحديثة وفوضويتها المضمرة والتي، بالرغم من أنه لا مستقبل لها على المدى البعيد، ستكون عاملا مساعدا على بعض التطورات والمفاجآت هنا وهناك في أوربا، حيث ستثير أزماتً داخلية حادة لن تظهر أمامها كومونة باريس سوى كَعُسْرِ هضمٍ بسيطٍ"[9]، وذلك ما سيثير مخاوف الجميع منها ويدفع بكافة القوى السياسية إلى استغلال ذلك الخوف لصالحها عن طريق إطراء الـ"شعب" ومنحه إستراحات وحريات من كل نوع، فيتحول بموجبها إلى صاحب السلطة[1]،

---

1 FP/A 4 [111]
2 Pbm,208 ; FP/A 4 [180]
3 EH., p.188 ; GS, 362
4 EH, CW, p.183
5 VP,II,LIV,76
6 HTH,475
7 FP/ HTH 19 [75]
8 VO,292
9 VP,I,LI,439

السلطة[1]، وذلك ما يعني أنه بالرغم من أنهم من "يحاولون قلب المجتمع تماما باللجوء إلى القوة"[2]، فإنهم "سيساعدون على إنتصار الديمقراطية"[3]؛ غير أنهم سيثيرون الأوساط العريضة، إنطلاقا من كونهم يقضون على التقاليد والأعراف والإعتدال[4] و"يؤخرون بذلك "حلول السلام على الأرض" والرخاوة المطلقة لبهيمة قطيع الديمقراطية وسيجبرون الأوربي على الإحتفاظ برباطة جأشه، أي بحذره وخداعه، وألا يُطَلِّقَ جميع فضائله الفحلة والقتالية، وأن يُبقي على قليل من العقل والصفاء والصلابة والبرودة الفكرية"[5]. كل ذلك فضلا عن أن الاشتراكية، باستيلائها على بُرْغِي الضرائب، ستُخلف تدريجيا طبقة متوسطة سيكون من حقها نسيان الإشتراكية[6].

– الأزمات الأوربية: يمثل نابليون، الذي أراد لأوربا أن تكون موحدة، تَفَجُّرًا لقوة هائلة– تعكس استمرار صيرورة طبيعية تضرب بجذورها إلى الفترة الإغريقية–الرومانية ومرورا بعصر النهضة– أدت إلى دخول أوربا **العصر الكلاسيكي للحرب**، الحرب العلمية والشعبية، وميلاد حركة وطنية لأوربا، تنتصر فيها قيم **الرجل** على التاجر والحقير philistin والمرأة المدللة بالمسيحية والأفكار الحديثة ...إلخ[7]. الأمر كذلك بالنسبة إلى الروس، الذين ظهروا كقوة مُهَدِّدَةٍ لأوربا لدرجة أن إزدياد حدَّةِ تهديدهم سيؤدي بأوربا لأن تصبح، في نهاية المطاف، مُهَدِّدَةً بدورها و**تصنع لنفسها إرادةً** وتتخلص بذلك من كوميديا إنقسامها إلى دول صغيرة[8]؛ ثم هناك عامل ثالث ويتمثل في أن إستمرار الإلزام الذي أوجدها، سيؤدي بالدول الكبيرة إلى أن تنهش الدول الصغيرة، وبالدولة العملاقة لأن تنهش الدولة الكبيرة إلى أن تنتهي الدولة العملاقة بالتفتت لأنها تفتقر إلى الحزام الذي يَشُدُّ جسدها: أي عداوة الجيران[9]. وهكذا ومثلما سُمِّيَ إتحاد الحكومات الألمانية في دولة واحدة بالـ"فكرة عظيمة"، سيبتهج الناس يوما ويتحمسون لفكرة "أعظم" وهي الولايات المتحدة الأوربية [10].

II ــ **الثقافة والحضارة:** لن يختلف تعامل نيتشه مع هذين المفهومين عن الكيفية التي تناول بها الموضوعات الأخرى، فالتساؤل مثلا بشأن ما الذي انتقده فيهما كافٍ كي تتجلى لنا الخطوات الثلاث التالية:

- تشخيص الحالة قصد تمييز ما يوافق الحالة الصاعدة عما يخالفها؛
- نقد ما لا يوافق الحياة الصاعدة؛
- عرض البديل.

---

1 VO,292
2 FP/ HTH 25[1]
3 FP FP/ HTH 41[9]
4 FP/ HTH 25[1]
5 VP,I,LI,439
6 VO,292
7 GS,362
8 Pbm,208
9 FP/ HTH 19[60]
10 FP/ HTH 19[74]

ولا تعني هذه الخطوات أي شيء آخر بغير المقارنة بغرض إنتقائية واعية، وسوف نلاحظ كيف ستتلاقى مفاهيم كالتطور والإنتقاء والتربية élevage والمقارنة...إلخ، لِتَدُلَّ على علاقة معينة بالقوة. (أنظر: **ملاحظات حول مفهومي الثقافة والحضارة لدى الألمان والفرنسيين**، ملحق(2)، ص،241)

بلغة الفيزيولوجيا وعلم النفس، ليست الثقافة بصفة عامة ولا حتى مستواها المتميز والذي ندعوه حضارة- وفصول بحثنا الثلاثة كلها حديث مفصل عن محتوى المفهومين- سوى "قشرة رقيقة"[1] بتقديرات شتى المجموعات البشرية في شتى العصور، تعكس أنماط حياة لم يتمكن الإنسان بواسطتها من إنتاج أكثر من العالم الذي إنتقده نيتشه. ومنذ بداية مشواره الفلسفي، سعى نيتشه إلى إيجاد تلك الـــ"سذاجة" أو الإنسجام الذي يعكس وحدة الإنسان والطبيعة[2]، ولا عجب في ذلك حين نجده يمجد، من الناحية الحضارية، تلك العصور التي صنعتها رَوْحَنَةُ القسوة[3]، عصور الوحوش الشقراء ومشاهد القتل والتنكيل بالـــ"أعداء"[*]، عصور الحرية والقوة، التي سبقت فترات التدجين والترويض، أي "الحضارة المُسَوِّيَة"[4] بأخلاقها الأفلاطونية والمسيحية والإشتراكية والديمقراطية ....إلخ. لقد سمح له إطلاعه وتعمقه في أنماط الحياة "المستقرة"، أو حتى تلك "المُجترة" أو التي "تتكرر"، بأن يهتدي إلى فكرة إرادة القوة عن طريق ربط كل شيء بالفيزيولوجيا، مما وَفَّرَ له إمكانية النظر إلى الموروث البشري كمخزون لإمكانيات التطور، إذ مثلما تتذكر أعصاب كافة الأعضاء تجارب سابقة وتساهم، من خلال صراع شتى الغرائز في زيادة قوة الكائن الحي، فإنه صار من الممكن له تناول شتى الثقافات قصد النظر للبشرية كوحدة، ومن هذه الفكرة نبع تشخيصه للأمراض التي تمثلها شتى الحضارات[**]، وكانت دعوته إلى ثقافة جديدة، أي ما يشكل جوهر فلسفته في الحضارة .

عرفنا إلى الآن أن القيم الرفيعة، التي تُنِمُّ عن إرادة قوة سليمة، تقول نعم للحياة، من إنتاج المجتمعات الأرستقراطية، وأن العبودية شرط أساسي لكل حضارة متميزة، أي أن التميز هو محرك التطور والذي يمكننا أن نفسر به أيضا معنى القوة اللاأدرية الأولية (أي إرادة قوة)، حيث لن يكون الظلم، الذي هو طابع للحياة، سوى مرادفا لها؛ وعليه فإن فلسفة نيتشه في الحضارة هي دراسة لأعراض وتشخيص لأمراض تعيق تفتح الحياة وحرية الإنسان، أي قيم الإنحطاط تلك النابعة من ضعف ووَهْنٍ فيزيولوجيين، بهدف "إعادة المياه إلى مجاريها الطبيعية"، عن طريق

---

1 VP,II,LIV,68

2 NT.,3,p.59

3 GM,II,6

* "المنتصر الجريح والدامي الذي يجر معه، في موكب انتصاره،المهزومين كالعبيد وقد ربطهم بالأغلال إلى دبابته"، هذا مشهد ينم عن الحرية، القسوة والمتعة المصاحبة لهما، تكرَّرَ في الكثير من كتب نيتشه مثل: APZ ; GM,II,3 ; 5P5L., l'Etat chez les Grecs., p.183 ...إلخ .

4 FP/ HTH 32[24]

** مرة أخرى لابد من الإشارة إلى أن فرويد، ومهما كان حجم ما أنكره، سيظل مدينا لنيتشه في كل"تحليله" النفسي، ومثل ذلك نجده في هذا السياق من خلال تشخيصه الطبي لـــ"وعكة الحضارة".

"مراجعة كافة القيم" والتشريع لثقافة جديدة، مبنية على تدرجيَّة، تُحترم فيها المراتب وتعطي الأرض معناها.

بالنظر إلى تنوع العناصر التي تناولها فيه وإلى الكيفيات المتعددة التي عالج بها شتى الإشكاليات، التي يطرحها دون أن يحيد عن الإطار العام لفلسفته، فإن موضوع الثقافة والحضارة عند نيتشه على قدرٍ كبيرٍ من الأهمية وخاصة من الناحية المنهجية، ويسمح لنا بأن نفترض ضرورة تقاطع التاريخ والحضارة في كل فلسفة بالكيفية التي تجعل من الفيزيولوجيا وعلم النفس، علمان ضروريان لكل فرعٍ معرفي ولكل عمقٍ.

ــ **نقد الحضارة:** تحدث نيتشه مرة عن طريقته وعن فلسفته قائلا: "نحن من فتحنا أعيننا وضمائرنا ومن يعرف أين وكيف نبتت نبتة الــ"إنسان" بقوة(...) نحن نعتقد أن القسوة، العنف، الإستعباد، الخطر في الشارع وفي القلوب(...) الشيطانات من كافة الأنواع، وأن كل قبيح ورهيب وطغياني في الإنسان، ما يرتبط فيه بالثعبان والأشقر[الحيوان المفترس]، يخدم أيضا أمر رفع نوع الــ"إنسان" مثلما يخدم نقيضه"[1]. وهذا هو الحديث الذي يمكننا أن نعتبره إجابة على سؤاله الذي أعدنا طرحه في ص،124 لكي نوجه مجهودنا مباشرة نحو معرفة الشروط التي أنبتت شتى القيم، مثلما يقتضي ذلك طرح مشكلة قيمتها[2]، لأن الحضارة والثقافة، ومثلما عرفناه عنهما إلى الآن، من خلال محتوياتهما، ليستا بصفة عامة سوى تاريخا للقيم السائدة لدى كل شعب وفي كل عصر، والتي تعكس درجة قوة أو ضعف ذلك الشعب؛ ومن ذلك كان تمييز نيتشه فيهما أيضا بين الرفيع والمنحط، التمييز الذي بلغه، كما في الموضوعات الأخرى، عن طريق اللغة، لأنه يظهر لنا فيه ماضي الحضارات وكأنه "ثباتٌ" و"استقرارٌ" وما إلى ذلك من المفردات المشابهة، أي ما يشبه حالة المفهوم في اللغة، يقابله بالتغير المستمر. وبلغة البيولوجيا، مقابلته البقاء بزيادة القوة؛ أي ما سيعني بلغة فلسفة الحضارة: مقابلة التدجين بالإنتقاء[3] .

بالرغم من أن مشروعه يهدف، في نهاية المطاف، إلى إخضاع مستقبل الإنسان لإرادة الإنسان، تمييزا له عن بقية الأنواع الحية الأخرى، عبر العودة إلى الطبيعة، إلا أن إنطلاقة نيتشه في معالجة موضوع الحضارة كانت عادية وواضح أثر كل من أرسطو وأفلاطون فيها. إذ لا يدل وقوفه إلى جانب هذا الأخير من خلال تأييده- لقوله بإمكانية ضم المجرم الأثيني (باعتباره متحضرا) إلى أولئك الذين لا يزالون على الحالة الطبيعية (المتوحشون)[4]- على حساب روسو، بعد مقارنته بينهما، سوى على أنه تبنَّى فكرة التقليد، التي تحدث عنها أرسطو وتأثر بها داروين*،

---

[1] Pbm,44

[2] GM,avant-propos,6

[3] VP,II,LIV,212

[4] FP/ HTH 42[4] الفكرة ذاتها سيكررها نيتشه مع أناس الأمم المتقدمة جدا في [100] FP/ HTH 23

* يرى أرسطو أن "التقليد طبيعي في النوع منذ الطفولة، ويختلف الإنسان عن بقية الحيوانات لأنه الأكثر تقليدا منها"، وقد اكتشف داروين أن النباتات والحيوانات، على حد سواء، تمارس التقليد بغرض التكيف

مثلما يدل على ذلك قوله: "**التقليد** [الإقتباس] وسيلة كل حضارة. إنه بهذه الوسيلة تتشكل الغريزة تدريجيا. كل **مقارنة** (فكر أصلي) **تقليد**. هكذا تتشكل الأنواع باعتبارها نماذج شبيهة بأنواع أولى وأخذت تقلدها بقوة. التدرب على طبيعة **ثانية** بواسطة التقليد"[1]. "إن فعل **التقليد** هو نقيض فعل **التعرف**، لدرجة أن فعل التعرف لا يريد إعطاء قيمة لأي نقلٍ ولكنه يريد الإبقاء على الإنطباع بدون مجاز ولا نتائج. وهكذا يجري تحجير الإنطباع"[2]. طبعا سوف يشكل مثل هذين القولين لاحقاً أرضية مقابلة نيتشه الوجود بالمصير، غير أن ذلك ليس بموضوعنا بل الحضارة كمشروع إنتقائي خرج من هذه الأفكار ذاتها؛ وذلك ما يعني أيضا أن التطورية الإجتماعية سبقت نظيرتها البيولوجية.

إكتشف نيتشه عمق الحضارة في عناصر أساسية ثلاث: الغريزة **الجنسية** و**الثمالة** و**القسوة**، أي العناصر ذاتها التي كانت تشكل في القديم إحتفالات الناس، باعتبارها عناصر من سلسلة حالات يُجَمِّلُ فيها الإنسان الأشياء وينجزها بمِلْئِهِ ومتعته في العيش، كالوجبات والربيع والنصر والإستهتار وقطعة الشجاعة والنشوة الدينية[3]. وتعكس تلك العناصر "نَعَمًــ"ــا قيل للحياة وإرادة قوة فياضة، مبدعة ومهيمنة. غير أن علاقة الثقافة بتلك العناصر هي التي تكشف لنا عما إذا كان نشاط ومضمون تلك الثقافة أو الحضارة يُنِمُّ عن طبيعة حرة أم عن طبيعة تستند إلى ردود الأفعال، في شكل حقدٍ وضميرٍ سيءٍ ومثالٍ زهدي ...إلخ؛ إنها العلاقة بين الجسد والوعي في لغة الفيزيولوجيا وعلم النفس، العلاقة نفسها التي جعلت نيتشه يرى أن "كل عالمنا الحديث واقع في شباك الثقافة الإسكندرانية، ومثله الأعلى هو **الإنسان النظري**"[4].

لكون اللذة تصاحب الفعل ورد الفعل على حد سواء، وذلك ما يدل على أنهما درجتين من القوة، فإن نيتشه مَيَّزَ بينهما من خلال علاقة كل منهما بالحياة ليُقَدِّمَ لنا كل مبني على الوعي على أنه يُنِمُّ عن عداءٍ موجَّهٍ ضد الحياة، ممثلة في أعلى نماذجها، على أنه جسد مُعْتَلٌّ يعادي جسدا مُعَافَى .

ــ تشخيص المرض: تدل عبارة "**نحن نعيش في حضارة تُفسد وسائلها في الحضارة**"[5]، على أن البشرية أصبحت مريضة بحضارتها، التي تُقَدِّرُ وتُعَلِّمُ كيفيات التفكير(الوعي) كالحساب والتفسير السببي والتوقع والإيمان بالضرورة والإستلزام ...إلخ[6]، لأن ذلك الوعي ليس سوى

=== الوقائي الذي يضمن بقاء أنواعها.(Margot NORRIS : Darwin, Nietzsche Kafka and the problem of Mimesis., MLN., Vol.95., the John Hopkins University Press.,1980, p.1232) ؛ لنقارن هذا بما كتبه نيتشه في: APZ., des vieilles et des nouvelles tables, XXII., p. 300

1 LP,140
2 LP,149
3 VP,II,LIV,555
4 NT,18,p.136
5 HTH,520 ; FP/ HTH 19[65]
6 VP,II,LIV,96 ; GM,II,16

تعبيرا عن خوف عميق ومُتجذِّر في الفرد والحضارة، أي وسيلة بقاء الضعفاء والعدد الكبير الذين دفع بهم عجزهم، الذي منع عنهم أجمل ثمار الحياة، إلى أن يروا في كل ممنوعٍ عليهم شيئا من قبيل العدو والشر الذي يجب التخلص منه. وعند هذه النقطة بالذات، كان على العجز ألا ينصح صاحبه طبعا سوى بالحقد، على كل من يتمتع بالعافية والقوة ولا يعرف أشكال المنع، أي بضرورة تحطيمه؛ وذلك ما يعني بداية عصور "كبريات **الجرائم** في علم النفس"[1]، ورفض "كبريات الأفعال الثقافية البشرية"[2].

– **تحسين الإنسان:** قبل أن يجد تبريره في وسائل جهنمية كالدين والأخلاق، كان **الخوف من الألم** [الشر] مُجَسَّدًا في الصدفة وغير المؤكد والمباغت؛ وقد هيمن على البشرية الأولى، والتي تمكنت من خلال طرق شتى، ومنها تخيلها الشرور والآلام وكأنها أسباب وقوى وأشخاص، من بلوغ إمكانية عقد نوع من الإتفاق معها، يسمح لها بالتصرف حيالها بكيفية مسبقة ووقائية[3]. ومع مَرِّ العصور صار الخوف عمق كافة الحضارات تقريبا، لدرجة أنه يمكن رَدُّ 3\4 الشر، الذي يُرتكب في العالم، إليه[4]؛ بل قَلَّمَا نُخطيء إذا أرجعنا إليه صغيرات أفعال الناس اليومية كلها[5]. كما يمكننا اكتشافه في خبايا النفس الكثيرة، ومثل ذلك: "الخوف الذي نجم عن الغريزة التي تتوقع بأنها ستمتلك **باكرا** الحقيقة قبل أن يصبح الإنسان قويا جدا(...) فكانت التقوى والـــ"حياة في الله" بمثابة آخر أحذق منتوج له" [6]...إلخ، وهذه كلها حالات تكشف لنا أنه "في العمق، لجميع الحضارات هذا الخوف من "الإنسان العظيم"[7].

لكي يهيمن رجال الأخلاق والدين وباقي الفئات الضعيفة على هذا "الإنسان العظيم"، فإنهم إِدَّعُوا في جميع الأزمنة أنهم يحاولون إصلاح الإنسان وجَعْلِهِ "أفضل"، ثم أنهم يسعون لـــ"تحسينـــ"ـــه، أي الإجراء الذي يعني "ترويض" البهيمة البشرية و"تربية" élevage نوع من الأعراق البشرية[8]؛ وبتعبير آخر، عمل التنظيم الإجتماعي على حماية نفسه من غرائز الحرية القديمة، التي كانت تشكل قوة الإنسان وطابع ومتعته[9]، فكانت الأخلاق زَرِيبَةً، لترويض الحيوانات البشرية، تعمل وِفْقَ مبدأين مفادهما:

– أنه يمكن لِقُضْبَانِ القفص الحديدية أن تكون مفيدة، أكثر من الحرية، حتى بالنسبة للسجين؛

– أن هنالك مُروِّضِين لا يخشون الوسائل المروِّعة، ممن يعرفون إستعمال الحديد الأحمر، أي رجال الدين.

---

1 VP,I,LI,301
2 Cré.id., divagation d'un « inactuel »,21
3 VP,II,LIV,96
4 A,538
5 HTH,74
6 Pbm,59
7 VP,II,LIII,702
8 Cré.id., Ceux qui veulent …, 2
9 GM,II,16

وبفضل وسائلهم وطرقهم الأكثر إيلاما، صَيَّرَت الأخلاق والديانات الإنسان سجين قفصه الحديدي، كاريكاتور إنسان، مريضا، تعيسا، مليئا بالحقد على كل ما يجنح نحو الحياة، مليئا بالحذر تجاه كل جميل وسعيد في الحياة، إنسان رُدَّ إلى صورةٍ للبؤس، إنسان يصطدم دائما بقضبان قفصه فَتُدْمِيه[1]؛ وبلغة زاردشت: "صيروا الذئب كلبا وجعلوا من الإنسان نفسه أفضل حيوان مستأنس لدى الإنسان"[2].

أدخل نيتشه عنصر الذوق، في حديثه عن الثقافة والحضارة، لكي يبين أن "التطور **أحادي الشكل** uniforme تقريبا **للعقل** و**الشعور** هو هدف الحضارة"[3]، وذلك ما جعل المعرفة، المترتبة عن الإعتقاد بوجود الدائم، تقف ضد الذوق الفردي كشرط لوجودٍ واحدٍ فقط[4]؛ وضد أولئك الذين يقولون بأنه لا نقاش في الأذواق، رَدَّ زرادشت بقوله: "بيد أن الحياة كلها نزاع بشأن الأذواق والألوان. الذوق: هو الموزون وكَفَّةَ الميزان والوازن"[5]. ومن فكرة الذوق هذه، التي يبدو أنه توصل إليها من خلال بحثه في موضوع التغذية والأحاسيس المرتبطة بها لدى أولى الكائنات الحية، مَيَّزَ نيتشه بين الرِّفْعَة والفضاضة في ذوق كل ثقافة وكل حضارة، ولذلك جاء تعريفه لهذه الأخيرة، في أولى كتاباته، على أنها: "وحدة الأسلوب الفني وقد تَجَلَّتْ في جميع مظاهر حياة شعب؛ بيد أن أمر تَعَلُّمَ الكثير وكون المرء قد تعلَّمَ الكثير من قبل، ليس وسيلة ضرورية ولا مؤشرا على الحضارة، وعند الحاجة، يتوافق مع نقيضها، البربرية، أي مع غياب الأسلوب أو الخليط الفوضوي لجميع الأساليب"[6].

ومثلما عرفنا في العبقري والعقل الحر والإنسان العظيم صانعا ومحركا للتاريخ، فإننا نجده هنا أيضا وراء رِفْعَةَ الذوق والثقافة الحَقَّة، وذلك ما يعني أنه من السهل التعرف على العلاقة بين الوحش الأشقر الرائع الكامن في عمق كافة الأعراق الأرستقراطية[7]، ومعه أرستقراطية العقل[8] من جهة، ومهمة الثقافة من جهة أخرى. وتتمثل تلك العلاقة في تفسير شتى الأمور بـــ"خير" العناصر التي تَقَوَّتْ[9]: لأن "الطبيعة في حد ذاتها لم تُعَيِّنْ، للذهاب إلى الثقافة الحَقَّة، سوى عددا محدودا للغاية من الرجال"[10]، ولذلك "فَمُهِمَّةُ الثقافة هي **العيش** و**التصرف** وفق أنبل تطلعات الشعب"[11]. غير أنه لما كان "تقدير العظمة والحالات القصوى، الإنسان العظيم(...)، هو إحدى مستويات

---

1 VP,I,LII,511 ; GM ,II,16
2 APZ., de la vertu qui prodigue,2, p.238
3 FP/ HTH 32 [24]
4 VP,I,LII,162
5 APZ.,des hommes sublimes,p.162
6 Phil.ETG.,1, p.16 ; UIHV., 4, p.16 ; DS., 1, p.22
7 Pbm,257 ; GM,I,11
8 VP,II,LIII,213
9 VP,I,LII,520
10 Sur.ANEE., 3° conférence
11 VP,II,LIV,272

الثقافة، فإنه لابد للمرء أن يرفع نفسه إلى مستوى أعلى لكي يفهم العالم"[1]. صحيح أن هذه النقطة الأخيرة هي أرضية الحالة المأساوية، التي يتخلص فيها الإنسان من الخوف، إلا أنها لا تؤدي سوى إلى "إنجاب **ثيوديسيا**، أي **تأكيدا** شاملا للكون(...)، إلى إدراك هذا العالم كتجسيد **ايجابي لأرفع مثل أعلى**"[2]، وذلك ما يعني أن نيتشه بلغ هنا أيضا مداه وصار كل شيء عنده ضروريا لأجل تقدم الثقافة[3] ضرورة التضحية بالبشرية كلها، "عند الضرورة"، لأجل ميلاد الإنسان المتفوق"، مثلما عرفنا ذلك من قبل، فأخذ يتصرف مثل تشيليني Cellini، حين إنتهى إلى رمي كل ما كان يقع بين يديه، من أطباق وصحون وغيرها، لإتمام حجم السائل الضروري، والمُنْذِرِ بعدم كفايته، لصناعة تمثال پــارسيPersée [4]، فكانت "الرداءة ضرورة قصوى كي يصبح وجود الإستثناءات أمرا ممكنا"[5].

طبعا لم ينكر نيتشه على نفسه هذا، وتحدَّث مرة عن المهمة التي اقترحها على نفسه قائلا أنها قد تكمن "أيضا في "تحسين" البشرية ولكن بكيفية مغايرة، مقلوبة، عن طريق **تحريرها** من الأخلاق، ومن ثمة من الأخلاقيين أيضا، بتوعيتها بما ينطوي عليه جهلها(...)، **باستعادة أنانية الإنسان**"[6].

يكمن الفرق الوحيد بين "تدجينيته" و"تدجينية" سابقيه في ما تنطوي عليه دعوة زرادشت: "لا يجب عليكم أن تتعلموا سوى لأجل الإبداع"[7]؛ خاصة أنه صار بمقدور الإنسان أن يستفيد من تاريخه وتجاوز مستويات الرفعة والتقدم، التي كان يبلغها عن غير وعي وبالصدفة[8]، عن طريق إمساكه بزمام أمور الأرض و"معرفته لكل شيء"، أي بما يسمح له بأن يسهر بعين ثاقبة على مصير الحضارة[9]، وذلك ما يعني أنه على الــ "تربية" والــ "ثقافة" أن تكمنا أولا في إخفاء الإرث والسوقة الفطرية الكامنة في الجسد والروح [10].

ـ نقاط مهمة في فلسفة الحضارة :

أ- **النطاقات الحضارية:** إستعمل نيتشه عدة كلمات للحديث عن مميزات شتى الحضارات، فربط مثلا الذوق الرفيع والمعارك بالحضارة الإغريقية، والحرب والنصر والقانون بالرومانية[11]، والفحولة بــ"الحضارة المورية الرائعة في إسبانيا"[12]، والتفوق بــ"حضارتي البيرو

1 FP FP/ HTH 23 [169]
2 VP,II,LIV,96
3 HTH,254
4 HTH,258
5 Anté.,57
6 VP, II, LIII, 408, 4
7 APZ., des vieilles et des nouvelles tables., 16, p. 293
8 HTH,20,24
9 HTH,245
10 PBM,264
11 A,175
12 Anté,60

والمكسيك[1]"...إلخ؛ كما مَيَّزَ أوربا بقدرتها المكتسبة على إعطاء أسباب لكل ما تعتقده، القدرة والحس العلمي، اللذين تدين بهما للإغريق، في الوقت الذي كانت فيه آسيا عاجزة عن التمييز بين الحقيقة والشعر ولا تدرك إن كانت قناعاتها قد إنْجَرَّتْ عن الملاحظة المناسبة والتفكير المنهجي أم عن التخيل[2]. كما حدد المجال الحضاري لأوربا بقوله بأن أوربا لا تقع كلها تحت تعريف الحضارة، ولكن فقط الشعوب وفِرَق الشعوب، التي لها ماضٍ مشترك في اليونان وروما القديمتين، وفي اليهودية والمسيحية، أي ما يعني، جغرافيا، إضافة جزء من آسيا وأمريكا إلى أوربا[3]. وإجمالا، مَيَّزَ، في بداية مشواره، بين ثلاث ثقافات هي: السقراطية (الإسكندرانية أو الشغوفة بالمعرفة)؛ الفنية (الهلينية)؛ المأساوية (البوذية)[4].

ب- إلتقاء الثقافات: "أثناء إلتقاء شعوب متحضرة بأخرى بربرية، فإن الحضارة الدنيا تأخذ وبانتظام في تَبَنِّي آفات ونقائص وإفراطات الحضارة المتفوقة لينتهي بها الأمر إلى أن تتمثل، بواسطة نقائص وآفات مكتسبة، شيئا من القوة التي تحتوي عليها الحضارة المتفوقة"[5] .

جـ- الدولة والثقافة: بالرغم من أن الدولة والحضارة الراقية تعودان بأصولهما إلى الطائفة الأرستقراطية، طائفة البرابرة المفترسين القريبين جدا من الطبيعة[6]، إلا أن التطورات التاريخية إنتهت بالدولة لأن تقع بين من ينشرون شتى تصورات المجتمع بين الناس، ومنها "تصور المجتمع الحر المتفائل، الذي تعود فكرته الأساسية إلى فلسفة الأنوار والثورة الفرنسية"[7]- هذه الثورة التي "وضعت رسميا الصولجان في يد "الرجل الشجاع" (النعجة، الحمار، الإوزة، وكل ما هو سطحي وصَيَّاحٍ بشكل لا شفاء له، ناضج لدخول دار مجانين "الأفكار الحديثة")[8]- لتختلط الأمور وتظهر "الدولة كنجمٍ تهتدي به الثقافة" و"كَعَلاَّمِ غيب الثقافة"[9]، مثلما جرى الحديث عن ذلك في ألمانيا زمن نيتشه، حين وجدت الأفكار الإقتصادية تعبيرها في توجهٍ يدعو إلى نشر الثقافة على نطاق واسع، توجهٌ يدعو الثقافة إلى أن تتنازل عن أرفع طموحاتها وأنبلها خدمة، وبكل تواضع، لأي شكل آخر من الحياة كالدولة مثلا. وبقليل من الإمعان نفهم، ومثلما يقتضي ذلك الإقتصاد السياسي، كيف صارت الفائدة هدفا للثقافة، لأن نشر الثقافة في شتى الأوساط، لا يعني سوى المزيد من الحاجيات، أي المزيد من الأرباح. وذلك ما يجعل مهمة الثقافة تكمن في خلق أُنَاسٍ "متداولين"، على وزن "عملة متداولة"[10]. إن الثقافة التي وِفْقَهَا يصبح المرء "على قمة عصره"، لأنه يعرف بفضلها جميع السبل التي تسمح بالربح السهل للمال، الثقافة التي لا تؤسس أي إمتياز أو إحترام،

---

1 A , 204
2 HTH,265
3 VO,215
4 NT,18,p.136
5 GS,99
6 PBM,257
7 5P5L,L'Etat chez les Grecs., p.188
8 GS,350
9 Sur ANEE., 3° conférence., p.131-133
10 APZ., de la nouvelle idole., p.65 ; Sur ANEE., 1re conférence., p.98

الثقافة المعممة، لهي البربرية بعينها[1]. "إن وجود دولة تنتج ثقافة لَفِكْرَةٌ حديثة"[2]، لأن الدولة، ومثلما نفهم ذلك من تاريخ المدينة الإغريقية، قوة سياسية منظمة حصرية وحَذِرَةٍ من تنامي الثقافة وتخشى تطور العقل[3]. ثم إنه مثلما تعيش كل واحدة منهما على حساب الأخرى، فهي تزدهر أيضا بالكيفية ذاتها. لقد كانت كافة الفترات الثقافية فترات إنحطاط سياسي[4]، ومثال ذلك: التطور السياسي لألمانيا الذي أفقد الألمان أهميتهم الثقافية وسط الأوربيين[5]، مثلما تكشف عن ذلك حربهم مع فرنسا، عام 1870، والتي رغم إنتصارهم فيها عسكريا، استمروا في تعلم الكثير من مهزوميهم[6]. لقد قدم زرادشت واحدة من أجمل أنشوداته، في هذا السياق، حين سمى الدولة: "الإله الكاذب الجديد" و"موت الإنسان" :

"الدولة، هكذا تُسَمَّى أبرد الطامَّات الباردة ،

تكذب ببرودة، والكذبة التي تنبعث من فمها هي: "أنا الدولة، أنا الشعب"،

(...) حيث يشرب الجميع، طيبون وشريرون، السُّمَ فذلك ما أسميه دولة .

حيث يتوه الجميع، طيبون وشريرون، فتلكم هي الدولة،

حيث يسمى الإنتحار الجماعي البطيء بـــ "الحياة"، فتلكم الدولة.

أنظروا إلى هؤلاء الزائدين، إنهم يسرقون أعمال المبدعين وكنوز الحكماء ويدَّعون سرقتهم ثقافة

(...)أنظروا إلى هؤلاء الزائدين! مرضى دائما، ما تتقيأه أقلامهم يَدْعُونَه صحفهم.

ينهشون بعضهم البعض، ويعجزون عن إجترار بعضهم البعض.

أنظروا إليهم إذن، هؤلاء الزائدين ! يغنمون ثروةً وبها يزدادون فُقْرًا،

إنهم يريدون القوة وقبل ذلك رافع القوة؛ يريدون الكثير من المال، هؤلاء العاجزين(...)،

أنظروا إليهم كيف يقفزون على بعضهم البعض كالقردة(...)،

إنهم يريدون بلوغ الكرسي." [7].

د- **تناقض الحضارة مع الثقافة:** "تتباعد ذُرَى الحضارة والـــ"ثقافة" عن بعضها البعض(...)، فقد ظلت فترات الحضارة العظمى دائما فترات فساد أخلاقي؛ ومن جهة أخرى، لم تكمن فترات **الترويض** المُرَاد أو المفروض (أو الـــ"ثقافة")، للإنسان الحيوان، غير متسامحة مع المخلوقات الأكثر جسارة، العقول الأكثر علوا"[8].

---

1 Ibid., p.98-99
2 FP/HTH 23[43] ; Cré.id, Ce qui manque aux Allemands,4
3 HTH,474
4 Cré.id., Ce qui manque aux Allemands,4
5 A,190
6 SE,6, p.63
7 APZ., de la nouvelle idole., p.63 & suiv.
8 VP,I,LII,521

1- بين آسيا وأوربا: يمثل القول بوجود القسوة في مبدأ كل حضارة أو كون القسوة طابعا لكل حياة، مرحلة أخرى في تطور فلسفة نيتشه وتعبيرا آخر عن طموح شبابه، حين تساءل عمَّا ولَّد الحاجة إلى التراجيديا لدى الإغريق "كأفضل عِرْقٍ، أفضل الأعراق كمالا، أكثرها عرضة للحسد، أكثرها جذبا نحو الحياة"[1]، أي حين تناول تاريخ الإغريق بلغة الفن. وإذا أردنا وضع رمزين لهاتين الفترتين، فإننا لن نجد لها أوضح من مقابلة RWB بـــ NCW، وذلك ما يعني أيضا أن طابع علاقة نيتشه بمن أخذ عنهم لا يختلف عن طابع علاقته بالنماذج الحضارية الكبيرة. ذلك أنه من السهل علينا رصد طموحه لإحياء شكل الحياة الإغريقية ما قبل سقراط بواسطة الألمان وبالتعاون مع ڤـــاغنر، من خلال الإمعان في كتاباته الأولى، غير أن الهَزَّة الوجدانية الهائلة، التي أصابته، وخيبة أمله في ڤـــاغنر، قادته إلى تناول مشكلة الحضارة بِرُمَّتِهَا، أين سيظهر عنصر آخر في كتاباته، ونعني به اليهود(آسيا) إلى جانب الإغريق والألمان (أوربا).

قد يعني كلامنا هذا أننا نحاول أن نجعل من ڤـــاغنر عاملا حاسما في تطور فلسفة نيتشه، غير أننا، ودون التقليل من شأن الحلم الذي تبخَّر على ربوة بيروت Beyrouth والمرتبط بفاغنر، نرى أن عبقرية نيتشه أكبر بكثير من أن تتحدد بشخص هذا الموسيقار الكبير أو بلو سالومي* Lou Salomé أو بغيرهما ممن أثَّرُوا فيه؛ وقد كان صادقا حين طالب قراءه باستبدال ڤـــاغنر وشوبنهاور بإسمه، حين يشرعون في قراءة الكتب والفقرات التي خصَّهما بها**. وهكذا فانتقال نيتشه من البحث في مشكلة الثقافة الألمانية، بعين تتفرَّسُ تاريخ الإغريق، إلى البحث في مشكلة الحضارة البشرية بِرُمَّتِهَا، يدخل ضمن الطابع الإنساني لفلسفته، الذي نجم عن تطورها الطبيعي، دون نسيان ما تعنيه مقولة زرادشت لأحد أتباعه: "لقد مرَّ وقتٌ كبير مُذْ تعلَّمْتُ، عن طريق عيشها، أسباب آرائي"[2]. ولكن هل يعني هذا أن ظهور اليهود كعنصر أساسي في فلسفة نيتشه كان عرضيا وبإمكاننا أن نُعْزِيهِ إلى آثار القطيعة مع فاغنر والمعادين للسامية ؟

لاشك في أن في ذلك شيء من الحقيقة، مثلما نفهمه من خلال تطور أهمية اليهود إبان مراحل فلسفة نيتشه الثلاث، والتي أخذت شكلا تصاعديا واضحا، غير أن اليهود، ومثلما سنرى ذلك، هم الجدار الذي إصطدم به نيتشه، فكان أن تباينت آراء الباحثين بشأن موقفه منهم نتيجة تشتت فلسفته في هذا السياق إلى فسيفساء مُلَوَّنَةٍ بالآراء المتباينة، التي لاشيء يجمع بينها بغير موضوعها،

---

1 CP., La Joute chez Homer., p. 196 et suiv. ; Wph,107 et suiv. ; Ess. d'auto., NT,1., p.34

* نجد للأسف الكثيرين ممن تناولوا تطور فكر نيتشه بنوع من السطحية في بعض الأحيان، ومنهم Gustave Thibou : Nietzsche ou le déclin de l'esprit., Fayard., Paris., 1975، الذي اعتبر قطيعة لو سالومي مع نيتشه حدثا محوريا في تطور موقف نيتشه وكذا Jean-François Mattéi : l'ordre du monde., P.U.F., Paris., 1989., p.83، الذي بحث عن الرقم 5 ومعانيه في فلسفة نيتشه...إلخ

** أنظر مثلا: EH., les "Inactuelles", 3, p.148 ; EH., NT.,4., p.143

2 APZ., des poètes., p. 177

وأكثر من ذلك سنرى كيف ستتناثر نماذج نيتشه الثلاث، الإغريق واليهود والألمان، كقطعٍ خشبية عائمة فوق محيط غير مستقر.

من أين كان كل ذلك ؟ أعتقد أن فلسفة نيتشه تنطوي على ضعف في جانبها السياسي والذي نَرُدُّهُ إلى بُطْءِ نضجه وتأخر نيتشه في الإهتمام به، بالرغم من أنه جاءه عبر نظرية التطور*؛ غير أن السبب العميق في ذلك يكمن في صعوبة الموضوع من حيث كون النماذج الثلاثة شديدة الإرتباط ببعضها البعض وخاصة في موضوع مستقبل أوربا، ومن جهة ثانية في "التجدد" المستمر للموضوعات الرئيسية لفلسفة نيتشه**، مما يجعل كل بحث منظم حولها ينتهي إلى ترتيبها وفق مراحل شتى، ومن ثمة إثارة الكثير من التساؤلات بشأنها.

ثمة جملة معطيات نَتَبَيَّنُ من خلالها أنه مع النماذج الثلاث تتضح لاآنية نيتشه العملية، في الصيغة التي نجدها في GS,377 ***، فهي من جهة، تُمثل ثلاثة عناصر تاريخية مرتبطة ببعضها البعض ثقافيا، وتشكل من جهة أخرى عناصر للمشروع النيتشي، وخاصة في جانبه السياسي المتعلق بمستقبل أوربا، ومن بين تلك المعطيات:

- إرتباط العناصر الثلاث بقضايا أوربا في العصر الحديث كَحَلٍّ مشكلة اليهود والوحدتين: الألمانية والأوروبية ... إلخ.

- العناصر الثلاث على قدر كبير من الأهمية في فلسفة التاريخ من جانبين: إذ فيهما نقف على جملة علاقات من وجهة نظر نيتشية، كالعلاقة بين أوربا وآسيا، بين السامي والإغريقي، بين البرابرة والمتحضرين من جهة والساميين من جهة أخرى، بين الثقافتين اللاتينية والأنغلوساكسونية ... إلخ.

- يتميز كل نموذج على حدة ببروزه في التاريخ الأوربي وشغله لأهمية متميزة من الفترات، رغم أن روح النموذج الإغريقي ستظل عاملا محددا لطابع الحضارة الأوربية في أزهى فتراتها بما في ذلك الفترة الآتية التي عقد عليها نيتشه آماله.

- فضلا عن كونها عوامل حاسمة في المستقبل الأوروبي، فالعناصر الثلاث هي مرجعية فلسفة نيتشه وقد أفصح فيها عن مشروعه خلال مرحلتها الثالثة، وذلك ما يعني أيضا أن عصره هو الذي فرض عليه شكلا معينا من المعالجة لشتى العلاقات القائمة بين تلك النماذج؛ فقد "قدمت

---

* ليست مهمة نيتشه وكذا فلاسفة المستقبل سوى "السياسة الكبرى" التي تعني تحضير البشرية لإنجاب الإنسان المتفوق.

** مثال ذلك كلمة ديونيزوس التي صارت "مفهوما" Begrieff في فلسفة نيتشه مما جعل فهم فكره يفترض فهم معنى"مفهوم ديونيزوس" منذ ظهوره لأول مرة (1869) إلى آخرها (1889). (Barbara STIEGLER : Nietzsche et la critique de la chaire (thèse de doctorat)., PUF., Paris., 2005., p.19)

*** "لا آنيا" في القرون الماضية أو الآتية. (idem)

اليونان القديمة لغالبية البلدان الأوربية نموذجا مفضلا(...) من العصر الكلاسيكي إلى العصر الرومانسي. إنتقل النموذج اليوناني من حالة مثالٍ يُقتدى به إلى مثالٍ لمثلٍ أعلى ضائع. لقد أُعتبر يوناني العصر الكلاسيكي، وخاصة الأثيني، رجلا مثاليا من قبل الرومانسية، والمثالية الألمانية"[1] ، كما أدت الوطنية الألمانية الصاعدة إلى تقوِّي معاداة السامية مما كان له بالغ الأثر على نيتشه وخاصة من خلال علاقاته مع اليهود والمعادين للسامية... إلخ.

مع العناصر الثلاث تتضح فلسفة نيتشه في التاريخ والحضارة بدرجة كبيرة وتذكرنا بقوله: "آمل ألا يكمن معنى التاريخ في أفكارٍ عامة تكون له كالزهور والثمار، ولكن فلتكن قيمته بالأحرى في تنويع، وبمهارة، موضوع معروف، وربما عادي تماما، أو جَوٍّ يومي بهدف رفعه إلى مستوى رمز عالمي ومن ثمة خلق الإحساس، وفي حالته الأصلية، بعالم من العمق والقوة والجمال"[2]. ويلتقي هذا القول بفكرة الــ"حس التاريخي" الآتي، مثلما وصفه في GS, 337 ، وأيضا بقولٍ ثانٍ مفاده: "إن صوت الماضي لَصَوْتُ كاهنٍ دائما: لن تفهموه إلا إذا صِرْتُمْ من مهندسي المستقبل ومفسري الحاضر(...). بإلقاء نظرتكم أمامكم ومتخذين لأنفسكم هدفا ساميا ستُحَجِّمون مباشرة غريزة التحليل، هذه الغريزة التي تدمر حاضركم وتمنع عنكم كل هدوءٍ وتَحُول دون نُمُوِّكم ونضجكم براحة"[3].

من لب هذه الأفكار تتبادر إلى أذهاننا أهم التساؤلات المتعلقة بالنماذج المذكورة، وخاصة ما يتعلق منها بالعلاقة بينها مجتمعة وبين المشروع النيتشي (السياسة الكبرى). وإذا أردنا تفكيك هذا التساؤل بغرض توضيحه أكثر، فإننا لن نجد أكثر مما يمكننا أن نسميه قاعدة التحليل النيتشية: أي دراسة المتميز في كل نموذج قصد رسم أفق ملؤه القوة والجمال، ويعبر عن حالة تجاوزٍ، مثلما صرنا نفهم ذلك من نيتشه إلى الآن.

تدل شتى المقارنات، التي عقدها نيتشه بين النماذج الثلاث، على أهمية المميزات المرتبطة بملء الحياة، في تبسيطه لمشروعه؛ نقول تبسيط لأن جعل اليهود مثلا أو الألمان عاملا للتاريخ، يدفعنا إلى التساؤل بشأن معنى فلسفة نيتشه بِرُمَّتِهَا، رغم أننا سلف لنا وأن لَمَّحْنَا في الفصل السابق، إلى بروز اليهود في النص النيتشي بكيفية مثيرة لتساؤلات عدة في فلسفته في التاريخ والحضارة، وذلك ما يعني أيضا، وبمعنى ما، أن تحول نيتشه إلى البحث في البعد الإنساني لمستقبل الإنسان أضحى إنفلاتا من مثل هذه التساؤلات أو، مثلما قلنا في موقع آخر، تعبير عن مستوى ثانٍ من الخطاب، غير أن شكل الحياة لدى النموذج الإغريقي سيعود دائما كــ"رمز للمستقبل"[4].

---

[1] Clément ROSSET : Le model grec., in colloque de Nice., p.61.
[2] UIHV, 6, p. 133
[3] UIHV, 6, p. 135
[4] Dominique JANICAUT., Actes du colloque de Nice., p. 86

مع تناولنا بالدراسة لواحد من أولى أعمال نيتشه، التي نُشرت عقب وفاته، كـ"نحن الفيلولوجيون" مثلا- أين نكتشف أهمية بعض الشُّعَبِ المعرفية، كالفيلولوجيا والتاريخ والفلسفة والفن، في تكوينه ونقف بذلك على سيرورة إنتقاله الخَفِيِّ من شعبة إلى أخرى، بالكيفية التي تُتِمُّ عما سميناه عبقرية- فإننا نلاحظ كيف وضع نيتشه الدراسات التاريخية والفيلولوجيا أمام تساؤلات عميقة، نستشفها من أقوال عديدة مثل: "حين يتناقش الفيلولوجيون حول تخصصهم، فهم لا يغوصون بتاتا إلى جذور الموضوع. لم يسبق لهم وأن تناولوا الفيلولوجيا نفسها كمشكلة"[1]؛ أو قوله: "من غير الصحيح القول أنه بمقدورنا بلوغ الثقافة عبر الفترة القديمة في التاريخ وحدها. من المؤكد أنه بإمكاننا قراءة شيء ما منها ولكن ليس الثقافة بالمعنى الحالي للكلمة. ثقافتنا الراهنة إستندت إلى دراسة مخصبة وكاذبة للتاريخ القديم، ويكفي النظر إلى فيلولوجِيِّينَا لفهم كم هي غير فعالة هذه الدراسة"[2]. أو أخيرا: "لقد ظل تاريخ الإغريق يُكتب بكيفية متفائلة إلى الآن"[3]. وفي الدراسة ذاتها، كشف نيتشه عن الحياة كمعيار في فلسفته وعن الإغريق كأجمل نموذج في الحياة[4]، وكذا عن مشروعه في التعامل مع الماضي بالكيفية التي أوردناها منذ قليل، ومن ثمة عن لب فلسفته، من خلال جملة أقوال منها:

- "نيتي هي إثارة حالة عداء تام بين "ثقافة" حاضرنا وفترة التاريخ القديمة، لِيَضْحَى بذلك كل من يتمنى خدمة الثانية كارِهًا للأولى"[5]؛

- "لا وجود لأي تناقض بين أرفع فن وفلسفة لدينا وما أُعْتُرِف به على أنه حقًّا ينتمي إلى فترة التاريخ القديمة الأدنى، فَكِلَيْهِمَا يتحمل الآخر وينسجم معه. هنا أضع رجائي"[6]؛

- "لو سمح الإغريق لـ"عقلـ" ـهم بأن يتكلم، فإن حياتهم كانت ستبدو لهم مُرَّة ورهيبة. لم ييأسوا ولكنهم لعبوا حول الحياة بالأكاذيب: نصحهم سيمونيدس Simonides بالتعامل مع الحياة كما يتعاملون مع اللعب: كان الجِدُّ معروفا تماما لديهم في شكل عذاب. تعاسة الناس كانت مسرَّةً للآلهة، حين تسمع الشعراء وهم يتغنَّوْنَ بها. ألا يكون الإغريق يعرفون أنه فقط عبر الفن يمكن للتعاسة أن تصبح مصدرا للمسرة *Vide tragoediam*"[7].

وكما نلاحظ، فإن الفقرة الأخيرة كافية لوحدها لفهم أرضية "ميلاد مأساة"، التي نلمس فيها بدورها أصول أفكار أخرى كمحبة القدر، والعودة الأبدية، مثلما إعترف نيتشه نفسه بذلك لاحقا في EH., NT, 3., p. 141، ومن ثمة كيف إنتقل بين الفيلولوجيا والفن وعلم النفس والفلسفة لكي يتناول الثقافة بمصطلحات وكيفية جديدتين، وذلك ما لم ينس أيضا الإشارة إليه في سيرته الذاتية بقوله: "التاريخ

---

1 We philologists, 68, p. 147
2 Ibid., 47, p.139
3 Ibid., 102, p. 156
4 Ibid., 5, p.113
5 Ibid., 20, p. 119
6 Ibid., 173, p. 182
7 Ibid., 138, p. 167

نفسه وقد جرى تصوُّرُهُ كتطورٍ لـــ "فكرة" التعارض الأبوليني-الديونيزي، التعارض وقد رُفع إلى وحدة في تراجيديا؛ ومن هذه الزاوية، أُستحضرت أشياء- لم يسبق لها وأن إلتقت- فجأة وجُعلت في علاقات في ما بينها وجرى توضيحها و**القبض** عليها في علاقات"[1]. وهكذا تنشأ جملة أسئلة جوهرية بِمُجَرَّدِ التعرض بالحديث إلى ذلك التعارض، الذي يذكرنا بالمتضادات النيتشية، ومنها: ألا يكون نيتشه يقصد بحديثه عن تجاربه الخاصة كونه يطبق "معرفة المناقضة" [2] ؟، وربما ذلك ما جعل صديقته لو سالومي في حيرة من أمرها، مثلما تدل على ذلك فكرتها التالية: "لم يَكُف نيتشه عن رؤية إنفعال، شبيه للغاية بطبيعته الخاصة، في الثمالة الديونيزية، هذا الذوبان الغريب للشهوة والألم، هذا العذاب وتأليه الذات هذا، وهذا الهز الإنفعالي ذي الشدة الهائلة، والذي تتصادم فيه المتناقضات وتحطم بعضها البعض، ألا تكون في مجموعها ملامح مميزة لعبقريته[3]؟
ثم ألا يكون قوله بأنه ليس بصاحب فلسفة نسقية قد جاءه من الأمر ذاته، لأن تحطيم "المألوف، التقليدي، المقدس"[4]، أمر لا يخضع لأي مخطط بل فقط نقده هو الذي يُظهر لنا فلسفته على أنها نوعٌ من البحث عن طريقة عمل ممزوجة بحرية تفكير؟ وأكثر من ذلك، كيف لنا أن نعرف المدى الذي يبدأ عنده ظلم ناقديه له على تناقضاته تلك، وخاصة بشأن النماذج الثلاث، التي نحن بصدد الحديث عنها ؟ أم أن كل ذلك يندرج ضمن لعبةٍ إبتغاها نيتشه، عن وعي تام، أن تكون جزءً من فلسفته ؟ .. إلى غير ذلك من الأسئلة.

بتأليفه "ميلاد المأساة"، يكون نيتشه قد فتح لنفسه منفذا إلى قلب الثقافة الأرفع، من خلال سيكولوجيته للحالة الديونيزية[5] وفلسفته في تاريخ وحضارة الإغريق، وذلك ما نلمسه بوضوح كبير حين ننتقل بين بعض المحطات التي تعرض فيها بالحديث عن الإغريق والحالة الديونيزية. فمثلا ذكر في بداية الأمر أن "الذي أَلَّفَ الكتاب [NT] أراد أن يُعَبِّرَ عن أشياء حادة وعميقة"[6]، مُعلنا في الوقت ذاته "أن الفن هو المهمة الأعلى والنشاط الأكثر ميتافيزيقية لهذه الحياة"[7]؛ ومع بداية المرحلة الثالثة في تطور فلسفته، كرَّرَ القول بأنه "بإمكاننا إعتبار كل فن وكل فلسفة كعلاجات للحياة"[8]. وحين وضع نقدا ذاتيا بمعية جملة مقدمات جديدة لكتبه الأولى، فإنه وصف نفسه بالإغريقي والفنان[9]، قبل أن يسمي نفسه "أول **فيلسوف مأساوي**"[10]، مؤكدا بأنه ليس لديه "أي سبب للتخلي

---

1 EH., NT,3., p.141

2 "**معرفة** المناقضة، الشعور **براحة** الضمير في العداء ضد ما هو مألوف، تقليدي ومقدس- فذلك، أكثر من أي شيء آخر، ما تملكه حضارة ما من عظيم حقا، من جديد ومدهش، إنه تقدم العقل المتحرر، بكل جدارة، فمن يعرف ذلك؟" (GS., 297)

3 L. Salomé., op.cit., p. 77

4 GS, 297

5 Cré. id., ce que je dois aux anciens, 4

6 NT., préface à R. Wagner., p.45

7 Ibid., p. 46

8 GS, 370

9 Avant-propos., 2e éd. GS,3., p. 111

10 EH, NT,3., p. 141

عن أمله في مستقبل ديونيزي للموسيقى"[1]، و"واعدًا بـــ**عصر مأساوي**"[2]. وباختصار، لم يقدم لنا نيتشه مؤشرات على ما جعل الإغريق نموذجا لديه فحسب، بل أيضا أرضية ذهابه بعيدا بالرموز(ولِمَ لا بالتعاليم !)، التي خرج بها من تاريخ الإغريق، وفي ذلك تكمن أهم النقاط التي سنتناولها بالنقاش في العناصر التالية :

1– الإغريق :

حين نتأمل عبارة من نوع: "لا يمكننا الخروج بشيء من الإغريق سوى إذا كنا مبدعين"[3]، فإننا نجد مبررا لحيرة الكثيرين ممن درسوا نيتشه ورأوا في أن معرفة غرائب ديونيزوس ليست شرطا لفهم الثقافة الإغريقية فحسب بل أيضا لفهم نيتشه نفسه، ومثال ذلك موجود في A.R. ORAGE : Friedrich NIETZSCHE, the Dionysian spirit of the age., p. 25 .
طبعا حين نربط قول نيتشه بأنه "على ما ندعوه اليوم ثقافة، تكوين، حضارة، أن يمتثل يوما أمام محكمة ديونيزوس، القاضي المعصوم"[4] بعبارته الشهيرة: "ديونيزوس قاضي ! أفهمتموني ؟"، التي كتبها عام 1885، بعد مرور 12 سنة على تاريخ كتابته لـــ NT، أو بتوقيعاته الأخيرة باسم ديونيزوس، فإننا سنفهم أن الأمر كذلك على نحو محدد، لأنه من الضروري عدم إغفال عنصر التجاوز في طريقة نيتشه وبالذات مع نموذجه المفضل، الإغريق، لأن في ذلك لا تكمن "غريزته" في الدفع بالتناقضات إلى حدودها القصوى فحسب، بل أيضا إرادته في الشعور بالحالة الديونيزية، وفي ذلك تذكير بالتساؤل "التقليدي" عما إذا لم يكن نيتشه يرى، في ما نال إعجابه في الثقافة الإغريقية، سوى رغباته وآرائه الخاصة؟ وربما من ذلك أيضا كان الإعتقاد بأن لغة نيتشه لم تكن سوى تبسيطا وتغليفا لشيء أعمق؟. وبالفعل نلمس ذلك العمق في كل ما تناوله عن الإغريق وخاصة تحليله النفسي والفلسفي للفن، والذي جعله يقف على قصة "كيفية التفكير والتقدير"[5] عندهم، وعلى ما جعلها على ذلك النمط الذي وجدها عليه. ورغم ذلك فإنه يمكننا القول بأنه بالنظر إلى محتوى الكم الهائل من الفقرات والكتب التي خَصَّ بها الإغريق (ومنها Le service divin des Grecs ; NT ; phil. ETG ; Les philosophes préplatoniciens ... الخ)، فإن الإغريق لم يرقوا عنده فجأة إلى مستوى نموذج متميز للغاية خلال إحدى مراحل فلسفته، بل بدأ إشادته بهم وتبجيله وتعظيمه لهم مع أولى فقراته، وإن قراءة عناوين المحاولات الأربعة* ، التي جُمعت في واحد من أولى كتبه : **LP**، لكافية لوحدها للتدليل على أن الإغريق نموذج من البداية، أَوْلاَهُ نيتشه،

---

1 EH, NT, 4, p. 142 modifié
2 Ibid., p. 143 modifié
3 VP, II, LIV, 417
4 NT, 19, p. 148
5 Ess. d'auto., NT, 5, p. 39
* **هي**: 1/ Le dernier philosophe : considération sur le conflit de l'art et de la connaissance
2/ Le philosophe comme médecin de la civilisation
3/ Introduction théorétique sur la vérité et le mensonge au sens extra-moral
4/ La science et la sagesse en conflit

طوال مشواره الفكري، من الرعاية ما توليه الأم الحنون لابنها. ونحن إذ نسوق LP في هذا السياق فقط للتدليل على أن لعبقرية نيتشه دور كبير في ازدياد إهتمام شتى فئات الباحثين بالإغريق، فقد ذكر **نايت** A.H.J. Knight مثلا أن "وجهة النظر الحديثة عن الإغريق مُشتقة من نقديته"[1]. "بالطبع بالغ نيتشه على عادته في الحديث عن عظمة اليونان ما قبل سقراط وقَلَّلَ من أهمية عصر پيريكلاس Périclès، ولا ننكر أن الدراسات النقدية الجيدة الأخيرة تبنَّتْ فرضيا موقفه: وطبعا دون مبالغة. وكثير من الناس يرغبون حاليا تقريبا في القول مع نيتشه أنه **منذ** سقراط (وربما يرغب البعض في القول **بسبب** سقراط) أخذت الحضارة في التراجع حقيقة"[2] . وهذه هي تقريبا الفكرة التي قالها **كولي**[3] قبيل إنتقاده نيتشه. وهكذا يمكننا الذهاب إلى أعمق من ذلك لِنُبَيِّنَ أنه بتفكيره في إمكانية إرتباط الروح الألمانية بتعاليم الإغريق، بهدف تحقيق **نهضة التراجيديا**[4]، يكون نيتشه قد وضَّحَ أهمية فلسفة التاريخ والحضارة من خلال مقاربته بين حالة عصره وتلك الفترة التي نَمَتْ فيها الحضارة الإغريقية، حتى ولو كان يتناول ذلك الإرتباط بكيفيات شتى: كالمنظور الفني في NT، أو من منظور علاقة المعرفة والفن والعلم في LP,43 ... إلخ، وبذلك يكون أيضا قد لَفَتَ الإنتباه إلى جوانب عدة في التاريخ الإغريقي، ظلت مجهولة إلى غاية نشره لمؤلفاته، غير أن أهم ما جاء به يكمن في محاولته إيجاد علاج لتشاؤمية عصره، ولاحقا للعدمية القادمة، في الثقافة اليونانية.

أ- **أهمية الإغريق:** أشار نيتشه، بوعي يُنِمُّ عن رفضٍ، إلى ما كان يُدرَّسُ عن الإغريق، قائلا: "في مدارسنا يجرى تدريس التاريخ اليهودي وكأنه تاريخ مقدس: إبراهيم يمثل لنا أكثر مما تمثله أية شخصية في التاريخ اليوناني أو الألماني: ما نُحِسُّ به أثناء قراءة مزامير داوود مختلف أيضا عما توقضه لدينا قراءة پيندار Pindare أو پيترارك Pétrarque[5]. وبمعزل عن العناصر الثلاث، التي سيسعى للتوفيق بينها في مشروعه الأوروبي، فإن هذه الفقرة تكشف لنا عن نوعية المصادر التي تعامل معها نيتشه لكتابة فقراته عن الإغريق، ونعني بها الأعمال الفنية والأدبية والنصوص المقدسة، أي تلك المصادر التي قادته إليها فيلولوجيته قبل إنفجاره في وجه الفيلولوجيين واعتباره أنه "**كان** على 99% من الفيلولوجيين ألا يكونوا فيلولوجيين بتاتا"[6]. ورغم أنه رأى في أن "واحدة من القيم الكبيرة الحقيقية للتاريخ القديم تكمن في أن كتاباته هي الوحيدة التي بقي أُنَاسُ العصر الحديث يقرأونها بِتَرَيُّثٍ"[7]، إلا أنه إعتبر الفيلولوجيا عائقا يَحُولُ دون غوصه في أغوار نفوس القدماء، وذلك ما يعني أنه مع We philologists، ومثلما لاحظ كولي G. Colli ذلك، حدث تغير

1 Some aspect of life and work of Nietzsche., University press., Cambridge., 1933., p.53
2 Ibid., p. 57
3 Giorgio COLLI: Après Nietzsche., trad. de l'italien par Pascal GABELLONE., Ed. de l'Eclat., Paris ., 1987., p.100
4 NT, 19., p. 149
5 FP/A 1 [73]
6 We philologists., 2., p. 110
7 Ibid., 17., p. 119

في طريقة نيتشه بالكيفية التي تكشف عن بداية تطليقه للفنانين (ومنهم فاغنر نفسه) والفيلولوجيين، وتنم عن إكتسابه لحريةٍ ونُضْجٍ متينين جعلاه في غنًى عن "الحديث عن الإغريق بمصطلحات تاريخية"[1]، وفي ذلك تكمن أرضية مقولتيه في UIHV اللتين سقناهما في ص،4 من هذا الفصل .

جملة أسئلة تفرض نفسها، في هذا السياق، حول إهتمام نيتشه بالإغريق: ما الذي جعل منهم نموذجا؟ ما الذي إكتشفه لديهم ؟ ما الذي جعله يستشهد دائما بالإغريق "ويَجْتَرُّهُمْ طِوَالَ حياته"[2]؟

هناك علاقة طبيعية بين حجم ما كتبه نيتشه عن الإغريق، خلال فترة إنتاجه الأولى[*]، وبين قول كولي Colli بعدم حاجة نيتشه إلى الحديث عن الإغريق بمصطلحات تاريخية، لأن ذلك الحجم الهائل كافٍ لكي يجعل من نيتشه رقَّاصًا مثل زرادشته. غير أن بعض أفكاره الأولى، حول العبقرية والفلسفة والفن والعلم، تكشف لنا عن أنه في حديثه عن ميلاد العبقرية كهدف أقصى للطبيعة، فإنه، وانطلاقا من فكرة أن البقاء يتم بواسطة **الإنجاب** و**التاريخ**، فكَّر في ضرورة تجاوز هذا الأخير والإنغماس في الجمال، وذلك ما يعني أيضا أنه من الواجب على الفلاسفة الجدد أن يكونوا كعظماء الإغريق، زمن المأساة، لا يتناولوا بالدراسة سوى الفريد والعظيم[3]، خاصة وأن "العلم لا يعرف لا الفريد ولا العظيم"[4]. وبتعبير آخر، فإن "التاريخ وعلوم الطبيعة كانا ضروريين لمواجهة العصور الوسطى: أي المعرفة ضد الإعتقاد، وضد المعرفة نوجه الآن **الفن**: أي العودة إلى الحياة ! التحكم في عزيزة المعرفة ! تقوية الغرائز الأخلاقية والجمالية ![5] "، وهذه هي أرضية ما يمكننا أن نسميه الفن الديونيزي؛ فهل يعني ذلك تجاوز الحقيقة العلمية ؟ أليس ذلك من التاريخ العلمي ؟ ألا يدل تساؤل نيتشه مثلا، عما "يقبع **وراء** العالم الهوميروسي، والذي يُعَدُّ قالبا لكل ما هو إغريقي ؟"[6]، على أنه يتعامل مع الوثائق التاريخية، حتى ولو كانت في شكل نصوص أدبية وإنتاجات فنية؟ وفي الأخير، ألا يكون نيتشه قد توصل إلى فهم الروح الديونيزية بواسطة ما تكشف عنه مقولته: "نحن المجازفون بكل شيء في العقل risque-tout de l'esprit"[7].

في إجابته على السؤال الذي طرحه بنفسه، عن السبب الذي جعل "العالم الإغريقي برمته يبتهج لمشاهد المعركة في **الإلياذة** ؟"، أجاب نيتشه بقوله: "أخشى ألا نفهم كل هذا بشكل كافٍ "على الطريقة الإغريقية" وألا نرتعش، خاصة حين نكون قد أدركناه، على الطريقة الإغريقية"[8]؛ وهذا

---

1 Colli, après N. p. 114

2 Tracy B. Strong : Friedrich Nietzsche and the politics of transfiguration, Illini books Editions, 2000, p. 135

* مثل : NT ; LP ; Phil. ETG; l'Etat chez les Grecs ; La joute chez Homère ; Wph ; Sur. ANEE ...إلخ، وهي أعمال ألَّفها بين 1869-1875

3 LP, 19

4 Ibid., 34

5 Ibid., 43

6 La joute chez Homère., p.197

7 Ess. d'auto., GS,4., p.111

8 La joute chez Homère., p. 197

الفهم على هذه الطريقة هو الذي سيُلقي بنا في ميدان علم النفس*، في ميدان "مسألة سيكولوجية صعبة"[1]. ولأن الأمر يتعلق بالفن فإن هذه المسألة تضحى بحثا سيكولوجيا في كيفية تفكير الإغريق وتذوقهم لإبداعاتهم؛ أما بالنسبة للتاريخ الإغريقي، فذلك ما يعني أن نيتشه وقف على جوهر الحضارة الرفيعة؛ ورغم ذلك كله، لا يمكننا أن نغفل نسبة التفسير الشخصي في كل ما يعرضه نيتشه، بما في ذلك ما يُفترض أن يكون وقوفا منه على شروط بداية الملفت في حياة الإغريق بالنسبة له ولعصره.

مثلما عرفنا سابقا، إنطلق نيتشه من عصره، الذي صَبَّ عليه جم إنتقاداته وعَدَّهُ ذا روح سقراطية، ليبحث عما يمكنه أن يساعده في إيجاد حل للتشاؤم السائد وكذا التفاؤل الذي تزخر به شتى النظريات المنتشرة في عصره كالهيغلية والتطورية وغيرهما. وقد أعلن بتهكمه المعهود قائلا: "صرنا نعرف جيدا بعض الأشياء، نحن العلماء الحقيقيون الآخرون: آه، كم صرنا نتعلم كيف ننسى حقيقة، كيف نعْزف كفنانين **عن التعرف !** (...) لا، فهذا الذوق الرديء، إرادة الحقيقة هذه، الــ"حقيقة بأي ثمن"، هذا الهذيان الصبياني في محبة الحقيقة، صارت شيئا منبوذا لدينا(...) نحن لا نعتقد بأن الحقيقة ستبقى حقيقة حين نزيح عنها حجابها: لقد عَمَّرْنَا طويلا كي نؤمن بذلك"[2]، لأن "الوجود باعتباره ظاهرة جمالية، سيبقى مُتَّحمَّلاً لدينا، كما أن الفن يعطينا العينين، اليدين، وبصفة خاصة الضمير الحي، الضرورة للــ**قدرة** على الجعل منه هذه الظاهرة بواسطة إمكانياتنا الخاصة"[3]. إن "الفن **لأَفْضَلُ بكثير** من الحقيقة"[4]، وإن "كل حياة لَتَسْتَنِدُ إلى الظاهر، الحيلة، الوهم، وجهة النظر، الضرورة المنظورية والخطأ"[5]، ثم إن "الإغريق كمكتشفين، رحالة ومستعمرين، يهتمون بالدراسة ولهم في ذلك قوة تَمَثُّلٍ عجيبة، ولذلك على عصرنا ألا يعتقد بأنه في مستوى أعلى فيما يتعلق بغريزة المعرفة: لأنه فقط لدى الإغريق كل شيء يتحول إلى حياة ! وذلك ما يبقى لدينا عند مستوى معرفة"[6].

يذكرنا القولان الأخيران بتعريف نيتشه للثقافة الذي أوردناه في ص،185، والذي ينطوي على فكرة مشابهة، نجدها مثلا في إثنين من كتبه، مفادها أن الإنسان يعرف درجة الوهم والكذب والخيال ... إلخ، التي ينطوي عليها الفن. غير أنه يتعاطاه كلعبة جمالية تعكس حقيقته بكيفية تفوق درجة إستمتاع سقراط مثلا بمنطقه. ففي الكتاب الأول نقرأ: "ثرثرة الوقحين المثيرة للإشفاق والذين يعارضون بلا كلل التفاؤل بالتشاؤم ! كنت أول من رأى التعارض الحقيقي القائم بين

---

* ذلك ما سوف يؤكده نيتشه بنفسه في EH, NT., 3, p.141 وفي Cré. id., A propos de la psychologie de l'art., 10 ...إلخ

1 Ess. d'auto., NT., 4, p .35

2 idem

3 GS, 107

4 FP 17 [3]

5 Ess. d'auto., NT,5., p. 41

6 NCW., épilogue., p. 86 ; Ess. d'auto., GS,4., p. 111 ; Phil. ETG.,1., p. 15 ; LP,47

الغريزة الآيلة نحو التفسخ والتي تقف ضد الحياة بحقد دفين(المسيحية، فلسفة شوبنهاور، وبمعنى ما، فلسفة أفلاطون، المثالية كلها باعتبارها أشكالا نموذجية)، ومن جهة أخرى: صيغة **رِضًى عالٍ** نشأ عن الملء والفيض، من **نَعَمٍ** قيل بدون تحفظ للحياة وحتى للألم، وحتى للخطأ، ولكل مُحَيِّرٍ وإشكالي في الحياة، هذه النعم الأخيرة، الأكثر سعادة، الأكثر حماسا، الأكثر غزارة، لا تترجم الفهم الأرفع فحسب بل أيضا الأعمق، الفهم الذي تؤكده وتدعمه بصرامة الحقيقة والعلم"[1]. وفي الكتاب الثاني: "إذا حوّلنا نظراتنا، وقد بُلِّلَتْ ثانية وقُوِّيت بواسطة النظرة الإغريقية، قِبَلَ الدوائر الأكثر عُلُوًّا في العالم المحيط بنا، فإننا نلاحظ هذا التعطش إلى المعرفة المتفائلة التي لا تشبع، والتي يمثل سقراط أول تجسيد لها، كيف يتحول فجأة إلى حاجة خنوع مأساوي وفني؛ بينما وجب على هذا التعطش ذاته، لدى العقول الدنيا، أن يتجلى بواسطة شعور بالعداء ضد الفن وبُغْضٍ للفن المأساوي الديونيزي، مثلما رأينا في الصراع بين السقراطية ضد التراجيديا الإيخيلية.

وهنا، وعقولنا كلها اضطراب، ندق أبواب الحاضر والمستقبل: هل سينتهي هذا "القلب" bouleversement إلى تغيرات جديدة دائما في العبقرية، وخاصة في معنى **سقراط وهو يتدرب على الموسيقى؟**"[2]. طبعا لا نحتاج إلى أية إضافة أو شرح إضافي لتبيان ضرورة العلم والفن معا في العملية الجمالية، وقد سبق لنا وأن شرحنا الجزء الأول من هذه الفكرة في فصل سابق، وهو ما لَخَّصَهُ بارنجر بقوله: "الغريزة التي تدفعنا إلى تفضيل الحقيقة على الخطأ هي غريزة أخلاقية"[3].

أما الفكرة الثانية، التي تبرزها الفقرتان المذكورتان، فهي الحياة في الحضارة الإغريقية، إذ "بفضل الإحترام الذي يُكِنُّونَهُ للحياة، بفضل حاجتهم المثالية إلى الحياة...لأن ما يتعلمونه يرغبون في عيشه بسرعة، تَحَكَّمَ الإغريق في غريزتهم في المعرفة"[4]؛ ومن إحترامهم ذلك وحاجتهم تلك، جعل منهم نيتشه "شعبه المختار" وأثنى عليهم بشتى الصفات النبيلة*، بل وجعلهم معيارًا لتقدير كل ثقافة رفيعة[5].

ب- **دروس من التاريخ الإغريقي:** صحيح أن نيتشه إستشعر في NT وجهة الدرب، لدرجة أنه "خشي تقريبا من كونه رأى عميقا"[6]، وهو الخوف ذاته الذي سينتابه لاحقا في مواقع عدة مثل: GS,82، أين شَكَّ في أن يفهمه الناس في رؤيته بأن "العقل شيء غريب عن الإغريق"[7]؛ وكل ذلك دليل على صعوبة البحث في موضوع الإغريق قبل سقراط. غير أن بدايات تعامله معهم كانت

---

1 EH, NT, 2, p. 141
2 NT, 15, p.122
3 W. Baranger : Pour connaître la pensée de Nietzsche., Bordas., (s.l.).,1946., p. 119
4 Phil, ETG, 1, p. 15
* " ومثال ذلك أقواله : "الإغريق شعب العبقرية الوحيد في تاريخ العالم" (Wph,117, p.160)
"إتقان الفن الإغريقي الذي لا يضاهيه إتقان" (l'Etat chez les Grecs, p. 190) ...إلخ
5 Sur. ANEE., 5e conférence., p. 160
6 Colli., op.cit., p. 21
7 LP,196 ; Pbm, 294

عادية_، مثلما تدل على ذلك مدة العشر سنوات التي أمضاها في إعداد NT [1] ؛ إلى جانب بحثه بهدف تحقيق نهضة ألمانية- مثلما تدل على ذلك المقارنات الكثيرة بين الإغريق والألمان أو الأوروبيين والتي جعلها طابعا لبحثه حول الإغريق- (ثم أوروبية) ، بالرجوع إلى الإرث الإغريقي، مثلما يبين ذلك في قوليه التاليين: "الشعب الإغريقي: يمكننا القول بأن مجرد التعليم منه يُعَدُّ مجدا كبيرا وشرفا استثنائيا"[2]، و"أُأَكِّدُ مُجددا أنه فقط من الإغريق يمكننا تعلم المعنى الحقيقي لتلك النهضة، المفاجئة والخارقة للتراجيديا"[3].

وباختصار، بيَّن نيتشه حدود المعالجة التاريخية وحدها للماضي من خلال بحثه في عناصر عميقة في الحضارة الإغريقية، كغرائب ديونيزوس وميلاد المأساة والعلاقة بين الهلينية والتشاؤم ... إلخ، بطريقة جديدة، لا تخلو من قرارات، لم يعهدها المؤرخون من قبله، وتُنِمُّ عن نية في خدمة الثقافة، مثلما نستشف ذلك بصفة خاصة من NT، مما يفتح آفاقا كثيرة أمام الباحثين ويجعل فلسفة التاريخ والحضارة أمام تساؤلات جديدة، ومنها سؤاله الذي قدمه كشرط لفهم الإغريق بقوله: "سيبقى الإغريق مجهولين لدينا وغير مفهومين تماما من قبلنا ما لم تكن لدينا إجابة على السؤل : "ما الديونيزي ؟"[4].

ما ينم عنه هذا السؤال كما نلاحظ، هو إرتباط الجزء الأهم من معرفة الإغريق وحضارتهم بما أسماه نيتشه "الغريزة الهلينية"[5]، وفي ذلك يكمن معنى قوله بأن الطريقة هي أهم شيء في كل بحث.

في حالة نيتشه، يُظهر إرتباط البحث في الماضي بالمستقبل نشاطا ينم عن عمل فني ليضحى التجاوز في فلسفته مرادفا للمأساوي، مثلما نفهمه في هذه الفكرة: "إذا لم يكن الفن مجرد تقليد للواقع الطبيعي ولكن ملحقا ميتافيزيقيا بالواقع الطبيعي، مجاورا له ليساعد على تجاوزه"[6]. بقي لنا أن نشير إلى أن عودة نيتشه، من حين لآخر، إلى التاريخ، مثلما فعل في محاولته للبرهنة بواسطة مثال تاريخي على كيفية ميلاد المأساة فقط من عبقرية الموسيقى[7]، تجعلنا نتجرأ على القول بأن التفسيرات التي يُضفيها نيتشه على النص التاريخي هي التي تضفي الطابع الفني على فلسفته.

1- الحياة كمعيار: لم يأت إحترام الإغريق للحياة سوى من فهمهم وتقديرهم للإنسان، من إدراكهم بأنه: "الحقيقة وعمق الأشياء وما عدا ذلك مظهر ولعبة مظللة"[8]، من فَهْمِهِمْ للطابع الإشكالي للحياة، مثلما سنفهم ذلك من خلال تعرفنا على كيفية ميلاد التراجيديا...؛ وباختصار، فإنه من كل

---

1 Colli., op.cit., p. 19
2 NT, 19, p. 149
3 Ibid., 21, p. 152
4 Ess. d'auto., NT, 1, p. 35
5 Cré.id., Ce que je dois aux anciens., 4
6 NT, 24, p. 171
7 Ibid, 16, p. 123
8 Phil, ETG, 3

ذلك، تمكَّن الإغريقي من أن يظل "الإنسان الذي جَرَّ الإنسان إلى أبعد الحدود"[1]، ويقدم النموذج المعياري، الذي لا تأخذ النهضة معناها منه فحسب، بل ذلك الذي ستُقَاس عليه أيضا النماذج الآتية من بعده، مثلما كان عليه الأمر بالنسبة "للنموذج الفلورنسي، كأعلى درجة رُفع إليها إنسان النهضة"[2].

بمقدورنا أن نستدل على ما سلف بنقطة جوهرية في فلسفة نيتشه، وهي إدراك الإغريق وفهمهم لإرادة القوة. فمثلا يدل إختزال شعورهم- في القول بأن "القوة، التي نتحدث عنها بكثير من السوء، ذا قيمة أفضل من العجز الذي لا يحصل له سوى الخير"- على أنهم اعتبروا الشعور بالقوة بأنه أفضل من أي نوع من الفائدة أو السمعة الطيبة[3]. وذلك ما نلمسه في ثقافتهم وفي شتى مظاهر حياتهم: فإذا حاولنا مثلا فهم "الغريزة الإغريقية"[4]، من خلال التعرض بالحديث إلى محتواها، فإننا لن نجد سوى ما ينم عن القوة والجمال، مثلما يدل على ذلك طابع القسوة الذي صبغ حياتهم، ومثلما تدل على ذلك ظاهرة المدينة Polis في ثقافتهم، وإرادتهم في التميز والتفوق، ومثلما يدل على ذلك عدد لا حصر له من جوانب حياتهم.

1- علاقة خاصة مع الطبيعة: إذا تساءلنا عما يعنيه "الميل الخاص لدى الهلينيين في إطلاق العنان لكامل قوتهم، جِدِّهم،عبقريتهم المبدعة في طقوس خدمة الإله"[5]، عما يعنيه طابع الحرب لديهم[6] ؟، وكذا إدراكهم لـــ "خطر العودة إلى الطابع الآسيوي، الذي ظل يحوم دائما في سمائهم"[7]،...، فإننا سنلمس في علاقة "أناس التاريخ القديم الأكثر بشرية"[8] هؤلاء مع الطبيعة جزء من الإجابة، أي ملامح عامة عن كيفية تفكيرهم، ذلك أنهم "لم يكونوا يعرفون شيئا عن قوانين الطبيعة؛ لا وجود لضرورة للأرض أو السماء لديهم؛ قد يحل فصلٌ، طقس جميل، هطول مطر أو قد يجرى إنتظار ذلك، وبصفة عامة فإن مفهوم السببية **الطبيعية** غائب لديهم؛ فحين يجدف المرء فإن ضربة المجداف هي التي تدفع بالقارب، بيد أن التجديف هو مجرد إحتفال سحري يتمكن بواسطته من دفع القارب. جميع الوعكات، بل الموت نفسه، عواقب لتأثيرات سحرية. أن يمرض إنسان أو يتوفى فذلك ما لا يحدث أبدا بكيفية طبيعية؛ لقد كانوا يفتقرون إلى تمثل الـــ"تتابع الطبيعي" (وسوف يبدأ تدريجيا في الظهور لدى قدماء الإغريق مع تصور الضرورة والمصير وقد تَرَبَّعَا فوق الآلهة)"[9](...). لقد كان "الإنسان هو **القاعدة** والطبيعة **غياب للقاعدة**[10]، وفي ذلك تكمن إنسانيتهم، أي السذاجة التي يظهر بها عندهم الرجل والدولة والفن والمجتمع والعلاقة بين

---

1 VP, II, LIII, 16
2 VP,II, LIV, 374
3 A, 360
4 LP,46 ; Cré.id., ce que je dois aux anciens., 2
5 Le service divin, Introduction., 1, p. 28
6 Cré.id., ce que je dois aux anciens., 2,3,4
7 OSM, 219, trad. modifiée
8 5P5L, la joute chez Homer, p. 196
9 Le service divin…, 2, p. 31
10 Ibid., p. 32

الجنسين... إلخ[1]. فإذا تناولنا على سبيل المثال تَدَيُّنَهم وحاولنا فهم تكريسهم لمجهودات هائلة، لوقتهم وأموالهم أيضا، الطقوس وباقي شعائر خدمة الآلهة[2]، فإننا نجد في ذلك دليلا على العرفان وموقفا مميزا لإنسانية توغلت فيها النبالة، حيال الطبيعة والحياة[3]، وكل ذلك بالرغم من أن "معنى الشعائر الدينية هو إرغام الطبيعة وإخضاعها لمصلحتنا ومن ثمة **إضفاء شرعية** عليها لم تكن لها في الأصل، في الوقت الذي نريد فيه، في زمننا، أن **نعرف** شرعية الطبيعة كي نتكيف معها[4]. بإيجاز، وبالنظر إلى عدد قبائلهم الصغير وسط محيط مأهول بشتى التجمعات التراسية Thraces والسامية وذات الأصول المنغولية ... الخ[5]، ومن جهة أخرى إلى حجم ما تأثروا به من مجاوريهم الآسيويين، وبصفة خاصة الفينيقيين[6]، فإننا نفهم شيئان أساسيان:

1- أنه حتى في مرحلة تعلمهم وتأثرهم بغيرهم، مرحلة كونهم تلاميذ، يمكننا أن نلمس شيئا من عبقريتهم في كيفية إتمامهم [تكملتهم] لما يتعلمونه من غيرهم ليكون "التاريخ" بذلك **محفوظا** بواسطة إتمام رائع[7].

2- إذا أضفنا إلى نبالة أنفسهم، المتأتية من "شعورهم الذي لا يقبل سوى ما يقدرون على **ردِّه**"[8]، "شعورهم بضرورة الثبات لوحدهم، بضرورة كونهم متفوقين ومعزولين وسط محيط معادي يفوقهم عددا"[9]، فإننا سنفهم أن **خلقـ**ـهم لآلهة، فكرة جاءتهم من شعورهم بالحاجة إلى إعطاء أنفسهم مجتمعا متفوقا[10]. لقد كانت **آلهتهم** إنعكاسا للرجال النبلاء جدا والأكثر إعتزازا بأنفسهم، وسوف نرى في النقاط التالية كيف سيكشف هذا الشعور عن نفسه كمبدأ في حياة الإغريق.

- **تنظيم الفوضى الآسيوية :** لا يعود تميز الإغريق إلى "طبيعتهم" أو إلى "هبة فطرية"، بل نتج ذلك "عن الضرورة حيث يوجدون"[11]. وتكمن أفضل مظاهر ذلك التميز في عبقريتهم في تنظيم الفوضى حين وجدوا أنفسهم مهددين بخطر كونهم غُمِرُوا من طرف الأجانب والماضي وكذا الإنهيار بفعل "التاريخ" périt par l'histoire .(...) لم يسبق لهم وأن عاشوا عزلة متفردة: فقد كانت "ثقافت"ـــهم(...) ولمدة طويلة، فوضى أشكال وأفكار أجنبية: سامية، بابلية، ليدية ومصرية ؟ وديانتهم حربا لآلهة الشرق كله[12]؛ وإن تأمَّل تاريخ النثر مثلا، من غورجياس Gogias إلى ديموستان Démosthène لَيَكْشِفُ عن **شفق فطري وعن عمل وصراع من أجل الخروج من الظلام**

---

1 VP,II,LIV,413
2 Le service divin…, 1, p. 28
3 Pbm, 49
4 Ibid, 2, p. 34
5 FP/HTH 18 [46]
6 Le service divin…, 5, p. 44-51
7 Wph,107, p. 157; OSM, 221; FP/CI, III-IV(1875) 6 [65]; FP/1875 in le service d., p. 189
8 VP,II,LIV,430 trad. modifiée
9 FP/HTH 18 [46]
10 Wph,134, p. 166; VP,II,LIV, 429
11 Cré. id., ce que je dois aux anciens., 3
12 Le service divin…, 5 ; UIHV, 10, p. 168

والذوق الرديء والوصول إلى النور[1]؛ لقد تمكن الإغريق، بفضل عبقريتهم كشعب، من **إكتساب** البساطة والمرونة والصفاء **بمجهود**[2] كبير ليظهر بذلك تاريخهم- كـ"ورثة وأتباع آسيا"[3]- كـ"مرآة صافية تعكس دائما شيئا زائدا عما يوجد في المرآة ذاتها"[4]، لأن "ما هو إغريقي، يكمن في اقتباس الأشكال عن الغريب وليس في خلقها، ثم تحويلها إلى درجة إضفاء أجمل مظهر عليه"[5].

ثمة نقطتان تسمحان لنا، في هذا السياق، بالغوص درجة أخرى في عمق المكتسب في ثقافة الإغريق وهما:

- إذا تساءلنا مثلا عن السبب الذي يجعل الإغريق، من هوميروس إلى بيريكلاس، يَرُدُّون المرأة إلى **دور أدنى**[6]، وتأملنا "فنهم، الذي تكون فيه الروح شغفا بالجمال **الذكوري العاري !**"[7]، أي إذا تأملنا في المنظورية التي شعروا إنطلاقا منها بالجمال الأنثوي[8]، فإننا سنجد أن "نوعا من العنف الموحد ضد المشاعر اللينة والعذبة جزء لا يتجزأ من الحضارة الإغريقية"[9]؛

- حين نعيد الإمعان في الفقرة Wph,138, p.167، التي ذكرناها في ص،5، فإننا نكون قد تقدمنا خطوة أخرى لفهم حديث نيتشه عن **خطأ الفلاسفة الأصلي** في جعل كل ماهو **إغريقي** بشكل **أصيل** مسؤولا عن **الإنحطاط**[10]، في إدراك أن "الإغريق كانوا يبحثون في التأمل والمعرفة عن نوع من أمن الشعور وعن ملاذٍ أخيرٍ، في حياة تهددها أكبر المخاطر والكوارث"[11]، لأنه "لا لَمَعَانَ لحياة الإغريق سوى حيث تُشِعُّ الأسطورة وقاتمة خارج ذلك"[12] .

ب- طابع القسوة والقوة في حياة وحضارة الإغريق: تسمح هذه النقطة لوحدها بفهم حضارة الإغريق وسيكولوجيا الإغريق، بما في ذلك "إنسانيت"ـــهم "اللغاية" « leur «trop humain [13] ، لأنها تكشف عن الحدود الممكنة التي قد يبلغها شعب "مُعَافَى حقيقةً"[14]، عن حجم الحرية التي يتمتع بها والتي تعكس مستوى إرادة القوة لديه، وباختصار عما جعله شعبا فريدا وصاحب حضارة جدُّ متميزة.

---

1 OSM, 219
2 OSM, 219
3 Pbm, 238
4 OSM, 218
5 Ibid., 221
6 Pbm, 238 ; VP, II, LIV, 433
7 A, 170
8 idem
9 VP, II, LIV, 433
10 VP, I, LI, 62
11 A, 154
12 VASEM, p. 130 ; HTH, 261
13 OSM, 220
14 Phil. ETG, 1, p. 13

لقد سبق لنا وأن أشرنا إلى أهمية القسوة في كل ثقافة رفيعة وإلى تجرؤ نيتشه على إعتبار أن كل ثقافة رفيعة قد تطورت منها بفعل رَوْحَنَتِهَا وتأليهها[1] ... إلخ، ولا عجب إذا وجدنا مشاهد القتل والتنكيل تتكرر بالكيفية نفسها في الكثير من فقراته(مثل La joute chez Homer., p. 197 ; l'Etat chez les Grecs., p. 183-184 وغيرهما)، وعرفنا أن المعاناة تُنَبِّل والحرب من شروط العبقرية ...؛ وبتعبير آخر: يظهر حديث نيتشه في هذا العنصر مقترنا بالإغريق وكأنه يقدم لنا بيوغرافيته الخاصة وقد ضَمَّنَهَا شرحه لمعنى العبقرية بالكيفية التي تجعل من فهم عبقرية الإغريق في علاقة بشخصه. ومهما يكن من أمر، فإن "هذا الشعب الصغير المتكبر الذي كانت له الجرأة على إلباس صفة "بربري"، وإلى الأبد، لكل ما هو غريب عنه"[2]، قد أثبت بتاريخه كله مدى تميزه؛ فقد كان الإغريق هم الأكثر غيرة والأكثر تمجيدا للغيرة[3]، من غيرهم، "والذين يخصصون شيئا ما، من قبيل الإحتفالات مثلا، لأهوائهم كلها ولكافة نزواتهم السيئة وكذا إرسائهم، بواسطة الدولة، لنوع من التنظيم للإحتفال بما كان في غاية البشرية عندهم(...). لقد بلغوا حتى حد تسمية كل ما له **قوة** في الإنسان، إلهيا وسجلوه داخل سمائهم. لم يكونوا ينكرون بتاتا الغريزة الطبيعية التي تظهر في الصفات السيئة، بيد أنهم يجعلونها في مكانها ويحددونها لأيام معينة بعدما يكونون قد ابتدعوا ما يكفي من الإحتياطات كي يتمكنوا من إعطاء هذا النهر المُتَهَوِّرَ تدفُّقًا أقل خطورة ممكنة(...). إنهم لم يكونوا يأملون في القضاء على كل ذلك"[4]، ومن ذلك كانت مَثْلَنَتُهُمْ مثلا للمجرم الكبير[5]. لقد كان الإغريق يمتلكون طابعا قاسيا ويحملون في ذواتهم رغبة وحشية في التخريب: إنه مَلْمَحُ طابعٍ تكشف عنه أيضا الصورة الفظَّة والمكبرة للهليني التي يعكسها الإسكندر الأكبر(...). فحين بَعَجَ الإسكندر رِجْلَيْ باتيس Batis، المدافع الرائع عن غزة، وربطه حيا إلى دبابته لكي يجره وراءه تحت هتافات جنده، فإنه في ذلك يكمن كاريكاتورٌ مُنَفِّرٌ لأشيلٍ Achille، الذي أزعج جثة هيكتور Hector ليلاً عن طريق جَرِّهَا بالكيفية ذاتها[6].

حين ننتقل إلى ظاهرة المدينة Polis، التي يمكننا شرح التاريخ الإغريقي إنطلاقا منها، فإننا سنجدها وجميع مؤسساتها قد نشأت من إجراءات الحماية التي كان الإغريق يتخذونها لحماية بعضهم البعض من موادهم المتفجرة فيهم، وقد تفرَّغَ ذلك الضغط الداخلي الهائل في شكل عِدَاءٍ مُرْعِبٍ وجذري ضد الخارج: فكانت المدن تمزق بعضها البعض كي يَكُفَّ مواطنو كل واحدة منها عن خشية بعضهم البعض، كما كانت الرغبة في أن يكون الناس أقوياء، حاجة ملحة، وذلك شعور **بالتفوق** سيجد تعبيره في الحفلات والفنون[7]، والمبارزة والمصارعة، التي تقتضي البيداغوجيا

---

1 APZ, le convalescent, 2, p. 312-313 ; GM,II,6, p. 90
2 NT, 5, p.118
3 Phil. ETG, 1, La joute chez Homer, p.199 ; Wph,103, p.156
4 OSM, 220
5 VP,II, LIV, 463
6 La joute chez Homer., p.196
7 L'Etat chez les Grecs., p.186 ; Cré. id., ce que je dois aux anciens., 3

الشعبية بأن تتفتح فيها كل موهبة. فحين يشارك الشاب في منافسة ما، في الجري أو رمي الرمح أو الغناء، فإنه يفكر خيرا في مدينته التي ولد فيها، ويسعى لإضافة مجده إلى مجدها. كان يهدي التاجات، التي يضعها الحكام على رأسه تشريفا له، إلى آلهة مدينته. ومنذ طفولته، يصنع كل إغريقي في نفسه أملا مُتَّقِدًا في أن يكون، أثناء المبارزة بين المدن، وسيلة نجاح مدينته، وفي ذلك اضطرام لنار أنانيته[1].

جـ- **فهم الظاهرة الديونيزية:** كثيرة هي النصوص التي تحدث فيها نيتشه عن نفسه بكيفية متسترة، ومثال ذلك النص الذي كرر فيه الحديث عن تمكنه، بواسطة إكتشافيه العميقين: فهمه للظاهرة الديونيزية وللروح السقراطية، من بلوغه ذروة الذرى في الفلسفة بقوله: "ما العلو الذي لم أرتَقِ إليه بقفزة واحدة بواسطة هذين الإكتشافين !"[2]. سؤالنا في هذا الشأن هو: ما الملفت للإنتباه في هذه الجملة بغير العلو ؟ أيُّ تفسيرٍ أو شرحٍ، إضافي أو جديد، ستحتاج إليه عبارة، من النوع التالي، كي نؤكد على ذلك العلو: "إن أعلى شعور بالقوة والضمان لَيَأْخُذُ تعبيره في عمل بـــ**أسلوب كبير**. القوة التي لا تحتاج إلى أدلة، الساخرة من أمر إثارة الإعجاب والتي لا وجود للأجوبة السهلة لديها، التي لا تشعر بوجود شهود حولها ؟"[3]. لنتذكر أمل نيتشه في أن يكمن معنى التاريخ في خلق الإحساس بـــ "عالم من العمق والقوة والجمال" (في بداية هذا الفصل)، ونقارنه بما أكده له ديونيزوس للمرة الثانية بقوله: "إني أفكر دائما في الوسائل التي ستجعل البشر(...) أقوياء، أكثر شرا، أعمق - وأكثر جمالا"[4] ...؛ وحتى لا نطيل في سلسلة أدلة العُلُوِّ هذه، لنا أن نتساءل الآن إلى أي مدى كان فيه نيتشه مَدِينًا حقا للإغريق في اكتشاف الظاهرة الديونيزية وفهم الشعور المأساوي، الذي لم يفهمه، على حد قوله، أرسطو أو غوته أو شوبنهاور أو باقي التشاؤميين الألمان ؟[5].

حين نتتبع "ميلاد ميلاد المأساة"[6]، من خلال أعمال نيتشه، فإننا نجد أن الموضوع برمته من ميدان علم نفس الفنان والفيزيولوجيا؛ وبلغة الفلسفة: موعدٌ مع العمق والصفاء والـــ"إنساني للغاية"– بالمعنى الذي ورد به المصطلح فيPbm, 295 ; OSM, 220 – بواسطة علم النفس، ومن ثمة فمن الطبيعي أن نجد الرمز **ديونيزوس** قد "نشأ من أرفع تأكيد وفي الزمن الذي "إزْهَرَّ" فيه الجسد الإغريقي والروح الإغريقية"[7].

---

1 La Joute chez Homer., p.201
2 EH, NT, 2, p.141
3 Cré.id., divagation d'un « inactuel », 1
4 Pbm,295
5 Cré.id., ce que je dois aux anciens, 5
6 Dennis Sweet : The Birth of "The Birth of Tragedy"., Journal of the History of Ideas, Vol. 60, No. 2. (Apr., 1999)., p.345
7 VP,II,LIV,557

ذكر نيتشه أن مفتاح مفهوم الشعور **المأساوي** جاءه من سيكولوجيا العربدية orgiasme، وقد جرى تصورها كشعور يفيض حياة وقوة والذي يكون فيه للألم نفسه مفعولَ "مُنَشِّطٍ"[1]، وهنا يضع نيتشه يده على باب الموضوع ويكشف في الآن نفسه دربا إلى "سيكولوجية الشاعر المأساوي"[2]. ما وجده، في هاتين النقطتين، هو تعبير عن شعور واحد يمكننا أن نسميه "الحالة القصوى" للقوة أو لإرادة القوة، وقبل شرح ذلك، لا بأس من أن نقدم مقتطفا من واحدة من أواخر فقرات نيتشه حول الفن: "الفن خلاص من يعرف، من يرى، من يُرِدْ رؤية الطابع الرهيب والإشكالي للوجود، من يعرف بكيفية مأساوية. الفن خلاصُ من يتصرف(...) ومن يعاني"[3].

يرى نيتشه أنه "لكي يكون هنالك فن، وحتى يكون هنالك فعلٌ ونظرةٌ جمالية، فإنه لابد من توفر شرط فيزيولوجي: النشوة [الثمالة] ivresse ولابد أولا لتأثرية الآلة كلها أن تكون قد صُيِّرَتْ أكثر شدة بواسطة الثمالة (...).

أهم ما في الثمالة هو الشعور بزيادة شدة القوة، المِلْءِ. إنه الشعور ذاته الذي يدفع بالمرْءِ لأن يضع شيئا من ذاته في الأشياء، أن **يرغمها** على أن تستوعب ما يضعه فيها، أن يمارس العنف تجاهها، وذلك ما ندعوه مَثْلَنَة idéalisation [4]، وهكذا "يستمتع الإنسان في الفن برؤية نفسه كاملا"[5]. ولأن نيتشه بحث عن حقيقة الغريزة الهلينية في غرائب ديونيزوس وفي سيكولوجيا الحالة الديونيزية، فإنه وجد بأن الهليني يتطمأن بفضل تلك الغرائب "من الحياة **الخالدة**، من العودة الأبدية للحياة– الوعد بالمستقبل مكرسٌ في الماضي، نعمٌ منتصرٌ للحياة بمعزل عن الموت والتغير: **الحياة الحقيقية**، البقاء العام بواسطة الإنجاب وبغرائب الجنسانية، لذلك كان الرمز **الجنسي** لدى الإغريق، الرمز المبجل في ذاته والمعنى الحقيقي الخفي في كل ورعِ التاريخ القديم. كافة تفاصيل فعل الإنجاب والحمل والولادة تثير أرفع المشاعر وأصدقها. في فكرة الغرائب، يقدس **الألم**: "آلام الحمل" تبرر الألم بصفة عامة– كل مصير، كل كِبَرٍ، كل ما هو ضمان مستقبل فهو سبب لألمٍ ...؛ وحتى تسود متعة الخلق الخالدة، وحتى تخلد الرغبة في العيش أبدا في "قبول سعيد، **لابد** وأن تظل أبدا "آلام المرأة مستمرة"... هذا كل ما تعنيه كلمة ديونيزوس"[6].

تحدث نيتشه أيضا في "ميلاد المأساة" عن نمط آخر للنشوة، الحالة الأبولينية، التي تشكل بمعية الديونيزية ثنائية يتطور الفن وفقهما بنفس الكيفية التي تنطوي فيها الثنائية الجنسية على الحياة وسط صراعات دائمة وبواسطة لقاءات دورية فقط[7]، وذلك ما يعني أنهما، ورغم

---

1 Cré. id., ce que je dois aux anciens, 5
2 Idem
3 FP/ 1888-89 17 [3]
4 Cré.id., divagation d'un « inactuel »., 10
5 Idem
6 Cré.id., ce que je dois aux anciens, 4
7 NT,1, p. 47

تعارضهما، يشكلان وحدة هيمنت على الروح الهلينية بواسطة تجليات متتالية وإبداعات متجددة وتتقوى بهما[1].

– تثير النشوة الأپولينية بصفة خاصة العين، التي تتلقى منها القدرة على الرؤية، ومن ثمة فالرسام والنحات والشاعر الملحمي أفضل أصحاب الرؤى[2]، ولذلك فأپولون هو "إله جميع الخاصيات المبدعة للأشكال وفي الوقت ذاته الإله الذي يفك الألغاز. إنه وفقا لأصله، "الظاهر" المشرق، إله النور الذي يسود أيضا على الظاهر الجميل لعالم التخيل الباطني"[3]؛ "أما في الحالة الديونيزية، وعلى العكسي من ذلك، فإن كل الحساسية هي التي تُثَارُ إلى درجة إفراغها دفعة واحدة لوسائل تعبيرها، وفي الآن نفسه تكثيفها لقدرتها في التمثل، التقليد، التجميل، التحول، كافة أنماط فن الميم mime والكوميديا(...). الموسيقى مثلما نفهم اليوم، هي إثارة شاملة وتفريغ كلي للإنفعال، غير أنها ليست سوى بقاءً لعالم تعبيرٍ إنفعالي أكثر شدة، مجرد **ترسُّب** للبَهْلَوَنَة الديونيزية"[4]. وهكذا نفهم لماذا "لا يمكن للتراجيديا أن تولد سوى من عبقرية الموسيقى"[*]. إنها "التعبير الرمزي للتناقض والألم الأصليين، ومن ثمة فهي ما يرمز بذلك لعالم يحوم فوق كل ظاهرة ويوجد قبل كل ظاهرة"[5].

بلغة فلسفة الحضارة والتاريخ ، ذكر نيتشه أن التناقض الديونيزي الأبوليني واحد من أكبر الألغاز التي إسْتَهْوَتْهُ في الطبيعة الهلينية، وأنه في عمق بحثه لم يحاول سوى فهم لماذا كان على الأبولينية أن تنبعث من عمق الديونيزية؟ لماذا كان على الديونيزي الإغريقي بالضرورة أن يصبح أبولينيا ؟

الإجابة التي قدمها تشبه كثيرا طريقة نيتشه نفسه وهي: "ما كان ينتجه [الإغريقي] من عمقه، هي الميول القصوى، غير المرتبة، الآسيوية؛ تتأكد الشجاعة الإغريقية في صراعها مع آسيويتها الخاصة؛ لم يكن الجمال، المنطق، الجانب الطبيعي في آدابه، أشياء معطاة له؛ لقد كان كل شيء مكتسب من قبله، رَغِبَهُ، إنتزعه في صراع قوي: إنه "انتصار" ـــه"[6].

على هذا الفعل الذاتي، "إنتصار" الإغريقي هذا، بَنَى نيتشه حلمه في نهضة ألمانيا ثم أوربا، لأن "الهلينية كانت أول أكبر إختلاط، أول حوصلة لكل ما جاء من الشرق ومن ثمة فهو أصل الروح الأوربية، إكتشاف "**عالمنا الجديد**"[7]، هذا العالم الجديد الذي تتضح ملامحه من خلال الكثير من المؤشرات في فلسفة نيتشه مثل:

---

1 NT,4, p. 63
2 Cré.id., divagation d'un « inactuel »., 10
3 NT, 1, p. 49
4 Cré.id., divagation d'un « inactuel »., 10
* ونفهم أيضا لماذا قال نيتشه بأنه "بدون الموسيقى، كان للحياة أن تكون خطأ" (Cré.id., Maxims et traits, 33)
5 NT, 5, p. 71
6 VP, II, LIV, 556
7 FP/ HTH 38 [9], VP, II, LIV, 557

- "كان الإغريق على وشك إيجاد نموذج إنسان أكثر تفوقا من السابقين [الفلاسفة السابقين لسقراط]، بيد أنه هنا بالذات مَرَّتْ ضربة المقص، لابد من التوقف عند **الفترة المأساوية** للإغريق"[1].

- "تتطلع الأرض، التي أُستشرقت إلى الآن، إلى الثمالة، لأن تتهلن"[2].

- حديثه عن عِرْقٍ مُنَقًّى.

أما بالنسبة لفلسفته، فسوف يعمل على "تحويل الديونيزية إلى شغف فلسفي"[3]، وسوف يتحدث عن "الإغريق والعمل الفني للتشاؤم"[4]، وينتهي إلى توقع قدوم "تشاؤمية **ديونيزية**"[5]، وهي كلها نقاط شرحناها ولا تبين بأن "الديونيزية إسم آخر لإرادة القوة"[6] فحسب، بل هي الحالة التي تكشف عن العلاقة بين العودة الأبدية، محبة القدر، إرادة القوة ... إلخ.

3 – اليهـــــــــود: تباينت آراء نيتشه بشأن اليهود، واستمرت تثير التباين إلى الآن بين الباحثين في فكره، بالكيفية التي تُتمُّ عن إصطدامه بمشكلة عويصة؛ وأعتقد أن مارك دولوناي M. de Launay أصاب إلى حَدٍّ بعيد حين دَلَّلَ على صعوبة ضبط معنى محدد لمفهوم "اليهود" في فلسفة نيتشه بواسطة العنوان الذي وضعه لمقالته: "اليهودي المستعصي العثور عليه"[7]، ويمكننا تلخيص أسباب ذلك في :

أ- إذا أضفنا إلى نشأة نيتشه الدينية، في عائلة راعٍ مسيحي[*]، تعلمه في مدرسة بفورتا Pforta، فإننا نفهم مدى أثر الدين في تربيته. ولا غرابة إذا وجدنا نيتشه الطالب مثلا يكتب سلسلة مقالات تناول فيها: "عن المسيحية"، "عن حياة المسيح"، "أفكار عن المسيحية" وكذا عددا من الأشعار مثل "الإله المجهول"، "أمام المصلوب"، "أنا هنا إلهي، يا من يناديني"... إلخ، وكانت إيذانا بشكِّهِ في حقيقة المسيحية[8]. وسوف يلي توضيح علاقة اليهود بالمسيحية؛

ب- علاقة نيتشه ببعض اليهود: تأثر نيتشه بالكثير من اليهود الذين عاصروه أو عاشوا قبله، وأقام صداقة مع عدد منهم، وخاصة بول ري[9] وفاغنر[**]، كما أشاد بعظماء اليهود ومنهم على سبيل

---

1 LP, 194
2 RWB, 1, p. 113
3 EH, NT, 3, p 141
4 Ess. d'auto., NT, 1, p. 28
5 GS, 370
6 Michel HAAR : Nietzsche., Encyclopédie de la Pléiade, histoire de la philosophie., vol.III., Gallimard., 1974., p.313
7 Marc de Launay : Le Juif introuvable, de Sils-Maria à Jérusalem., p.83 & suiv
* كان والد نيتشه راع لوثري وأمه إبنة وحفيدة راعيين لوثريين أيضا (D. Halevy., op.cit., p.11)
8 Karl LOWITH : Nietzsche, philosophie du retour éternel, op.cit., p.157
9 Friedrich Nietzsche- Paul Rée- Lou Von Salomé : Correspondance., op.cit., p.307
** ذكرت ريزا فون شيمهوفر Resa Von Schimhofer أنها سمعت من نيتشه لأول مرة، أثناء لقائهما في نيس Nice، بأن غيَّرْ Geyer لم يكن حم فاغنر بل أباه الحقيقي، ومن ثمة ففي عروق **الموسيقار دماء يهودية**. (Curt Paul Janz : Nietzsche, Biographie., vol. III., op.cit., p.36)

المثال سبينوزا، الذي قال عنه إنه "الحكيم الأكثر إستقامة"[8] وكل من هانه H. Heine وأوفنباخ J. Offenbach، اللذين قال بشأنهما بأن "اليهود لامسوا العبقرية في دائرة الفن معهما"[1]. ومن جهة أخرى، شمل تأثير نيتشه العديد من اليهود، من جميع الفئات وفي جميع الأوقات، لدرجة أنه يمكننا القول أنه بالنظر إلى العدد الكبير من اليهود الذين تناولوا فلسفته بالدراسة وكذا إلى حجم ما كتبوه عنه، فإنه أصبح من الصعب إيجادُ نصٍّ حول نيتشه وقد كُتِبَ بعيدا عما يُكتب "بنظرات يهودية"، بل هناك من اليهود من يُظهره بهذه الكيفية: "المهم هو أن نيتشه كان ضد الجميع! ضد الإشتراكية وأوربا والمسيح وجميع الناس، الشيء الوحيد الذي كان نيتشه يُبَجِّلُهُ هي اليهودية واليهود. لقد ظل يحترم اليهودية إلى آخر أيامه، لأنه فهمها أفضل من أكبر حاخامات العالم"[2].

وفضًّا عن ذلك، شكَّلت معاداة السامية محورا أساسيا دارت حوله مناقشات ودراسات اليهود لفلسفة نيتشه مما أدى إلى بروز تيارين بينهم:

– تيار يَتَّهِمُ نيتشه بمعاداة السامية ومنهم على سبيل المثال: هربت كانيك H. Canick، الذي نعتبره من الغلاة، والذي إنتهى في بحثه إلى القول بأن نيتشه كان "معاديا لأعداء السامية، ومع ذلك طوَّرَ، عبر ضم المسيحية، معاداة للسامية محسوبة، حادة، بذوق رفيع، وأرستقراطية"[3]. وأعتقد أنه على هذا التيار يقع جزء من مسؤولية تشويه نيتشه وخاصة قُبَيْلَ وغداة الحكم النازي لألمانيا، علما بأن إتهام نيتشة بالنظرة العرقية بدأ مبكرا وقبل الحرب العالمية الأولى[4]، وهي النظرة التي كانت تشكل ما يشبه "موضى" في تلك الفترة وشملت الكثير من الباحثين والفلاسفة الذين درسوا نيتشه أمثال: ليدوفيتشي A. M. Ludovici، موغجه M. A. Mügge، كاروس P. Carus وغيرهم[5].

– تيار يُبَرِّىء نيتشه مما يُنسب إليه من أفكار مشينة كالعرقية ومعاداة السامية، وفيه نجد غالبية اليهود المهتمين بنيتشه ومنهم جاكوب طوب J. Taubes؛

– بإمكاننا إدراج فئة أخرى من أمثال أوسكار ليفي O. Levy، أول ناشر لأعمال نيتشه الكاملة بالأنجليزية في 18 مجلدا، والذين تضاربت مواقفهم لعجزهم عن فهم نيتشه، عن الإبداع وعن التخلص مما ظل يلاحقهم من صباهم*. ورغم ذلك كله فإنه إلى الألمان واليهود بصفة خاصة،

---

8 HTH,475

1 VP,II,LIII,219

2 Avi KATZMAN : Entretien avec Reb WEISFISH (Reb Arieh Leib Weisfish : membre de la secte Netourey Karta, issu d,une famille en rapport avec les fondateurs de Mea Shearim) pour la revue israélienne en langue française : Réalités(début 1987) in www://A:\Reb%20Weisfish.htm
الفكرة ذاتها نجدها لدى تريبلينكا هلال تسايتلين T. Hillel Zeitlin في واحدة من سلسلة السير المقدسة أين شبّه نيتشه بإشعيا جديد أو حتى ب**شاسيد** مما أعطى نيتشه صورةَ ناسكٍ مقدس **أكثر يهودية من اليهود**، وسط قراء تسايتلين في أوربا الشرقية وإسرائيل(Bruce E. Ellerin : Nietzsche et les sionistes Résumé d'une thèse de doctorat : Nietzsche Among The Zionists in : De Sils Maria à Jérusalem., p. 118)

3 Nietzsche and The Jewish cultur ; p.68-69

4 H. L. Stewart : Nietzsche & the ideals of modern Germany., préface., p.4

5 Dan STONE : An "entirely tactless Nietzschean Jew"., Journal of contemporary history, vol.36 n*2., SAGE publications, London and other cities., 2001., p.275., note 16

* لا أحد تخبَّطَ في محاولاته اليائسة لفهم نيتشه مثلما تخبَّطَ أوسكار ليفي، هذا اليهودي الألماني، الذي

يعود الفضل في إنجاز أفضل الدراسات وأعمقها حول نيتشه، في نشره وترجمته إلى الكثير من اللغات، ومن بين هؤلاء: اليهودي الدانمركي غورغ براندس G. M. C. Brandes، الذي كان أول من عَرَّفَ الإسكندنافيين بنيتشه من خلال مقالاته ومؤلفه "فريدريك نيتشه"، الذي وافقه فيه نيتشه على العنوان الفرعي: "محاولة في الراديكالية الأرستقراطية"[1]، وكذا دانيال هاليفي، الذي كان من أوائل مترجمي نيتشه إلى الفرنسية، وأيضا الفيلسوف مارتن بوبر Martin Buber، الذي يدين له اليهود ببدء **نهضتهم** مطلع القرن العشرين والتي لا تتطلع إلى نهضة الإنسان، وتتجسد عند تقاطع الحسقلة والحسيدية* فحسب بل كانت أيضا تمثل "صهيونية ثقافية"، تعلن عن ميلاد إنسانية جديدة تتطلع إلى التعايش مع إرث العقل الألماني[2]. ويعد "نموذجان من الإيمان" Zwei Glaubensweisen، الذي ألفه بوبر، أهم كتاب ألفه يهودي عن بولس وانتقده فيه بشدة[3] وبتأثير واضح من نيتشه...إلخ.

أخيرا، تجدر الإشارة إلى أن لفلسفة نيتشه تأثير كبير على الصهاينة والصهيونية، بحيث تأثر بها زعماؤها مثل تيودور هرتزلT. Herzel ، الذي تحدث عنه في مفكرته اليومية واعتبره شيطانا[4]، وماكس نوردو M. Nordeaux. هذا الأخير الذي فتح النار على نيتشة في مؤلفه:"التفسخ" ووصل به نقده، السطحي في معظم الأحيان، إلى حد قوله بأن نيتشه "يناقض نفسه تقريبا في كل واحد من مبادئه الديكتاتورية جدا. إنه يقول في البداية شيئا ثم نقيضه، والإثنين بنفس القدر من العنف، غالبا في الكتاب نفسه، غالبا في الصفحة ذاتها. يحدث وأن يدرك، من حين لآخر بأنه يفند نفسه بنفسه وحينها يدعي بأنه أراد أن يتسلى عن طريق الإستهزاء بالقارئ"[5]. كما تأثر بها أيضا زعماء الصهيونية الثقافية كـــ**أحاد حا آم** Ahad Ha-am، الذي كان يؤمن بضرورة تحقيق المثل الأعلى الرسولي عن طريق تهيئة اليهود روحيا وثقافيا قبل إنشاء دولة لهم[6]. وعموما، حين نقرأ

=== ظل "ساذجا" من خلال إيمانه بأفكار نيتشه، محاولا تحقيق شيء عملي من فلسفة نيتشه، ووصل به الحد إلى تفسير الفاشية على أنها تعبير عن توافق مع النيتشيه. لقد خلط بين النظرية العرقية والتاريخية إلى أن ظهرت النازية فانقلب عليها قبل أن ينتهي به المطاف إلى إعتبار صلاح العالم بين أيدي اليهود مثلما يقول التراث اليهودي (أنظر مثلا مقدمات الناشر في مؤلفات نيتشه وكذا مقال **دان ستون** المشار إليه أعلاه).

1 Lettre de Nietzsche à Brandes le 02 déc.1887 in G.M.C. Brandes : Friedrich NIETZSCHE., translated from Danish by A.G.CHATER., second edition., The Macmillian Company., NY., 1915., p.1

* Haskala حسقلة (ذكاء، فطنة، ثقافة): حركة تنوير يهودية ظهرت في أواخر القرن الثامن عشر.
Hassidisme الحصيدية(التقوى): حركة دينية يهودية ظهرت إبان القرن الثامن عشر.
(Israël de Moïse aux accords d'Oslo.,p.551 ; I. Epstein : Le Judaïsme ., p. 255 & suiv.)

2 Arno MUNSTER :Martin BUBER and Friedrich NIETZSCHE :la pensée juive de la modernité et la philosophie allemande, in La philosophie allemande dans la pensée juive., travail collectif sous la direction de Gérard BENSUSSAN., PUF, Paris., 1997., p.167

3 J. Taubes., op.cit., p. 23

4 Bruce E. Ellerin : op.cit., p. 115

5 M. Nordau : Dégénérescence., op.cit., p.309

6 Epstein., op.cit., p.294-295

عناوين فصول، في كُتُبٍ ليهودٍ، من قبيل: "هكذا تكلم هرتزل"[1] أو "روما أو صهيون"[2] أو غيرهما، فإننا ندرك مدى تأثير نيتشه على اليهود، الذين تسمح، بدورهم، غزارة مؤلفاتهم حول نيتشه بشرح موقف هذا الفيلسوف الكبير تجاه اليهود أو العكس؛ غير أن هنالك نقطة أساسية، في موقف كل طرف حيال الآخر، وعلى قدر كبير من الأهمية، وتتعلق بإغفال كل واحد منهما الحديث عن بعض اليهود، من ذوي الوزن الثقيل، الذين إنتقد نيتشه أفكارهم ونخص بالذكر كارل ماركس وبعض زعماء الإشتراكية والفوضوية وغيرهما من التيارات التي تضم في صفوفها العديد من اليهود، فضلا عن أولئك الذين طاردوا سبينوزا.

نختم هذه النقطة بالعودة للمرة الأخيرة إلى علاقة فرويد بنيتشه لنكشف عن مدى غموضها خاصة وأنها تنم، في نهاية المطاف، عن صراع خفي بين العقلين: الألماني واليهودي الجرماني. فحين تتكرر مثلا الفكرة التالية، لدى كل من دوهرينغ ونيتشه، فإننا نشعر بعمق ذلك الصراع. لقد كتب الأول يقول: "تعود كل ديانة، على قدر من الأهمية، إلى الروح الآسيوية، غير أنه على الفروع الأكثر تطورا في البشرية أن تقدم أفضل ما لديها كي تتطور، أي أنه عليها أن تنسلخ عن الروح الآسيوية"[3]. على كل، لا أحد من كبار المفكرين في العصر الحديث هبط إلى أسفل الدركات التي هبط إليها فرويد بأكاذيبه، بشأن تأثير نيتشه عليه، بشأن ما أخذه هو بشتى الطرق عن نيتشه! لقد تحايل مرارا ولم يكن صريحا و"سجّل في "سيغموند فرويد بقلمه" "تفاديا مطولا" لكتابات نيتشه، لأن أحاسيسه المبكرة وأفكاره غالبا ما تتطابق بكيفية غريبة مع النتائج التي تحصّل عليها التحليل النفسي بصعوبة"[4]. من حسن حظ "الحقيقة" أن لا أحد من الفلاسفة وعلماء النفس صدَّقَ هذا القول لأنهم يعرفون، مثلما قال جاكوب طوب، أن "فرويد يعتمد كثيرا على نيتشه وبإمكاننا كتابة أطروحات في هذا الموضوع"[5]. لقد إستفاد فرويد من عضويته في "جمعية الطلاب الألمان في فيينا" L.D.S.W.-التي تأسست عام 1871،[6] على يد كوكبة من أولئك الذين سوف يشكلون عظماء الحداثة في أوربا الوسطى، ومعظمهم يهود مثل: فيكتور آدلر V. Adler، سيغفريد ليبينر S. Lipiner، غوستاف موهلر G. Muhler، جوزيف باناث J. Paneth[7]- كما إستفاد من علاقات عدد من هؤلاء المباشرة مع نيتشه، أمثال باناث[8]، مثلما إستفاد من علاقة تلميذته وصديقته لوسالومي بنيتشه، حيث يكفينا مثلا الإطلاع على وصفها العميق له، في المذكرة اليومية التي بعثت بها إلى

---

1 Jacob GOLOMB : Nietzsche and Zion., Ithaca., Cornell University Press., 2004., p.1

2 Shmuel TRIGANO : la nouvelle question juive., Gallimard., Imp. Bussiere Camedan à St-Amant (Cher)., 2002., p.46

3 E. Nolte., op.cit., p.113

4 Safranski., op.cit., p.299

5 Taubes., op.cit., p.130

6 Jacques le Rider : Les intellectuels juifs viennois et Nietzsche autour de Freud (De Sils-Maria à Jérusalem) ,p.182-183

7 William J. Mc GRATH : Mahler and Vienna Nietzschean Society (in Nietzsche and jewish culture)., p.219

8 Curt Paul JANZ : Nietzsche, biographie, III., op.cit., p.219

بول ري لكي نُكَوِّنَ فكرة عن حجم تلك الفائدة[1]، دون الحديث عن مؤلفها "فريدريك نيتشه من خلال أعماله" أو عن طلب فرويد منها بواسطة أرنولد زڤايغ A. Zweig أن تشاركه في إنجاز عمل حول نيتشه[2]؛ وقائمة الأسماء والعناوين التي إعتمد عليها في الإطار نفسه طويلة.
لقد سبق نيتشه، فرويد في شرح "معاداة السامية لدى الألمان"[3] وكذا العلاقة بين أمراض الفرد وما سماه فرويد: "وعكة الحضارة"، والتي تشكل، بتعبير ما، "جينيالوجيا الأخلاق"، التي ألفها نيتشه[4]. لا شك أن فرويد، الذي عَنْوَنَ أحد بحوثه بـــ:"بمعزل عن مبدأ اللذة"، على وزن "بمعزل عن خير وشر"، وأخذ عدة مصطلحات عن نيتشه كالـــ"هو" و"الإرث القديم" و"قلب كافة القيم"...إلخ، هو الذي إدعى أن نيتشه أصيب بالسفلس، عقب زيارة لبيت الشاذين جنسيا، مما أدى إلى إنتشار فكرة كون نيتشه شاذا جنسيا وسط أعضاء جمعية التحليل النفسي في فيينا[5] .
جـــ- أهمية النماذج الثافية في المشروع النيتشي: يرتبط موقف نيتشه من اليهود بعمق بهذه النقطة، وهو الأمر ذاته الذي أشرنا إليه من قبل بالقول بأن نيتشه إصطدم بمشكلة عويصة نجمت عن عدة أسباب تعكس بالدرجة الأولى تطور فلسفة نيتشه نفسه، بما في ذلك علاقاته مع اليهود، وكذا تطور الأوضاع في ألمانيا ومدى تأثير ذلك على اليهود وعلى نيتشه. هل يعني ما سلف أن موقف نيتشه تجاه اليهود لم يكن في بداية مشواره، على قدر من النضج الكافي؟ أم أنه إبن ظروف محددة يمكننا شرحها بالسببين المذكورين؟
علينا أن نفهم أولا أن لمواقف الفلاسفة الألمان، حيال الدين واليهود، تأثير كبير على نيتشه. ومثال ذلك: مواقف هيغل وشوبنهاور وبوركارت، وأن نفهم أن مقابلة نيتشه العقل بالغريزة هي النتيجة التي إنتقد على ضوئها المسيحية ومشتقاتها، مثلما سميناها من قبل؛ وأن تساؤلاته الجينيالوجية، بشأن قيم هذه الديانة، هي التي ستقوده إلى البحث في أصولها لِيَجِدَ في بولس"غريزة اليهودي الكهنوتية التي إرتكبت، مرة أخرى، الجريمة ذاتها ضد التاريخ- فقد مَحَى نهائيا وببساطة ما كان "بارحةَ" و"ما قبل بارحةَ" المسيحية و**ابتدع لاستعمالاته تاريخا للمسيحية الأولى**؛ وأكثر من ذلك، فقد زَوَّرَ مرة أخرى تاريخ إسرائيل كي يظهر في شكل ما قبل تاريخ أعماله"[6]، ولذلك فإن قول نيتشه بأن "الفلسفة الألمانية في عمقها هي ثيولوجيا **متسترة**"[7]، لا تحتاج إلى أي توضيح إضافي بغير التأكيد على نظرة المسيحيين السلبية إلى الشرق، وإلى اليهود على أنهم الجزء البارز منه[8].

---

1 Nietzsche-Rée-Salomé : correspondance., op.cit., p.153 et suiv.
2 Jean CHARMOILLE : La rencontre impensable de la foi et de la raison : Lou Andréas-Salomé et Sigmund Freud., Colloque : " Freud et Vienne"., Institu français de Vienne, le14/06/2003., www : insistance.asso.fr/PDF/Foi_et_raison.pdf., p.5
3 Sarah KAUFMAN : Le mépris des Juifs., Galilée., Paris, 1994., p.24
4 Juliette ZINNO : Maladie et traitement chez Nietzsche et Freud (maîtrise de philosophie) Université Aix Marseille I , 2002-2001., p.1 ; Paul Laurent Assoun., op.cit., p.35 et 279
5 Peter HELLER : Freud in his relation to Nietzsche., (in Nietzsche and jewish culture)., p.198 et suiv.
6 Anté, 42
7 Ibid., 10
8 E. Nolte., op.cit., p.113

كل ذلك سيجد تعبيره، وبوجه آخر، مع صعود الوطنية الألمانية، ليكشف عن نمط جديد للصراع بين العقلين الألماني والألماني اليهودي، المشار إليه آنفا. فمثلا لم تمنع الهيمنة العددية على جمعية فيينا LDSW، الأعضاء اليهود من أن يَنْضَمُّوا بحماسٍ إلى الحركة الوطنية الألمانية، التي لم تكن قد تحولت إلى معادية للسامية، ومن أن ينظروا بإعجابٍ إلى وجوهٍ كنيتشه وفاغنر، اللذين بدت أعمالهم واعدة بميلاد ثانٍ للثقافة الألمانية[1]، ولذلك "تحولت فيينا، بدايةً من 1874، إلى واحدة من قلاع النيتشية الأوربية"[2].

ثمة نقطة أخرى تساعدنا على توضيح موقف نيتشه من اليهود، وتتمثل في أنه رغم الطابع الإنساني والمتفائل لفلسفته إلا أنه لم يكن يعرف، في بداية مشواره، التمييز بين مثل أعلى مرتبط بألمانيا آتية وحرة، وبين أوربا يجري إصلاحها وترغب في أن يكون الشعب الألماني هو الذي يبعث الثقافة الهلينية ويضفي بذلك طابعا جديدا على أوربا الغد[3]. عند هذه النقطة بالذات، سوف يأخذ موقف نيتشه في التطور تدريجيا وسوف تساعد قطيعته مع فاغنر ثم خلافاته المتكررة مع شقيقته "الدجاجة الرومية المعادية للسامية"[4]، إلى وضوح موقفه كَمُعَادٍ للمعادين للسامية، في نفس الوقت الذي بَدَا فيه اليهود وكأنهم "أمرٌ واقعٌ" وجب التعامل معهم بواقعية ليكونوا بذلك "آخر غربيي الغرب"[5].

تبين لنا مثل هذه النقاط أنه مع اليهود وجدت فلسفة التاريخ والحضارة النيتشية نفسها أمام إمتحان صعب مثلما سنشرح ذلك في النقاط التالية:

– **مميزات اليهود:** بالرغم من أنه من السهل علينا أن نعثر على بعض العبارات التي تَلَفَّظَ بها نيتشه والتي تنم من موقف سلبي من اليهود تأتَّى من "جرعة" طفيفة من معاداة السامية، تعود إلى المرحلة الأولى من مشواره، غير أنه من الصعب تحرير تاريخ اليهود، وخاصة يهود أوربا، من سعي البعض لجعله تاريخيا لمعاداة السامية وكأنه لا وجود سوى للعداء بينهم وبين المسيحيين؛ ولذلك يوفر لنا البحث عن مميزات اليهود، في النص النيتشي، إمكانية التساؤل عما إذا لم تكن قيمتها هي التي جعلت نيتشه يرى في اليهود عاملا أساسيا في تاريخ مستقبل أوربا والعالم؟.

بإمكاننا أن نبدأ الموضوع بطرح نوع من القاعدة في فلسفة نيتشه مفادها أنه كلما تأكدت– وذلك مايعني أيضا تحرَّرَتْ – فلسفة نيتشه كلما زادت حِدَّةُ كُرْهِهِ للمعادين للسامية وتعقدت "مواقفه" من اليهود. وأول سبب نعزي إليه ذلك هو إعتماده على نصوص سابقيه، أي على تفسيراتهم، بما في ذلك ما يدعونه نصوصا مقدسة*، ولذلك تزداد حِدَّةُ لهجة نيتشه حيال اليهود

---

1 W.J.Mc Grath., op.cit., p.219

2 De Sils-Maria à Jérusalem., op.cit., p.33

3 Elsa NUESH : Nietzsche et l'antiquité (essai sur un idéal de civilisation)., PUF, Paris, 1925, p.63

4 Nietzsche-Rée-Salomé : correspondance., op.cit., p.303

5 Shmuel TRIGANO., op.cit., p.31

* "من الناحية الشكلية إستعمل نيتشه الكثير من العبارات التي أخذها عن اليهود كقوله مثلا:"نحن من إختارهم الله" (GS, 379)"سبت السبوت" (Ess. d'auto., NT,5) "أرض الميعاد" (EH, les "inactuelles", 3) ...إلخ

بازدياد تناوله للمسيحية، وأعتقد أن رورتي Rorty إقترب من هذا الأمر حين قال بأنه "لم يسبق أبدا لنيتشيَّ الخاص بي وأن وضَّحَ مسألة معرفة إن كانت أفكاره، المعادية للأفلاطونية، بشأن موضوعات كالعقل واللغة والطبيعة البشرية وأصل الأخلاق تجبره على أن يكون قاسيا"[1]. لاشك في أنه لدى نيتشه "حِكَّة" prurit تجعله كذلك، مثلما عرفنا كيف ينقلب على كل من أخذ عنهم إلهامه، ولهذه الحكة إسم واحد: العبقرية*.

تتدرج مميزات اليهود بمعية ماانتقده نيتشه فيهم، أي ما يشكل فيهم بصفة عامة تاريخهم، ضمن العناصر التي ستسمح بـــ"انتقاء طائفة جديدة لكي تهيمن على أوربا"[2]، وذلك ما يعني إذابة اليهود في أوربا نظرا لمميزاتهم أو حتى عبرها، ومن جهة أخرى نصرة القيم الرفيعة ذي الأصل الإغريقي الروماني– أين يجد إسم أوربا معناه العميق والواسع**– لوضع بذلك حَدٍّ للصراع العميق الذي رمز له نيتشه بـــ"روما ضد يهودا، يهودا ضد روما"[3]. وبتعبير آخر، وهنا تكمن عثرة نيتشه، تصالح أوربا مع ماضيها، لأن "كل مشكلة اليهود لاتوجد سوى في حدود الدول الوطنية"[4]، ولأن حالة الإستعلاء على اليهود والنظر إليهم على أنهم "شعب وُلِدَ لِيُستَعْبَدَ" [مثلما] يقول طاسيت Tacite ومعه كل التاريخ القديم"[5]، وكذا "محاولة الناس جعلهم محتقرين عن طريق التعامل معهم باحتقار طوال ألفي سنة وبمنعهم من الحصول على كافة التشريفات"[6]، لا بد وأن تزول ولابد للجميع أن يدرك بأن "لكل أمة ولكل إنسانٍ ملامحٌ لا تثير الإعجاب، وحتى خَطِرَة، وإنه لَمِنَ الهمجية الإشتراط في أن يكون اليهودي إستثناءً(...)[وأنه] لابد من الصفح لشعب يمتلك، بشيء من خطئنا كلنا، مع بقية الشعوب، تاريخا ملْؤُهُ البؤس"[7].

ما نلاحظه على ما سلف، أن المسألة كلها متعلقة بالثقافة، خاصة إذا أضفنا إليها المنظور الذي عالجه بها نيتشه، أين قابل آسيا (أو الشرق والسامي واليهودي...) بأوربا[8]، أو"ديونيزوس ضد

=== ويمكننا حتى إدعاء أن عبارته الشهيرة: "كن على حقيقتك" جاءته أيضا من "أنا من أنا" EHYeH ASHe R EHYe H=YHWH (I. Epstein, op. cit., p.12) ؛ ثم لقد عاش نيتشه كـــ"هائم" يهودي "أين سيكون بمقدورنا إكتشاف رمز هذا الفكر الذي يبحث عن نفسه، يهرب من ذاته ويصارع نفسه" (P. Dournes., op.cit., p.34)

[1] Richard RORTY : Et Nietzsche vint en Amérique., Magazine littéraire (hors-série), N°3,2001., p.89

* أدرك الكثير من الفلاسفة والباحثين هذا الأمر ومنهم رايبارن في الفقرة التي تنتهي إلى هذه الجملة: "وقد حال ولَعُهُ وعرفانه حيال شوبنهاور وفاغنر دون تعبيره عن نفسه بحرية تامة" (H.A. Reyburn., p. 119)

[2] HTH, 475 ; Pbm, 251

** "ما هي أوربا؟ الحضارة الإغريقية وقد تطورت من عناصر ثراسية Thraces، فينيقية، الهلينية، فلهيلينية الرومان، إمبراطوريتهم العالمية، مسيحية...[إلخ]" (FP/HTH 33[9])

[3] GM, I, 16

[4] HTH, 475

[5] Pbm, 195

[6] A, 205

[7] HTH, 475

[8] Anté, 58 ; Pbm, 46 ; A, 71; HTH, 114

المصلوب"، لِيُظْهر بذلك "الهلينية والشرقية على أنهما العاملان اللذان تُحَدِّدُ لعبتهما إيقاع التاريخ العالمي، إذ كلما إنخفظ تأثير المسيحية، هذه الديانة البربرية التي هي "شظية من تاريخ الشرق القديم"، كلما انبعثت الحضارة الإغريقية"[1]. ذلك ما نلمسه بوضوح في هذه العبارة :"المسيحية أكبر تحريف سيكولوجي عرفه التاريخ(...)، ما كانت المسيحية **ترفضه** هي كبريات الأفعال الثقافية للبشرية"[2].

على كلٍّ، ثمة جملة إعتبارات– جعلت نيتشه يكرر دعوته بـــ"ضرورة أخذ المفكر المنشغل بمستقبل أوربا: اليهود والروس معا، اللذين من المحتمل أن يكونا العاملان اللذان سيدخلان مؤكدا في لعبة صراع القوى الكبير"[3]– منها :

– تقديره لقدرة الإغريق على هضم وتنظيم الفوضى الآسيوية وتمكُّنِهِمْ من تحقيق "أكبر إختلاط وأول حوصلة لكل ما جاء من الشرق"، ولذلك حين نطلع مثلا على حديثه عن "الحوصلة"[4] أو "إذابة الأمم"[5]، فإننا نفهم المغزى بسرعة ونكتشف بالمناسبة، في هذه النقطة على الأقل، بأن للتاريخ قيمة، بالمعنى المألوف لدى المؤرخين، في نظر نيتشه نفسه مهما أنكر ذلك على نفسه.

– أمله في إمكانية "خلق عرق وثقافة أوربيين صافيين" لأنه، حسب إعتقاده "من المحتمل ألا تكون هنالك أعراق صافية بل فقط أعراقٌ جَرَتْ تَنْقَيَّتُهَا، وهذه الأخيرة جدُّ نادرة. ما هو جدُّ منتشر هي الأعراق المتزاوجة(...) ولهذا صارت الأعراق المصفاة دائما أكثر **قوة** وأكثر **جمالا** – والإغريق قَدَّمُوا لنا نموذج عِرْقٍ وثقافة طُهِّرَا بهذه الكيفية"[6].

حين نعود إلى الفقرة Pbm,251، فإننا سنجد أن "المفكر المنشغل بمستقبل أوربا" هو نيتشه نفسه، وسنكتشف كيف سيبرر إذابة اليهود، بواسطة فكرة "إنتقاء العرق" هذه، في قوله التالي: "إن ما نسميه اليوم "أمة" في أوربا، هذه الذات الواقعية أكثر مما هي طبيعية(...)، هي في كل الأحوال واقع في تحول، ناشىء ، هش **ولم يبلغ بعد مستوى عرق**[نحن من وضع السطر] وأيضا أقل من بناء دائم *aere perennius*، مثلما هو الأمر بالنسبة للشعب اليهودي"[7]. وفي هذه النقطة تبرز عثرة نيتشه، المشار إليها آنفا، أكثر ويتبادر لنا حديثه عن كيفية تسبب اليهود في "تسميم الدم" بواسطة إختلاط الأعراق، في تهويد وتمسيح كل شيء أو تحوله إلى سلطة حثالة[8]. صحيح أن المقصود

---

1 Albert Levy., op.cit., p.38
2 Cré.id ; Divagation d'un « inactuelles », 21
3 A, 205 ; HTH, 475 ; Pbm, 251
4 Pbm, 256
5 HTH, 475
6 A, 272
7 Pbm, 251
8 GM, I, 9

هنا هو "العدد" مثلما يسميه، غير أنه يُحَمِّلُ اليهود مسؤولية الحالة التي آلت إليها أوربا* لدرجة أنه قال: "دَعِ الكنيسة جانبا وسَنْحِبُ السُّمَ أيضا"[1].

لا شك في أنه في رضاه بأخذ "اليهود في التزاوج مع أفضل طبقة نبيلة في أوربا" تجد "أرستقراطيته الراديكالية"[2] تعبيرها.

– عرفان نيتشه بما هي أوربا مدينة به حيال اليهود، وبصفة خاصة تاريخهم المشترك، لدرجة أن "أوربا أسقطت جزءً معتبرا من ذاتها في الكتاب المقدس"[3]، وكذا الدور الذي لعبه "أحرار الفكر والعلماء والأطباء اليهود في الإبقاء على راية الأنوار واستقلال الفكر**، رغما عن أعنف ما كان يحيك بشخصهم، حين كان ستار الغيوم الآسيوية يرخي بثقله على أوربا(...). وإذا كانت المسيحية قد فعلت ما بوسعها لِشَرْقَنَة الغرب، فإن اليهودية هي من ساهم خاصة في تغريبه من جديد: وذلك ما يعني القول، بمعنى ما، جعل مهمة وتاريخ أوروبا **استمرارية للتاريخ الإغريقي**"[4].

– رؤية نيتشه أن هنالك مؤشرات ثابتة تتجلى فيها **الرغبة في الوحدة الأوروبية**، رغم النفور المَرَضِي والشرخ الذي حفره جنون الوطنية بين الشعوب الأوروبية، ووجد تأييدا من قِبَلِ السياسيين. من بين تلك المؤشرات: تطلع جميع الرجال المُلِمِّين والعميقين في العمق، أمثال غوته، بيتهوفن، ستاندال، هاينريش هان، شوبنهاور، فاغنر***، وفي قرارة عمل نفوسهم إلى التجسيد المسبق لأوربيي المستقبل، أما إنتماءاتهم لأوطانهم فلم تكن سوى كيفية في الإستراحة من ذواتهم ودليل على ضعفهم وشيخوختهم[5]. وهكذا نصل مباشرة مميزات اليهود في فلسفة نيتشه:

*– القوة: يدرك كل مُطلع، ولأجل المقارنة، على مكانة الإغريق واليهود في نفوس الأوروبيين، حجم ما يثيره لديهم الإغريق من إعجاب بنفس القدر تقريبا من الخوف الذي يثيره لديهم اليهود. غير أن الأمر ليس تماما على هذا النحو لدى نيتشه، بالرغم من أننا لمسنا، في الكثير من الفقرات،

---

* والمسيحية آسيوية هنا(HTH,114)

[1] GM, I, 9

[2] G. Brandes., idem

[3] FP/A 1 [33]

** لم يتفطن نيتشه إلى الدور الذي لعبه المسلمون في انتقال الحضارة وفي الحفاظ على التراث الإغريقي وإيصاله ثانية بمعية يهود العالم الإسلامي، إلى أوربا، وكل ذلك بالرغم من معرفته بالدور الحضاري للمسلمين، الذي أغفله في هذا الموقع. فقد ذكر مثلا أن الصليبيين إكتشفوا لدى الحشاشين في الشرق مبدأ **حرية** فكر حقيقية، المتمثل في القول بأن "لاشيء صحيح، كل شيء مباح"، وكان ذلك مبدأ يُشَكِّكُ حتى في الإيمان بالحقيقة؛ وقد ختم نيتشه قوله متسائلا: "هل سبق لعقلٍ أوروبي، مسيحي، أن تاه في غريب هذه المقولة، في متاهة عواقبها؟ أيعرف، **عن تجربة**، مينوطور هذا الكهف؟... أشك في ذلك، وبتعبير آخر، كان الأمر مختلفا عن ذلك".(GM, III, 24)

[4] HTH,475

*** هنا يجد قول نيتشه التالي، بشأن فاغنر، مبرره: "كراهية فاغنر لليهود شوبنهاورية الأصل. إنه لم يعرف حتى كيف يُقَدِّرهم حسب قيمتهم وفي أشهر فعلهم: لأن اليهود هم من إبتدعوا المسيحية".(GS,99)

[5] Pbm, 256

حديثه عن اليهود بكيفية مألوفة وتعكس تخوفا ذكيا منهم، ومثال ذلك: هذين القولين اللذين لم يقدم فيهما أي جديد باستثناء عكس معناهما:

أ- قوله بأن الألمان يخافون من أن يتسبب قدوم اليهود، كعرق قوي، إلى بلادهم في محي أو إطفاء نموذجهم الإثني، الضعيف والمتذبذب[1]. ورغم معرفة نيتشه بتاريخ اليهود ومعاصرته لفترة حصولهم على حقوقهم المدنية في الكثير من البلدان الأوربية، إلا أنه لم يتفطن إلى أن مشكلتهم لا تقع في "حدود الدول الوطنية"، حتى ولو أشار إليها لاحقا بالقول بـــ"إنها قضية **عرق**"[2]، أو قال عنه يوقل: "من الممكن إعتبار نيتشه معاديا للصهيونية قبل أوانها، لأنه إتخذ مواقف معروفة من المشاكل التي إعترضت الحركة في نشأتها"[3]؛

ب- قوله أيضا: "كما أنهم يتفاهمون في كسب شعور بالقوة والإنتقام الخالد من المِهَنِ، التي تُتْرَكُ لهم (أو تلك التي يُتركون فيها)، ويجب حتى القول تبريرا لرِبَاهُمْ نفسه، أنه بدون عذاب مُزْدَريهم بهم هذا، الممتع والمفيد أحيانا، فإنهم كانوا سيتحملون بصعوبة تقديرهم لأنفسهم لمدة طويلة، لأن تقديرنا لأنفسنا مرتبط بإمكانية رد الخير والشر"[4]. إذن فلنيتشه أسباب وجيهة جعلته يُعجب باليهود ويكتشف فيهم ما يؤهلهم لأن يشكلوا مستقبلا عاملا حاسما في تاريخ مستقبل أوربا والعالم، أي ما يمكننا أن نفترضه أنه إجابة توصَّل إليها نيتشه، حين تساءل عن السبب الذي جعل هذا الشعب الصغير الآخر، المشتت وسط شعوب العالم، على ذلك القدر من الأهمية في التاريخ البشري لأزيد من عشرين قرنا؛ وطبعا أول سبب يتبادر لنا، وينسجم مع فلسفة نيتشه، هو عنصر القوة، رغم أن التفسير بإرادة القوة سيختفي في أكثر من موقع وخاصة في Antéchrist.

ترتبط قوة اليهود بـــ "نشاطهم وذكائهم المتفوق وكذا برصيدهم من الفكر والإرادة، الذي جمعوه، جيلا بعد آخر، في مدرسة الويل"[5]، وخاصة "في أوربا، أين زاولوا تعليما طوال ثمانية عشر قرنا، بالكيفية التي لم يَحْظَ بها أي شعب آخر، لدرجة أن تجارب زمن المحن الرهيب هذا لم تكن في صالح المجموعة بل الفرد، والنتيجة هي أن ثروات الروح والعقل صارت خارقة لدى اليهود؛ فضمن جميع سكان أوربا، إنهم هم من نادرا ما يلجأون إلى المشروبات الكحولية والإنتحار للهروب من هذا الإضطراب العميق"[6]؛ إنهم هم من قال بشأنهم زرادشت: "شَرِّفْ أباك وأمك وكن في خدمتهما من صميم فؤادك": إنها لوحة الإنتصار على الذات هذه هي التي علَّقَهَا شعب آخر أعلاه مما جعله قويا وخالدا"[7]، أي أن "كل يهودي يجد في تاريخ آبائه وأجداده مصدرا لأمثلة دائمة وثباتا وسط وضعيات رهيبة وخِداعات جِدُّ بارعة لمواجهة الويل والصدفة"[8]. نتيجة

1 Pbm, 251
2 Anté, 44
3 Y. Yovel., op.cit., p. 282
4 A, 205
5 HTH, 475
6 A, 205
7 APZ, des 1001 buts., p.78
8 A, 205

كل ذلك، أن اليهود لم يؤمنوا بأنهم "شعب الله المختار" فحسب بل أيضا "قسموا العالم إلى يهود وغرباء gentiles، ولم يتغير هذا الأمر إلى اليوم وستظل كل الثرثرة بشأن الوفاق اليهودي-المسيحي بلا معنى، لأن أمر وجود مسيحيين لم يدخل بعد ضمائر اليهود، وكل من يقول بغير هذا فهو يقوم به لمصلحة"[1]. لقد تمكنوا من حماية أنفسهم بواسطة استجابتهم "لشريعة موسى، التي تُحَرِّم عليهم الإختلاط بالأمم الوثنية التي كانت تحيط بهم"[2]. تجسدت تلك الإستجابة خاصة في "مصلحتهم في زواجهم وأعرافهم الزوجية"[3]، مما جعلهم "العرق الأقوى والأكثر مقاومة والأنقى في أوربا"[4]؛ وطبعا لا مجال للحديث هنا عن "غريزة القطيع" طالما أن نيتشه تناساها؛

- قلب القيم: هنا تجد غريزة اليهود أوضح تجلياتها وتُظهر أن الشعب اليهودي، على حد تعبير أوسكار ليفي، "لم يُخْتَر لجماله كالإغريق بل أُختير فقط لأخلاقه(...) التي هي لعنات المسيح"[5]. وهنا أيضا يظهر موقف آخر لنيتشه حيالهم وتتداخل أفكاره بالكيفية التي لا نفهمها سوى إذا عرفنا أنه في قلب اليهود للقيم زيادة في إرادة قوتهم، مثلما أشرنا إلى ذلك في موضوع اللغة (ص،40 وما بعدها). في هذه النقطة أيضا، تتداخل أشكال اليهودية الثلاث في ما بينها ويختفي أحيانا الفصل بين العهدين القديم والجديد، مثلما يختفي التمييز بينهما وبين المسيحية؛ وباختصار، يقدم لنا نيتشه تاريخا آخر لليهود، مبني على نتائج ما جادت به عبقريتهم، يقارنه دائما تقريبا بالإغريق والألمان، مثلما نجد ذلك في FP/A ، الذي تعود فقراته إلى سنوات 1879-1881. فهل يعني ذلك أن إعجاب نيتشه باليهود لا يعدو أن يكون أكثر من تبيانه للمدى الذي يمكن للضعف أن يبلغه؟ ألا يدخل ذلك في لعبة الثنائيات لديه؟ أم أنه، ومنذ أخذ يُصَوِّبُ مدافعه نحو اليهود، إبان المرحلة الأخيرة من حياته، أفصح عن أنه هو حقيقة ديونيزوس؟ أعتقد أن هنالك بعض الفقرات التي تكشف عن إزدواجية موقف نيتشه من اليهود، وهي الفقرات** التي لا ينتبه إليها كل من يركز على مضمون الكتب المنشورة، سنذكر ثلاثا منها كأدلة على أنه لم يتخلص تماما من أفكاره الأولى:

1- "ليس صحيحا أن الإغريق لا يأخذون بعين الإعتبار سوى هذه الحياة- لقد كانوا يعانون أيضا من أفكارٍ بشأن الموت والجحيم، غير أنه لا وجود لــ "توبة" أو ندم عندهم"[6]؛

---

1 Taubes., op.cit., p. 41

2 L'Abbé F. Joseph BIET : l'école juive d'Alexandrie., librairie classique d'Eugène Belin., Paris., 1854., p.1

3 A, 205

4 Pbm, 251

5 Dan Stone., op.cit., p.272

* مَيَّزَ نيتشه بين ثلاثة أشكال لليهودية هي: 1- مرحلة العهد القديم السابقة للأنبياء؛2- مرحلة الهيكل الثاني والأنبياء التي نشأت إبانها المسيحية؛3- مرحلة يهود الشتات (Anté, 25 ; Yovel., 11 ; M.F. Duffy., p.302)

** نستثني من ذلك بعض "المتحزبين" مثل "ساره كوفمان، التي استبعدت في كتابها: "إحتقار اليهود"، نصوصا عنيفة لنيتشه ضد قدماء اليهود، رغم أهميتها في فهم موقفه بصفة عامة".(Yovel., op.cit., p.19)

6 We philologists, 139, p.167

2- "هناك ملمحٌ **مسيحي** في العهد القديم- بداية تصور ميلاد إله محبة"[1]؛

3- "أفضل مبارز هو ذلك الذي يختار نَدًّا في مستواه، ندًّا قديرا وقويا؛ وعليه، فقد ظلت محاربة اليهود مؤشرا على طبيعة منحطة، محسودة وحقيرة ولا بد وأن يكشف كل مشارك فيها اليوم عن كونه ذا ذهنية رعاعية بشكل مقبول"[2].

سوف نلاحظ كيف سترتبط الفقرات الثلاث تباعا مع "الخطيئة"، الخلط بين العهدين: القديم والجديد، ومعاداة السامية.

سؤالنا الآن: ما الذي ابتدعه اليهود باعتبارهم "العبقرية الأخلاقية بين الشعوب"؟[3]

الإجابة: أشياء عديدة كالنبي، المُخَلِّص، الإله المقدس، الخطيئة، يسوع الناصري[4]... إلخ، والباقي إِنْجَرَّ عنها.

لِنُقَدِّمَ الآن بعض الأمثلة:

1- الخطيئة: شعور إبتدعه اليهود ليعبِّروا عن تقصيرٍ في حق الإله، بعد فصلهم هذا الشرقي المتعطش للشرف عن البشرية، من خلال التركيز على العواقب الميتافيزيقية لأفعال الناس بالكيفية التي تجعل الطبيعي في ذاته بلا جدوى. إنه شعورٌ مخالفٌ تماما لشعور الإغريق الذين وجدوا في انتهاك المقدسات فعلا مُنَبِّلاً لهم[5]. حين ظهرت المسيحية، فإن مؤسسها، الذي لا خطايا له، تخيَّل أنْ لا شيء يثير المعاناة للناس أكثر من الخطايا، وقد كان ذلك خطأً لأنه قَلَّمَا كان شعبه يشعر بذلك الشر[6]، وذلك ما يعني أن الخطيئة مكيدة وسوف يعمل المسيحيون باسمها على تنجيس التعاسة[7].

2- الإله المقدس: "في البداية، وخاصة في زمن الملكية، إرتبط إسرائيل* بجميع الأشياء بعلاقة **عدل،** أي طبيعية، وكان يهواه son Jahvé تعبيرا عن الشعور الذي لديه عن عظمته، عن متعته في كونه على ما هو، عن أمله في ذاته؛ عن طريقه، كان الناس يرجون النصر والسلام، وفيه كانوا يثقون في الطبيعة كي تعطي الشعب ما يحتاج إليه: المطر قبل كل شيء. يهوي Jahvé هو إله إسرائيل، و**من ثمة** فهو إله العدالة، وذلك منطق كل شعب له قوة وتحصَّل عليها براحة ضمير"[8].

---

1 FP/A 7[221]

2 FP/A 6[214]

3 GS, 136

4 FP/A 3[103]

5 GS, 135

6 GS, 138

7 Anté., 25

* من الجذر العبري s,r,h الذي يعني حرفيا: "الذي يحارب إيل"(Odon Vallet in : Israel, de Moïse aux accords d'Oslo., Edition du Seuil., 1998, p.69)، ورغم ذلك سوف يجد نيتشه أن "مؤسس المسيحية يفتقر إلى الحس الحاذق، لأنه يهودي، الذي يجعله يفهم أن التنازل عن ممارسة القضاء هو الذي سيجعله موضوع محبة". (GS,140)

8 Anté., 25

إستمرت الأمور على حالتها لمدة طويلة، بما في ذلك زمن الفوضى الداخلية والتهديد الآشوري وفي عهد إشعيا Isaïe، نموذج النبي هذا (الذي يشبه الناقد والهَجَّاء في زمن نيتشه)، قبل أن تُشَوَّهَ هذه الفكرة، التي يجمع فيها الملك بين كونه عسكريا جيدا وقاضيا صارما، ليستحيل الإله القديم **عاجزا** على فعل ما كان يعرف فعله في ما مضى. وهكذا تم الفصل بين يهوي Jahvé، إله "العدالة"، وإسرائيل الذي يشكل معه كُلاًّ واحدا، وظهر إله وِفْقَ شروط، أي إله في شكل وسيلة بين أيادي المشوشين الكهنوتيين، الذين شرعوا في تفسير كل سعادة على أنها ثواب وكل تعاسة على أنها عقاب على عصيان الله، على الــ"الخطيئة"، وتَمَّ بذلك قلب المفهوم الطبيعي لــ"العلة" والــ"معلول" نهائيا[1].

بظهور المسيحية، "تحول إله إسرائيل إلى إله مسيحي، إلى النموذج المثالي لكل الخير"[2]، الذي ما أن تبادر الخضوع في وعي الشعب، كأمر أولٍ، وظهرت له فضائل الإنسان الخاضع كشروط بقاء، حتى أمسى نذلا، جبانا، متواضعا ينصح بــ"سلام الروح"، نهاية الحقد، التساهل، وحتى بالــ"محبة" تجاه الأصدقاء والأعداء[3]. وشيئا فشيئا، هبط هذا الإله إلى مستوى عصا رمزية لكل أعرجٍ ولوحةَ إنقاذٍ لكل الغارقين، وصار "إلهًا للعامة" والخطائين والمرضى. لقد إنتهى به المطاف، وبعدما كان لدين شعبه الــ"المختار" فقط، أن صار منفيا كشعبه في الطرقات ولم يستقر أبدا في أي مكان آخر إلى أن صار في بيته في كل مكان، هذا المواطن العالمي، إلى أن صار معه "أكبر عدد" ونصف الأرض، ورغم ذلك لم يصبح، هذا الديمقراطي وسط الآلهة، وثنيا فخورا بل ظل يهوديا، إلها للزوايا والخلوات الأكثر ظلمة وكافة المساكن القذرة في الكون...؛ واليوم كالبارحة، إمبراطوريته الكونية ممدودة إلى "عالم آخر" في الأعماق السفلى. لقد إنتهى به المطاف أن صار "شيئا في ذاته"[4].

3- المسيحية: "اليهود هم من إخترعوا المسيحية"[5]، و"المسيحي هو، ثلاث مرات، اليهودي"[6] مثلما هو "الخلاص، نمط حياة جديدة و**ليس** باعتقاد جديد"[7]. "ماكان ليسوعَ-مسيحٍ أن يكون ممكنا سوى في طبيعة يهودية"[8]، بل إن "المسيحية [كلها] لا تُفْهَمُ سوى انطلاقا من الأرضية التي وُلِدت فيها- لأنها لم تكن حركة رجعية مضادة للغريزة اليهودية بل كان ذلك نتيجة واستدلالا آخر من منطقها الرهيب"[9]؛ فضلا عن أن المسيحية هي التي حالت دون إدراك الناس للتزوير الذي قام به اليهود[10]،

---

1 Anté, 25
2 Anté, 17
3 Anté 16
4 Anté., 17
5 GS, 99
6 Anté, 44
7 Anté, 33
8 GS, 137
9 Anté, 24
10 Anté, 26

للتزوير الذي قامت به هي بالذات[1]، لدرجة أنه صار "بمقدور المسيحي أن يُحس بمشاعر معادية لليهود[*]، دون أن يفهم بأنه نتيجة لليهودية الوحيدة"[2].

ما أثار إعجاب نيتشه الكبير ودهشته الأكبر في كل هذا، هو إنحياز "الشعب اليهودي، بعدما وضع نفسه في شروط مستحيلة، بإرادته وببراعة يُحْتَذَى بها، إلى جانب غرائز **الإنحطاط**، وذلك ليس لكون غرائزه قد هيمنت عليه ولكن لأنه تنبأ بوجود قوة فيها يمكن الهيمنة بواسطتها **على** "العالم"[3]، وهذه هي اللحظة التي تُلامس الحالة المأساوية رغم أن نيتشه نفسه قال بأن "التراجيديا فن وذوق بقيا غريبين عن اليهودي بعمق، رغم ميله نحو السامي ورغم مواهبه الشعرية"[4] مما يجعل الإغريقي أفضل منه وِفْقَ مقياس نيتشه.

– **نتائج إبداعات العبقرية اليهودية:** تتمثل بصفة عامة في إغراءٍ نحو القيم اليهودية وتجديد المثال اليهودي، مثلما عَبَّرَ عنه نيتشه في الفقرة التالية: "ألم يبلغ شعب إسرائيل، عن طريق موارَبَةِ هذا المُخَلِّصْ، بواسطة هذا الخصم الظاهر الذي بدا وكأنه يرغب في تشتيت إسرائيل، آخر هدف في حقده السامي؟ أليس بواسطة السحر الأسود الخفي لسياسة إنتقام فظة حقيقية، تحتية، يبطأ القبض على ضرباتها وحسابها، كان حتى على إسرائيل أن ينكر ويصلب، أمام مرأى العالم، وسيلة إنتقامه الحقيقية، وكأن هذه الوسيلة كانت عدوه القاتل، كي لا تكون "للعالم كله"، أي لكافة أعداء إسرائيل، سوى شكوكا قليلة بشأن هذا الفخ؟ فهل بوسعنا أن نتخيل، مستعينين بكافة حذاقات العقل، فَخًّا **أخطر** من هذا؟"[5]. ومثلما تآمر بولس على الشريعة، في A.,68 و44.,anté ، كان لقلب اليهود للقيم أن يكون ما يعطيهم كل أهميتهم؛ فقد أذاب أنبياؤهم، وفي مفهوم واحد، مفاهيم "غني"، "كافر"، "شرير"، "عنيف"، "شهواني"، وأعطوا لأول مرة مَعْنًى مُشِينًا لكلمة "عالم"، بل وجعلوا من كلمة "فقير" معنى لـــ"قديس" و"صديق"، مما جعلهم أول من بدأت معهم **ثورة العبيد في النظام الأخلاقي**[6]، التي جَرَّتْ وراءها تاريخا من عشرين قرنا[7]، أي، في لغة المسيحية، تدجين نصف العالم[8]. لقد تمكن "اليهودي، الذي رُدَّ إلى مستوى كاريكاتور في النظام الأرستقراطي والروماني للقيم"[9]، من الإنتصار في روما نفسها وفي نصف الأرض كله، حيث أصبح الناس اليوم يَنْحَنُون

---

1 Anté, 42&44

* ربما هذه هي الفكرة التي جعلت أوسكار ليفي يرى في "المسيحية نوعا عاليا من معاداة السامية". (Dan Stone., op.cit., p.277)

2 Anté, 24

3 Anté.,24، هناك فقرات أقدم يمكننا أن نُعِدَّهَا أرضية لهذا الإكتشاف الذي توصل إليه نيتشه، وفيها مثلا قوله: "يتوافق القول بأن اليهود هم أسوأ شعب على الأرض، جيدا، مع أمر أنه بالتحديد بين اليهود نشأ الإعتقاد بغير المعصومية والدناءة التامتين للإنسان، لِيَتَخَلُّوا عنهما بعدئذ" ([20] FP/HTH 17) .

4 GS, 135

5 GM, I, 8

6 GM,I, 7 ; Anté, 27 ; Pbm, 195

7 GM, I, 8

8 GM, I, 16 ؛ Anté, 17

9 VP,I,LII, 475

أمام ثلاثة يهود وأمام يهودية: أمام يسوع الناصري وبيار الصياد وبولس صانع الخيم ومريم والدة المدعو يسوع.[1] تلكم هي غريزة اليهودي الكهنوتية، التي زوَّرَت تاريخ* العالم ثم "إنتفضت ضد "قديسي إسرائيل" وضد تدرُّجْ المجتمع و**ليس** ضد الفساد"[2]. لقد "عرف النظام الكهنوتي اليهودي كيف يقدم **كل** ما يطالب به **لنفسه** وكأنه **أمر إلهي**، وكأنه طاعة لشريعة إلهية... أي أنه لم يعتبر كل ما يساهم في حفظ إسرائيل وفي تسهيل وجوده على أنه طبيعي بل مُتَأَتٍّ من الـ"إله" نفسه"[3].

وبلغة الحضارة، تظهر المسيحية هَامَةً "متوحشةً وآسيويةً وبدون نُبْلٍ وغير إغريقية بالمعنى الأعمق"[4] و"قَلْبٌ لكافة القيم الآرية"،[5] والتي ما أن إنتشرت حتى تحوَّلت إلى "مصَّاصٍ لدم الإمبراطورية الرومانية وصَيَّرَتْ كل عمل العالم القديم **هباءً منثورا**؛ وطوال ألفي سنة، عاشت أوربا في غُربة عن القيم الإغريقية والرومانية"[6]، بل لقد حرمت المسيحية الأوربيين أيضا من حصاد الثقافة **الإسلامية**، بعدما **داست بأقدامها** الحضارة المورية الرائعة في إسبانيا ومارست بالحروب الصليبية قرصنة على نطاق واسع في المشرق الإسلامي[7].

"صحيح أنه، أثناء النهضة، حدثت يقظة رائعة للتقدير النبيل لكافة الأشياء وأخذت روما القديمة تضطرب وكأنها تستفيق من سُبات، منهوكة؛ غير أن يهودا أخذت بسرعة تنتصر من جديد بفضل حركة الحقد هذه (الألماني والأنجليزي) الدهمائية في العمق، والتي نسميها الإصلاح، دون نسيان ما سَيَنْجَرُّ عن ذلك من إصلاح للكنيسة وإعادةُ نَشْرٍ لسكونِ القبر على روما الكلاسيكية. وفي معنى مصيري أكثر، وأكثر راديكالية أيضا، حققت يهودا إنتصارا جديدا على المثل الأعلى الكلاسيكي مع الثورة الفرنسية، حين تَهَاوَتْ آخر طبقة نبيلة سياسية لا تزال قائمة إلى وقتئذ في أوربا، طبقة نبلاء فرنسا القرنين السابع عشر والثامن عشر الفرنسيين[8].

أهم ما نلاحظه على ما سلف، وعلى صلة وثيقة ببحثنا، هو تشابه الألمان باليهود، وذلك دليل على المنظورية التي عالج بها نيتشه موضوع اليهود مثلما نجدها في فقرة تعود إلى الفترة الوسطى من إنتاجه الفلسفي، أين قال: "خرجت المسيحية من اليهودية(...) ونَمَتْ في أحضان العالم الروماني إلى أن أثمرت غِلالاً يهودية ورومانية. لقد وجدت هذه المسيحية الهجينة في الكاثوليكية،

---

1 GM, I, 16

* تزوير التاريخ عادة يهودية قديمة، فقد تمكَّن مثلا يهود في الإسكندرية من تأليف أشعارٍ بأسماء عظماء الإغريق مثل هوميروس وهزيود ثم نسبوا تواريخَ لعظماء إغريق آخرين مثل هيكاتي الأبديري وكليودام، كما حرَّفوا أعمال لفلاسفة كفيطاغورس وثوصيليد. ولكي يدفعوا بالإغريق لاعتناق معتقداتهم، فإنهم جعلوا من عظماء التاريخ القديم، منتحلين للشريعة الموسوية كما جعلوا من شخصيات يهودية مرموقة، أوائل المؤلفين في الحكمة ...إلخ (L'Abbé F. Joseph Biet., op. cit., p.342)

2 Anté., 27

3 VP, I,LII, 379 modifiée

4 HTH, 114

5 Cré.id., ceux qui veulent amender l'humanité., 4

6 Anté., 58

7 Anté, 60

8 Pbm, 253 ; GM,I,16 légèrement modifiée

التي يطغى فيها العنصر الروماني، وفي البروتستانتية شكلا آخر يطغى فيه العنصر اليهودي؛ هذا لا يعني أن الجرمان، رواد الذهنية البروتستانتية، تصاهروا أكثر مع اليهود بل أنهم أكثر بُعْدًا عن الرومان من الشعوب الكاثوليكية في أوربا الجنوبية"[1]، وفي ذلك يكمن "جُنُوحُ العصور الوسطى الجرمانية نحو إسترجاع التدرج الآري للطوائف"[2].

أعتقد أنه إلى هنا نكون قد تحصلنا على جملة العناصر التي تدخل في صياغة المشروع النيتشي والذي ستكون فيه النماذج الثلاث (الإغريق واليهود والألمان) ضرورية؛ وسيكشف لنا العنصر التالي، حول الألمان، أن نيتشه اصطدم فعلا بمشكلة مستعصية الحل، لأن تلك المقارنات، التي عقدها بين تلك النماذج، لم يكن يهدف من ورائها فقط إلى إخضاع اليهود والألمان للمعيار الإغريقي، بل البحث عن عنصر القوة والنبل والذوق الأرستقراطي فيهم أيضا، وإلا ما جدوى مقارنة "عملاق بذبابة"؟ لقد وجد نيتشه في "حقد" اليهود ذاكرة حية، ووجد في اهتمامهم بتاريخهم وإقدامهم على تشويه وتحريف تواريخ غيرهم، نكسة لنظرته إلى الوجود نظرة جمالية، ...إلخ

لا شك في أن ذلك الأسلوب الجميل، الذي تحدث به عما هي أوربا مدينة به حيال اليهود في Pbm, 250، لا يكشف عن توازن نيتشه فحسب بل أيضا عن شعوره بالغيرة التي تحدث عنها طوب[3].

هل نقصد من هذا أن حديث نيتشه عن اليهود فيه شيئا من ذاته؟ الإجابة نعم.

4- **الألمان:** من بين المؤشرات على أن الألمان (ومعهم اليهود)، ومثلما أشرنا إلى ذلك من قبل، أفضل العارفين بفلسفة نيتشه: قول ياسبرز: "يتجلى حب نيتشه لكل ما هو ألماني(...) بواسطة نقدٍ يزداد حماسا على مَرِّ أيام حياته"[4]، وهو قول يُلخص بعمق ما يدعوه التعبير الشعبي الفرنسي: "حب أبقار"، ذلك أن نيتشه لم يَخُصْ بعض المفكرين الألمان بمؤلفات، كشوبنهاور وفاغنر وشتراوس، فحسب بل لا يخلو أي واحد من أعماله من حديثه عن ألمانيا والألمان أيضا؛ وبإمكاننا أن نتساءل مثلا عن مغزى نهاية الجملة، التي سيلي ذكرها، التي نجدها في واحد من آخر مؤلفاته، إن لم يكن تعبيرا عن حب عميق للألمان؟: "بيد أنه لا شيء هنا يمنعني من أن كون فَظًّا وأقول للألمان بعض الحقائق القاسية: **وإلا من سيفعل هذا ؟**"[5]. وأكثر من ذلك، ما معنى قوله أنه أعطى الألمان– الذين ظل "الكتاب المقدس أحسن كتاب لديهم"[6]– "أعمق الكتب التي يمتلكونها"[7]،

---

1 FP/A, 3[137]
2 VP,I,LI, 350
3 Taubes., op. cit., p. 126
4 Jaspèrs., op. cit., p. 229
5 EH, CW, 2
6 Pbm, 247 trad. modifiée
7 CW, second post-scriptum., p.50

حتى ولو ظل يشتكي كونه غير مقروء من قبلهم[1]، أو حتى كون كتبه عميقة "سبب كافٍ لكي لا يفهمونها بتاتا؟"[2]؟. على كل، يمكننا توضيح علاقة نيتشه بالألمان بواسطة أربعَ نقاط أساسية:

- تأثره بكبار المفكرين والفلاسفة الألمان، أمثال هيغل وكانط وليبنتز وشوبنهاور وبوركارت وفاغنر وغيرهم؛ وسواء أفصح عن ذلك أو لم يفصح، فإن كل مُطَّلِعٍ على أعماله، يكتشف فيها ذلك بسهولة؛

- من بين أولئك الذين تأثر بهم، نجد غوته، الذي منحه إسم **ديونيزوس**[3]، الإسم الأكثر تشريفا عنده، حيث شاطره انتقاده للألمان، مثلما نجد ذلك في الكثير من الفقرات ومنها تلك التي عَنْوَنَهَا بــ: "ما هو ألماني حسب غوته"، والتي بدأها بهذه العبارة: "إنهم لا يُطَاقون حقًّا ولا يمكننا حتى قبول ما لهم من طيب، أولئك الذين لديهم **حرية في الشعور** ولا يدركون بأن إستقلالية الذوق والعقل تنقصهم"[4]. من هنا نفهم أيضا أنه لا جديد في موقف نيتشه كمفكر ألماني حيال الألمان، لأن الكثيرين سبقوه في صب نقدهم عليهم؛

- جاءت أيضا زيادة حِدَّةُ نقده للألمان بسبب قطيعته مع فاغنر، إذ غالبا ما ينتقدهم فيه وكأنه "الشجرة التي تخفي الغابة"، ومثال ذلك: ما سجله في مقدمة ثاني كتاب له إستهل به مرحلته الجديدة، بعيدا عن تأثيرات فاغنر، حيث نقرأ فيها: "لقد كان لابد لي أن **أنصرف:** وقد تَبَيَّنَ لي ذلك بسرعة، فريشار فاغنر، الأكثر إنتصارا في الظاهر، لم يكن في الحقيقة سوى رومانسيا، متداعيا ويائسا، إنهار فجأة(...). ألم تكن لدى أي واحد من الألمان عينان لكي يرى ولا إشفاقا في الضمير كي يرثي هذا المشهد المقرف ؟"* ؛

- لا يندرج كل ما كتبه نيتشه عن الألمان- أعداءه **الشخصيين** في Anté., 61- ضمن نقده بل هناك عدة فقرات سَجَّل فيها إعجابه بهم أحيانا وببعضهم أحيانا أخرى أمثال "فريدريك الثاني، العبقري الوحيد بين أباطرة ألمانيا"[5]، بل إن محاولة وضع حوصلة لما كتبه حول كل ما هو ألماني، لَتَجْعَلُ فهم من هو الألماني أمرا مستعصيا، أكثر صعوبة من فهم من هو اليهودي عنده؛ وأعتقد أن في قوله: "لا تزال مسألة معرفة "ما هو ألماني"، لدى الألمان، قضية الساعة دائما"[6]، شيء من حقيقته وموقفه هو أيضا منهم. ثم كيف لنا أن نفهم من هم الألمان إذا كان قد شَتَّتَهُمْ إلى:

- ألمان وألمان يهود[7]؛

---

1 EH, CW, 4, p. 186
2 Cw., idem
3 Cré. id., divagation d'un «inactuel», 49
4 OSM,302

* من بين الأدلة التي توضح أن نيتشه انتقد كثيرا الألمان في فاغنر، تسجيله لكل نقده للألمان تقريبا في الفقرة: EH, CW

5 Pbm, 209 ; Anté, 60
6 Pbm, 244
7 NCW, intermezzo. , p. 65 ; Pbm, 251 ; EH, CW, 4

– ألمان– ظواهر أوروبية (أو أوربيون جَيِّدُون): أي أولئك الذين "ترعرعوا فوق الروح الألمانية لأنهم نَهَلوا من التاريخ القديم ومن الحياة والرحلات"[1]، ومنهم :

– ليبنتز Leibniz: ببصيرته الخارقة، التي لم تُعطه الحق فقط ضد ديكارت فحسب ولكن أيضا ضد كل الفلسفة التي سبقته، حين أدرك أن الوعي ليس سوى حدثا للتمثل un accident de la représentation وليس صفة ضرورية ومهمة فيه، وأن ما نسميه وعْيًا، ليس سوى شرطا لعالمنا الفكري والأخلاقي (ولا يزال عمق هذه الفكرة لم يُسْتَنفذ بعد إلى اليوم) ؛

– كانط Kant: وعلامة الإستفهام الهائلة التي وضعها بمحاذاة الـــ"سببية"– "ليس كَهَيُومْ Hume الذي شكَّكَ في شرعيتها، بل بالعكس فقد بدأ وبحذر، بتحديد المجال الذي يكون لها معنى ما بداخله (ولازلنا إلى اليوم عند هذه النقطة)؛

– **هيغل:** الذي تمكن، بقوله بأن الأفكار تنشأ من بعضها البعض، من تهيئة الأرضية لظهور فكرة التطور؛

– **شوبنهاور:** كـــ**أول** فيلسوف ملحد، مقتنع وعنيد، والذي طرح سؤالاً، بشأن **معنى الوجود**، سيحتاج لقرون عدة كي يكون مفهوما تماما وفي جميع أعماقه[2].

– **غوته** : الذي أَلَّفَ أعمالا فوق الألمان[3] ، مما جعلهم لا يعرفون ما يفعلونه به، فكان ظهوره غير ضروري لهم[4]، "بل حدثا لأوربا ومحاولة كبرى لتخطي القرن الثامن عشر عن طريق العودة إلى الطبيعة مع **الإرتقاء** إلى مستوى طبيعيي النهضة؛ وكمجهود لهذا العصر لتجاوز ذاته"[5]؛

– **نيتشه[6]**: رغم أنه سيدعي في موقع آخر أنه لا يزال أكثر بولونية[7].

– **ألمان شماليين وألمان جنوبيين:** رغم حديثه عن الروح الألمانية، إلا أن نيتشه ميَّز بين ثقافة ألمان الشمال وألمان الجنوب[8]، مثلما ميز بين شمال أوربا وجنوبها[9]، ويبدو أنه في المقارنة مع الإغريق والرومان يتحدد أمر إن كان الألمان شماليين أم لا[10]، وتلك مقارنة تعود أصولها إلى "ميلاد المأساة"، أين قابل الساميين بالآريين[11]، وهي الفكرة ذاتها التي نجدها في قلب ما يحدد به نيتشه علاقة شمال وجنوب أوربا بالكنيسة. ومثال ذلك قوله: "تستند الكنيسة الرومانية بِرُمَّتِهَا إلى حذر الطبيعة البشرية الجنوبي، الذي ظل دائما غير مفهوم في الشمال. لقد ورث الجنوب الأوربي

---

1 OSM,170
2 GS,357
3 OSM,170
4 VO,90
5 Cré. id., divagation d'un «inactuel»,49
6 GS,377
7 NCW, intermezzo., p. 65
8 OSM,324
9 GS, 350 ; Pbm, 48 ; Anté, 19
10 A,207
11 NT,9., p. 90-92

هذا الحذر من المشرق العميق، من آسيا الغربية القديمة، أرض التأمل؛ بل إن البروتستانتية ثورة شعبٍ لصالح الناس النزهاء، سليمي النية، البسطاء (وقد كان الشمال دائما أكثر عذوبة وسطحية من الجنوب)"[1]. طبعا سوف يتكرر هذا الكلام مع الألمان في فقرة تالية، مع إستبدال أوروبا بألمانيا[2].

– ألمان بمشارب متعددة[3] وبمشاعر مطلقة[4]: وقد ذكر نيتشه أن الحضارة الألمانية ظلت تترك لديه دائما أثرا للإنحطاط. فالألمان يَصِلون دائما متأخرين جدا وفي **داخلهم** شيئا من العوالق، فمثلا: تبعية **كانط** لروسو والحِسَّويين وهيوم وســـڤيدنبورغ Swedenborg، وكذا تبعية **شوبنهاور** للهندوس والرومانسية وفولتار، وأخيرا تبعية فاغنر للفرنسيين وخاصة للأوبرا الكبيرة عندهم[5]، النتيجة هي أن "شوبنهاور عدو لموسيقى فاغنر، وفاغنر عدو لسياسة بسمارك، وبسمارك عدو لكل فاغنرية ولكل شوبنهاورية"[6]؛

– **قدماء الألمان:** بالنظر إلى مضمون العدد اليسير من الفقرات التي أشار فيها إليهم نيتشه، يظهر قدماء الألمان ضمن المجموعة البشرية الآرية والذين يعنيهم، أكثر من غيرهم، بحديثه عن "الروح الألمانية"، ومن ثمة فهم الذين عَقَدَ عليهم آماله في كتبه الأولى، وبشأنهم أيضا تباينت مواقفه بين مُدافع عنهم وناقد لهم، مثلما نفهم ذلك من هاتين الفقرتين:

– "لم يكن تطور الدولة الكهنوتية اليهودية أصليا: فقد وجدوا نموذجهم في بابل: والنموذج آري. وإذا كان هذا النموذج قد انتصر لاحقا في أوربا، بفضل غزارة الدم الجرماني، فلأن ذلك يتوافق مع العرق المهيمن، وذلك فعل تأسُّليةٍ. جنحت العصور الوسطى الجرمانية نحو إسترجاع التدرج الآري للطوائف"[7]؛

– "إن العصر الوسيط الأعلى، وحين لم تكن الكنيسة سوى معرضَ وحوشٍ، كانت المطاردة دائبة في كل مكان للقبض على أجمل نماذج "البهيمة الشقراء"، حيث كان الـــ"طلب" يزداد على الجرمان الرائعين"[8]. وهكذا يظهر هنا الألمان في شكلِ مِحَكٍّ آخر يصطدم به نيتشه، وشعب قريب من اليهود، مثلما صرَّح بذلك في قوله: "تكفي مقارنة اليهود بشعوب لها مميزات قريبة كالصينيين والألمان مثلا"[9]؛ وبتعبير آخر، فإنه هنا يكمن ما لم يغفره نيتشه بتاتا للألمان: "إستعدادهم للدين وقلة فطنتهم له"[10]. وبهذا المعنى فَهُمْ أقلُّ قرابة من الإغريق بالفرنسيين[11]، الذين غالبا ما يقارنهم

---

[1] GS,350
[2] GS,358
[3] VP,II,LIII, 44
[4] A,167
[5] VP, II, LIII, 44
[6] A, 167
[7] VP,I, LI, 350
[8] Cré. id., Ceux qui veulent amender l'humanité,2
[9] GM,I,16
[10] Pbm,48
[11] HTH,221

بهم، ومن ثمة فإن ما ينتقده نيتشه في الألمان: هي الروح اليهودية-المسيحية والآسيوية فيهم، مثلما نستشف ذلك بصفة خاصة مما يعجبه من مميزاتٍ فيهم.

على كلٍّ، فقدماء الألمان شعب إنحدر من أعراق بربرية[1] واختلطوا بأعراق شتى، وربما مع غلبةٍ للعنصر ما قبل الآري[2]. إعتنق جزء منهم (القوط) المسيحية وأطلق إسم "الوثنيين" die Deutschen على الجزء الذي تَخَلَّفَ في إعتناقها[3]، وهو الإسم الذي لا يزال يحتفظ به الألمان إلى اليوم.

عُرف الألمان بإيمانهم وذودهم عن المسيحية، ولذلك لا غرابة في أن يكون الأسقف أولفيلاس Ulfilas، الذي ترجم الكتاب المقدس إلى القوطية وكتب موضوعات دينية في قالب نثري منذ نحو خمسة عشر قرنا[4]، وبتعبير ما، جَدًّا لمارتن لوثر، الذي يمثل بترجمته الكتاب المقدس إلى الألمانية وبمساهماته الأخرى، آخر أكبر حدث في تاريخ الألمان[5]. وفَضًّا عما قام به الفرسان التوتون في أوروبا، فإن الألمان، نبالةً وفرسانًا، كانوا أداة طَيِّعَةً في يد الكنيسة في ضرب الحضارة الإسلامية وخاصة إبان الحروب الصليبية[6].

عُرف الألمان بأنهم "شعبُ مفكرين"[7]، لأن بلادهم أنجبت الكثير منهم، لتصبح محل تقدير واحترام الجميع. ومن بين الذين يعترف لهم نيتشه بإمكانياتهم وإبداعاتهم، نذكر ثلاثة موسيقيين: هاينريش شوتز H. Shütz وباخ Bach وهايندل Haendel[8].

في الأخير، ما الذي نفهمه من تشتيت "ذُرَى" ألمانيا هؤلاء ؟ لأي غرض يفعل نيتشه بالألمان كل ذلك؟ الإجابة التي قدمها هي: "إذا استعرضنا مثلا كل ما سبق له وأن دُعِيَ ألمانيًّا، فإنه لابد من تعديل السؤال النظري: ما هو الألماني ؟ إلى: ما الذي صار **الآن** ألمانيا ؟- وكل ألماني **جيد** سيعالج عمليا هذا السؤال عن طريق تجاوز مميزاته الألمانية(...)؛ وعليه فمن الواجب على الذي أراد بالألمان خيرا أن يسهر، من جانبه، على أن يكون باستمرار أعلى مما هو ألماني. إنه لهذا السبب ظل **التوجه** نحو ماهو **غير ألماني** يشكل دائما ميزة الرجال المتميزين وسط شعبنا"[9].

كما نلاحظ فإن "الألماني **الجيد**" مرحلة سابقة لـــ "الأوروبي الجيد"، رغم أن الأول قد يكون الإثنان معا، مثلما هو الشأن بالنسبة لكانط A,3 وكانط GS,357؛ وعموما فإن الفقرة كلها تُنِمُّ عن طابع الروح الألمانية.

---

1 Pbm,48
2 Pbm,244
3 GS,146
4 VO,90
5 VP,II,LIV,424
6 Anté.,60
7 Cré. id., Ce qui manque aux Allemands.,1; GM,II,3
8 NCW, intermezzo., p. 65
9 OSM,326

- **مميزات الروح الألمانية:** هي ما يشكل حقيقة الألمان الثقافية والتاريخية، التي تميزوهم عن غيرهم من الشعوب الأخرى، والتي تحدث عنها نيتشه كثيرا، أحيانا بطريقة مباشرة وأخرى بطريقة غير مباشرة، مثلما يدل على ذلك العنصر الذي عنونه بـــ"ما ينقص الألمان" في كتابه .Cré. id.

بصفة عامة، تدور جميع عناصر الروح الألمانية حول فكرة واحدة هي: المصير، وذلك ما فهمه برترام حين إنطلق من قول شوبنهاور، بأن "حقيقة المادة **هي** أثرها (Wirken)"، ليستلزم بأنه من الصحيح التدليل بالألمانية على جوهر كل مادة بـــ Wirklichkeit (الواقع)، وهي الكلمة التي يظهر وَقَعُ صوتها في شكل أوضح من كلمة Realität. وفي الحقيقة فإن برترام حاول تقديم أمثلة على فكرته، التي سبقه إليها نيتشه، من أقوال لهيغل وفيخته وشليغل ونوڤاليس وغوته وهولدارلين ...إلخ[1]، الأمر نفسه تقريبا بالنسبة لمعظم من تناولوا هذا الموضوع عند نيتشه ومنهم على سبيل المثال لا الحصر:

- ستيوارت، الذي رأى أن "نيتشه هو بطل الروح الألمانية ليس كمُتَضَمَّنٍ فيها بل كمخالف للرايخ الألماني"[2]؛

- دورن، الذي فهم جيدا أنه "لا معنى للمكتمل لدى الألماني"[3]؛

- ليڤي، الذي ربط الفكرة بالإغريق فوجد أن "أفلاطون وغوته وقفا إلى جانب فلسفة المصير، بينما أرسطو وكانط إلى جانب فلسفة الوجود، وهنا لدينا الحدس قُبَالَةَ التحليل"[4].

الغريب في هذا الفهم أنه لا يبرر نقد نيتشه للألمان سوى في بعض الفقرات النادرة من نوع تلك التي قال فيها: "ربما وقع الألمان ببساطة في مناخ **غير ملائم**. هناك شيء فيهم قد يكون **هلينيا**، يستيقظ مع كل إحتكاكٍ بـــ**الجنوب**[5]، أما تلك التي وصف فيها الألمان بالمُجْتَرِّين[6]، أو قال فيها : "يمثل اللاإعتقاد عندنا عودة إلى روح (أو إلى البربرية) العرق"[7]، فلا أعتقد ذلك خاصة وأنه سبق لنا وأن سقنا المثال الذي رأى فيه أن "نشأة الإصلاحات في ألمانيا، التي كانت فيها الكنيسة الأقل فسادا، دليل على إشمئزاز قوي من أدنى بداية للفساد"[8].

لخَّصَ نيتشه الروح الألمانية بلسان زادشت قائلا: "كن وفيا واربط شرفك ودمك بقضايا خطرة، محبة للوفاء": بإعطائه نفسه هذا الإعتقاد، فإن شعبا آخر انتصر على ذاته؛ وبسيطرته على

---

1 Ernst BERTRAM : Essai de mythologie., trad. de l'allemand par Robert PITROU., Ed. du Félin., 1990., p. 192-221

2 H. L. STEWART : Nietzsche and the ideals of modern Germany., Edward ARNOLD., London, 1915., préface., p. 5

3 P. Dournes., op. cit., p. 87

4 Albert W. Levy., op. cit., p. 112

5 VP, II, LIV, 424

6 NCW, Où Wagner est à sa place

7 Pbm, 48

8 GS, 148

ذاته بتلك الكيفية، فإنه صار حابِلا مُثْقَلاً بتطلعات عظمة"[1]. وبقليل من الشرح، ميَّز نيتشه الروح الألمانية بعدد من النقاط منها:

– **الطاعة:** خلافا للإغريق الذين يمثل التميز الشخصي فضيلتهم، فإن الخضوع والطاعة، في السر وفي العلن، هي فضيلة الألمان قبل كانط بمدة طويلة وقبل أمره النهائي impératif catégorique؛ فقد قال لوثر، مُنْقَادًا بالشعور ذاته، بأنه لابد وأن يكون هنالك كائن يقدر الإنسان على الثقة فيه تماما. لقد كان ذلك دليله على وجود الله؛ وبكيفية فظة وأكثر شعبية من كانط، كان يريد من الناس أن يُطيعوا بعماء، ليس فكرة، بل إنسانا، وذلك شعورٌ يثير سخرية الإغريق والرومان الذين لا تسمح لهم حرية تفكيرهم الجنوبي بقبول هذه الثقة المطلقة، ففيلسوفهم كان يذهب إلى أبعد من ذلك ليرى كل الفلسفة في مقولة "لا تتعجب من أي شيء" *Nil admirari*.

مشكلة الألماني أنه قادر على أشياء عظيمة، إلا أن إحتمالات إتمامه لها قليلة لأنه يطيع **أينما يكون قادرا**؛ وإذا حدث وأن وُضع في وضعية صعبة تقتضي منه أن يبقى وحيدا ويُزيح كسله، وإذا لم يكن في وسعه أن يتبلَّدَ كَرَقْمٍ في عدد، فإنه يكتشف قواه وحينها يصبح خَطِرًا، شريرا، عميقا وجريئا، ويكشف بذلك عن حجم الطاقة الكامنة فيه، وذلك ما يعني أيضا أنه حين يوضع في الظرف الذي يكون فيه قادرا على تحقيق أشياء كبيرة، **فإنه يترفع عن الأخلاق في كل مرة**، لأنه الآن بصدد إنجاز شيء جديد: فن القيادة الذي ظل منسيا في أخلاقه[2].

– **الاستعداد للإيمان:** مثلما لاحظنا في العنصر السابق، أين استند نيتشه إلى مقولات لوثر وكانط مثلا ليكشف عن مميزات الروح الألمانية، فإنه أيضا بعودتنا إلى مقولتين، خَلُصَ إليهما عقب مناقشته للتاريخ والفلسفة الألمانيين، نفهم مدى تدين الألمان. مضمون المقولتين هو أن "التاريخ ظل دائما ثيوديسيا مسيحية مُقَنَّعَة"[3]، والفلسفة "ثيولوجيا **متسترة**"[4]. غير أن المهم في كل ذلك هو التساؤل العميق الذي يثير هذا التدين، أي تفسير كيفية توافق معتقدات شعب صغير (اليهود)– خاضع، خَدُومٌ، متعطش بإفراط إلى التشريفات، يبحث عن مُخَلِّصٍ ليُحَقِّقَ به جميع تطلعاته، شعبٌ إعتقد بواسطة يسوع وشاؤول، اليهوديان الأكثر يهودية في جميع الأزمنة، بأن قدر كل إنسان وجميع الأزمنة وكذا قدر الأرض والشمس والنجوم متوقف على حدث يهودي– مع الجرماني الكسول، ولكن المحارب والكاسر بِحِسَّوِيَّةَ هاوي الصيد وشارب الجعة، العاجز عن الإرتفاع إلى أعلى من ديانةٍ بالكاد تليق بالهنود الحمر، والذي كان يحتفظ إلى وقت قريب بعادة ذبح الناس على حجارة القرابين[5]؟

---

1 APZ., des 1001 buts., p. 78
2 Anté.,12 ; OSM,324 ; A,207
3 RWB,3., p. 111
4 Anté.,10
5 FP/A 3[115]

الأغرب في كل هذه المقاربة بين الألمان واليهود، أن الألمان الذين إجتهدوا واستماتوا أكثر من غيرهم في الدفاع عن المسيحية والحفاظ عليها، هم الذين أصبحوا أحسن مخربيها نتيجة تصرفاتهم الشمالية، التي تنم عن عدم فهمٍ لطبيعة الكنيسة، التي تستند بدورها إلى حرية وتحررية الفكر الجنوبيتين، وأيضا إلى حذر **جنوبي** من الطبيعة ورجل العقل. فلوثر العامي مثلا، لم يكن يتمتع ببُعْدِ النظر الذي يجعله يفهم كل ما يرتبط بالسلطة الكنسية، ما قد يسفر عنه توزيع الكتب المقدسة على عامة الناس وإعادة حق الزواج لرجل الدين، والإعلان عن أن "كل واحد رجل دين نفسه" ... وغيرها، وكل ذلك من الأشياء التي تنم عن حقدٍ عميق تجاه "الإنسان المتفوق". باختصار، حين إلتقى تَسَطُّحُ الفكر الأوروبي و**تَلَطُّفِه**، وخاصة في الشمال، بإصلاح لوثر، فإنه أدى إلى زيادةٍ في حركية وقلق الفكر، في تعطشه إلى الإستقلال، في إعتقاده في حقه في الحرية ...؛ وهكذا هيأ الإصلاح أرضية الـــ"علم الحديث" وشارك في انحطاط عالم savant اليوم، في قلة إحترامه وحيائه وعمقه، وكل عامية الفكر التي كانت سِمَةَ القرنين الثامن عشر والتاسع عشر[1].

"إننا نلاحظ ما **الذي** إنتصر إجمالا على الإله المسيحي: إنها الأخلاق المسيحية نفسها، مفهوم الصدق مُطَبَّقٌ بصرامة في تصاعدٍ دائمٍ، إنه الوعي المسيحي وقد شُحِذَ على كراسي الإعتراف وأخذ يتحول إلى أن صار الوعي العلمي نفسه، الإستقامة الفكرية بأي ثمن"[2]. من هذا الإيمان بالتحديد، جاء نداء نيتشه إلى الأوربيين الجيدين، من أمثاله، في قوله: "نحن ورثة أوربا، ورثتها الأغنياء والملآى، الثَّرِيُّونَ أيضا بِفَيْضِ إلتزاماتٍ تراكمت بواسطة ألفيات من العقل الأوروبي: على تلك الحالة، "غادرنا" المسيحية، معادين لها لأننا بالتحديد "غادرنا" مدرستها، لأن آباءنا كانوا مسيحيين على إخلاص منقطع النظير، ضحُّوا بممتلكاتهم ودمهم، بمكانتهم وبوطنهم. نحن من جهتنا نقوم بالشيء ذاته ولكن لأجل ماذا ؟ (...) إجتهدوا يا أصدقائي لأن يكون لديكم إيمان**!**"[3]. ورغم هذا، فإن نيتشه سيوجه لاحقا نقدا لاذعا للألمان ويختمه بقوله: "إذا لم نقدر على الإجهاز على المسيحية، فالـــ**ألمان** هم سبب ذلك"[4].

– **المصير:** يرى نيتشه أنه ليس من قبيل العبث أن يُسمى الألمان: الشعب المغلِّط das tiusche Volk، ويرجع سبب ذلك إلى كون الروح الألمانية متعددة، متغايرة وجِدُّ مركبة من عناصر متراصَّة وفوق بعضها البعض أكثر مما هي مركبة بشكل حقيقي، وهذا راجع لخليط الأعراق الذي نشأ منه الشعب الألماني. في الروح الألمانية مغارات ومخابيء وزنزانات تحت أرضية ودروب تؤدي إلى الفوضى؛ فمثلما يحب كل كائن رمزه، يحب الألماني من جهته السحاب والمُعَكَّر والمتحرك والخاسف والرطب والمحجوب: إنه يشعر بأن كل ما هو غير مؤكد وغير مكتمل

---

1 GS, 357 ; GS, 358
2 GS, 357
3 GS, 377
4 Anté., 61

وزائل وصائر، بأنه "عميق". والألماني نفسه **لا يوجد** بل هو **بصدد** ذلك، إنه يتطور [1] لأنه من قبل أمس ومن أهل ما بعد غد، ما دام (حسب نيتشه) لا حاضر له[2]. وباختصار فالألمان، في عيونهم هم أنفسهم، شعب ينفلت من كل **تعريف**[3].

مرة أخرى، وحتى نربط هذه النقطة بعنصر اليهود، لنا أن نتساءل إن لم يكن نيتشه نفسه– الذي جعل من القوة الخالدة، إبداعا، أي **ضرورة للتدمير الدائمة** مثلما تقتضي ذلك القوة المتراكمة التي تجعل المبدع يشعر بأن الماضي لا يطاق وجدير بالنكران[4]– قد حاول تفكير المصير: فمثلما نجح اليهود في إذابة منظومة رموز (موسوي، يهودي، عبراني، إسرائيلي ...إلخ) في مفهوم واحد، حاول هو من جهته ربط الكثير من مفاهيمه، كإرادة القوة والرضى بالقدر والإنسان المتفوق ... إلخ، ببعضها البعض قبل أن يجعل مآلها في العودة الأبدية ؟ إجابتنا تكمن في أنه حاول فعلا تفكير المصير، وقد أشار إلى ذلك في قوله: "إننا هيغليون نحن الألمان الآخرون، سنكون كذلك حتى ولو لم يكن هناك هيغل، إننا كذلك مادمنا، وخلافا لكل لاتيني، نعطي غريزيا المصير والتطور مزيدا من المعنى ومزيدا من القيمة أكثر مما للـــ"كائن"[5]. ثم ماذا يعني قوله بأن "كل كلمة، فكرة مسبقة؟"[6] ماذا تعني إرادة التجاوز ؟ قلب القيم ؟ ... إلخ. هنا يعود قولنا بأن نيتشه اصطدم في اليهود بمشكلة عويصة: "يهود يمثلون القوة الأكثر محافظة في أوربا المهدَّدة وغير المؤكدة"[7]، ونيتشه يؤمن بالمصير.

– **ما الذي انتقده نيتشه في الألمان:** كثيرة هي الجيوب الخفية التي تحجبها عنا روح المغامرة والشجاعة، اللتين يتحلى بهما نيتشه، ومنها ذلك الذي نجد فيه نوعا من توازن الشخصية، الذي يذهب فيه نيتشه إلى حد الرؤية في استقدام **صينيين** إلى أوروبا، عملا يؤدي إلى الـــ"مساهمة في ضخ قليل من الهدوء والتأمل الآسيويين في الدم الأوروبي المضطرب والمهتلك(...) وكذا قليلا من التحمل الآسيوي"[8]؛ ذلك ما لاحظه عليه البعض ومنهم هيلر من خلال قوله: "هناك رجلان في حياة نيتشه، تخلَّى عنهما فكريا ولكنه إستمر في محبتهما، إحترامهما، تبجيلهما: شوبنهاور وبوركارت[9]. الأمر كذلك بالنسبة لموقفه من الألمان، وخاصة في الفقرة التي ربط فيها بين فريدرك الثاني ونابوليون بواسطة "شكوكية جريئة وفحلة، قريبة جدا من عبقرية الحرب والفتح (...). إنها الشكل الألماني للشكوكية، والذي جعل أوربا تحت سيادة العقل الألماني وحذره التاريخي والنقدي(...). ورغم كل رومانسية الموسيقى والفلسفة، فإن طاقة كبار فقهاء اللغة والمؤرخين

---

1 Pbm,244
2 Pbm,241
3 Pbm,244
4 VP,I,LI, 83
5 GS,357
6 VO,55
7 VP,II,LIII,709
8 A,206
9 Eric HELLER : the importance of Nietzsche., The University of Chicago Press., 1998., p. 50

الألمان، الفحلة، قد بدأت تُثْمِرُ تدريجيا مفهوما **جديدا** للفكر الألماني، أين إحتلت الشكوكية مكانة مرموقة(...) هذا الفكر أيقظ أوربا من "سباتها الدوغماتي"[1].

إذا أضفنا إلى هذا القول كله عبارة: "الألمان، ومثلما هم عليه (أو مثلما كانوا)، فإنهم في حالة جنينية لشيء **أعلى**"[2]، فإننا نفهم ماذا يعنيه نيتشه بسؤاله: "ما ينقص الألمان"، أي أنه بالرغم من تبخر حلمه في تحقيق نهضة ألمانية، بالإعتماد على فاغنر وبالإستناد إلى الإغريق، الحلم الذي تحمَّسَ له كثيرا إلى أن أغفل فيه الإنتباه إلى إغريق آخرين (أمثال مياندر Méandre وبلانت Plante وتيرونص Térence ... إلخ) يمثلون نهضة ما بعد إنهيار التراجيديا[3]، إلا أنه ظل دائما يعود إلى الألمان، لا لكي يجعل من العودة "إلى الأوربيانية الجيدة" عودة إلى الرشد[4] فحسب بل لكي يستبدل ألمانيا بأوربا وبكيفية جِدُّ متسترة، وإلا فيم يهمه "ما ينقص الألمان" ؟

إنتقد نيتشه في الألمان أشياء كثيرة، ومن البداية ظهرت الثقافة الألمانية شغله الشاغل، كما تحسَّرَ "لطبقتها النبيلة، التي ظلت إلى زمنه تتكون في مجملها من فقراء العقول"[5]، أي لشرط أساسي لكل ثقافة رفيعة. كما إنتقد واقع ألمانيا وروحها، وذلك ما سنوجزه في النقاط التالية:

– تعطيل التاريخ: "الألمان، مُمَهِّلُوا التاريخ **عن جدارة**"[6]، لأنهم حرموا أوربا من الحصاد ومن معنى آخر **أكبر** فترة زاهية: النهضة(...)؛ فلوثر، الراهب المشؤوم، أصلح الكنيسة وكذا– وهذا ما هو أخطر ألف مرة– المسيحية في وقت كانت فيه **مغلوبة على أمرها**(...). لقد هاجم الكنيسة– ومن ثمة! – أصلحها"[7]، ثم ماذا حصل؟

"لنستعرض الإسهامات التي جاء بها الألمان، بعملهم الفكري، إلى الثقافة العامة في النصف الأول من القرن التاسع عشر:

– أولا الفلاسفة الألمان: عادوا إلى أول وأقدم درجة في التأمل، لأنهم كانوا يكتفون بالمفاهيم بدلا من الشروح، مثلما كان يفعل مفكرو الفترات الحالمة؛ لقد بعثوا الفلسفة ما قبل العلمية؛

– ثانيا : المؤرخون والرمانسيون الألمان: هدفت مجهوداتهم العامة إلى إعادة تشريف مشاعر قديمة وبدائية وخاصة المسيحية، الروح الشعبية، الأساطير الشعبية، اللهجات الشعبية، العصر الوسيط، الزهد الشرقي، الهندوسية؛

– ثالثا: العلماء: صارعوا ضد روح نيوتن وڤولتار، ومثلما فعل غوته وشوبنهاور، حاولوا إصلاح فكرة طبيعة مؤلهة أو مشيطنة، بواسطة المعنى الأخلاقي والرمزي دائما، تقريبا، لهذه الفكرة. وقد

---

1 Pbm,209
2 A,207
3 Karl Schlechta : Le cas Nietzsche. Trad. de l'allemand par André COEUROY., Ed. Gallimard. Montrouge., 1960., p. 93
4 Pbm,241
5 A, 198, trad. modifiée
6 CW, post-scriptum., p.46
7 EH, CW ? 2, p.182

ذهب الجزء الكبير، في ميل الألمان، ضد الأنوار وثورة المجتمع والذي، بفعل خطأ جسيمٍ، أُعتبر كنتيجة لها"[1].

وهكذا، وفي الوقت الذي كاد فيه الآخرون، بواسطة جرأة عجيبة ومجهود بطولي على الذات، أن يلامسوا نمط تفكيرٍ صادقٍ، لا لُبْسَ فيه، وعلمي بالتمام، عرف الألمان، لمرتين، كيف يجدوا من جديد سُبُلاً مُلْتَوِيَّةً ليعودوا إلى "المثل الأعلى" القديم وإلى التوفيق بين الحقيقة والـــ"مثل الأعلى"– أي بسيطات المقادير للحصول على حق رفض العلم وعلى حق **الكذب**.

ليبنتز وكانط، هذين الكابحين الكبيرين للإستقامة الفكرية في أوربا!– وأخيرا، وعندما بدأ الإنتقال بين عصرين لـــ**الإنحطاط**، ظهرت في نظر الجميع **قوة عظيمة** من قوى العبقرية والإرادة، قوة قادرة للغاية على خلق وحدة أوربية، وحدة سياسية و**اقتصادية** بهدف خلق حكومة عالمية، حرم الألمان بواسطة "حروب تحريرهم"، أوربا من معنى، من المعنى الخارق الذي تضمنه وجود نابوليون(...)، لقد حرموا أوربا من معناها ومن **عقلها** وساقوها إلى مأزق"[2]. وفي النهاية، إلى ماذا إنتهى "شعب المفكرين" زمن نيتشه؟. الإجابة التي تأتينا من نيتشه هي تلك التي يستند فيها أساسا إلى ما سجله في اللاآنية الأولى:

"بيد أنه من أبغض التَّبِعَات، التي أدت إليها حربنا الأخيرة ضد فرنسا (...)، الخطأ الذي يدفع الرأي العام وجميع صناع الرأي العام إلى الإعتقاد بأن للحضارة الألمانية نصيبها في هذا النصر(...)، هذا الوهم في غاية الخطورة: ليس لأنه وَهْمٌ(...) بل لأنه قد يُحوِّل نصرنا إلى هزيمة تامة: **هزيمة وحتى تدمير العقل الألماني لصالح الـــ"إمبراطورية الألمانية"**[3]. لاحقا سيسجل نيتشه بأن "الفكر لا يثير لدى الألمان سوى الملل، فضلا عن أنهم يحاذرون الفكر، وفقط السياسة تأخذ كل جِدِّيَتِهِم في الأمور الفكرية. "ألمانيا، ألمانيا فوق الجميع": أخشى أن يكون هذا إيذانا بنهاية الفلسفة الألمانية ... في الخارج يسألونني عما "إذا كان هنالك فلاسفة ألمان؟ وشعراء ألمان؟ وكتب ألمانية **جيدة؟** مُحْمَرًّا خجلا... أُجيب: "نعم لدينا بسمارك!"[4]. وهكذا كانت النتيجة أن حقق التبجح الفكري شيئا من النجاح بسبب **إفقار** العقل الألماني، الإفقار الذي تكمن أسبابه في تغذيةٍ تتضمن، وبشكل مفرط، الجرائد، السياسة، الكتب والموسيقى الفاغنرية، والتي يجب إضافة إليها الأسباب التي تدفع إلى إختيار مثل تلك الحمية[5]، ومنها بصفة أخص علاقة نظرية التطور بالموسيقى الألمانية[6]، بالفاغنرومانيا[7].

1 A,197
2 EH, CW,2., p.182-183
3 SE,I, p.19
4 Cré.id.., Ce qui manque aux Allemands., 1
5 GM,III,26
6 Pbm,244
7 EH,NT,1., p.139

– **آفات الألمان:** في الكتاب الواحد وفي فقرتين لا تفصل بينهما سوى واحدة، مقارنة متسترة بين اليهود والألمان وبالكلمات نفسها تقريبا، فقد ذكر في إحداهما أنه "من ضمن جميع سكان أوربا، اليهود هم من نادرا ما يلجأون إلى المشروبات الكحولية والإنتحار للهروب من هذا الإضطراب العميق"[1]؛ في الثانية، ذكر أن "آفات الألمان هي، اليوم كالبارحة، السكر والميل إلى الإنتحار (وهذا الأخير مؤشر على ثقل الفكر الذي يسمح لنفسه بأن ينبت إلى حد التخلي عن كل شيء)[2]؛ هذه الفكرة سيكررها نيتشه مرارا، غير أننا سنختار إثنتين منها:

1- "خارج ألمانيا، لا وجود لأي مكان آخر أفرط فيه الناس، بكيفية مُعَابةٍ، في الإدمان على مخدري أوربا الكبيرين: الكحول والمسيحية، وقد إنضاف إليهما مؤخرا مخدر ثالث ويكفي وحده للإجهاز على كل نفاذ وسرعة بداهة الفكر: أعني الموسيقى"[3]؛

2- "إن النبالة الألمانية لَغَائِبَةٌ تقريبا في تاريخ الثقافة الراقية: ونَتَبَيَّنُ في هذا السبب... المسيحية والكحول- وسيلتي الفساد الكبيرتين"[4].

طبعا بعيدا عن أن نقول مع كبار السن في الجزائر بأن لا شيء ينقص نيتشه بغير الشهادتين لكي يصبح مسلما، ولكن الواضح هنا أن جميع عناصر فلسفته في الحضارة قد إجتمعت في هذه الفقرات، التي دَوَّنَهَا على خلفية قطيعتة مع فاغنر وتَبَخُّرِ حلمه الألماني، وبصفة خاصة العناصر الأساسية في كل نموذج ثقافي، أي ما يشكل "روحه". لنتذكر القصيدة التي نَظَّمَهَا زرادشت على شرف الملكين، والتي ختمها بقوله: "صار قيصر روما من الأنعام، بل الإله نفسه صار يهوديا"[5]، ثم نتساءل إن لم يرد نيتشه لألمانيا أن تكون أكثر مما هي؟ إن لم ينتقد فيها اليهود؟ هذا بالنسبة للإنتحار والمسيحية*، أما بالنسبة للسكر، الذي يعكس فعلا سعيا للضعفاء وراء أحاسيس وانطباعات تنم عن مسكنة روحية، فإن نيتشه لن يعد الألمان بغير الثمالة الديونيزية، بغير "الفن: العودة إلى الحياة! التحكم في غريزة المعرفة! تقوية الغرائز الأخلاقية والجمالية! لأن ذلك بدا له **كعافية للفكر الألماني كي يكون بدوره منقذا!**[6]".

– **معاداة السامية:** لا أحد أشار إلى "معاداة الآرية أو الجرمانية" لدى نيتشه– الذي إدعى أنه من أصول بولندية– بعد إطلاعه على نقده اللاذع للألمان، حتى ولو كان ذلك على سبيل الإستثناء. السبب في ذلك بسيط بالمعنى "النيتشي"، إنها علاقة فعل ورد فعل، أي أن معاداة السامية هي رد فعل على "جنون الألمان السياسي والوطني"[7]، وهي دليل على سطحيتهم[8] بدءً بفاغنر، وشقيقته

---

1 A, 205
2 A, 207
3 Cré.id.., Ce qui manque aux Allemands., 2
4 Anté., 60
5 APZ, entretien avec les rois., p. 349
* كانت المسيحية الأولى قد تسببت في وباء الإنتحار. (Anté., 54)
6 LP, 43., trad. modifiée
7 A, 190
8 Cré.id.., Ce qui manque aux Allemands., 3

التي تزوجت العنصري برنار فورستر Bernard Förster[1]، ومرورا بدوهرينغ E. Duhring [2]... وغيرهم، غير أن الكثيرين، وخاصة قبيل وأثناء الحربين العالميتين، إتهموا نيتشه بكونه وراء إيديولوجيا النازيين، بل و"مؤخرا فقط" قال ريشار روس: "كان الفيلسوف[نيتشه] يدرك ما الذي أراد إثارته بواسطة قوله بضرورة جعل الإنسان أكثر شرا، جَرِّهِ إلى بربرية جديدة، إثارة حروب مميتة"[3].

بالرغم من جِدِّيَتِهِ الفيلولوجية، إلا أنه يبدو أن روس لم يقرأ هذه الفقرة، التي سيلي ذكرها، ولم يفهم حتى قصد نيتشه بأول جملة فيها: "إننا لا نحب الإنسانية، غير أننا، من جهة أخرى، بعيدون عن أن نكون جِدُّ ألمان – بالمعنى الحالي لكلمة "ألمان"– حتى نكون الناطقين باسم الوطنية وحقد الأعراق، كي يمكننا أن نبتهج بآلام القلب الوطنية وتسمم الدم، التي جعلت من كل شعب في أوربا يتمترس ضد الآخر وكأن عُزلةً تفصلهما"[4]. لقد كان نيتشه فعلا معاديا للمعادين للسامية، غير أنه فهم أيضا المعنى العميق للإسم الذي إختاره اليهود لأنفسهم، فكتب ذات مرة يقول: "**الغريزة اليهودية للشعب المختار**": يطالبون لأنفسهم فقط بجميع الفضائل ويعتبرون بقية الناس كنقيض لهم؛ عَرَضٌ عميقٌ **لسوقية الروح**"[5].

– **الثقافة الألمانية:** نتأكد في هذا العنصر من أن نيتشه يتناول النماذج الثلاث من جانب ثقافي، وذلك ما عبَّرَ عنه بوضوح في قوله: "في كل هجوماتي، لا أستهدف الأشخاص بتاتا، ولا يؤدي لي الشخص سوى دور عدسة مكبرة تسمح لي برؤية حالة أزمة عامة"[6]، ولذلك فنقده للثقافة الألمانية سيمتد من أولى كتاباته إلى آخرها ووفق محاور محددة كمناقضته للدولة بواسطة الثقافة أو الإنتصار العسكري البروسي بالثقافة الفرنسية، وغيرهما.

يعتبر نقد نيتشه حلقة في سلسلة نقد الألمان لثقافتهم وتكفي إطلالة سريعة على مؤلف إرنست برترام، السالف ذكره، لمعرفة أن نيتشه لم يأت بأي جديد باستثناء: "تقديمه المزيد من الأسلحة، لعداء العقل ضد كيفية الوجود الألمانية، أكثر مما اقتبس منه"[7].

مع منتصف مشواره، تذكر نيتشه أيام دراسته، فكتب يقول: "حين كنتُ طالبا شابا، أعيش وسط الثقافة الألمانية، ثقافة غير المثقفين philistins"[8]، أي تلك: "البربرية الأنيقة التي تتبختر وقتذاك باسم "ثقافة ألمانيا اليوم"[9]؛ في ذلك الوقت الذي بدأ فيه نيتشه يهتم بـــ "ضرورة معرفة كيفية إيجاد الروح الألمانية في مخبأها، وراء أقنعة الموضي أو تحت ركام الأنقاض. ضرورة

---

1 Lionel Richard : Avatars d'une victime posthume., art. in Magazine littéraire., p.74

2 GM, III, 14

3 Richard Roos : Règles pour une lecture philolophique de Nietzsche., in Actes du colloque de Cerisy- La- salle (juillet 1972)., vol. 2., Union Générale d'Edition., Paris., 1973., p.291

4 GS, 377

5 VP, I , LI, 381

6 EH, pourquoi je suis si sage, 7

7 E. Bertram., op. cit., p. 128

8 OSM,1

9 Sur ANEE., 3e conférence

محبتها كثيرا حتى لا يخجل من تلك الأشكال الهزيلة، ضرورة الحذر من خلطها مع ما صار يسمى، بشيء من الفخر، "ثقافة ألمانيا اليوم" والتي هي تَشَتُّتٌ عام"[1]، ركَّزَ نيتشه في نقده للثقافة على جملة نقاط منها:

1- علاقة الدولة بالثقافة: بلغة تُنِمُّ عن إرادة إعطاء ألمانيا المكانة التي تستحقها بين الأمم الأوروبية، ذكر نيتشه أنه "في الوقت ذاته الذي بدأت تبرز فيه ألمانيا كقوة عظمى، أخذت فرنسا تنال المزيد من الأهمية باعتبارها **قوة ثقافية**"[2]، وفي الوقت نفسه كشف عن "عِدائه" للرايخ من خلال قوله: "يعني ظهور الـ"رايخ"، قبل كل شيء، في تاريخ الثقافة الأوروبية، **تحول مركز الثقل** (...). لم يعد الألمان يلعبون أي دور، وهذا أمر يعرفه الجميع"[3]. وقد اعتبر الرايخ، واحدا من المظاهر الخداعة للديمقراطية الحديثة و**تفسخا للدولة**، ورأى أنه كي تكون هنالك مؤسسات، فإنه لابد من توفر نوع من الغريزة والإرادة والأمر المضاد لليبرالية إلى درجة القسوة: إرادة خلق العادة والسلطة والمسؤولية، ممتدة عبر القرون، و**تضامن سلاسل** من الأجيال. وإذا حدث وأن وُجدت مثل هذه الإرادة، فإن شيئا مثل الإمبراطورية الرومانية قد أخذ يتأسس[4].

2 – التعليم الألماني: عقب تأليفه "شوبنهاور معلما"، ذكر نيتشه في اللاآنية الثانية أن التعليم في ألمانيا هو الأكثر تخلفا في زمنه وأرجع سبب عجزه عن إخراج ألمانيا من بربريتها إلى إفتقاره إلى الروح المحركة والمكونة للموسيقى وكذا إلى القوة المكوِّنة الوحيدة التي تنشأ حديثا ويصبح بمقدور رجالها أن يستفيدوا من القرون الماضية[5]. وكما نلاحظ فإنه يقصد شوبنهاور وفاغنر والإغريق، وسوف يعود لاحقا إلى هؤلاء الأخيرين لينتقد بشأنهم ما يسميه الألمان تعليما كلاسيكيا، حيث قال: "إهدار شبابنا حين يُرَسِّخُونَ فينا، بنفس القدر من عدم المهارة والبربرية، معرفةً غير كاملةٍ عن الإغريق والرومان وكذا عن لغتيهم، متصرفين بذلك ضد المبدأ الأعلى في كل ثقافة: بأنه لابد من إعطاء أُكْلَةً ما للذي **يجوع** إليها! حين فرضوا علينا، بالقوة، الرياضيات بدلا من أن يأخذونا إلى يأسِ الجهل أولا(...). ما الذي علمونا إياه بغير **الإحترام** أمام هذه العلوم؟(...) هل تعلمنا شيئا عما كان القدماء بالتحديد يعلمونه لشبابهم ؟ (...) السنة تلو الأخرى، لا شيء كان يبدو لي أكثر بداهة من أن العالم الإغريقي والقديم، اللذين اعتقدنا أننا نعرفهما واللذين يتجليان لنا بسهولة واضحة، جِدُّ صعبٍ فهمه"[6]. وقد انتهى في نقده، في تلك الفترة، إلى تقديم هذا الطرح: "تياران متضادان في الظاهر، وخيمان بالتساوي من حيث مفعولها ومجتمعين أخيرا من حيث نتائجهما، يهيمنان اليوم على مؤسساتنا التعليمية المبنية على أسس أخرى: فمن جهة، هناك التوجه إلى **توسيع الثقافة قدر الإمكان**، ومن جهة أخرى هناك الميل إلى **تصغيرها وإضعافها**.

---

1 Sur ANEE., 2e conférence
2 Cré.id.., Ce qui manque aux Allemands., 4
3 Idem
4 Cré. id., Divagation d'un « inactuel »., 39
5 RWB,5., p.123
6 A,195

وحسب التوجه الأول، وجب على الثقافة أن تُنْقَلَ إلى دوائر أوسع أكثر فأكثر، ووفق الثاني لابد للثقافة أن تتخلى عن أعلى نواياها وأن تَنْصَاعَ كخادمةٍ لشكل حياة آخر، يسمى بالدولة"[1]. لاحقا سيعاود نيتشه الحديث عن هاتين النقطتين:

- "لقد فقد التعليم العالي الألماني، في مجمله، ما هو مهم: أي **غايته** وكذا **وسيلة** بلوغ هذه الغاية. فلتكن التربية والثقافة العامة غاية في ذاتها- وليس "الرايخ"- وليكن "**المربي**" ضرورة لهذه الغاية (وليس أستاذ الثانوية أو المُطَّلِع الجامعي)، وهذا ما نسيناه...

إن ما ينقصنا هم مربون جرت **تربيتهم**، وعقول متميزة ومتفوقة، تبرهن على نفسها، في جميع الظروف بواسطة أقوالها وسكوتها(...) وليس العارفين الخشنين الذين تعرضهم الثانوية والجامعة على الشبيبة في شكل "مرضِّعَاتٍ ممتازة". إن المربين لَــ**نَاقِصُونَ**، إذا إستثنينا إستثناء الإستثناءات: هذا إذن **أول** شرط لأية تربية نفتقر إليها"[2].

- إلى جانب نقده للثقافة والدولة، سبقت الإشارة أيضا إلى نقده لتيار التاريخية في ألمانيا، والذي تذكَّرَه أيضا في سيرته الذاتية، فكتب يقول: "لم يفقد المؤرخون الألمان كلية كل رؤية **كبيرة** للمسيرة وقيم الثقافة ولم يصبحوا كلهم دمى السياسة (أو الكنيسة) فحسب، بل لقد رموا **بلعنتهم** على هذه الرؤية الكبيرة. يجب على المرء أن يكون أولا "ألمانيا" ومن "العرق"، وحينها يكون بمقدورنا أن نقرر بشأن كافة القيم ونقيضها **في التاريخ**، أي نحددها بأنفسنا ... فكلمة "ألماني" لوحدها حجة، "**ألمانيا، ألمانيا فوق الجميع**" مبدأ، والجرمان يمثلون "النظام الأخلاقي العام" في التاريخ(...). هناك طريقة ("ألمانية الرايخ") في كتابة التاريخ، وهناك أخرى، وأخشى ذلك، معادية للسامية- هناك كيفية في كتابة التاريخ **بتملق** والسيد فون تريتشكه E. Von Treitschke لا يخجل من ذلك"[3].

إذا أغفلنا هنا المقارنة الخفية بين "البناء الدائم" *aere perennius* اليهودي و**تضامن سلاسل** الأجيال، السالف ذكره، فإنه لابد من الإشارة هنا إلى أن اليهود ذاكرة ووثائق حية، عَمَلَ مؤرخوهم في ألمانيا نفسها على تمييز تاريخهم عن تاريخ الألمان، في زمن صعدت فيه وطنيتهم وحماسهم لها، ولا أتوقع أن يكون هذا خافيا على نيتشه.

---

1 Sur ANEE., préface
2 Cré.id.., Ce qui manque aux Allemands,5
3 EH., CW,2., p.161

خاتمـــة :

حين يمقت نيتشه–الإنسان حاضره وماضيه كله، باستثناء فترة وجيزة للغاية (إغريق ما قبل سقراط)، ولا يروقه من العزاء سوى ما يجده لدى اليسير من الفرديات (أمثال نابليون)، فلا مناص من أن يبحث عن وطن لأبنائه في المستقبل. غير أن نيتشه الذي خاض حربا ضد فكرة الشيء في ذاته ــ بغرض تنبيه العقل بأهمية مصدر محتواه (الجسد)، ودفعه لاكتشاف مدى إرتباط حالة الفاعل الفيزيولوجية والثقافية بما يفسره ــ لم يذهب بعيدا بوثباته ورقصاته وتحليقاته وبقيت عبارة "بمعزل عن خير وشر" أكثر ارتباطا بالماضي منها بالمستقبل، حتى ولو إنطوت على نية في "تكريم" الإنسان بترقيته إلى أعلى من حيوانيته، لأن إرادة القوة، التي توافق المستقبل في عمقها، خرجت من ملاحظته لماضي الشعوب، تماما مثلما خرجت منها الكلمات التي إستعملها في لغته بعدما رأى في كل واحدة منها فكرة مسبقة أو أكثر؛ ثم أليس كل ما نعرفه ونُعَرِّفُهُ مُنْقَضٍ ولا سبيل لنا لاسترجاعه، لإعادة إنتاج الشعور المرتبط به في البداية، ثانية فينا؟ أليس لهذا السبب بالذات مَجَّدَ نيتشه من أسماهم "صائغي الأسماء" les nomeurs ؟ أليس لهذا السبب أيضا ضَمَّنَ كلمات معروفة معاني جديدة: فصارت الحياة قيمةً والخلود، الذي يتساوى في الحالة الديونيزية بالنسيان واللحظة، عودةً أبديةً، والثورة قلباً للقيم، والصراع إختلافا وتدرجا والخطيئة مرضا...إلى أن صار يُفْهَمُ ممن يتلفظ عبارة: "لقد أصاب نيتشه فيما ذهب إليه" بأنه يريد أن يقول لنا بأنه "قلب القيم"؟ وهل قلب فعلا القيم؟، لأن حديثه مثلا عن أسبقية اليهود في قلبها عليه لا يجعل منه سوى من يعيدها إلى أصلها الأول والطبيعي؟ أليس ذلك القلب مجرد قلب للتفسير السببي، مع أخذ أرضيته التاريخية بعين الإعتبار (أي فيزيولوجيا وسيكولوجيا المفسر) ومن ثمة فهو لغة جديدة؟ بل أعمق من ذلك، ما الذي أضافه نيتشه بمثله الأعلى الجديد إن لم يكن حدا أقصى un *summum* من القوة؟ إن لم يكن إضافة إلى جميع مميزات السمو والرفعة التي إكتشفها في حاضره وماضيه؟ إن الفرق الجوهري بين الجنة، التي يعد بها الأنبياء مؤمنيهم، وعالم الإنسان المتفوق النيتشي، لَيَكْمُنُ في أن نيتشه يُعَلِّمُ فلاسفته الجدد كيف يُحققون ذلك العالم بإرادتهم وهم واقفون ولا ينتظرونه بالخنوع والخوف، وعليه ففلسفة التاريخ تبدأ عنده أيضا باكتشاف ما يربط الماضي بالحاضر، أما مآل الحياة لأن تضحى له في النهاية بمثابة لعبة النار عند هيراقليط، فلا يكشف لنا سوى عن مستويين أساسيين في تفكيره، يجدان تعبيرهما مثلا في:

1 ـ حديثه عن تحول الألماني إلى أوربي جيد un bon Européen بمجرد بلوغه الذروة، مما يؤدي إلى إذابةِ تاريخ الألمان لصالح مستقبل أوربا؛ غير أن كل ذلك كان في معظمه تعويضا عن خيبة أمله في ڤاغنر، والأمر كذلك أيضا بالنسبة لليهود، أين سيغيب حديثه عن حقدهم، عن"غياب" خاصية النسيان لدى هذا الشعب الذاكرة الحية، عن غياب السذاجة لديهم كشرط لكل تلقائية وطبيعية، عن إستفادتهم من الحضارة الغربية، رغم مشاركتهم فيها؟ كيف سيتصالح نيتشه، الذي يؤمن بالمصير،

مع اليهود الذين، رغم تحقيقهم لذلك المصير مع غيرهم، يمثلون إحدى قوى التاريخ الأكثر محافظة؟...؛ وفي النهاية سيتحدث نيتشه عن عرقٍ تجري تنقيته، عن الروح والثقافة... في نماذجه، وهي كلها أفكار خرجت منطقيا من بيولوجيته (أو طبيعويته naturisme) ووجدت أوضح تعبير لها في تطوريته وتدجينيته الخاصتين به، وإلا بِمَ نُفَسِّرُ مقابلته البقاء بالتفوق؟ ؛

2 ـ الطابع الإنساني في فلسفته، الذي يكمن فيه أساس وعمق فلسفته، أي ما أعطى المكانة الأولى فيها لما قبل التاريخ وعلم النفس وكل ماهو طبيعي. إننا لا نحتاج إلى التذكير بتخطيه الحواجز الثقافية لأجل تمجيده للمسلمين على حساب المسيحيين، لمقاربته بين نبي الإسلام وأفلاطون ثم إعتباره لنفسه الطفرة التي قادت إليها ذرى البشرية ومنها محمد نفسه، كما أننا لا نحتاج إلى تذكر عبارات من نوع "إنساني،إنساني للغاية"، "هو ذا الإنسان"، "هكذا تكلم زرادشت"، "إرادة القوة"...إلخ، لكي نؤكد على ذلك الطابع. ولكن بم نفسر ذلك؟

أ ـ بفلسفته في الفن، التي تعطي كلمات كالذوق والديونيزية والأرستقراطية...إلخ، معانيها الكاملة؛

ب ـ في إحدى عناصر إجابتنا على السؤال الجوهري في بحثنا، توصلنا إلى أن القوي عند نيتشه قريب جدا من الطبيعة ولذلك فهو يستشعر المستقبل مثلما تستشعر "قردة جبل طارق" الخطر المحدق بها؛ غير أن تفصيل هذا الأمر يدفعنا إلى التذكير بأهمية العبقرية في كل نظرة بعيدة وثاقبة ثم بنبالة نفس هذا الفيلسوف الأرستقراطي الذوق ــ الذي لم يصاحب سوى ذرى البشرية، من هيراقليط إلى غوته وشوبنهاور وفاغنر، والذي لا شيء يستفزه ويثير براكينه أكثر من رؤيته لمشهد الرداءة ــ والذي قدم لنا درسا مفاده أن "الشبعة" والوفرة والفيض هي أسس كل إبداع وإسراف وكل لعبة بناء وتهديم، وكل إنتقائية وشجاعة وديونيزية ...إلخ، ثم أليست هذه مجتمعة دعوة لــ "الشبعة" وتربية الإنسان على ما أخذ يفتقر إليه باستمرار: نبالة النفس؟ ألا يكشف لنا ذلك عما يربط النماذج الثقافية الثلاثة بالحضارة الأوربية، ومن ثمة بميلاد المأساة، وعما قاد نيتشه لأن يستعمل كلمات تنطوي على الوجود كله، كالحياة وإرادة القوة والعودة الأبدية وموت الإله والإنسان المتفوق...، أي ما يشرح لنا في نهاية المطاف حديثه عن إلغاء التضادية في الأشياء وإنقاذ الوحدة الطبيعية لكل موجود وقبل ذلك حديثه عن التعارض وقد رُفع إلى وحدة في تراجيديا*.

إن تعديل نيتشه عن مشروعه لتأليف "إرادة القوة" ليبين لنا، من الناحية الشكلية على الأقل، أنه واجه هو الآخر صعوبةَ غربلة ذلك العدد الهائل من الفقرات التي ألفها بنفسه ومن ثمة ليس من السهل علينا تقديم خاتمة ملمة بموضوع ضخم، غير أنه يمكننا إنهاؤها بالإشارة إلى:

ـ أعتقد أن نيتشه نجح عمليا في إثبات، ما فتئ يشير إليه من حين لآخر، بأن إيجاد الطريقة هي أهم شيء في كل بحث، وأعتقد أيضا أن جزءً هاما مما يسميه طريقة يكمن بالتحديد في المعرفة

---

* EH., NT,3., p.141 ; VP,I,LII,139

السيكولوجية التي بلغتها شتى فئات المفكرين الذين إطلع على أعمالهم. وقد قادته أرستقراطية ذوقه لأن يحاول الوقوف على الجانب الأكثر إلماما بمعرفة الإنسان في ثراء كل فكر متميز؛

ـ تنطوي فلسفة نيتشه على جانب بيداغوجي في غاية الأهمية، وأهم ما يمكننا تعلمه منه: طريقته في طرح الأسئلة بكل شجاعة وحرية وضرورة معرفة كل باحث في فلسفة التاريخ والحضارة بأربعة شعب معرفية أساسية: فقه اللغة والبيولوجيا وعلم النفس والفن؛

ـ قدم نيتشه لأول مرة فلسفة عملية تستند إلى التاريخ المعلمي كإمكانية لانطلاقة مستقبلية وكشرط لتحقيق نخبة تكسر المألوف وتصنع التاريخ: أي عقول حرة؛

ـ أدخل نيتشه عنصر المستقبل في فلسفة التاريخ وتمكن من خلال مقابلته التاريخي بما قبله من جعل علم النفس أساس كل فهم لكل تاريخ؛

ـ رفع نيتشه فلسفة التاريخ والحضارة، بما حققه من قفزات معتبرة في معرفة الإنسان، من خلال سيكولجية النماذج الثلاث، إلى مستوى لم تبلغه من قبل، حيث صارت المفاهيم المألوفة تنطوي على مضامين أضافها إليها، فضلا عن أنه يقدم لنا عمليا دروسا في تاريخ الإغريق واليهود والألمان وقد ضمَّنَهَا تفسيرات جديدة وأجوبة على تساؤلات طالما حاول الفلاسفة الإجابة عنها...إلخ.

ملحق(1)

"**إنتصار الديمقراطية:** لكي تتحصَّن، تحاول الآن كافة القوى السياسية إستغلال الخوف من الإشتراكية. بيد أنه في أقصى الحالات، فإن الديمقراطية وحدها يمكنها الإستفادة من حالة الأشياء هذه: لأن الأطراف في حاجة الآن إلى إطراء الـــ"شعب" ومنحه إستراحات وحريات من كل نوع، يتحول بموجبها الشعب إلى صاحب السلطة...، الإشتراكية باعتبارها مذهب تغير كيفية الحصول على الملكية: وإذا حصل يوما وأن تمكن ، بواسطة أغلبية برلماناته، من الإستحواذ على بُرغي الضرائب، فإنه سيهاجم بواسطة الضرائب ملكية رأس المال والتجارة الكبيرة والبورصة، ويخلق بذلك ببطء طبقة متوسطة سيكون من حقها نسيان الإشتراكية كمرضٍ تجاوزناه– النتيجة العملية لهذه الدمقرطة، الآخذة في التصاعد دائما، ستكون بالدرجة الأولى خلق إتحاد لشعوب أوربا سيشغل فيه كل بلد معين،ووفقا للفرص الجغرافية، وضعية كانطون ويحوز على حقوقه الخاصة: ومنذئذ لن تؤخذ الذكريات التاريخية للشعوب، كما وُجدت إلى الآن، بعين الإعتبار لأن معنى الورع الذي أحاط بهذه الذكريات سيُجتث تدريجيا رأسا على عقب تحت سلطة مبدأ الديمقراطية المتعطشة للتجديد والتجارب. وستجري التعديلات على الحدود، والتي ستكون ضرورية، بالكيفية التي تجعلها تخدم **حاجات** الكانطون الكبير وفي الوقت نفسه[حاجات] مجموع [دول] الفيديرالية ولكن ليس [لا تخدم] ذاكرةَ ماضٍ عجوز. إن إيجاد وجهات نظر هذا التعديل سيكون مهمة **ديبلوماسيو** المستقبل، الذين يجب عليهم أن يكونوا علماء وخبراء زراعيين ومتخصصين في معرفة وسائل الإتصال، على ألا توجد من ورائهم جيوش بل أسباب ذات منفعة عملية. وحينئذ فقط سترتبط السياسة **الخارجية**، بشكل لا إنفصام فيه، بالسياسة **الداخلية:** بينما لا تزال هذه الأخيرة تجري إلى الآن، وراء سيدتها المتفاخرة، ملتقطة في سلَّتِها المحزنة ما تبقى مما حصدته الأولى من سنابل."

المصدر : VO,292

ملحق(2)

ملاحظات حول مفهومي الثقافة والحضارة لدى الألمان والفرنسيين:

تتباين الترجمات الفرنسية في ما بينها حول ترجمة المفاهيم الألمانية Zivilisation ; Kulture ; Bildung* فضلا عن إستخدام نيتشه لكلمة culture الفرنسية في بعض فقراته، غير أن المترجمين الفرنسيين يتفقون على أن culture الفرنسية تقابلها Zivilisation الألمانية ، كما ترجموا Kulture بـــ culture أو بـــ Zivilisation ، التي تأخذ في بعض الأحيان معنى "تقدم".

نيتشه بدوره خلط كثيرا بين المفهومين واستعملهما معا وفي الفقرة الواحدة (في HTH,24 مثلا) رغم أنه يرى أن الحضارة تتناقض مع الثقافة، مثلما يدل على ذلك قوله: "ظلت الفترات الحضارية العظمى دائما فترات فساد أخلاقي، ومن جهة أخرى لم تكن فترات **الترويض** المراد أو المفروض (أو الـــ"ثقافة") للإنسان الحيوان غير متسامحة مع المخلوقات الأكثر جسارة، العقول الأكثر علوا، للـــ "ثقافة" غايات أخرى غير غايات الحضارة، وربما غايات مناقضة لها."[1]

وعموما، "فقط من يعيشون في قلق هم من **يطالبون** بالحضارة، لأنه في الحضارة يكون الضعفاء، الوقحون، الكسالى، الممنوعون، الناس العاديون، راضون. المساواة كهدف وأخيرا كحالة."[2] وذلك ما يعني أن الحضارة رمز لبلوغ الثقافة مستوى كبيرا لدرجة أن الراحة صارت ضرورة ملحة؛ وربما بهذا الأمر بالذات حاول نيتشه تفسير سقوط قرطاج أمام روما الأقل ثقافة منها حين رأى أن الحاجة إلى القوة صارت تُلَبَّى بواسطة التخيل بدلا من القوة الحقيقية[3].

لمعلومات إضافية، أنظر: R. Safranski., op.cit., p.307 ; E. Blondel : op.cit., p.65-71

* Bildung عنصر ثانوي نسبيا في culture (P. Wotling : Nietzsche et ..., op.cit., p.223)

1 VP,I,LII,521

2 FP 8 [47]

3 FP 4 [257]